

2005
2/5/12

لجنة التأليف والترجمة والنشر

اسباب الحرب والعاملية

بعد فاجعة سبرايفو

...

قلم

سيدني برادشو في

SIDNLY BRADSHAW IAY

اساد الارح الاورى الحدث سامعه هارفارد .

—

ملا عن الايليرنه

فجوات البراهيم الدسيو

الجزء الثاني

الاسباب المباشرة للحرب

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الاعتراف شارغوت لاكشمي

فهرس الكتاب

الجزء الثاني

الفصل الاول

صفحة	
٣	الغرانديوق فرانتس فرديناند
٧	فرانتس فرديناند والجيش
١٢	آراء فرانتس فرديناند السياسية
١٦	رواج فرانتس فرديناند
١٩	اجتماع كونويشت : الخرافة والواقع
٢٤	نزهة سيرا جيفو

٦ الفصل الثاني

٢٩	مؤامرة القتل
٣٢	افشاءات جديدة
٤٢	نارودنا أودرانا
٤٩	اليد السوداء
٥٢	الحركة الورية في الوسه
٥٩	اعداد المؤامرة في بلغراد
٦١	رحله القتل
٦٣	جريمة الاغتيال

الفصل الثالث

٦٧	تبعة جريمة سيرا جيفو
٦٧	بواعث القتل

٢٤٥	نصيحة ألمانيا للنمسا
٢٥٣	اعلان النمسا الحرب على صربيا
٢٥٧	برقيات ويللى ونيكى
٢٦١	ضغط يتيان على فينا

الفصل العاشر

٢٦٧	التعبئة الروسية
٢٦٩	اعلان باليلوج تأيد فرنسا
٢٧١	نبأ اعلان النمسا الحرب
٢٧٣	رضاء القيصر بالتعبئة العامة
٢٧٩	الغاء القيصر لأمر التعبئة العامة
٢٨٢	الأمر بالتعبئة الروسية العامة

الفصل الحادى عشر

٢٩١	التعبئة و اعلان الحرب
٢٩١	فرنسا والانسحاب عشرة كيلو مترات
٢٩٨	الأسطول البريطانى و انذار ألمانيا
٣٠٢	يتيان ومولتك
٣١٢	التعبئة النمساوية العامة
٣١٥	« الخطر المهدد بالحرب » فى ألمانيا
٣٢٠	التعبئة فى فرنسا وألمانيا
٣٢٣	انجلترا وبلجيكا

الفصل الثانى عشر

٣٣٢	الختام
-----	--------

أسباب الحرب العالميه

الفصل الأول

الغراندوق فرانتس فرديناند

الغراندوق فرانتس فرديناند الذى أصبح وريثاً لعرش النمسا عقب وفاة والده كارل لودفيج فى سنة ١٨٩٦، شخصية طلت فى الحياة وفى الممات من أغمض الشخصيات السياسية . حتى النمسيين أنفسهم كانت آراؤهم متضاربة فيما كانوا يفترضونه من أغراض أبى الهول هذا ونفوذهم . فكان الكثيرون منهم يعدونه زعيماً للعسكريين النمسيين تواقاً الى « حرب مانعة » ، يشهرها على ايطاليا أو صربيا ؛ وكان غيرهم يعتقد أن حظهم من النفوذ فى السياسة النمسية كان ضئيلاً ؛ وغير هؤلاء وأولئك نفر كانوا يذهبون حتى الى اعتباره من دعاة السلام . ومثل هذا التباين فى رأى يتناول نظرتهم الى السياسة الداخلية ، فقد كان الاعتقاد الشائع أنه يكره المجريين ويحب السلافيين حتى لقد نسب اليه أنه كان يعتزم تحويل الملكية بالاعتراف للقوميات السلافية بنفس الكيان السياسى الذى كان يستمتع به الألمان فى النمسا والمجريون فى المجر . ذلك أنهم كانوا يظنونه مجبداً لنظام اتحادى ثلاثى يحل فى الملكية محل النظام الثنائى . بيد أن الصربيين المتعصبين كانوا مع ذلك ييغضونه بغضاً أعمى ، إذ كانوا يعدونه عدواً لدوداً ومضطهداً نافذ الكلمة ، وينظرون اليه نظرتهم الى رجل يصح أن يقتل لمصلحة صربيا الكبرى . وعند ما كان قتلة سيرا جيفو يحاكمون فى شهر اكتوبر ١٩١٤ أعلن شابرينو فيتش ملقى القنبلة ، فى جلاء ، أن وريث العرش « كان رجل عمل . وقد علمت أن

فى البالبلاىس عصبه ترىء فءح صرىا ءسمى ءزب ءرب ىرؤسها ورىء
ءعرء فاعءءء أنى أنءقم منهم ءمىعا إء أنءقم منه . .

وأءء برنسىب الذى أءلق الرصاصاء المشؤومة قاءلانى ءءء ءانى لست
أسفا مءلقا على أنى أزلى عقىة من طرىقنا ، فءء كان ألمانىا ، وكان عءءوا
لسلافى الجنوب ، ءءلك الروسىون كانوا ىعءءونه عءءوا من ءسن ءظ
القصر أن ءلصءه ءرىمة سىراجىفو منه . . ولىست الصءف وءءءا بل
المءءمع أىضاً ءنت ءسمع فىه عن العراندوق القءىل أءكاما فى ءىر
مصلىءه مصءوبة بالقول بأن الروسىا ءءاصء بفءءه من عءء لءوء ، وهو
ما رءاه السفىر الألمانى فى بطرسبورء . أما امبراطور ألمانىا فءء علق من
ءهة أخرى على ءقرىر سفىره فى هامش من ءلك الهوامش الذى ءأن ىرب
فىها صراءة عن أفكاره وما ىقع فى نفسه باءى. الرأى قال « إن
العراندوق كان للروسىا ءىر صءىق فءء أراد أن ىبعء عصبه البراطرة ءلءاءة ،
على أن ءطل الرأى وءضاربها فى العراندوق وهو على قىء ءلءاءة
لم ىكن شىئا مءءورا الى ءانب ما ذاع عنه عقب وفاءه فءء قىل إنه كان ىءآمر
على ءلع عمه . وأنه كان ىعمل على ءفىءك المملكه ءلءاءة بالتواطؤ مع
الامبراطور ءلىوم على الاستىلاء على بولونىا والبءقىة وءاق ءولءىن ىءكمهما
ولءاء نهائىا ىنما ءضم النمسا ءرمانىة الى الامبراطورىة الألمانية مكافأة
للأمبراطور ءلىوم . وقء لمء ءلىءا ءامضا الى أن مىءة العراندوق المءزءة إنما
كانء ءءىر ضباط نمسوىىن أرادوا أن ىءولوا ءون ءءقىق هءه المشروءاء
المرىبة أو على الأقل أن ىلقوا ءبعة موءه على صرىا لءكون لهم ءءة
ىءرءون بها لأهلاء هءه المملكه المءاورة . وهنالك اشاءاء أخرى راءء
بأن مءءل العراندوق ىرءع الى أنه بصفه ءونه كاثولىءىا رومانىا كان ىضع
ءءاءىر لمهاءمة اىطالىا واءاءة السلطة الزمنىة الى البابا . وقء وقف ءائب
ألمانى ذائع الصىء نصف فصل من ءتاب لىءلل على أن الماسونىىن

الاسكوتلنديين قرروا موته واستخدموا لهذا الغرض محفل بلغراد الماسونى. أراجيف واشاعات متضاربة أين منها حقيقة هذا الرجل المستسر الذى كان موته بمثابة شرارة أضرمت النار فى أوروبا ؟

ولد فرانتس فرديناند أمير النمسا وإست فى ١٨ ديسمبر ١٨٦٣ وهو أكبر أولاد كارل لودفيج شقيق الإمبراطور فرنسوا جوزيف . ماتت أمه وهو طفل وكانت مصابة بالسل فعنيت به زوج أبيه بعد ذلك وكانت برتغالية ، وكانت بارة به ، ولم يكن فى صباه يظن أن سيكون حقا وريثا للعرش حتى مات رودلف ولى العهد فى مايرنج سنة ١٨٨٩ تلك الميتة الأليمة خلف فرانسو جوزيف بلاعقب ذكر . وفرانتس فرديناند إذ ذاك لم يدرب تدريباً خاصاً على أمور السياسة بل كان ككل الغراندوقات النمسيين فى الجيش يسير فى حياته سيرة عسكرية . ولم تكن صحته يوماً ما على ما يرام ولعل هذا لأن والدته أورتمته استعداداً للسل فكان هذا الاستعداد يهدده أحيانا حتى كان كثيراً ما ينفق أشهراً فى بريونى أو ميرامار على شواطئ الأدرياتيك الدافئة مما أثار اهتمامه بأن يكون للنمسا أسطول . وكان أحيانا أخرى ينتجع الصحة فى هواء سويسره الجاف فى دافوس أو يقوم برحلة حول الأرض تستغرق عشرة أشهر كما فعل فى ١٨٩٢ — ١٨٩٣ . وفى ربيع ١٩١٤ المشؤم كان هنالك من يتنبأون بأن الإمبراطور الفانى وهو فى الرابعة والثمانين قد يعمر ويموت ابن أخيه الذى جاوز الخمسين .

والظاهر أن توقعك فرانتس فرديناند الرثوى أثر بعض الشيء فى حياته وخلقه فلم يلطف مزاجه بل جعله يعتقد أن الأقدار لم تنصفه ، وقوى فيه الميل الى تجنب حياة المجتمع . وقد اشتد عليه المرض فعجل الكثيرون وخاصة المتصلون بالبلاط بهجره عيانا لما أن لاح لهم أنه من غير المتظر أن يرقى العرش ، فصعب هذا من خلقه ولم يكن بطبيعته دمثا ، وزاد من ارتياحه فى المحيطين به وازداد احتقارا لبني الانسان على وجه عام . . وقد كان سقمه

سبباً لأن يزداد تصميمه على التغلب على ما يصادفه من العقبات قوة على قوته ،
ولأن يعد نفسه لمهمة الحكم في أملاك هابسبورغ فتعلم لغات الأمم التي كان
ينتظر أن يحكمها يوماً وتلقى على العلماء العلم في فروع بعينها من المعرفة .
ومذبات للغراندوق أسرة يعنى بها أصبح ينفق جانباً كبيراً من كل سنة
في ضيعته في كونوبشت حيث أنشأ مزرعة تعد أنموذجاً في المزارع كانت
تدر عليه الخير الوفير . وهذا التصميم منه على أن يعيش ربما كان السبب
لبلوغه تلك الصحة القوية التي كان يستمتع بها في سنيه الأخيرة . لكنه لم
يقطع عن الابتعاد عن المجتمع وعن الجمهور . وفي الواقع أنه لم يكن له أصدقاء
حميمون ، ولم يحاول أن يكون له مثل هؤلاء الأصدقاء . وليس أدل على هذا
الاعتزال من ملاحظه أبداً مرة لكونرادفون هوتسندورف فقد كانا يتناقشان
في أي القواعد أنسب لترقية ضباط الجيش فقال رئيس هيئة أركان الحرب
إنه يميل إلى احسان الظن بالناس حتى يتبين له النقيض ، وأنه من ثم كان يتسرع
أحياناً في ترقية الضباط الجديدين . فرد عليه الغراندوق بقوله : إن آراءنا على
طرفي نقيض . فأنت ترى الجميع في مبدأ أمرهم ملائكة فلا تلبث أن تجرب
من ناحيتهم ما لا يسرك . أما أنا فأنظر إلى من أقابله أول مرة نظرتي إلى
شخص حقير وانتظر حتى أتبين منه ما يبرر إحسان الظن به ، وهذا من
الغراندوق غير خليق أن يجعل له أصدقاء ، وإليه يرجع بعض السبب في ذلك
القليل والقال المنطوي على العداء والوقية والذي كان يذاع من حوله وحول
زوجته في فينا ويملاً الأسماع حتى تسرب ولا بس كثيراً مما كان يقال عنه في
بلدان دول الوفاق . بيد أن الأصدقاء القليلين الذين اصطفاهم والذين كانوا
يروونه جالساً على الأرض يداعب أطفاله ككتبة سره وكالأمبراطور غليوم
كانوا يخلصون له ويتفانون في مودته .

فرانتس فرديناند والجيش

كان أهم ما عنى به فرانتس فرديناند فى الحياة بجانب ولعه بالصيد وجمع النفائس والاشتغال بالزراعة ، الجيش والبحرية وزوجه وأولاده . ففى سنة ١٩٠٦ أخذ يزداد نفوذه المباشر على الجيش بتعيين الصاغ بروش ياورا له وكان رجلا فطنا وضابطا قديرا تواقا الى الاستزادة من نفوذه ونفوذ الغراندوق فى الشئون العسكرية . وقد وفق بعد معارضة طويلة الى أن يصبح للغراندوق مجلس حربى خاص به يشبه مجلس الامبراطور . فبات من ذلك الحين كافة الوثائق العسكرية الهامة وتقارير الملحقين العسكريين تكتب من صور يتلقى منها فرانتس فرديناند واحدة فى نفس الوقت الذى يتلقى فيه الامبراطور نسخته ليصبح ابن الأخ والعم على علم واحد بتلك الشئون . وفى الواقع سرعان ما أصبح اشراكه الفعلى فى الاصلاحات والتنظيمات العسكرية أكثر من اشراك الامبراطور نفسه فاتسع مجلسه الحربى وأصبح بعد أن كان مؤلفا من اثنين يضم أربعة عشر شخصا — أى أقل من مجلس الامبراطور باثنين . وفى هذا دلالة على مبلغ نشاطه .

وكان فرانتس فرديناند يعتبر الجيش النمساوى 'لمجرى أداة سياسية قوية لها فى توحيد الصفوف ومناهضة العناصر العاملة على التفريق فى المملكة الثنائية مالها من شأن فى الدفاع عن هذه المملكة فى حالة قيام حرب مع دولة أجنبية . فكان يريد أن تكون لغة القيادة وهى الألمانية لغة على الأقل لكل الضباط على أن يكون الضباط الذين يقودون الايات غير ألمانية ملين باللغة التى يتكلمها من هم تحت إمرتهم من الجنود . وقد كان من أهم أغراضه أن يقوى الجيش ويزداد عدده . وهو غرض ترجع اليه عداوته للسياسيين المجرين الذين أبوا أن يوافقوا على الاعتمادات العسكرية التى طلبها وأصروا على أن تكون المجرية لغة القيادة فى النصف المجرى للجيش .

وأهم خطوة خطاها فرانتس فرديناند في مساعيه القوية لتحسين حال الجيش إصراره في سنة ١٩٠٦ على تعيين رئيس جديد لهيئة أركان الحرب . إذ كان الرئيس الى ذلك الحين رجلا يعده الخبراء غير لائق مطلقا للمركز الذي يشغله وقد كان الرئيس بك مع ذلك ضابطا شريفا مستقيما وشخصية سماء تستمتع بقسط من حب الشعب ، استبقاه الامبراطور رئيسا لهيئة أركان الحرب العامة أربعاً وعشرين سنة لما كان بينهما من ثقة ومودة متبادلة . ولم يكن أحد يجرؤ أن يلح في طلب احالته على المعاش حتى حثه فرانتس فرديناند على تعيين غيره فرضخ الامبراطور آخر الأمر وخلفه كونراد فون هوتزendorف في نوفمبر سنة ١٩٠٦ .

واتفق أن جاء تعيين كونراد في أكبر منصب في الجيش النمساوي في وقت حدث فيه تغيير في وزارة الخارجية إذ عين الارستقراطي الطموح البارون ايرتال محل البولوني الهباب الكونت جولوشوفسكي فدخلت بذلك سياسة النمسا في عهد جديد . وكان هذا العهد فاتحة نشاط في الشؤون الخارجية أكثر انطواء من غيره على الهدوء وعدم المبالاة . فقد تولى زمام الأمور رجال كانوا يحسون أن النمسا تفكك تدريجاً وانهم يجب ان يستميتوا في آخر لحظة في سبيل السعي لانعاش الجسم السياسي ببيت حياة تضيق وقوة جديدة فيه ، وبوقف عوامل الانحلال الناشئة من الاطماع الحادة التي تحدو القوميات المحكومة . وكان يقال إن النمسا تبلى كتركيا ، وأن هابسبورج لا السلطان العثماني هو الان رجل أوروبا المريض ، فكان كونراد وايرتال الطبيين للذين كان عليهما أن يجربا مع مريضهما مقويا يقيه الفناء ؛ لكن الطبيين كانا لسوء حظ الرجل المريض يختلفان أساسيا في الآراء ووصف الدواء ، وكان حظ كل منهما من حب الآخر قليلا كحظ الاخصائيين من حب بعضهم البعض إذ هم وقوف على رأس المريض .

لم يكن تعيين كونراد رئيسا لهيئة اركان الحرب — ذلك التعيين الذي

حض عليه وريث العرش وأقره الإمبراطور — أمرا مرضيا لفرنسوا جوزيف على الإطلاق فقد ألفى العاهل الشيخ نفسه مكرها من كونراد على أحداث تغييرات وادخال اصلاحات جمة في الجيش القديم الذى كان يفخر به كل الفخر لطول ما حارب على رأسه وكثرة ما قاده بنفسه . وقد جاء كونراد يحض على أن تكون مناورات الجيش أقرب الى حالة الحرب وأن يعجل بانتهاز الفرصة المدخول في « حرب مانعة » مع ايطاليا وصربيا . وكان كونراد إذ يحض على ذلك تحديه ثقة وثابة بالنفس حتى لاحظ الإمبراطور الشيخ عليه في عيد ميلاده سنة ١٩٠٦ ولم يكن قد انقضى شهر على تعيين كونراد : « انه منظم لا يقر له قرار ورجل تنقصه الخبرة . وهذا ظاهر في كل شئ » تتناوله يده التى لا تلوح لى مبشرة بالخير .

ولقد كان من شأن نفور الإمبراطور من النظام الجديد أن أخذ على مر الأيام يتعد عن الجيش الذى شب معه . وكان ذلك من الأشياء التى زادت الإمبراطور في سنيه الأخيرة وحدة على وحدته واكتسابا على اكتسابه وهو الذى لم يبلغ مبالغه منهما أحد من آل هابسبورغ . وكانت لكونراد سياسة في إدارة المناورات السنوية الكبرى « في ظروف مماثلة لحالة الحرب الفعلية » دون عناية بوضع الخطط وبلاغاية سوى تربية الضباط على الأقدام والاعتماد على النفس ، فعادت هذه السياسة في الغالب بأوخم العواقب إذ كان همه كله موجها الى الهجوم السريع يضطر الجنود الى الزحف الطويل فلا يلبثون أن تنهك قواهم ويتملكهم الأعياء فلا يصلون الى غرضهم الا وهم يلبثون ، مضطربين ، قد نال منهم التعب والجوع فليست فيهم حاسة يقظة حتى للمكهم وأمباطورهم . وقد كان فرانسوا جوزيف ينتقل في الميدان راكبا فيأخذ بصره منظر مئات من الجنود ملقين في الخنادق على امتداد الطريق مضنين من التعب أو يرى الفرسان والمدافع مبعثرة في ميادين سقطت فيها الخيل من فرط الأعياء . ولقد أثر في الإمبراطور الشيخ ذلك الذى رآه تأثيرا أليما

ولم يتمالك نفسه من التصريح بما يمضيه حين زار أمبراطور ألمانيا عام ١٩٠٩ واستعرض أحد آلاياته وهو يمر به في نظام تام . فقد التفت فرنسوا جوزيف الى أحد ضباطه وقال بحدة : « لماذا يستحيل عندنا مثل هذا ؟ » ولما هز الضابط كتفيه استطرد الأمبراطور في مرارة « أجل ، إن مثل هذا الاستعراض لا يمكن حتى أن أحلم به بعد إذ باتت الترينات المقلوبة ديدناً لنا » .

وفي الواقع لقد فرق كونراد بين الأمبراطور والجيش وكف فرانسوا جوزيف بعد سنة ١٩٠٩ عن الاهتمام بالمناورات التي كانت من مباحج حياته . وقد ترك ابن أخيه يمثله فيها ؛ وبهذه الصفة كان ذهاب فرانتس فرديناند الى سيرا جيفو عام ١٩١٤ ليحضر مناورات فيلقين من الجيش .

لقد كان من بين الأسباب التي جعلت علاقة الأمبراطور بوريث عرشه فائرة كونه هو الذي اختار كونراد وحصل على تعيينه ثم ظل بعد ذلك وثيق العلاقات به . كذلك كان هذا من بين الأسباب التي جعلت الاعتقاد عاما وخاصة بين أعداء النمسا بأن فرانتس فرديناند يشاطر كونراد آراءه العسكرية تلك الآراء التي كانت كونراد يسرف في إذاعتها بالأحاديث وينشرها في المقاهي . على أنه من الخطأ اعتبار فرانتس فرديناند من أنصار العسكرية النمسية أو انه كان يرى رأى رئيس أركان الحرب في المناورات المجهدة والحروب المانعة والسياسية الخارجية العدوانية . فإنه عمالا شك فيه أن الفرانديوق كان يستهجن تلك القسوة التي لا بست مناورات الجيش المضنية وأنه كان يستخدم نفوذه في تلطيفها . ولما اشتدت الأزمة بين النمسا وصربيا من جراء ضم البوسنة والهرسك وأخذ كل منهما يستعد للحرب كان وريث العرش إذ ذاك أكثر حيطة وحذرا فعارض العسكريين النمسيين الذين كانوا يجذبون الحرب العاجلة مع صربيا وهي ما كانت خليقة أن تجرهم الى محاربة الروسيا أيضاً .

ولما نشبت الحرب البلقانية الأولى وباتت العناصر العسكرية التي تعمل

للجامعة السلافية تهدد النمسا ، حض كونراد كعادته على مناقشة صربيا الحساب بصفة نهائية ولو حارب في سبيل ذلك روسيا . بيد أن فرانتس فرديناند عارض في ذلك كل المعارضة وأصر على تخفيض القوى النسوية محافظة دلي السلام . وقد قال للمهاجر الألماني العسكري إن حربا مع روسيا ، خرق لا يعادله خرق ، وأبدى له معارضته أيضا في محاربة صربيا وأنه يرى «شا كل النمسا الداخلية أجدر بالعناية من المشا كل الخارجية .

وعقب ذلك بشهر بعث فرانتس فرديناند سكرتيره الأمين الكولونل باردولف الى كونراد يحذره ويطلب اليه الكف عن التأثير في برشتولد لمصلحة الحرب . فجاء رد كونراد على ذلك دليلا على خطل الاعتقاد العام الذي كان مستفيضا بأن أمبراطور ألمانيا يظهر عدوان النمسا في البلقان . قال : « بودى لوتفادى الغراندوق من أن يكون لأمبراطور ألمانيا مثل هذا التأثير عليه . فقد منعنا في سنة ١٩٠٩ وهو يغل يدنا الآن أيضا وفي اعتقادى أن الألمان لا يكثرثون لمصالحنا ومع ذلك يتعين علينا أن نحسب حسابهم . إن ألمانيا تستخدمنا في هدوء بينما هى خير منا حالا من حيث مناعة جانبها من ناحية فرنسا التى هى أكبر ما تخشاه ، وستضحى بنا فى آخر الأمر »

ولما تحدثت صربيا والجبل الأسود الدول فى سنة ١٩١٣ برفضهما إحترام حدود البانيا التى أقرها مؤتمر لندن حض كونراد إذ ذاك على وجوب قيام النمسا بعمل حربى للدفاع عن البانيا . فابدى برشتولد ترددا فتحدث كونراد عندئذ الى فورجاخ « فوافقه فورجاخ على أن خير ما يفعل هو التدخل الحازم لكنه عديم الرجاء فى امكان تنفيذ ذلك ، فالأمبراطور ووريث عرشه معارضان وبرشتولد لن يضطرهما اليه . »

وعلى أن فرانتس فرديناند لم يكن يميل الى ايطاليا بل كان يكرها ، ويسىء الظن بنياتها كثيرا لأسباب منها نفاق الديبلوماسى الايطالية ، فقد أبى

أن يعضد كونراد في مجهوداته المتكررة التي كان يبذلها لشهر حرب مائعة على إيطاليا في سنة ١٩٠٧ م في ١٩١١ يوم كانت إيطاليا مشتبكة مع تركيا في قتال .

من ثم يتبين ان فرانتس فرديناند لم يكن ، كما ظن فيه ، من أنصار عسكري النمسا المغالين في الأقدام على الشر . فقد كانت هذه اسطورة انتشرت واستفاضت بعد أن وقعت الحرب بزمان طويل . وقد كتب البارون تسيلاس الذي عين في أثينا وزيرا مفوضا للنمسا في ديسمبر ١٩١٣ - والبارون مجرى حر الرأي - قال : « دعاني الغراندوق فرانتس فرديناند قبل سفرى يومين الى زيارته فباحثني إذ ذاك في الحالة الدولية بمذاخيرها . وقد لاح لي انه كعنه الامبراطور من دعاة السلام وانه يرغب في محالفة روسيا ، وهو يعتبر تحقيق أمانى سلافي الجنوب في حيز الملكية أمرا ممكنا فيما بعد . وينتقد سياسة تيزا التي تجعل تحسن العلاقات بصريا ورومانيا مستحيلا » . ولم يكن يبعد أن يستخدم فرانتس فرديناند نفوذه وساطته لكبح جماح كونراد وبرثولد في سياستهما الجنوبية التي أفضت الى الحرب العالمية لو أنه كان حيا في يولييه ١٩١٤

آراء فرانتس فرديناند السياسية

كان فرانتس فرديناند متفقا في الرأي مع عمه فيما يتعلق بالشئون الخارجية واعتبار المحالفة الثنائية مع المانيا حجر الزاوية في السياسة النمساوية . وهذه العقيدة كان يقويها احترامه الشخصي العظيم لغايوم الثاني الذي اكتسب وده بما أظهره من حكمة وكياسة حيال قرينة الغراندوق . وقد سعى فرانتس فرديناند لتقوية روابط الولاء والتحالف مع رومانيا وأثر في نفسه ونفس زوجته ما لقيه في زيارتهما للملك كارول وكارمن سلفا في يولييه ١٩٠٩ حين أعجبا ايما إعجاب ببساطة المعيشة التي كانت الاسرة الرومانية المالكية تعيشها

في قصرها الصيفي بسينايا ، وكانت تختلف كل الاختلاف عن جو الرسميات الجاف والبلاط الخاق في فينا . كذلك كان للود الخالص الذي أظهرته مملكة رومانيا حيال زوجته الكونتس حين دعته الى الركوب معها وقدمت لها الشاي في بيت قروي خلوي ، أثر طيب في نفسه حتى ظل يذكر هذه الزيارة طويلا ويعددها من أسعد الزيارات التي أداها في حياته .

ولم يكن ارتياب الغراندوق في نيات إيطاليا بالغا الى حد أن يرى من سداد الرأي كشف ما كان يظن من خيانتها للحالفة الثلاثية بحرب ماته . فهو على النقيض من ذلك أراد أن يبقى مع إيطاليا في سلام وأن يحافظ على العلاقات المتينة بها بقدر الامكان

• وكان فرانتس فرديناند يريد أن تكون العلاقات بالروسيا مدعمة بالتفاهم الودي . وكان يعجب بحكم الروسيا الاتوقراطي لأنه أوتوقراطي بطبعه حتى أخذت الحرب اليابانية الروسية وثورة سنة ١٩٠٥ الروسية تزعزعان عرش القيصر فتبددت أوهامه في ثبات نيغولا الثاني . أما الفرنسيون فكان يكرههم ، وعلى النقيض من ذلك احترامه لبريطانيا العظمى حتى لقد راجت الاشاعات يوما بانه قد يتزوج من البرنسيس ماري .

هذه هي الآراء التي نسبها الى فرانتس فرديناند فيما يتعلق بالشئون الخارجية أناس يعرفونه وليس ثمة ما يدعو الى الشك في صحتها .

أما آراؤه في مشاكل القوميات الداخلة في امبراطورية آل هابسبورج فلا يمكن الكلام عنها بمثل هذا اليقين . وقد كان اعتقاد اولئك الذين كانوا على اتصال وثيق به أمثال الصنغ بروش وسكرتيره الخاص نيكتش بول هو أنه لو كان الغراندوق جلس على العرش لكان أنقذ القوميات المضطهدة وحاول وضع نظام اتحادي ثلاثي للملكية محل النظام الثنائي . وهذا هو الرأي الذي أعربت عنه كافة تأييدات النمساويين والألمان للغراندوق فيما عدا صحيفة الفوسيشه تسايتونج .

وفرانس فرديناند وان كان محافظا في كثير من الاعتبارات فان بما لا شك فيه انه كانت له صفات خلقية تدل على أنه الرجل الذي كان خليقا أن ينظم المملكة من جديد . فهو لم يكن يرى المحافظة على سنة من السنن لمجرد أنها دامت زمنا طويلا . بل كان على النقيض من ذلك يتطلع الى المستقبل أكثر من رجوعه الى الماضي وكان يميل الى الاصلاح وفاقا للحديث أكثر من ميله إلى الاحتفاظ بالقديم . وكلما كانت له سلطة في شيء أظهر مقدرة في الأخذ بالحديث وادخال التحسين على ما يجسد من ترتيبات . وكان يعال صبره مع سكرتيره اذا لبث على مكتبه شيء أكثر من أربع وعشرين ساعة دون بت . وهو في هذا كله على النقيض من عمه الشيخ . فأن فرانسوا جوزيف كان « ملكا بعناية الله » ، وفاقا للتقاليد القديمة . حكم أو أراد ان يحكم بحكم رب البيت في ذويه . ومن اكبر اخطائه إصراره على ان يعالج بنفسه كل أمر دقيق . وقد بلغ من اشتغاله بهذه الشئون الصغيرة ان ذهنه لم يتسع لأدراك مصالح الامبراطورية الواسعة . وقد كان ميالا الى الماضي يعيش فيه أكثر من نزوعه الى المستقبل والتطلع اليه . وهذا دأب المسنين . وكان مغاليا في نزعته المحافظة مترددا في احداث اى تغيير في الأداة الهابسبورجية القديمة حتى بعد لفته الى مزايا الأخذ بالأساليب الحديثة .

كان فرانتس فرديناند أكثر من الامبراطور ادراكا للاستياء العنيف بين القوميات المحكومة في الامبراطورية . وكانت له مزية ذات قيمة عظيمة إذا تحلى بها حاكم ، وهى أنه كان على استعداد ورغبة في معرفة الحقائق مهما كانت مؤلمة . وعلى أنه كان عنيف المزاج فقد كان من يرتاب في أنه يحاول إخفاء الحقيقة عنه أكثر تعرضاً لغضبه ممن ينبئه بحقائق لا تسر . وكان معنيا بقراءة صحف المعارضة مما جعله تام الاطلاع على الشعور العام بين التشك والترانسلفانيين والكرواتين والصرب الذين تضمهم المملكة الثنائية ، مدركا الخطر الذى يأتى من ناحيتهم إذا لم يفعل شيئا يكتسب به رضاهم . وقد كان

استهجانته الشديد لسياسة الاضطهاد التي كان الحكام من الأعيان المجريين يحرون عليها في المجر، معروفاً مشهوراً، حتى أخذته الأحزاب المجرية والألمانية الكبيرة النفوذ بأنه يميل الى محاربة القوميات الصغيرة فجاء هذا التقرير منهم تنوياً بحكمته ورغبته في الإنصاف، على حين كان فرنسوا جوزيف يختلف عنه في هذا، فكان الامبراطور الشيخ نزوعاً الى الاجراءات الناقصة والتراخي. وقد استمسك الامبراطور نفسه بالتسوية النمساوية المجرية في ١٨٦٧ فلم يقبل تعديلها في حين كان فرانتس فرديناند يعتبر نظام الامبراطورية الثنائي غلطة أسيفه لأن التطبيق أظهر أن هذا النظام حول أعيان المجر سلطة واسعة. ومن ثم كان استعداداه لأن يستبدل بنظام ١٨٦٧ الثنائي نظاماً ثلاثياً بمجرد توليه العرش. فقد توفر على بحث مسألة تحويل النظام الدستوري، على قواعد اتحادية ودرس المقترحات التي قدمها كتاب نمسويون شهرون أمثال لاماش وتسنر وشتايناً كر واستمع باهتمام زائد الى آراء الاستاذ ز. و. برجس من جامعة كولومبيا في النظام الاتحادي الأمريكي وكان الاستاذ برجس قد لبى الدعوة الى العودة الى فينا لتقديم معلومات أخرى عن الموضوع وأوشك أن يبحر الى أوربا ليفعل ذلك لما أن بلغه خبر مقتل الغراندوق.

ومن الأدلة غير ذلك علي ما كان يتوهم فرانتس فرديناند من اصلاحات دستورية ترمي الى انتقاص سلطة الأعيان المجريين واكساب القوميات الصغيرة حقوقاً سياسية، مشروعات المقترحات المختلفة التي نشرت من أوراقه. غير ان الذي يتناوله الشك هو هل انتهى فرانتس فرديناند من بحثه الى قرار نهائي بالشكل الذي كان ينبغي ان يتخذه تحمير نظام الامبراطورية. كذلك من المسائل التي ستلبث طي التاريخ بلا جواب ما اذا كان فرانتس فرديناند يشرع في استبدال النظام الثلاثي بالنظام الثنائي لو كان تولى العرش، وهل لو كان تولى العرش وشرع في ذلك أ كان التوفيق يكون حليفه؟

اما الذي لا يتناوله الشك هو ان الجميع كانوا ينسبون اليه خططا واسعة

النطاق لاعادة تنظيم المملكة الثنائية وتقويتها . وقد كان الخوف مما كان يمكن ان يفعله عاملا من العوامل التي حلت بعض الصريين المتعصبين على تببيت اغتياله والتآمر على قتله . وهذا الخوف بعينه هو الذي جعل كثيرين من موظفي فينا وبودابست يتنفسون الصعداء حين علموا بنبا سيرا جيفو .

زواج فرانتس فرديناند

لقد كان لزواج الغراندوق تأثير في حياته من أشأم التأثيرات . فقد أشيع في فينا في أوائل السنوات العشر الأخيرة للقرن التاسع عشر أنه مهتم بالغراندوقة ماري كريستين كبرى بنات الغراندوق فريديك والغراندوقة ايزابلا إذ كان يتردد عليهم في برسبورج ويزورهم أحيانا مرتين في الاسبوع حتى جعل والدا الغراندوقة يمنيان نفسيهما بصيرورة ابنتهما أمراطورة يوما من الأيام . لكن فرانتس فرديناند كان في الحقيقة متيا بحب وصيفة من وصفات الأسرة هي الكونتس صوفيا خوتك ، وكانت امرأة جميلة فخورة بمشوقة ذات عينين براقين وخطوات متزنة . وكانت تنتمي الى أسرة تشيكية قديمة عضها الفقر بنابه . فظل حبهما سنة تقريبا طي الخفاء لا يشتبه بوجوده احد . فإذا غاب أحدهما عن الآخر تبادلواياه الرسائل كل اسبوع على يد ضابط أمين من ضباط الغراندوق . ثم حلت الكارثة ؛ إذ بينما الغراندوق عقب شوط تنس في برسبورج يبدل ثيابه نسي ساعته فذهب بها خادم الى الغراندوقة ايزابلا وإذا هي تفتح مخبأها طامعا في أن تجد صورة ابنتها وجدت صورة وصيفتها . وهنا يسع المرء أن يتصور شعور أم خابت آمالها ! فقد طردت الكونتس يلحقها العار وحتمت عليها مغادرة البيت في نفس الليلة .

وأخذت السنة السوء في عاصمة النمسا تلغ بشدة لكن فرانتس فرديناند بما عرف من عزمه وعناده أعلن أنه سيتزوج منها ، فعارضه جميع أقربائه من آل هابسبورج قائلين إنها ليست أميرة ولا هي تنتمي الى بيت مالك .

أما الإمبراطور الشيخ فرنسوا جوزيف فكان إعلان ابن أخيه عزمه هذا بمثابة ضربة مزعجة له ، وعار يشين أسرته . وكأنما جاءت هذه الصدمة قطرة أخيرة في كأس مرارته وأحزان عائلته ؛ فقد يما قتل أخوه مكسيمليان بالرصاص على جدار بالمكسيك وجنت زوجة مكسيمليان حزنا عليه ؛ وإبنة الوحيد رودلف قضى نحبه عنفا في ظروف تكتنفها الريب - لا يدري هل انتحر أو قتل ؛ وزوجته الإمبراطورة اليصابات قتلتها فوضى ايطالى في سنة ١٩٠٠ . ولويس أمير بفاريا ، ابن شقيق زوجته ، المعتوه ، خنق متعقبه وهو هارب من القيم عليه وهلك كلاهما غرقا في بحيرة شتارنبرجر ؛ وابن أخيه الأصغر أوتو شقيق فرانتس فرديناند قد سبب للإمبراطور الشيخ صدمات متتابعة وآذاه في شعوره بالكرامة والأخلاق الفاضلة بما يسلكه في حياته المتهتكة وبما اتتبه من مرض من جرائها ؛ والآن يصر وريثه على تحدى التقاليد الأوربية والآداب الأسبانية بزواجه من كوتس فقيرة لا يبعد أن تكون في دمها شائبة جنون . لقد سمع الإمبراطور يتمم : « أما كان ينبغي أن أعفى من هذا ؟ » لقد لبث فرنسوا جوزيف يعارض بتاتا في الزواج عدة أشهر ، لكنه لما رأى أن هذه المعارضة لا تزيد ابن أخيه إلا عنادا وأن فرانتس فرديناند ليكون أسرع الى النزول عن العرش منه الى التخلي عن المرأة التي يحبها ، وافق هذا الشيخ المستمسك بالتقاليد نهائيا على نوع من التراضى ، يقع بموجبه الزواج على أن يكون زواجا لا يكسب الزوجة أو أولادها حقاً في شيء ما سوى شرعية الزواج . وميلاد الاولاد . وقطع فرانتس فرديناند العهد على نفسه بذلك يوم ٢٨ يونيه ١٩٠٠ في حضرة الإمبراطور والغراندوقات وكبار رجال الحكومة وقت تسجيل إعلان الزواج .

وقد كان هذا التنازل سبباً لا يبتأسه ومرارته في الايام التالية إذ حرم أعز الناس لديه من الحقوق ومظاهر الشرف التي كانت ستصبح لهم لولا قيود القانون الاقطاعي والآداب الأسبانية ٢٨ يونيه ١٩٠٠ ياله من يوم مشؤم ! فانه

في يوم ٢٨ يونيه آخر لأربع عشرة سنة خلين جمع مسدس القائل الذي لم يميز بين ميلاد وآخر، بالموت بين مخلوقين ظلت على حياتهما الزوجية سحابة قائمة من ذلك العقد . ٢٨ يونيه ١ ولتسع عشرة سنة خلت من ذلك التاريخ على ذكرى تنازل الغراندوق أمضيت معاهدة فرساي التي سجلت النتائج المحزنة لتلك الحرب التي جاء موت الغراندوق مناسبة مباشرة لنشوبها !

ورفعت مرتبة السكوتس خوتك عقب الزواج إذ تفضل عليها فرانسوا جوزيف بلقب دوقه هوهنبرج ومع ذلك فقد كانت تعتبر من حيث مركزها أقل من أصغر دوقه فكانت لا تعرف للهنا طعما حتى لقد قيل إنها أسرت إلى صديق حميم قبل مونها بعام أنها قد ابتاعت العظمة بثمان غال ، وكثيراً ما كان أعضاء الأسرة الإمبراطورية يتعمدون تحقيرها بقسوة، حتى استفاضت الأحاديث بما كان يقع من مناظر عنيفة بين فرانتس فرديناند وأقربائه من جراء الاستخفافات التي كانت تلحق زوجه . وأخيراً ضاق وريث العرش ودوقه هوهنبرج ذرعاً بما كان يقع ، فأثرا الابتعاد عن مراسم البلاط بتاتا .

وعلى قدر امتعاض فرانتس فرديناند وتألمه مما كانت زوجته تلقى في فيينا من الاستخفاف والمقاطعة كان عرفانه بحميل الإمبراطور غليوم وموقفه الكريم حيالها . وهذا يفسر نوعاً ما تلك العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة بين إمبراطور الألمان والغراندوق بخاصة في السنوات التي سبقت الحرب . وقد أثر في نفس فرانتس فرديناند ما لقيه في برلين أثناء زيارته إياها لأول مرة ، وأسرّه الإمبراطور كما أسر كثيرين غيره بلطفه ومبالغته في ارضائه ؛ وقد قضى معه الإمبراطور في شهر نوفمبر سنة ١٩٠٨ يومين كاملين يصطادان في إيكارتساو على نهر الدانوب فازدادت صلاتهما متانة . ودعى الغراندوق إلى بوتسدام بعد ذلك بعام وكانت الدعوة له ولدوقه هوهنبرج على السواء ، فقبلت هناك بكل المظاهر اللائقة بدوقه ، ولقيت هي وزوجها من لباقة القيصر وكياسته ما ظهرت معه آداب فينا المنطوية على الضغينة على طرفي نقيض .

فقد كانت دوقة هوهنبرج في ولائم عشاء البلاط النمسوى ترغم على الجلوس في أسفل المائدة بعيدة جدا عن زوجها ودون الدوقات النمسيات جميعا، أما في بوتسدام فكانت الولائم تبسط على موائد صغيرة عديدة تفاديا من اقامتها على مائدة واحدة طويلة فيجلس دون الدوقة من هم أسمى منها مقاما . وهكذا كان امبراطور المانيا وامبراطوريتها يجلسان مع الغراندوق وزوجه على مائدة ويجلس بقية الضيوف على مائدة بمائلة لها . وبهذه الطريقة لم تكن تخلق سوابق أو يمكن ان يقال ان البلاط الالمانى قدم الدوقة على أية من أميرات البيت المالك . ولم يفت امبراطور المانيا في زيارته التي تلت لفينا أن يزور دوقه هوهنبرج شخصيا وأن يظهر نحوها كل احترام . فمثل هذا المسلك كان من شأنه أن يفعم قلب الغراندوق بالشكر وأن يجعل العلاقات بين الرجلين أحدهما بالآخر أ لزممتانة وزياراتهما أكثر وقوعا . فكان كلما ذهب الامبراطور الى كورفو عنى الغراندوق بملاقاته وحشد الاسطول النمسوى لتحيته او دعاه لزيارته في بريوني او ميرمار . وقد حدث مرة عند تبادل هذه الزيارات ان دعى الامبراطور الى فيللافانتس فرديناند الجميلة في كونوبشت من أعمال بوهيميا في ١٢ يونية سنة ١٩١٤ .

اجتماع كونوبشت : الخرافة والواقع

كان اجتماع كونوبشت في رواية الصحف النمسوية الرسمية مسألة شخصية القصد منها أن يرى الامبراطور ورد الغراندوق العجيب في أوج نضرتة . وكانت فلاحه البساتين والجنائن من بين الأشياء التي ولع بها الغراندوق في الواقع فإنه لما اشترى ضيعة كونوبشت في سنة ١٨٨٦ وقف تفكيره عليها سنوات وأنفق في سبيلها مبالغ طائلة ريع لها خدمه حتى جعلها روضة من أبدع رياض أوروبا . وكان فرانتس فرديناند يعرف في كونوبشت كل شجرة

وكل دغل. وكانت حياض الازهار ترتب وفاق أوامره بالضبط؛ أما الورد فكان متعته الخاصة وكانت العناية به ولعه الخاص. ولما كان الاميرال فون تربتس قد غلب يوم الى كونوبشت وجاءها برشتولد وزير الخارجية النمساوية عقب مغادرة صلب الامبراطور اياها يوم فقد ارتابت بعض الصحف على الاثر في هذا الاجتماع فجعلت تزعم أنه كان لشئون أهم من مجرد رؤية الورد. ولم تنقض بضعة أسابيع على مقتل الغراندوق والحوادث الخفية المتصلة بموته ودفنه حتى راجت الاشاعات متلاحقة متضاربة عن وجود « ميثاق » تمت المؤامرة عليه في كونوبشت وكان سببا للحرب العالمية. لذلك كان من الخير أن نحاول اكتناه امر هذا الاجتماع وإن نعالج الاشاعات التي راجت من حوله.

ذكر المستر ويكهام ستيد مكاتب التيمس اللندني الذي استند في روايته الى مبلغ لم يذكر اسمه لكن « من شأن مركزه وسوابقه أن تدعو الى تمحيص أقواله أن امبراطور المانيا بأظهار التفاته نحو زوج الغراندوق فرانتس فرديناند كان يعمل على كسب مودة فرديناند وحسن ظنه في سبيل أغراض سياسية ظهرت آثارها في ميثاق كونوبشت. وقد أراد المستر ستيد حملنا على أن نصدق « أن امبراطور المانيا نشر أمام الغراندوق فرانتس فرديناند أفقا نفخا وبسط لعينه خطة عظيمة تعده في الحاضر بمملكتين واسعتين في شرق أوروبا ووسطها لولديه مكسميليان وارنست، ولتحقيق ذلك اتفق على أن تثار الروسية الى حرب تدخلها المانيا والنمسا مستعدين، وتضرب فرنسا بضغ ضربات قوية تبدلها من قوتها ضعفا وذلك دون أن يخشى جانب انجلترا إذ حيدتها أمر مؤكد. ونتيجة حرب كهذه هي تخيير وجه أوروبا فتعاد ملكة بولونيا القديمة ومعها ليتوانيا وأوكرانيا من بحر البلطيق الى البحر الأسود وتكون ميراثا لفرانتس فرديناند تنتقل بعده الى أكبر أولاده. أما أصغر أولاده فيخص تحت ارشاد والده بمملكة جديدة تتألف من بوهيميا والمجر ويوجوسلافيا وتتضمن صربيا ودماسيا وسالونيك. تلقاء ذلك رأى فرانتس فرديناند، على رواية مستر ستيد -

نفسه حيال تيجان عظيمة معروضة على ولديه وألفت صوفيا خوتك نفسها أما الملوك . أما الامبراطور غليوم فكان عليه أن يقدم لدولة بولنده الجديدة جزءا من بوزن وأن يعرض نفسه من ذلك دولة جديدة تتألف من النمسا الألمانية وتريستا تدخل ضمن الامبراطورية الألمانية ويحكمها في دائرتها الغراندوق شارل فرنسوا جوزيف ابن أخى فرانتس فرديناند ، وبذا تحصل ألمانيا على منفذ مشتهى الى بحر الأدرياتيك وتتسع بما تضمه الى نفسها من دولة جديدة تعادل بفاريا في أهميتها . هذا الى محالفة عسكرية اقتصادية تعقد بين امبراطورية ألمانيا المكبرة وملكة بولنده المعادة ودولة بوهيميا والمجر ويوجوسلافيا الجديدة . فتصبح ألمانيا بمثابة الحكم الفصل في أوروبا تشرف على البلقان وعلى طريق الشرق .

هذا ما يقول المستر ويكهام ستيد إنه شروط الاتفاق . وهو يظن أن خبره اتصل بالأسرة الامبراطورية النمساوية وان في هذا تفسيراً للطريقة المزرية التي دفن بها فرانتس فرديناند وزوجه دون احتفال بعد مقتلهما في سراجيفو . وهو يشير من طرف خفي الى أن البلاط النمساوى مثقل بالاشتراك في جريمة القتل ثم يذهب في المبالغة أو التشهير بطائفة من الظروف على نحو صحفى مثير ليعتقد القارىء بأن مقتل الغراندوق انما كان بتواطؤ موظفين نمساويين ، وأن صربيا غير مسئولة بحال من الأحوال .

وبعد أن وصف المستر ستيد حقارة الترتيبات التي عملت لدفن الزوجين القتيلين ذهب في الاتهام الى القول بأن المعلن أولا كان « أن امبراطور ألمانيا سيسير في الجنازة لكنه في ٢ يولييه أعلن في برلين أن انحرافاً خفيفاً ألم بالامبراطور جعله يعدل عن السفر الى فينا ، مع أنه كان يستقبل في ذلك اليوم كالمعتاد . » يشير ضمناً الى أن فينا بعثت الى امبراطور ألمانيا وبقية الملوك تصرفهم عن حضور الجنازة والى أن هذا دليل جديد على أن موت الغراندوق كان بفعل موظفين نمساويين لأنه كان يدبر في كونوبشت تقسيم أراضي هابسبورج ليقدم

الى ولديه تيجانا . والواقع أن عدم حضور الامبراطور الجنازة لم يكن امثالا
لآية ايماء من جانب ولاية الامور في فينا بزعم أن هؤلاء أرادوا أن يحرموا
الغراندوق وزوجه من مظاهر الشرف حتى بعد موته . انما كان تخلفه عن
الذهاب الى فينا لأن القنصل الألماني في سيرا جيفو بعث يحذر بأن الصريين
قد يعتدون على حياته ولأن المستشار الامبراطوري أبي أن يحمل تبعة السماح
للإمبراطور بالمخاطرة بحياته بالذهاب الى فينا؛ الأمر الذي ذكره يتمان هلفيج
في تلغرافه الى السفير الألماني في فينا بتاريخ ٢ يولييه وهو الذي كلفه فيه أن
يعلن أن السبب في تخلف الامبراطور غليوم هو انحراف صحته قليلا، أما
السبب الحقيقي فيبلغه للإمبراطور فرنسوا جوزيف وحده .

كذلك كل الظروف الأخرى التي بنى عليها المستر ستيد نظرية تواطؤ
النساء سنوضحها فيما يلي بكل بساطة وبما لا يخرج عن الأمور الطبيعية ونورد
لك أسبابها التي تختلف كل الاختلاف عن المسألة المتقدمة وتقل عنها إثارة
للعواطف .

فالواقع أنه ليس هنالك أي ظل من دليل على أن الغراندوق كان يتآمر
في كونوبشت أو أن موظفين نمسويين تآمروا على حياته .

ومن حسن حظ الحقيقة أن قد نشرت أخيراً وثائق تروى ما وقع في
كونوبشت رواية دقيقة جدية بالتصديق وتجعل جميع الباحثين الجادين يرون
في نظرية المستر ستيد الغريبة مجرد دعاية من دعايات الحرب . وإحدى هذه
الوثائق تقرير رسمي كان البارون ترويتلر الوزير الذي كان يرافق غليوم الثاني
في كونوبشت قد بعثه الى وزارة الخارجية الألمانية في اليوم التالي للمقابلة .
وهذا التقرير يسرد المحادثات التي دارت بين غليوم الثاني وفرانتس فرديناند
سرداً وافياً . فقد تناولا أولاً حالة البلقان بمناسبة برقية مزعجة كانت قد وردت
من أثينا وجاء فيها أن اليونانيين دعوا الاحتياطي البحري لأنهم كما أشيع إذ
ذاك عنهم كانوا يبيتون اعتداءً على تركيا . وقد اتفق فرانتس فرديناند وضيغه

على أن يحسب نبض كارول ملك رومانيا ليريا هل يستخدم نفوذه لمصلحة السلام والمحافظة على الحالة الراهنة كما عيبتها معاهدة بوخارست وأعرب كلاهما عن كراهيته لفرديناند ملك بلغاريا واسترسل فرانتس فرديناند يبدى شكوكه وإرتيابه في نيات إيطاليا وخاصة حيال ألبانيا . وقد اجتهد أمبراطور ألمانيا في تبديد شكوكه وأمل أنه حين يجتمع فرانتس فرديناند بملك إيطاليا في المناورات الألمانية المعتاد إجراؤها في أواخر السنة ، تتاح فرصة لتحسين العلاقات الشخصية الودية بين فيكتور عمانوئيل ووريث عرش هابسبورج وكان الموضوع الأساسي في محادثات كونوبشت هو نفس الموضوع الذي دار في فيينا قبل ذلك بثلاثة أشهر بين غليوم الثاني وفرنسوا جوزيف - أى يتناول سياسة النمسا الداخلية بمناسبة المعاملة التي كان الرومانيون في ترانسلفانيا يلقونها على يدي « تيزا » وتأثيرها الخطر في الشعور العام في مملكة رومانيا . وكان كلاهما يستهجن هذه المعاملة ويرى غليوم الثاني أنها خليقة بأن تعرض المحالفة الثلاثية للخطر .

أما اصطحاب أمبراطور ألمانيا للأميرال فون تربتس الى كونوبشت فأمر سبب في الواقع بضع ملاحظات وساعد على نشر تلك الأسطورة القائلة بأن أمورا عظيمة كانت تدبر هناك . غير أن حضور تربتس الى كونوبشت يفسره تفسيراً كافياً ما أكدته وزير خارجية ألمانيا فون - ياجو أخيراً من اهتمام الغراندوق بإنشاء البحرية النمساوية وإعادة تنظيمها . كذلك يمكن أن يفسره ما كان يساور أمبراطور ألمانيا ووزارة الخارجية الألمانية من القلق العظيم بسبب الإشاعات التي راجت إذ ذاك عن وجود اتفاق بحري بين روسيا وإنجلترا وهو ما كان بالفعل تدور عليه المناقشة في ذلك الحين . فقد كانت فرنسا والروسيا قد عززتا الاتفاق الحربي الخاص بالمحالفة الثنائية باتفاق بحري مماثل له في ربيع سنة ١٩١٢ . وفي نوفمبر من تلك السنة حصلت فرنسا من السير إدوارد غراي على وعد كتابي بأن يواصل الخبراء البحريون والعسكريون

الفرنسيون والانجليز مشاوراتهم توقعاً لأمكان نشوب حرب . فوضعت البحرية البريطانية والفرنسية ترتيباً جديداً جعل الفرنسيين يزدون قواهم في البحر الأبيض المتوسط لحماية المصالح البريطانية والفرنسية في تلك المنطقة ، كما جعل الانجليز من ناحيتهم يركزون أسطولهم في بحر الشمال لحماية شاطئ فرنسا الشمالي من اعتداء ألمانيا . وأخيراً في سنة ١٩١٤ اجتهد بوانكاريه وايزفولسكي وسازونوف في اتخاذ التدابير لعقد اتفاق بحري بين انجلترا والروسيا يجمع بين القوى البحرية للوفاق الثلاثي ويوجهها ضد ألمانيا . فمن الطبيعي أن يتوق الامبراطور الى مشاورة فرانتس فرديناند في شأن هذه المفاوضات وفي الوسائل التي تدفع ما كانايريانه « تطويقاً ، بحرياً ، إن أمكن . ولعل أهم نتيجة لاجتماع كونوبشت مع ذلك هي التأثير الذي تركته هذه المقابلة في نفسية الامبراطور . ومن ثم كان لمقتل الغراندوق أشد وقع على طبيعته الوثابة السريعة الانفعال بخاصة وهو يرى أن الذي ذهب ضحية الجريمة صديق كان لبضعة أيام خلت يزوره في بيته تلك الزيارة المنطوية على المودة الخالصة . وقد جاءت طلقات مسدس سيرا جيفو على أثر مشهد الورد في كونوبشت فكان هذا أدعى الى أن يتعاضم في نفسه الرعب الذي كان يملكه من كل إرهاب . وهكذا أصبح يتمثل صرياً مغارة للقتلة فلم يتردد في إطلاق يد الكونت برشتولد في اتخاذ أية اجراءات تراها فينا مناسبة مع صرياً . وهذا منه عمل خلو من الحكمة وهو الذي كان الى ما قبل الحادثة يصد النمسا عن اتيان عمل ما ضد صرياً ينطوى على التسرع .

نزهة سيرا جيفو

قبل ذهاب الغراندوق الى البوسنة وسيرا جيفو في يونيه سنة ١٩١٤ يبضعة أشهر استقر الرأي على أن يقوم فرانتس فرديناند بتلك النزهة المشثومة إذ حادث كونراد في شأنها أثناء مناورات الجيش النمساوي في بوهيميا وبحثافي

في فينامع حاكم البوسنة الجنرال بوتوريك عقب ذلك . وقد قال هذا الجنرال إن الغراندوق كان يقصد من زيارة البوسنة باعتباره وريثا للعرش الى حضور مناورات الفيلقين الخامس عشر والسادس عشر واتهاز هذه الفرصة لأحضار قرينته معه . وهذا الحديث يدل على الغرض الثلاثي من هذه الزيارة و يفسر التفاصيل المتعلقة بها والتي كانت الى حد ما تخالف المعتاد .

فقد كان من المرغوب فيه جدا من الوجهة السياسية أن يظهر عضو من الأسرة الامبراطورية في الاقليمين اللذين كانا قد ضما قبل ذلك الحين بزمان وجيز . فإنه لم يكن خيرا من تلك الزيارات الرسمية التي يقوم بها أمراء منبها لشعور الولاء ومقويا إياه في أنفس فلاحى أوروبا البسطاء الذين كانوا الى ما قبل الحرب العالمية يكونون للبلدية احتراماً عميقاً ومحسون نحو حاكمهم ولاءاً توارثوا الشعور به على مر الايام . والفلاح البسيط يعشق مظاهر الامارة ويحب أن يرى حاكمه وأن يجد فيه انسانا من لحم ودم مثله يمشى ويركب ويأكل ثلاث أكلات مريثة كل يوم . ومجرد سماعه إياه يتكلم كأن خليقا أن يجد الآصرة البشرية التي تجعلهم مشتركين في التفاهم والمصالح . وقد كان هذا في التاريخ هكذا منذ هنرى الرابع وفريدريك الاكبر في الماضى والبرنس أوف ويلز في الوقت الحاضر . وبهذه المثابة زار فرنسوا جوزيف البوسنة في سنة ١٩١٠ وقد حض البارون موسولين في سنة ١٩١٣ على أن يظهر فرانتس فرديناند في كرواتيا ليزداد أهلها معرفة به ، وأن يقوم هناك أعضاء أسرة هابسبورج بزيارات طويلة ليحبطوا بزياراتهم دعاية المهيجين السياسيين بين الفلاحين الموالين وقد يكون لهذا رأى بعض العلاقة بما قرره الغراندوق بعد ذلك من زيارة البوسنة والهرسك . فان هذه الزيارة كان يراد بها تقوية العناصر الرومانية الكاثوليكية وغيرها من العناصر الموالية وإفساد الدعاية الثورية التي كان اليوجر سلافيون يقومون بها والهباج الذي كان الصربيون يبثونه في سبيل انشاء دولة صربية كبرى . وهذه هي الناحية السياسية لهذه الزهرة وهي تفسر بعض

الشيء السبب الذي من اجله لم يشأ فراتس فرديناند أن يكون في ركابه حرس كثيرون من الجنود ورجال البوليس لحمايته بل آثر أن يركب حيث شاء على حرите وفي سيارة مكشوفة . وقد استاء في سنة ١٩٠٩ عند ما اخترق المجر لزيارة الملك كارول من الطريقة التي اتبعها ولاية الأمور المدنيون إذ ضربوا نطاقا من البوليس حول محطات السكك الحديدية وابتعدوا عنه جموع الفلاحين الذين أتوا لتلويح قبعاتهم ومناديلهم تحية للغراندوق وزوجه .

وقد كان الغرض الأساسي لهذه النزهة مع ذلك هو أن يحضر الغراندوق مناورات الفيلقين الخامس عشر والسادس عشر اللذين كانا معسكرين في البوسنة . وهو باعتباره مفتشا عاما للجيش كان ينوب عن الإمبراطور في مثل هذه المناورات في السنوات الأخيرة . وقد اعتاد الكتاب المعادون للنمسا أن يعتبروا هذه المناورات « نوعا من التجربة لعمليات حرية مقبلة ضد صربيا » . ويقول المستر جوفانوفتش وزير صربيا في فينا « لقد كانت الخطة ان تجرى المناورات في الإقليم الواقع بين سيرا جيفو ورومانيجه وهان ييزاك (شرق سيرا جيفو) أي قبالة الحدود الصربية . وهذه المناورات بالخطة التي وضعت بها كان يراد بها صربيا بطبيعة الحال ... وكان مقدرنا ان تجرى على الدرين في البوسنة تجاه صربيا » وهذه تأكيدات لا ظل فيها للحقيقة . فان مقتضيات الحرب مع صربيا كان قد نص عليها بطريقة تختلف عن هذه الطريقة في خطة كونراد الموسومة بالتعبئة « ب » ، (والمقصود باللقان) . وهذه الخطة لم تكن تشتمل على فيلقين مرابطين بانتظام في البوسنة بل على خمسة فيالق غيرهما يؤلف مجموعها نصف الجيش بأسرها . وكانت ترمى الى هجوم مباشر على الدرين القائم حدا فاصلا بين البوسنة وصربيا . وقد وضع هذه الخطة بخذا فيرها كونراد وهيئة أركان حربيه وكانت ككل خطط هيئات أركان الحرب الخاصة بالتعبئة في كل البلدان جاهزة ينتفع بها عند الحاجة . لكن مناورات البوسنة التي كان الغراندوق سيتفقدتها

كانت تتألف من فيلقين فقط ولم تكن سوى جزء من التدريب المعتاد . فلم تكن لها علاقة بأية استعدادات حربية ظاهرة بل كان الغرض الاساسى منها تمرين قوى كثيرة تتنقل فى أرض وعرة متباينة . كذلك لم تكن المناورات لتجرى فى رومانيجه شرقى سيرا جيفو على الدرين ، قبالة صربيا بالضبط ، كما يقول المسيو جوفانوفتش . فقد جرت هذه المناورات على النقيض من ذلك على بعد ٣٠ كيلو متراً من جنوب سيرا جيفو الغربى فى إقليم تارسين . ولم يكن يراد بها بحال من الأحوال أى اعتداء نظرى على صربيا بل كان يقصد بها على العكس من ذلك الى حماية سيرا جيفو من الاعتداء عليها من الغرب من ناحية الادرياتيک . وقد كان قصد الغراندوق من السفر الى سيرا جيفو عن طريق فيومه وبحر الادرياتيک ثم ركوب السكة الحديدية عن طريق ميتكوفيك وموستار أن يعرف المنطقة المواجهة للبوسنة بعيدا عن صربيا بقدر الامكان . وقد كانت زوجته مضطرة الى قطع الطريق كله من فينا بالسكة الحديدية عن طريق بودابست ولم تلتق به الا فى إلزرة على مقربة من سيرا جيفو . والظاهر أن الامبراطور لم يعارض بالمرّة فى اشتراكها فى تلك النزهة عند ما عرض عليه الغراندوق المسألة فى ٤ يونيه . ويلوح أن الغراندوق شرع فى هذه النزهة شعوراً منه بالواجب أكثر منه رغبة فى انتهاز الفرصة لكى تستقبل زوجته الى جانبه بالمظاهر الملكية . وقد كان يشك فى الاسابيع الأخيرة فى إمكان ذهابه بالمرّة مراعاة لصحته ونظرا لحرارة الجو . وقد بحث المسألة مع الامبراطور فقال له : « افعل ما بدا لك ، وأبدى سكرتيره الخاص ملاحظات دلت على أن فرانتس فرديناند لم يكن متحمساً للرحلة ، وقال « إن القول بأن الغراندوق أراد من نزهته الى البوسنة أن يكون سفره محرّطا بمظاهر الفخفخة محض اختلاق . »

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيه وكان يوم جمعه ركب فرانتس فرديناند وقرينته فى عصره الى سيرا جيفو عقب عودته من مناورات اليوم ،

لشراء بعض الأشياء من أسواقها . وكان فرديناند عصر ذلك اليوم مرتدياً بذلته الرسمية فعرفه الجمهور أينما مر به وهتف له هتافاً يدل على الولاء . وقد ازدحم الطريق بالناس ازدحاماً تعذر معه على الضباط المراققين له أن يفسحوه له من حانوت لآخر . فلو أنه كانت هنالك « عصابة من القتلة » ، تترصد للقضاء عليه ، لكانت الفرصة إذ ذاك سانحة ليس أصلح منها . لكن الزيارة انقضت بسلام وعاد الغراندوق وقرينته الى إزره مسرورين من المدينة ومن الأسلوب الذى استقبلا به .

وفى صباح الأحد أبرق الغراندوق الى أطفاله فى كلومتر يقول « إن بابا وماما بخير وإنهما ينتظران رؤيتهم ثانية يوم الثلاثاء » ، وكانت هذه البرقية آخر ما كتب .

الفصل الثاني

مؤامرة القتل

إن السبب المباشر للحرب العالمية هو مقتل الغراندوق النمساوي في سيرا جيفو، فلو أن هذه الجريمة لم تقع لما كان في صيف سنة ١٩١٤ حرب نمسوية صربية أو حرب عالمية. فانه على الرغم من التوتر الذي كان يزداد على مر الأيام بين المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثي كان الراجح ان تنجح الدبلوماسية الأوربية في الحيلولة أشهرا بل سنين دون وقوع حرب كان الساسة أجمعون يتكهنون بأنها سوف تكون فظيعة لا نظير لرعبها، وكانت قوى فرنسا والروسيا تعمل على ان تكون في سنة ١٩١٧ أكثر استعدادا لها منها في سنة ١٩١٤. فقتل الغراندوق أشعل نارا ما كانت لتشتعل كما اشتعلت وربما لم تكن اشتعلت أبدا. فمن الأهمية إذن أن تتحرى أصول المؤامرة التي وقع الغراندوق فريستها وأن نعين المسؤولية عن العمل الذي كانت له هذه العواقب المخيفة التي زعزعت العالم.

ما تفاصيل مؤامرة سيرا جيفو؟ وما البواعث التي حدث القتل؟ ومن كانوا محرضيهم أو شركائهم؟ هذه أسئلة غامضة صعبة ظلت أكثر استمرارا وتحيرا من أغلب المشاكل التي تمت الى أسباب الحرب المباشرة صلة. وقد صرف بعض المؤرخين المحترمين اهتماما قليلا اليها بالنسبة لما وجهوه من الالتفات الى غيرها، وراج من الاشاعات الخيالية والتشويهات الملحة الناشئة عن البغضاء والدعاية الحربية في هذا الموضوع أكثر مما راج عن أي موضوع من مواضيع تلك الأيام المحزنة التي أشعلت في اوروبا النار. ولهذا أسباب عدة. فالمؤرخون كانوا مشغولين بالمسؤولية النسبية للدول

العظمى ، والمعلومات المستقاة من مصادر صرية لم تكن جد ضئيلة فحسب بل كانت مكونة من تأكيدات متناقضة . وسبب آخر هو ان البلاغ النمساوى النهائى الذى ارسل الى صربيا والملف الذى قدم الى الدول محتوبا نتائج تحقيق النمسا فى مقتل سيرا جيفو ومسوغا تقديم هذا البلاغ اشتملا على رأى النمسا الرسمى فى المؤامرة — ذلك الرأى الذى القى تبعه الجريمة على عاتق المهيجين الصربيين الذين كانوا يدعون الى تأسيس « صربيا الكبرى » وبخاصة أعمال الجمعية الوطنية الصربية المعروفة باسم « نارودنا اودبرانا » تلك الأعمال المخربة . لكن هذا الرأى لم يصادف ابداً كثيراً من الثقة لدى اغلب الناس فى دول الوفاق او البلدان المحايدة . فالتحقيق الذى جرى فى سيرا جيفو كان يجرى بالضرورة على عجل وكان يدور فى السر وفى جو من التكميم التام . ولذا جاء الملف الذى قدم الى الدول عبارة عن ترتيب عمل على عجل . ولما كان هذا الملف لم يصل الى الدول الا بعد ان اخذت تظن بالنمسا الظنون وتشبهه فى انها منظوية على نية الحرب ضد صربيا مهما يكن من امر ، فقد كان سياسة اوربا قد ساورتهم بالفعل المخاوف من حرب اوربية عامة حتى لم يكن لديهم متسع من الوقت للالتفات الجدى الى ما كانوا يشتبهون فى انه اتهامات مخترعه . ولم تكن إذ ذاك قد بارحت أذهانهم ذكرى محاكمات أجرام وفريدينج المخزية التى ضبط فيها الموظفون النمساويون يستخدمون وثائق مزورة سعياً منهم الى الصاق التهم بالعاطفين على القضية الصربية . أما كان إذن يصح ان يكون ملف سنة ١٩١٤ من هذا النوع المزرى ؟ وهكذا كان المتحاملون على دول الوسط ميالين الى ان يسدلوا على ملف برشتولد أستار النسيان او يرمقوه بالسخرية ، وان يتقبلوا بدلا منه نفى الحكومة الصربية البات لتهم النمسا وتأكيدها الجازم بأنها ليست مدانة بالاشتراك فى الجريمة بحال من الاحوال

وأخيراً فى نوفمبر سنة ١٩١٤ قدم القتل والمشتبه فيهم الى محاكمة رسمية فى

سيراجيفو ونشر في برلين في سنة ١٩١٨ تقرير مختصر باللغة الكرواتية عن الجانب المهم في هذه المحاكمة وترجم الى اللغة الالمانية . وهذا التقرير وثيقة بشرية ممتعة حافلة بالمحزن والمطرب ، بالأشجان والفكاهة . ويلوح منها أن المحاكمة كانت تامة عادلة وأقل تكتما من التحقيق الابتدائي الذي سبقها في يولييه . وقد حضرها الى جانب المتهمين الاثني والعشرين وأكثر من مائة شاهد وجنود عديدين والموظفين القضائيين أنفسهم — نقول حضرها إلى جانب هؤلاء جمهور قليل مختار دخل الى قاعة المحكمة الصغيرة المزودة المكتظة بمن فيها . وقد وقف القاضى الجلسة عدة مرات خمس دقائق لتغيير هوائها وطلب مرتين الى شخصين يتكلمان بصوت خافت أن يرفعا صوتهما لأن المحاكمة علنية وأنا والباقون نريد أن نسمع ما تقول ،

وهذا التقرير عن المحاكمة يلقى أيضا ضوءا قويا على الاستعدادات الغامضة التي قامت داخل صربيا وانتهت بجرمة القتل . ومع ذلك فيلوح ان هذا التقرير لم يلق خارج المانيا شيئا من الالتفات الجدى وهذا راجع بعض الشيء الى أن المانيا كانت أوان نشره في ١٩١٨ مقطوعة الصلة بكثير من نواحي العالم . ويرجع كذلك الى ان ما خلقتة الحرب من البغضاء والعمى عن الحقائق كان من شأنه أن يترك في الأذهان أن هذا التقرير مزور أو « مجرد دعاية » ، حتى ذلك المؤرخ الممتاز السير تشارلس أومان كان يرى « أن جميع الشهادات ملفقة وأن محاضر المحكمة قد مسخت الى درجة أنه لا سبيل الى تصديق اية كلمة فيها . » ومع ذلك فان ما وجهته النمسا الى صربيا من تهم أيديتها الشهادات التي أدبت أثناء المحاكمة كان فيما يتعلق بمسؤولية صربيا دون الواقع وهو ما سوف تتبينه بعد . وهكذا ظلت الحقيقة في مؤامرة سيراجيفو عشر سنوات تقريبا مجهولة محفوفة بالاسرار إذ كان نصيب الادلة النمسية الاهمال أو التكذيب او السخرية ، في حين كان الكتاب الصربون حريصين على ان لا ينشروا شيئا يتضارب وموقف البراءة المثلومة الذي اتخذته حكومتهم في سنة ١٩١٤

إفشاءات جديدة

في خمس السنوات الأخيرة أذاع الصربون مؤلفات عديدة يلوح أن البواعث التي حدث إليها مختلفة ، فمنها ما ينبغي صاحبه به وجه الحقيقة رجاء أن تنسخ العدالة ما وقع من الظلم ، ومنها ما ينطوي على نزعات حزبية ومنها وهو الغريب حقاً ، ما يزعم صاحبه به شرفاً فهو ما لنفسه لأنه كان من بين الذين دبروا مقتل الغراندوق . ومقتل الغراندوق أسفر في الختام عن تأسيس المملكة اليوجوسلافية « المجيدة » .

وأول ما يلفت الانتظار من هذه المؤلفات خارج حدود يوجوسلافيا ما كتبه ستانوجه ستانوجيفتش أستاذ التاريخ المعروف في بلغراد . فهو لا يشير الى المراجع التي استقى منها مؤلفه لكنه كما يقول في مقدمة كتابه جمع معلوماته رأساً من بعض المتأمرين الباقين على قيد الحياة ممن يعرفهم . وهو يلقي تبعة الجريمة على زعيم جمعية سرية ثورية صربية معروفة بأسم اليد السوداء ، كانت مؤلفة من عصابة قوية من الضباط العسكريين دبروا فيما مضى ونفذوا مقتل الملك اسكندر والملكة دراجا في سنة ١٩٠٣ وقاموا من ذلك الحين بدور مشغوم في سياسة صربيا الداخلية وعلاقاتها الخارجية . ومنظمها في سنة ١٩١٤ وزعيمها والروح المحرك فيها لم يكن سوى الكولونل دراجوتين ديمترييفتش رئيس مصلحة المخابرات في هيئة أركان حرب الصرب العامة . واليك ما يقول الاستاذ ستانوجيفتش عن هذا المتآمر الأكبر الذي أعدمه حزب باشتش في سنة ١٩١٧ وأصبح بعد ذلك بطلاً في أعين فريق كبير من الشعب الصربي :

« رجل ذو مواهب ، مثقف ، شجاع ، شريف ، كثير الطموح ، عظيم الهمة ، ذووب العمل ، متكلم يقنع سامعيه . ذلك هو دراجوتين ديمترييفتش الذي كان ذا نفوذ خارق على من حوله وخاصة رفقائه وصغار الضباط الذين

كانوا جميعاً دونه شعوراً وقوة خلق . وقد كان تدليله دائماً وافياً مقنعاً يفهم كيف يصور الشرور بسائط تافهة وأخطر المشاريع بريئاً لاشية فيه . وهو الى ذلك منظم مبدع وضع كل شيء في يده ، لا يعرف حتى أخلص أصدقائه ما يكون في نيته الا ساعة العمل . لكن دراجوتين ديمترييفتش كان أيضاً مغروراً جداً يغالى في التصنع . ولأنه كثير الإطماع كان يؤثر العمل الخفى ويحب أن يعرف عنه الناس انه يزاول مثل هذا العمل وأن كل شيء لا يقوم عليه سواه ، لا يفهم الحياة السياسية أو قيودها فهما واضحاً ولا يرى أمامه الا الغرض الذى يسعى اليه يقصد اليه على الفور دون تردد أو مبالاة بالعواقب ، محب للاخطار والمغامرة ميال الى الاجتماعات السرية والأعمال الخفية ، متوثب بخاطر مولع على الدوام بتدبير المؤامرات وجرائم القتل . وقد كان فى سنة ١٩٠٣ بين كبار من يتتوا المؤامرة على حياة الملك اسكندر . وفى سنة ١٩١١ بعث من يغتال امبراطور النمسا أو وريث عرشه . وفى فبراير ١٩١٤ تواطأ مع اللجنة البلغارية الثورية على قتل فرديناند ملك بلغاريا . وفى سنة ١٩١٤ أخذ على عاتقه تنظيم مؤامرة سيرا جيفو على ولي عهد النمسا فرانتس فرديناند . وفى سنة ١٩١٦ أرسل بعضهم الى كورفو لاغتيال الملك قسطنطين اليونانى . وفى هذه السنة عينها كان على ما يظهر يحاول الاتصال بالعدو ويدبر مؤامرة على البرنس اسكندروى عهد صربيا حينذاك ، فحكم عليه بالاعدام من جراء ذلك ورمى بالرصاص فى سالونيك سنة ١٩١٧ .

وقد مضى ستانوجيفتش يصف بالتفصيل كيف ساعد هذا الضابط المنتسب الى هيئة اركان الحرب العامة على تنظيم المؤامرة فى بلغراد وكيف كان يزود شبان البوسنة بالقنابل والمسدسات التى استعملت بالفعل فى حادث سيرا جيفو لكن الباعث على جريمة ديمترييفتش يدل فى رأيه على بساطة القلب إذ يقول «انه لما سمع ديمترييفتش فوق الذى سمع من الأشاعات الأخرى ان الغراندوق النمساوى آت ليدبر المناورات فى صربيا اقتنع كل الاقتناع بأن النمسا

والمجر تبيت هجوماً على صربيا فقرر رأيه بعد طول التفكير على أن قتل فرانتس
فرديناند يحل دون وقوع الاعتداء بل يمنع الحرب ذاتها »

لم يمض على هذه الاذاعات بضعة أشهر وهي التي ذهبت الى أبعد مما ذهبت
اليه اتهامات النمسيين في سنة ١٩١٤ حتى نشر صحفي يوجوسلافي يدعى بوريفوجيه
يفتش رسالة ممتعة أوضح فيها نشأة الحركة الارهابية الجديدة التي بثت بين شباب
البوسنة « شريعة الاغتيال » في السنوات العشر السابقة للحرب .. والرسالة تلقي
بنوع خاص شيئاً من النور على كيفية تنفيذ المؤامرة في سيرا جيفو أكثر مما
توضح ما تم من الاستعداد لها في بلغراد . وقد كان يفتش أحد شهود
محاكمة القتلة في سنة ١٩١٤ فلم إذ ذاك صراحة بأنه كان يكتب في صحف
سيرا جيفو .. وانه عضو في جمعية شباب صربيا التي كانت تزي نار الوطنية
الصربية في البوسنة . بل لقد سلم بأنه كان يكتب كبار القتلة حيناً بعد حين لكنه
انكر بشدة انه كان يعلم شيئاً عن مؤامرة مقتل الغراندوق وأمكنه أن يقنع القضاة
برأيه . تلك كانت شهادته في سنة ١٩١٤ أما في سنة ١٩٢٤ عندما أصبحت حياته في
مأمن من أيدي البوليس انتمسوى وآماله في الوحدة اليوجوسلافية محققة كنتيجة
لتلك الجريمة والحرب العالمية ، فقد أعلن انه كان يعلم كل شيء عن المؤامرة .
بل هو قد وصف وصفاً شائعاً كيف قضى ليلة السبت ومساء الجريمة في
صحبة برنسيب الذي اطلق رصاصاته المميتة في اليوم التالي ، وزعم انه لا أقل
من عشرة كمن كانت تترصد للغراندوق وأنه لو كانت رصاصة برنسيب
أخطأت فرانتس فرديناند كما أخطأته قبلة شارينو قتش لما كان أفلت من
غيرها مما أعد لاغتياله ولما كان غادر سيرا جيفو حياً بحال من الاحوال

وأعظم تلك الافشاءات وقعا وأكثرها ضجة وشأناً ما أذاعه المسيو
لجوباجوفانو قتش . لأنه موظف صربي ممتاز كان في يولييه سنة ١٩١٤ وزيراً
للمعارف في وزارة باشتش . فقد اصدر روسي بمناسبة الاحتفال بمرور عشر
سنوات على نشوب الحرب العظمى كتاباً في صيف ١٩١٤ ضمنه مقالات

وجيزة لبعض كبار الصريين تحت عنوان « دم الجامعة السلافية » ، وكان المقال الافتتاحي معنونا بعد فيدوف دان سنة ١٩١٤ ، وبتوقيع جوفانوفتش ؛ أفشى فيه كل شيء بخته وبصورة غير مألوفة بالمرة واعترف كما يعترف بأمر عادي لا غرابة فيه بما كان المسيو باشتش والحكومة الصربية يخفيانه عدة سنين قال :

كنت عند نشوب الحرب العظمى وزيراً للمعارف في وزارة المسيو نيقولا باشتش . وقد كتبت أخيراً بعض ما وعته الذاكرة وسطره القلم عن حوادث تلك الأيام . وأنى أقتطف منها للناسبة الراهنة بضعة مقتطفات لأن الوقت لم يثن بعد لأفشاء كل شيء . نست أذكر جيداً أكان في أواخر مايو أم أوائل يونية يوم قال المسيو باشتش لنا (فقد تداول في هذه الشؤون بتوسع أكثر مع ستوجان بروتش وزير الداخلية إذ ذاك . يد انه قال لبقيتنا هذا الشيء الكثير :) إن بعض الاشخاص يستعدون الذهاب الى سراجيفو لقتل فرانتس فرديناند الذى يتوجه اليها في يوم عيد القديس فيتوس وكانت هذه المؤامرة كما أخبرونى بعد ذلك من عمل جماعة سرية في بلغراد ومن تديرها مع بعض حلبة البوسنة والمهرسك المعروفين بغيرتهم الوطنية . وقد نصح المسيو باشتش ومعه بقتنا بأن تصدر تعليمات الى سلطات الحدود لتمنع من اجتيازها فريقى الشبان الذين كانوا قد بارحوا بلغراد فعلاً هذا الغرض فوافق ستوجان بيد « سلطات » الحدود نفسها كانت تنتمى الى هذه الجماعة فلم تنفذ تعليمات ستوجان بل كتبت اليه (كما علمنا بعد ذلك) ان التعليمات وصلت اليها متأخرة لأن الشبان كانوا قد اجتازوا الحدود

من هذا يتضح أن أعضاء الوزارة الصربية كانوا يعلمون بالمؤامرة قبل وقوع الجريمة بشهر تقريبا وأنهم لم يتخذوا أية اجراءات فعالة لمنعها . فالحكومة الصربية والحالة هذه مجرمة بأعمالها . وهذا أقل ما يقال . فهى بعد ان لم تقض فى المهد على تلك المؤامرة التى دبرها فى عاصمة بلادها أحد ضباطها المنتمين الى هيئة أركان الحرب العامة وبعد أن لم تمنع الشبان من اجتياز الحدود الى البوسنة ، اما لان بروتش لم يعط تعليماته فى حينها واما وهو الارجح لأن « سلطات الحدود » كانت تنتمى الى « جمعية اليد السوداء » . بعد هذا الذى ذكرناه كان يجب ان تشعر «سلطات »تمسوية بالأمر وتنبى اليها اسماء المجرمين مع جميع التفاصيل الأخرى التى كانت خليفة ان تفضى الى القبض عليهم وإحباط مؤامرتهم . لكن المسيو باشتش ووزارته لم يفعلوا شيئاً من هذا ، مع انه كان على الحكومة الصربية بعد أن وقعت الجريمة أن

تقوم بتحريات وافية عن الجمعيات السرية المشتبه فيها في صربيا وتقبض على جميع الذين ساعدوا على تدير المؤامرة أو تنفيذها . لكنها بدلا من ان تفعل هذا عمدت الى طمس معالمها وأنكرت كل علم بها أملا في ألا تستطيع النمسا اكتشاف تواطئها . ولا عجب بعد ذلك ان يستشعر المسيو جوفانوفتش قلقاً شديداً عند ما سمع بالنبأ المشؤم عصر يوم الأحد الموافق ٢٨ يونيه وهو في بيته الريفى مع انه كان مثقل الضمير عالما بالجريمة قبل وقوعها . ولم يكن هذا منه أسفا لما حدث ولكن خوفا من العواقب وخشية ملائته بالآفكار المرعبة قال :

في الساعة الخامسة بعد الظهر أبلغنى موظف بعلم المطبوعات تليفونيا نبأ ما حدث في سراجيفو في صباح اليوم . ومع انى كنت عارفا ما كان يعد هناك فأنى أحسست حين أمسكت بالساعة كأن إنسانا عاجلنى بضربة على غرة ثم أخذ القلق الشديد يستحوز على بعد ذلك حين تأكد الخبر من مصادر أخرى .

لم أكن أشك لحظة في أن النمسا والمجر ستندرع بهذا الظرف لإعلان الحرب على صربيا وقد رأيت ان مركز حكومتنا وبلادنا حيسال الدول الأخرى سيصبح الآن من كل وجهة أخرج مما كن عقب ٢٩ مايو ١٩٠٣ وأسوء منه يوم كان النزاع قائما بيننا وبين فينا وبودابست . كنت أخشى ان يشعر ملوك أوروبا انهم هدف لرصاصات برنسيب فيحولوا وجوههم عنا وتقرم على ذلك العناصر الملكية والمحافظة في بلادهم . وحتى اذا لم يصل الأمر الى هذا الحد فن ذا كان عسنا ان يدافع عنا . وكنت أعرف أنه لا فرنسا ولاروسيا بطبيعة الحال تستطيعان ان تقيسا نفسيهما بالمانيا وحليفتهما على الدانوب لأن استعداداتهما ما كانت لتكمل قبل سنة ١٩١٧ وهذا بنوع خاص كان يملأنى قلقا ورعبا

لقد جاء يزورنى اذ ذاك صديق شاب هو الماجور ن . وكان قلقا لكنه لم يكن يملكه اليأس كما كان يملكنى فنفضت على سمعه مخاوفى دون ان أحاول اخفاء او تفكيكا . فقال لى من فوره بلهفته التى اعتادها فى مثل هذه الظروف : فى نصف وهدوء والهام حقيقى ، قال : يا عزى نرى الوزير اظن الأمر لا يستلزم اليأس . مطلقا فلتهاجنا النمسا والمجر اذا شاءت ! فلا بد من ذلك إن عاجلا وإن آجلا والآونة الراهنة ايسر بالاحظة غير الملائمة جداً لتسوية الحساب بيد انه ليس فى وسعنا نحن ان نختار اللحظة الملائمة . واذا اختارتها النمسا فهى وشأنها ! وقد تفضى فى النهاية الى ضررنا وسكن من يعلم . فقد تكون الحاتمة غير ذلك »

هذه الكلمات التى تدل من الماجور ن . على ان الدوائر الصربية العسكرية لم تكن تنظر الى الأمر تلك النظرة السوداء بل كانت تحذوها الثقة لما تلقته من

التأكيدات بحماية روسيا « أثابت الى رشدى » على قول المسيو جوفانوفتش
« وقد كان من حسن الحظ ان حملت الينا صحف بطرسبورغ أول الانباء
الطيبة وكان فى امكاننا ان نفترض مقدما أن آراءها تعبر عن الحكومة . اذ
جعلت هذه الصحف تدفع عناهم النمسا والمجر وتصرح بأن روسيا لن
تكرنا أو تتخلى عنا وأن أصدقاء روسيا سيحذون حذوها . وهكذا كان ،

من ذلك يتضح أن المسيو جوفانوفتش أطمأن باله فلم تعد تخيفه فكرة
الاعتداء على صربيا وإمكان وقوع حرب أوربية، ورأى فى « اضطهادات
الصربيين فى البوسنة وفى لهجة الصحف النمسية العنيفة ظرفا صالحا قد يقلب
الرأى الأوربى على النمسا . على أن زملاءه كانوا يعتقدون بإمكان اجتناب
الحرب . ولتوقعهم عجز فينا عن اثبات أية صلة بين صربيا الرسمية والفعلية التى
ارتكبت على الملجاكا) النهر الذى يخترق سيرا جيفو والذى اغتيل الغراندوق
بجواره (تقرر أن تسدل الأستار على كل شىء وأن يتظاهروا بأن الأمر لا
يعنيهم وانهم من وزره أبرياء ، وان يتصنعوا الحزن ويحاولوا استرضاء
البلاد التى قتل من أبنائها زوجان ملكيان بأرخص ما يستطيع من ثمن . قال
المسيو جوفانوفتش :

لم تقصر الحكومة كما هو معروف فى فعل كل ، من شأنه أن يرى أصدقاءها وبقية العالم تنا
بيدون كل البعد عن متأمرى سيرا جيفو . فأعطى ستوجن أوامره فى نفس المساء الذى علم فيه
ما فعله برنسيب بأن يمنع بوايس بلغراد الموسيقى والغناء وكل وسائل اللهو فى محل العمة . وتصل
كل شىء وكانت لحاة أخته بحداد رسمى . وأعرب المسيو . شتش لحكومة فينا عن أسفه للخسارة
التي منيت بها دولة مجاورة عظمى وأعثن مقته للجريمة نفسها . ومثل الحكومة وزراء عديدون
فى الصلاة التى أقيمت فى كنيسة لمقوضية فى ٢٠ يوبيه (٣ يوبيه) يوم تشييع جسزة وريث العرش
وزوجه القتيانين فى فينا . وكنت من بين هؤلاء لوزراء أحب أن أظهر نه حتى أنه ، من كان
يصح أن يظ فيه أكثر من أى وزير آخر نه يقر قمة برنسيب . وفق على لتقيض من ذلك
كل الموافقة على ما كانت حكومتنا تفعله . وعلى كل فن هذا الحرف والفترة حرجزة التى قضبها
فى الكنيسة كن كله يضايقى فقد شعرت . وسط أعداء لا يريدون سلاما معنا .

ياله من بحث في نفسية ضمير مجرم ! يعلم وزير المعارف بالمؤامرة قبل وقوعها بشهر ولا يفعل شيئاً فعالاً لاجباطها ، ويزججه في مبدأ الأمر احتمال عزلة صربيا والاعتداء عليها ثم يحدوه الرجاء في إمكان إخفاء الحقيقة ، ثم هو مع ذلك كله يذهب الى الكنيسة يتصنع الحداد على الضحية المغتالة طلباً للوقع الحسن الذي يمكن أن يكون لذهابها لا غرو إذن أنه كان «متضايقا» .

ولقد أقلقت هذه الافشاءات من المسيو جوفانوفتش باحثاً انجليزياً وكاتباً بمتعة في شئون البلقان ونصيراً شديداً لليوجوسلافيين من عهد طويل هو المستر . ر . و . سيتون واطسون ولم تطاوعه نفسه على تصديقها فأعلن في سنة ١٩٢٥ أن «المقال كله (مقال جوفانوفتش) مكتوب بشكل لا يدل على عناية بل يدل على بساطة ويثير الذكريات والظاهر أن كاتبه غير شاعر بما تنطوي عليه اعترافاته من شر اذا كان لا بد من شر تصديقها كما هي ... وعليه فإن على بلغراد أن تثبت اما أن المعلومات التي بيدها أكثر غموضاً مما يريد لجوبا جوفانوفتش منا أن نصدقه وإما أنها تنطوي على إنذار كاف بالخطر الذي لم يبلغنا خبره من جهة أخرى . وليست المسألة مما يوقف فيها عند هذا الحد فإن الرأي العام في أوروبا وأمريكا أصبح أكثر اهتماماً بمسألة تبعة الحرب العظمى من ذي قبل ، ومن حقه أن يطلب ايضاحاً شافياً وافياً من لجوبا جوفانوفتش ورئيسه المسيو باشتش » .

وأعقب ذلك بزمان وجيز أن ذهب المستر سيتون واطسون بشخصه الى صربيا ليطلب هذا الايضاح ، أو بعبارة أخرى ليحمل المسيو جوفانوفتش على هضم كلماته بتكذيبها في الحال أو تفسيرها تفسيراً ما يذهب بأثرها . فاذا لم يوفق الى ذلك حمل الحكومة الصربية على تطهير سمعتها بأذاعة كل ما تعرفه عن مؤامرة ١٩١٤ لكن الظاهر أنه لم ينجح في شيء من هذا كما يدل خطاب مفتوح نشره في زاجرب أوبزر في ١٣ مايو ١٩٢٥ وعيل فيه صبره بحق :

انقضى الى الآن أكثر من شهرين منذ رجوت حكومة بلغراد تنويرى فيما يتعلق بتلك التصريحات التى أبداهها المسيو لجوباجوفانوفتش من زمن غير بعيد فى الرسالة المتعلقة بمقتل سيراچيفو (وهنا وجه المستر واطسون سؤالين مادين فقال : هل يصر المسيو لجوباجوفانوفتش على قوله بأنه فى اواخر مايو او اوائل يونيه قال المسيو باشتش يوما ان اشخاصا بينهم كانوا يتأهبون للسفر الى سيراچيفو لاغتيال فرامتش فرديناند ؟ وثانياً هل يعنى حقا مايقول اذ يصف كيف تلقى نبأ مقتل سيراچيفو بالتليفون : مع انى كنت عارفا ما كان يعد هناك ؟)

انى أستطيع أن أفهم جيدا الحكمة فى تردد المسيو لجوباجوفانوفتش فى الأجبة اجابة قاطعة فان انكر فمن عجب ان يكتب رجل دولة مشغول بهذا الأسلوب الطائش ، وان سلم بما قال كان على زميله ورئيس وزارته المسيو باشتش واجب لا يسر وهو ان يتكلم بوضوح وصراحة ويسرد الوقائع على حقيقتها

لم يرد المسيو باشتش والحكومة الصربية على هذا الخطاب الشديد الجلى الذى وجهه المستر سيتون واطسون. بيد أن صحف بلغراد أعلنت أن حكومة بلغراد قررت نشر كتاب أزرق جديد عن أصل الحرب . فكتب المستر سيتون - واطسون إذ ذاك خطابا ثانياً الى التيمس بلندن يرجو قراءها ان يترثوا فى الحكم حتى تنشر تلك الوثائق . لكنه كما سلم فى كتابه الأخير :

«مضت ثمانية اشهر دون ان يسمع شئ عن الكتاب الأزرق . والراجع ان الغرض من البلاغ كان مجرد لعبة يراد بها تخفيف النقد حتى تغتر الحملة كلها وتتلانى . ومن سوء حظ الحكومة اليوجوسلافية انها حفت نفسها بالاسرار بدل ان تظهر براءتها ببيان مفصل عن الحقائق .

لم تلق افشاءات المسيو لجوباجوفانوفتش بادىء الرأى إلا انتباها قليلا فى صربيا حيث لم ير فيها المطلعون فيما يظهر شيئا جديدا فلا المسيو باشتش ولا غيره فكر فى لومه عليها . وقد انتخب رئيسا للبرلمان وللجنة الانتخابات ورئيسا للجنة التشريعية . لكنه لما عرف أن الاهتمام بها شديد فى انجلترا وأمريكا حيث أخذ الناس ينتهبون الى مدى التبعة التى تحملها صربيا من الحرب أخذ بعض الصحف الصربية يحمل على المسيو جوفانوفتش ويتهمه بالكذب والخيانة . وقد كتب سلسلة مقالات طويلة دفاعا عن نفسه فى مجلة نوفى ريفوت (الحياة الجديدة) أبان فيها وبرر الدور الذى قام به فى تاريخ صربيا فى خلال نيف وثلاثين عاما منذ اليوم الذى جاء فيه الى بلغراد فى سنة

١٨٨١ مهاجرا من الهرسك فقال : « انا لم أفش شيئا بل كتبت ما كان معروفا للجميع في سنة ١٩١٤ بالضرورة . » وقد يكون هذا صحيحا بالنسبة لصريا التي كانت تعلم علم اليقين ما فعلته « اليد السوداء » وزعيمها القوى ديمتريفتش . لكنه لم يكن صحيحا فيما يتعلق ببلاد الحلفاء التي كانت محمولة على الاعتقاد ببراءة صريا .

واشتدت الحملة في الصحف الصرية الى درجة ان المسيو باشتش خطب اخيرا في ٢٥ ابريل ١٩٢٦ في اجتماع للجنة المتندى الراديكالى ضد لجوبا جوفانوفتش وحاول اخراج صديقه وزميله السابق من الحزب . وقد جاء في هذه الخطبة على ما روته صحف صرية ما يلى :

نقد سأله بعض المكاتبين الأجانب أكان يعلم بأن وريث عرش النمسا - يقتل فنى لهم هذه الفكرة ورجا المسيو جوفانوفتش أن ينقضها لأنه لم يكن صحيحا انه - أى المسيو باشتش - قال هذا في اجتماع للوزارة . . . وقد انتظر المسيو باشتش تكذيب المسيو جوفانوفتش فتباطأ المسيو جوفانوفتش ولم يصدر تكذيبا فماد المسيو باشتش يكرر ويصر على انه لم يقل ما نسبته اليه المسيو جوفانوفتش وسأل أيضا زملاءه في الوزارة « أصدقائي لعلى نسبت انى قلت هذا ؟ » قائما كد الجميع انه لم يقل

« ان هذا القول لم ينقض والمساءلة قائمة الآن فيجب ان انقضها انا ولست اعرف لماذا قال المسيو لجوبا جوفانوفتش ما قال . لكنه لم يقل صدقا . . . وقد أقمت الدليل على انى أستطيع أن ألزم الصمت . لكنه اذا اراد لجوبا جوفانوفتش ان يعمل مستقلا فلينفصل عنا ويصل مستقلا فهذه غلطة من المسيو جوفانوفتش لا تغتفر »

وقد صرح المسيو لجوبا جوفانوفتش ردا على هذه الحملة بأنه لم يقل أبدا في رسالته ان المسيو باشتش أدلى بمعلومات بعينها عن الاستعداد لمقتل (الغراندوق) في اجتماع للوزارة . فقد كان ذلك في محادثة خاصة . وليقيم الدليل المادى على صدق ما كتب عرض أن يقدم الوثائق والبراهين التي تثبت ذلك لكنه طلب من رئيس الوزارة ووزير الخارجية ان يتحملا تبعة عمله هذا . وكان هذين الوزيرين المسؤولين المسيو اوزونوفتش والمسيو نينتش خشيا أن يفشى أسرار أخرى أكثر إحراجا عن الحكومة التي كانت قائمة في صريا في سنة ١٩١٤ وعن أصل الحرب العالمية فرفضوا ما عرض .

والذى يدل على صحة ما أكده المسيو جوفانوفتش من أن المسيو باشتش كان يعلم بالمؤامرة قبل وقوعها هو، بين أدلة أخرى، ما أبانه في إحدى مقالاته التى كتبها فى سنة ١٩٢٥ من أن أمرا صدر بالفعل لمنع القتلة من الانتقال من بلغراد الى البوسنة فلم ينفذ الأمر لأن خفراء الحدود الصربيين كانوا تابعين لجمعية « اليد السوداء » فلم يصدعوا به ، وهذا ثابت من مفكرة تودوروفتش خفير الحدود وأوراقه التى استولى عليها النمسيون فى أثناء الحرب .

بما تقدم يصح أن نستنتج انه ليس ثمة سبب وجيه يحمل على الشك فى صدق الافشاءات التى أذاعها المسيو جوفانوفتش فى سنة ١٩٢٤ . ويلوح بما فعله المسيو اوزونوفتش والمسيو نيتتش إذ تدخلوا ليمنعا المسيو جوفانوفتش من تقديم براهينه ، أن هنالك اشياء لا تزال الحكومة الصربية تؤثر إخفاءها . والى أن يقوم الدليل على أن تلك الافشاءات غير صحيحة لا يسع المؤرخين المنصفين الا أن يستخلصوا أن المسيو باشتش وأعضاء الحكومة الصربية كانت لهم معرفة سابقة بمؤامرة القتل لكنهم كانوا يخفونها .

ويقال إن هنالك مجموعة أسرار أخرى تحتويها ألفا وثيقة استولى عليها النمسيون فى بلغراد فى خلال الحرب تتضمن أعمال الدعاية والحركات الثورية التى قامت بها الجمعيتان الصريبتان الوطنيتان المعروفتان بنارودنا أودبرانا واليد السوداء . وقد وجد الكثير من هذه الوثائق فى بيتى المسيو باشتش والمسيو ميلو بافلوفتش أحد زعماء جمعية نارودنا أودبرانا وكشف البحث الدقيق والتنقيب فى التقرير الرسمى الذى صدر عن محاكمة سالونيك المشهورة التى جرت فى سنة ١٩١٧ عن معلومات جديدة كثيرة أذيعت أخيراً . وهذا التقرير الضخم الذى نشر رسمياً فى سالونيك سنة ١٩١٨ حذر تداوله بعد ذلك وصودرت نسخه بقدر الامكان لأنه على ما يظهر يتضمن أدلة كثيرة تقضى على سمعة الحكومة الصربية التى كانت قائمة فى سنة ١٩١٤ .

ويكاد يكون من المستحيل الآن العثور على نسخة منه. لكن بعض الباحثين في الشئون الصربية وأسباب الحرب درسوه فألفوه محتوى على طائفة كبيرة من المعلومات عن أعمال جمعية اليد السوداء قبل سنة ١٩١٤ وأعمال أعضائها الذين اشتركوا في التآمر على قتل الغراندوق فرانتس فرديناند.

واستنادا الى هذه المعلومات يصح لنا ان نبين في شيء من الأيجاز كيف دبرت مؤامرة القتل وحيكت خيوطها الأساسية ساردين العوامل الثلاثة التي ساعدت كثيراً عليها. وهذه العوامل هي جمعية نارودنا أودبرانا (الدفاع الوطني) واليد السوداء والحركة الثورية في البوسنة.

نارودنا أودبرانا

في سنى القرن التاسع عشر الستينية والسبعينية اجتمع في سويسره كثيرور من الثوريين الصريين حيث كان بعض الروسيين امثال باكونين وكروباتكين وهرتسن يبسطون عليهم نفوذهم . وقد اتخذوا لأنفسهم برنامجا ثوريا يرمى الى اقتراف أعمال فوضيه تنطوى على العنف ونشر الفرع . وعلى هؤلاء النفرتقع تبعه ثورة زاجيقار التى سلطت على الملك ميلان فى صريا سنة ١٨٨٣ . وقد باتت نزعة هؤلاء الى الثورة والاخذ فيها بالعنف والقتل ذات تأثير من ذلك الحين على طائفة بعينها من الصريين . بيد أن الشبان الصريين الذين كانوا يتلقون العلم فى سويسره لم يكونوا كلهم على هذا الرأى وكان من بين هذا الفريق المسيو نيقولا باشتش الذى كان يؤمن بالتدرج فى تنشئة قوى صريا الأدبيه والماديه كوسيله للتحرر فى الوقت المناسب وادماج جميع الصريين فى دولة قويه على مثال إيطاليا التى انشأت وحدتها فى الجيل السابق مباشرة .

على هذا أسس المسيو باشتش فى صريا سنة ١٨٨١ الحزب الراديكالى الذى ظل طويلا يحافظ بزعامته المحترمة على صفته الأصلية وإن

كانت طبيعته في الآونة الراهنة بما لا يتفق بتاتا والصبغة الراديكالية .
وبرنامج الحزب الراديكالي كما ورد في أول عدد من أعداد صامو برفا لسان
حاله كان « رفاهية الشعب وحرية في الداخل واستقلال البلاد واتحادها
مع بقية الجامعة الصربية في الخارج » . وقد أفرد قسم خاص في هذا البرنامج
لتبيان أهمية تنظيم الجيش الصربي وتدريبه ، لكن البرنامج كان ينص تحت
عنوان « السياسة الخارجية » ، على أنه « يجب أن تنظم في ميدان التطور الفكري
طريقة لمساعدة الأجزاء المقسمة والخاضعة لحكم الأجنبي من الجامعة
الصربية والعمل على إبقاء فكرة الوحدة القومية حية في الأقاليم الصربية
المعرضة من جراء بعدها لنفوذ العناصر الأجنبية . وهذا الى أن يحين الوقت
الذي يسع فيه الجيش أن يؤدي هذه المهام » . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن
يشير الانفس في أقاليم الأمبراطوريتين العثمانية والنمسية التي يسكنها
صربون حتى تنشب حرب التحرر في المستقبل فتضمها الى صربيا الكبرى .
وهاتان الفكرتان السياسيتان وهما أولا أعمال القتل الفردية يقوم بها
طلبة أغرار لم تعجم الايام عودهم مع عصابت عسكرية وثانيا الوصول الى
الوحدة القومية بحركة تعد إعدادا حسنا وبحرب تقع في الوقت المناسب
مع تركيا والنمسا يدعو اليها الحزب الراديكالي — نقول هاتان الفكرتان
السياسيتان كاتتا تسودان أذهان الزعماء السياسيين الصربيين حتى تم للفكرة
الثانية الظفر بالحرب العالمية . وقد كان زعماء هاتين النزعتين أحبا نا على وفاق
كما تدل الاغتيالات التي اقترفت في القصر سنة ١٩٠٣ وأحيانا أخرى
متعارضين متنازعين .

فانه سرعان ما أصبح المسيو باشتش والراديكاليون أعداء ألداء للهلك
ميلان من جراء القسوة الوحشية الدموية التي استعملها مع ثوار زاجيقارا تقاماً
منهم ولنهاونه المخزي في مصالح صربيا القومية وحياته الخاصة المملوءة بالفضائح
والتي كان يقضى جانباً كبيراً منها في فينا يغشى فيها مجتمعات مريبة . وقد

انتقلت هذه العداوة من بعده لخلفه الملك اسكندر بخاصة عقب زواجه من تلك المرأة الرديئة السمعة التي اصبحت فيما بعد الملكة دراجا . ولما كانت هذه الملكة لم تعقب ولداً اشبه الكثيرون في أنها كانت تنوى الحصول على وراثة العرش لأخ من اخوتها . وقد كان الخوف والاشمئزاز من هذه الحال سبباً لأن يتحد كثيرون من الراديكاليين وضباط الجيش الثوريين على نظام الحكم القائم . واليك ما كتبه مؤرخ صربى :

« إن ما كان يجرى في البلاط وخارجه كان يعتبر بحق خزيًا للحكومة والامة فلم تكن تمر لحظة حتى تشاع فضائح شنيعة اساءت الى سمعة صربيا والصربيين وجعلتهم مضغة في الافواه ... فالمالية كانت في حالة يرثى لها حتى لبث الموظفون والضباط أشهراً لا يتقاضون مرتبات . وبات كل شيء بزواج الملك اسوء مما كان . ففي كل يوم تغيرات تملأها الاهواء وفضائح نكراء اثارت الجمهور حتى جاءت الحكاية الملفقة عن حمل الملكة ، وخطرة اخوتها ومسلكتهم المثير فزادت الطين بلة وأهاجت الجمهور والضباط العسكريين فوق هياجهم . وقد كان من جراء هذا كله ان ثمانين ضابطاً وعديداً من المدنيين تأمروا على قتل الملك والملكة واخوتها ، وكان الجانب الأكبر من المتآمرين مؤلفاً من ضباط شبان تحذوهم الوطنية المحضة . فقد رأوا بلادهم تتدهور الى الحضيض ويلحقها الخزي تحت حكم ملك رديء مستهتر فدفعهم اقتناعهم الشديد بوجوب انقاذ الدولة والامة الى فعلة أئيمة اعتقدوا ان واجبهم الوطني يبررها ،

ففي ليلة ١١ يونية ١٩٠٣ اقتحم القصر فجأة هؤلاء القتلة الوطنيون فاغتالوا الملك والملكة وهما قابعان في مخبيء حذر الموت وأردوا بالرصاص احوتها وقتلوا بعده من الوزراء . وكان من بين من دبروا هذه الثورة الوحشية ومن كبار زعمائها يوزباثي صغير في الجيش يدعى دراجوتين ديمتريفتش تلقى ثلاث رصاصات في جسمه لازمته بقية حياته ، كما كان من بينهم ملازم

صغير يدعى فوجا تانكوزتش - هو الذى أمر بقتل إخوة الملكة . فهذان الاثنان اصبحا فيما بعد زعيمى اليد السوداء يساعدان على تدير مؤامرة سراجيفو لقتل الغراندوق النمساوى « كواجب وطنى » آخر

وقد ظل المتآمرون الذين أضرموا ثورة القصر متأخين عقب تلك الليلة المحزنة - ليلة عام ١٩٠٣ - دفعا لآية ثورة رجعية يمكن أن تقع وحرصا على مصالحهم الشخصية ومنفعتهم السياسية . وكانوا يجتمعون مراراً ويتدخلون فى سياسة الاحزاب كلما اعتقدوا أن هنالك مساساً بمصالحهم . لكنه حين استردت البلاد هدوءها ولاح أن النظام الجديد الذى بدأوا هم عهده يقوم على العدل والانصاف ، رأت أنه لم تعد بها حاجة اليهم وأن سلامتها باتت موفورة ؛ وقد كان الراديكاليون والجمهور صابرين على مضض على تدخلهم فى الشؤون السياسية فاعتزل العمل هؤلاء المتآمرون العسكريون باعتبار كونهم جماعة منظمة ولبثوا على عزلتهم حتى نشأت أزمة جديدة

وذلك أنه فى سنة ١٩٠٨ فى مساء اليوم الذى أعلنت فيه النمسا ضم البوسنة والهرسك جمع الدكتور ميلوفان ميلوفانوفتش وزير خارجية صربيا إذ ذاك عدة من الوزراء والأعيان من بينهم باشتش ولجوبا ستوجانوفتش والاستاذ لجوبا جوفانوفتش ومحافظ بلغراد وغيرهم لينظروا فيما ينبغى اتخاذه حيال « تحرش » النمسا ، فقررأيهم على أن يدعوا المحافظ الى الاجتماع فى اليوم التالى فى قاعة البلدية عدداً أكبر من الصربيين ذوى الصفة التمثيلية كان فى جملتهم المؤرخ ستانوجيفتش . وفى أثناء هذا الاجتماع الذى عقد فى اليوم التالى أسست نارودنا أودبرانا (الدفاع الوطنى) ونيطت بها مهمة هى جمع المتطوعين وتدريبهم وتقوية صربيا بطرق أخرى لأعدادها لحرب مسلحة تمنع بها النمسا من تنفيذ برنامج الضم .

وقد كان من شأن الاستياء الذى عم صربيا من خرق النمسا لمعاهدة براين وضمها بلادا صربية مشتهة أن ألف بين زعماء الفكرتين اللتين أسلفنا

الإشارة إليهما . وبذا اشتملت جماعة نارودنا أودبرانا في بدء تأليفها على زعماء سياسيين من الحزب الراديكالي وعلى ضباط عسكريين أمثال ديمترييفتش وتانكوزتش والجنرال بوزو بانكوفتش ، كما اشتملت على مدير مطبعة الحكومة التي لم يكده يوظف بها شابرينوفتش حتى خرج لقتل فراتس فرديناند ، وميلان بريديشفتش الذي كان أخوه في مجلس نواب كرواتيا من أشد خصوم النمسا والذي يقال انه تلقى من سيرا جيوفو في يوم مقتل الغراندوق وزوجته برقية أشير فيها الى الجريمة إشارة ظاهرة كالقول بأن « كلا الحصانين فرغ منه على مايرام » ،

وقد ابتداء تنظيم نارودنا اودبرانا على الأثر وكانت لجنتها المركزية المقيمة في بلغراد توجه أعمال لجانها في الاقاليم وقد أسست في البلدان الكبرى وقسمت الى أقسام اختص كل منها بعمل يتعلق إما بالثقافة ، أو بالرياضة البدنية أو بجمع الاموال واما ، وهو ما وقع في بعض الحالات ، بإنشاء العلاقات بالاراضى المجاورة . وكان يلي لجان الاقاليم ، لجان أقسام فلجان محلية وفي النهاية « رجال موثوق بهم » « يكون مقامهم في داخلية البلاد في أماكن لا لزوم فيها لإنشاء لجنة » .. وقد نظمت هذه اللجان وهؤلاء « الرجال الموثوق بهم » في كل مكان من صربيا بسرعة . وضمت نارودنا اودبرانا الى نفسها الجمعيات الوطنية التي كانت قائمة اذ ذاك وأعاتها ماليا وأخذت في جمع الكوميتجيين وتدريبهم على إلقاء القنابل ونسف السكك الحديدية والجسور وما شابه ذلك مما يمكن ان يستخدم في حرب عصابات تدور رحاها مع النمسا ، وجمعت الاموال وأثارت حفيظة الناس على النمسا بدعاية فعالة من القومية الحارة . ولم تكن أعمالها هذه قاصرة على الرعايا الصربيين فأن المهاجرين البوسنويين كانوا يجمعون كذلك وكانوا يدرّبون على أعمال تنطوي على الغدر ليقوموا بها في البوسنة حين يعودون ؛ هذا الى

تزويدهم بالمال . وقد كان جاتشينو قتش زعيم جناح الارهاب في الحركة الثورية اثبوسنوية في البوسنة متصلاً بادیء الامر بنارودنا أودبرانا اتصالاً وثيقاً يعمل لحسابها في البوسنة . وان كان قد انضم بعد ذلك الى اليد السوداء . وقد جعل وفاقاً لأغراضها يحرض في البوسنة على مؤامرات القتل . وقد اعترف برنسيب قاتل الغراندوق اثناء محاكمته بانضمامه الى نارودنا أودبرانا في سنة ١٩١٢ وبأه زود منها بالمال ودرب ككوميتجى

أما في البوسنة نفسها فأن مثل هذه اللجان وهؤلاء الرجال الموثوق بهم ، كانوا يعاونون ليشكلوا شبكة من الجواسيس وليكونوا بمثابة « نفق » أو ممرات تحت الأرض » يحملون نشرات الدعاية والأسلحة وينقلون المتآمرين عبر الحدود من صربيا الى البوسنة . وهذا أيضاً واضح من تقرير ضابط من ضباط الحدود بعث به الى قائد فيلق درين فضبط النمسيون تقريره ودمعه مفكرته وبضع عمليات حساية في الاسابيع الأولى للحرب فكان من ذلك دليل مفصل على الطريقة التي أنشئ بها « النفق » في الأصل يوم قامت أزمة الضم . ولم يكن تقرير هذا الضابط معلوماً لو اضعى الدونسيه النمسيون لكنه تلى في محاكمة اكتوبر ١٩١٤ وأكد صحة ماورد فيه لجوابا جواتشينو بعد تسوية أزمة الضم في مارس ١٩٠٩ عقب أن تخلت روسيا عن صربيا واضطرت هذه الى أن تعد بوقف حملة التهييج والمحافظة في المستقبل على العلاقات الودية مع مملكة هابسبورغ . فتظاهرت نارودنا أودبرانا بالتحول من جمعية للاعتداء والهدم الى جمعية ذات اغراض « ثقافية » موجبة للثناء كالتعليم والرياضة البدنية وتعهد المبادئ القومية . وعلى أن تقريرها الرسمي كان لا يزال يعلن « أن النمسا هي أعدى أعدائنا » فقد تضمن على سبيل التلخيص « أنه بينما تعمل نارودنا أودبرنا وفاقاً للظروف بالنظر الى تغير الاحوال فأنها تحافظ على كل العلاقات التي كانت لها وقت اعلان الضم ... وقد كان شعارنا إذ ذاك الحرب وهو الآن العمل . وكانت الاجتماعات والمظاهرات والمتطوعون والأسلحة

والقنابل من مقتضيات الحين الفائت أما الآن فيطلب العمل المستمر بالجهد الذى لا يتوره كلال ، يطلب لتأدية المهام والواجبات التى لفتنا الانظار اليها بالاستعداد العاجل لقتال بالبندقية والمدفع تأزف ساعته يوما »

ومن جهة أخرى فإنه صحيح أن البلاغ النهائى والملف النموى قد هولا فى علاقة نارودنا أودبرانا المباشرة بمؤامرة سيرا جيفو إذ كان النمويون يوجهون انتباههم الى أعمال هذه الجمعية وفعالها الاصلية المنطوية على العدوان أكثر مما يلتفتون الى أعمالها الاخيرة المصبوغة بالصبغة الثقافية . وسبب آخر أخص من هذا هو أن النمويين كانوا يجهلون العمل السرى الذى كانت السلطات الصربية العسكرية تقوم به فقاتهم أن يميزوا تماما بين نارودنا أودبرانا وجمعية « اليد السوداء » . على أنه من الواضح مع ذلك أن نارودنا أودبرانا مضت فى الاحتفاظ « بالانفاق » وتهريب المنشورات الثورية فى بلغراد الى البوسنة ، وأنها كانت على اتصال دائم بالرجال الموثوق بهم ، الذين استخدمتهم اليد السوداء بعد ذلك والذين ساعدوا بالفعل قتلة الغراندوق على رحلتهم ونارودنا أودبرانا هى التى كانت توعد الى البوسنويين بالمهاجرة الى بلغراد وتعينهم على ذلك . فساعدت بهذا على تنشئ الحركة الثورية فى البوسنة وتمهيد الطريق لجريمة سيرا جيفو . والكيفية التى كان يلتحق بها بهذه الجمعية والاجراءات التى اتخذتها الحكومة الراديكالية لأظهارها بمظهر الجماعة التى تعمل لاغراض « ثقافية » تدل جميعها على ان المسيو باشتش وزملاءه كانوا يعلمون علم اليقين ما كانت تقوم به من الدعاية والجاسوسية وجمع « الرجال الموثوق بهم » على أرض نمسوية حتى بعد سنة ١٩٠٩ ولم يكن المسيو باشتش ليرى فى هذه الجمعية جماعة « ثقافية » بحته لأنه نفسه قال انه بمجرد عودته من بوخارست (فى اغسطس ١٩١٣) نصح لنارودنا أودبرانا بأن لا تشرع فى شىء ضد النمسا لان هذا يكون خطراً . »

اليد السوداء

في سنة ١٩١٣ كان الخلاف في الرأي بين الزعماء الراديكاليين السياسيين والضباط العسكريين الذين كانوا يفوقونهم نشاطاً وقلة مبالاة آخذاً في الظهور مرة أخرى ، فالراديكاليون بالنظر إلى موقف روسيا وإلى الحالة الدبلوماسية التي كانت قائمة إذ ذاك في أوربا كانوا يرون أن على المصريين أن يحافظوا على علاقاتهم بالنمسا والمجر على وجه سلمي شريف وأن يقصروا أعمالهم في الوقت الحاضر على تقوية الدولة للصراع المقبل الذي يحقق غايتهم النهائية وهي انشاء صربيا الكبرى . لكن فريقاً من العصاة العسكرية التي نفذت ثورة القصر في سنة ١٩٠٣ أحى من الراديكاليين وأنشط همة تبرم بسياسة الراديكاليين الأكثر اعتدالاً لأنه كان يريد أعمالاً ، فعمد بذلك إلى الجمعية القديمة التي كانت قائمة في سنة ١٩٠٣ فبعثها على صورة جمعية سرية جديدة نعتت في قانونها الاساسي بجمعية الاتحاد أو الموت لكن الاسم الذي أطلق عليها من الجميع كان « اليد السوداء » .

وأجدر المعلومات عن جمعية اليد السوداء بالتصديق موجود في قوانينها الأساسية ولوائحها الملحقه . وقد نشرت هذه القوانين واللوائح بصورة مشوهة في التقرير الخاص بمحاكمة سلانيك التي جرت في سنة ١٩١٨ وأسلفنا اليها الإشارة . فانه في ذلك الحين المتأخر أرادت الحكومة الصربية أن يعتقد الناس أن اليد السوداء لم تكن سوى جمعية ثورية في داخل صربيا ترمى إلى قلب سلطة الحزب الراديكالي بل الاسرة المالكة ، فحذفت فقرات بعضها تشير إلى أعمال الارهاب والهدم في خارج صربيا . لكن الميسو بوجتشفتش تمكن بمعلومات استقاها من عضوين بقيا على قيد الحياة من أعضاء « اليد السوداء » ، من ايجاد النص الكامل لتلك القوانين واللوائح ، فاستطاع أن يثبت شخصية عدد كبير من أعضائها والأرقام السرية التي كانوا يعرفون بها ، مظهراً في جملتهم عدداً كبيراً من الموظفين الملكيين والعسكريين على السواء . ولقد

نص في المادتين ٢٣، ٣٣ على أن واجب كل عضو جديد أن يجلب أعضاء جديدين ويضمنهم بحياته . ولم يكن الأعضاء على العموم يعرف بعضهم أشخاص بعض بل كانوا يعينون بأرقام سرية ولا تعرف اسماءهم إلا اللجنة المركزية . واليك ما جاء في قوانين هذه الجمعية : « إن مصالح الجمعية فوق كل مصلحة ، وكل عضو يدخل الجمعية يجب ان يدرك انه بعمله هذا يفقد شخصيته ولا ينتظر مجداً أو ربحاً ذاتياً ! » ، « إذا أصدرت اللجنة المركزية حكماً بالأعدام فأول ما يهم هو تنفيذ الحكم بلا تردد . أما طريقة التنفيذ فسيان . » وكان العضو حين يدخل الجمعية يقاد إلى غرفة مظلمة لا يضيئها إلا شمعدان وعلى أرضها مائدة صغيرة عليها غطاء أسود فوقه صليب وخنجر وغدارة ، فيقسم الطالب « بالشمس التي تدقني والأرض التي تغذيني ، بدم آبائي وبشرفي وحياتي أن أبقى من الآن إلى آخر لحظة من حياتي مخلصاً لقوانين الجمعية وأن أكون على الدوام مستعداً لأن أقوم في سبيلها بأية تضحية . » ويحمل ختم الجمعية صورة علم منشور وجمجمة وعظمتين متقاطعتين وخنجرأ وقبلة وقارورة سم مكتوباً عليها الاتحاد أو الموت .

وقد كان ملهم هذه الجمعية الفريدة التي كان أولى بها أن تكون في القرن السادس عشر لا العشرين ، نقول كان ملهمها وزعيمها ذلك الشخص الجسور الكريم ، المعبود ، الساذج ، الخلق بأن ينتمى إلى عصر النهضة والذي أتينا على وصف ستانوجيفتش له ، الكولونل دراجوتين ديمترييفتش رئيس مصلحة المخابرات في هيئة أركان حرب الجيش الصربي . وكان أكبر مساعد له الماجور فوجا تانكوستش ، وقد لعب هذا أيضاً دوراً رئيسياً في حوادث إغتيال الأسرة المالكة سنة ١٩٠٣ ، ونظم بعد ذلك مدرسة لتخريج الكوميتجي كان يدرّب فيها مهاجري البوسنة الذين يحلون بلغراد وكان له عليهم تأثير كبير . ويوصف هذا الرجل بالهدوء والدعة في حياته الخاصة ، وبأن له سياء المعتزل المتهيب ، لكن له إلى هذا روحاً جافة ، وحشية ، متمردة ، اشتهر كزعيم

للكوميتجى فى مقدونيا بقسوته المتناهية على أتباعه ، وبطولته وبسالته وحضور بديته . وهو بلا ريب رجل شريف ووطنى مستقيم . وقد كان بما يبرر لعينه كثيراً من أعماله الفطيرة اقتناعه بأنه يؤدى عملاً وطنياً .

وعضو آخر فى اليد السوداء هو ميلان سيجانوفتش وكان أكثر استمرارا واستعصاءا على من يريد اكتناحه . وقد جاء فى الأصل ببلغراد مهاجرا من البوسنة وخدم تحت إمرة تانكوستش كوميتجيا فى حرب البلقان ضد تركيا . وفى سنة ١٩١٤ اشتغل موظفا صغيرا فى سكك صربيا الحديدية ويعتقد الكثيرون أنه انضم الى اليد السوداء ليبلغ المسير باشتش أعمالها . وتانكوستش وسيجانوفتش هما الشخصان اللذان ساعدا رأسا على إعداد مؤامرة الاغتيال فى بلغراد فأعطيا ثلاثة الأشخاص الذين وكل اليهم قتل الغراندوق فرانتس فرديناند القنابل ومسدسات براوننج كما أعطياهم سماً يتناولونه بمجرد انجاز عملهم .

وهناك عضو من أعضاء اليد السوداء من قديم هو فلاديمير جاتشينوفتش وكان رجلا ممتعا قام فى البوسنة بدعاية فعالة تقوم على الارهاب سواء فى ذلك ما كتب وما نظم من جماعات ارهابية سرية . وبين أعضاء جمعية اليد السوداء دوشان اوبتركتش صديق حميم للجوبا جوفانوفتش وآخر سكرتير لمحكمة النقض الصربية وثالث سكرتير لجامعة بلغراد ورابع سكرتير بوزارة الخارجية وهو الدكتور ميلان جافريلوفتش الذى تولى بعد ذلك تحرير بولتيكا . هذا الى بعض موظفى السكة الحديدية والبوليس والداخلية مما يدل على أن اليد السوداء لم تكن جمعية عسكرية فقط كما كان يحكى عنها أو كانت منفصلة عن نارودنا اودبرانا معارضة لها كما قيل مرارا . فانه بينا لا نشك فى ان نارودنا اودبرانا كانت تعمل على إنشاء دولة صربية كبرى بالوسائل الثقافية ، وان اليد السوداء كانت تؤثر لقلّة صبرها أعمال الارهاب بالالتجاء الى القتل ، فان الجمعيتين كلتيهما كانتا ترميان الى غرض واحد وتضمان أعضاء مشتركين . فقد كان

ميلان فازتش وهو أحد الأعضاء العشرة الذين ألفوا لجنة اليد السوداء المركزية العليا في بلغراد ، نقول كان في الوقت نفسه على قول قتلة الغراندوق فرديناند سكرتيرا لجمعية نارودنا اودبرانا زودهم بالمال وبالنشرات الثورية . وكانت الجمعيتان تستخدمان في البوسنة نفس « الرجال الموثوق بهم » وتتخذان « اتفاقا » واحدة للاتصال . مثال ذلك ان راده مالوبابتش ، وهو احد الصربيين النمساويين المحكوم عليهم في أجرام بتهمة الخيانة ومن أصبحوا بعد ذلك من رجال نارودنا اودبرانا الموثوق بهم في سنة ١٩١١ ، قدم الى الكولونل ديمترييفتش في سنة ١٩١٣ بواسطة تودوروفتش خفير الحدود وأصبح من ذلك الحين من كبار جواسيس اليد السوداء ومصلحة المخابرات في هيئة اركان الحرب الصربية . فالعلاقة بين الجمعيتين كانت من المتانة بحيث تعذر على لجنة كارنجي التي ابتعثت للتحقيق في حروب البلقان التمييز بينهما

الحركة الثورية في البوسنة

قبل الحرب العالمية بأكثر من نصف قرن كانت هناك خصومة متزايدة قائمة بين السلطات الحاكمة في النمسا والمجر والقوميات المحكومة في الامبراطورية الثنائية . وبعض هذا الجفاء يرجع الى شعور جديد بالقومية كان في خلال القرن التاسع عشر قوة كبيرة آخذة على الدوام في الازدياد ، ويرجع البعض الآخر الى اضطهاد حكومة هابسبورغ في الحكم وانها لم تكن تعبا بأمانى رعاياها السلافيين والرومانيين . وقد كانت هذه الخصومة حادة في البوسنة والهرسك بعد ان احتلتهما النمسا في سنة ١٨٧٨ وخاصة بعد ضمها في ١٩٠٨ وزاد في استياء هذين الاقليمين تعطيل مجلس البوسنة والقوانين الاستثنائية ، التي سنتها النمسا اثناء الانفعال الشعبي الذي احدثته انتصارات صربيا واتساع اراضيها في سنة ١٩١٢ ذلك الاتساع الكبير . لكنه في سنة ١٩١٣ - ١٩١٤ أعيد المجلس في عهد ادارة الكونت بلنسكى وسحبت

القوانين الاستثنائية ، وخولت الصحافة حرية واسعة وبذلت مجهودات كبيرة لتحسين الحالة السياسية والاقتصادية في البوسنة . وكان بلنسكى سلافيا (لأنه بولوني من غاليسيا) فكان أكثر عطفا على الألمانى الصربية من زملائه الألمان والمجريين ، يأمل باتباع سياسة المسالمة في البوسنة أن يحمل السكان الصربيين على اظهار شئ من الولاء للحكم الهابسبورغى كالذى أظهرته العناصر الكرواتية والإسلامية في الاقليمين المضمومين

على أن المجهودات التى بذلها بلنسكى في سبيل التوفيق لم تلق اهتماماً ما بل عدت على النقيض من ذلك من دلائل ضعف النمسا وتداعياها ، فانتفع بها في مواصلة اخملات الصحفية والحركات الهدامة الثورية ضد السلطة النمساوية

وقد كانت في البوسنة أحزاب في سنة ١٩١٤ سماها بعضهم « بالجيل القديم » وكانت تمثل السياسيين والحضرين الذين تربوا في الجامعات . وعلى أن هذه الأحزاب كانت تؤلف المعارضة في مجلس نواب البوسنة فأنها كانت مرتاحة في الغالب الى الالتجاء في أعمالها الى الوسائل المشروعة ترمى الى استخلاص حقوق سياسية من السلطات النمساوية أوسع مما كان لها . وقد كانت هي العناصر التى أملت النمسا أن تقسم بعضها على بعض لأنها أرادت أن تقوم سلطتها على سياسة فرق تسد .

هذا الجيل القديم كان يتباين مع « جيل جديد » يختلف عنه كل الاختلاف . نشأ في صربيا في أوائل القرن العشرين وعرف « بالبوسنة الفتاه » وكان متبرما بالسياسيين والحضرين وبكل شكل شرعى من أشكال المعارضة . فلم يكن يقبل أية فكرة ترمى الى « نظام الحكم الثلاثى » كوسية لأرضاء الألمانى القومية الصربية الكرواتية وكانت قوام هذا « الجيل » شباب « الطبقات الصغيرة العديمة الشأن » أمثال « فلاحين ومدرسى المدارس وابناء القسس وصغار الطلبة » وكان أعضاؤه ضجرين « مستقتلين » جعلوا

في مبدأ أمرهم يتغذون بما كتبه الروس الثوريون والفوضيون أمثال هرتسن وكروبووتكين. وزاد حماسهم ما أصاب العنف من نجاح في ثورة ١٩٠٥ الروسية فطوروا « شريعة العمل الفردي »، إذ اعتقدوا أن أعمال الارهاب القائمة على الاغتيال هي خير وسيلة للقضاء العاجل على طرق السياسيين البوسنويين الملطفة والتخلص من السيطرة النمسية لتمهيد الطريق لقومية (يوجوسلافية) جديدة. وقد كان من شأن الارهاب الثوري أن ساعد على غرضين كبيرين: القاء الذعر في نفوس الهيئات الحاكمة وإذكاء الروح الوطنية بين الجماهير .

والرجل الذي كان له أعظم نفوذ في تنشئة الحركة الثورية في البوسنة وفي إلهام الطلبة البوسنويين الذين نفذوا المؤامرة على الغراندوق، هو فلاديمير جاشينوفتش . أراد أبوه أن يلحقه بالكهنوت فأرسله إلى المدرسة لهذا الغرض فما عثم الولد أن نبذ دراسته وجعل يقرأ كتابات الروس الثورية . وفي سنة ١٩٠٩ وأزمة الضم قائمة ، ذهب الى بلغراد حيث اتصل بزعماء نارودنا اودبرانا، وكانت مشكلة حديثا . كما اتصل بمن هم اعنف من هؤلاء روحا أولئك الذين حبنوا « العمل المباشر » وشكلوا « اليد السوداء » بعد ذلك . وقد مكث في صربيا سنتين وقع في عضونهما تحت تأثير سكرلتش أحد الذين كانوا يروجون الدعاية النشيطة للأفكار الثورية ابتغاء مقاومة النمسا . ثم عاد بعد ذلك الى البوسنة موفداً من قبل نارودنا اودبرانا فجعل على قول أحد أتباعه يخطب وينبه الناس . ثم اختفى كأنه طيف زال وكأنما قد ابتلعت الأرض لما أن احس بصنائع النمسا يقتفون أثره ومن بينهم بعض الصربيين

وفي سنة ١٩١٢ عاد جاشينوفتش إلى بلغراد فلما وجد نارودنا اودبرانا أكثر اعتدالا في رأيه عما ينبغي التحق « باليد السوداء » . واسمه فيها مرقوم اليه برقم ٢١٧ في قائمة الأعضاء التي نشرتها الحكومة الصربية في محاكمة سالونيك . ويقال انه كان يتلقى المال من الجمعيتين وانه حصل على « إعانة دراسية » من مصلحة الدعاية التابعة لوزارة الخارجية الصربية . فمكثته هذه الاعانة من التوجه إلى

لوزان لدراسة أخرى . وهنا اتصل رأساً بمختلف الثوريين الروسين وفي
جملتهم تروتسكى الذى كتب لمجموعة من مقالاته الفرنسية تصديراً موقفاً
عليه بحرفى L. T.

فى تلك الأثناء وجد جاتشينوفتش من وقته متسعاً لأن يسافر إلى البوسنة
وينظم شبان « البوسنة الفتاه » جماعات ثورية سرية تتألف من أشخاص
موثوق بهم لكنهم لا يتصلون بعضهم ببعض إلا على يد وسطاء . وهذه
الطريقة فى التنظيم لازمة من لازمات اليد السوداء التى استمد منها هذه
الفكرة . وقد كان من شأن هذا التشكيل أن زود « اليد السوداء » بشبكة من
الفروع منتشرة فى جميع نواحي البوسنة وغيرها من الأقاليم الصربية فى
النمسا والمجر . ولم يكن الطلبة والفلاحون والعمال الذين تألفت منهم تلك
الجماعات خارج صربيا فى الغالب أعضاء منتظمين فى « اليد السوداء » لكنه
كان باستطاعة اليد السوداء أن تستخدمهم فى التهييج الثورى وأعمال الإرهاب
فى البوسنة . ومن المستحيل تقدير عدد هذه الجمعيات لكن الأكيد أنها كانت
موجودة فى كل المدن المشتملة على مدارس ثانوية . ومن أكثر هذه الجماعات
نشاطاً وعملاً واحدة كانت غيرها يأتمر بأمرها وهى الجماعة التى شكلها
جاتشينوفتش فى بيت المدرس دانيلا ايلتش فى سيرا جيفو « فقد كانت بصورة
ما أكبر معبر عن كافة التيارات الوطنية فى البلاد . وكانت علاقاتها المباشرة
وغير المباشرة بالمهاجرين فى بلغراد وثيقة جداً . »

إن اختصار النزعة الثورية بين شباب البوسنة وهو ما نشأ عن التضايق
من الاضطهاد النمساوى والرغبة فى إيجاد وحدة قومية للصرب والكروات
كما نشأ عن تأثير الكتابات الروسية الفوضوية والدعاية الصربية ، كان بادياً
فى حركة الشبان البوسنويين الدائبة ، إذ يروحون ويغدون مهاجرين بين صربيا

وبلادهم ، فقد كان يحلو لهم الابتعاد عن جو سيطرة هابسبورغ الخانق والتجوال هنا وهناك في هواء بلغراد الذي كان أروح لهم وأكثر ملائمة لنفوسهم . فهنا كان يحسن استقبالهم ، ويسهل عليهم الحصول على الشهادات الدراسية . وهذه المهاجرة من الأشياء التي يسعدك أن تطلع على صورة حسنة لكيفية مزاولتها من حالة الشبان الثلاثة الذين نفذوا مؤامرة اغتيال فرائتس فرديناند :

ولد كافريلو برنسيب في جراهوفو في البوسنة الغربية بين الجبال الموحشة الواقعة على مقربة من حدود دلماسيا . وعلى أنه كان في بادئ أمره مجتهداً في مدرسته فإن أوقات تحصيله كان كثيراً ما يتخللها اشتغاله بالدعاية السياسية حتى أوقف عن التحصيل عدة مرات . وقدم أخيراً إلى سيراغيفو حيث مكث شهراً . وفي مايو سنة ١٩١٢ توجه إلى بلغراد بقصد التحصيل في الظاهر لكنه لما سئل في المحاكمة عن سبب توجهه إليها أجاب بقوله « هذا شأني » ولما كان سفره هذا قد وقع بالضبط في وقت كان جاتشينوفتش يشكل فيه جماعة الكروتس هوك في سيراغيفو ويؤثر في شبانها برأيه عن وجوب القيام بحملة تهيج ثوري ، فمن الراجح أن يكون هو الموعز إلى برنسيب بالسفر إلى بلغراد . وعلى كل فإن برنسيب سرعان ما اتصل برجال اليد السوداء في مقاهي بلغراد ، وعلى قوله هو ، أدخل إلى نارودنا أودبرانا بواسطة سكرتيرها الماجور فاستش الذي كان أيضاً من كبار أعضاء « اليد السوداء » . ولما نشبت حرب البلقان ذهب إلى الحدود التركية ليتدرب عسكرياً مع الكوميتجي تحت إمرة الماجور تانكوستش وهو أيضاً من كبار رجال اليد السوداء المشتغلين بالأرهاب والتهيج . لكنه لما لم يكن يتجاوز السادسة عشرة من سنه وكان ضعيف الجسم ضئيلة أرجعه تانكوستش . على أنه كان قد تشبع بأفكار اليد السوداء عن الإرهاب بالقتل السياسي فأنفق خمسة عشر شهراً التالي في التآمر مع جاتشينوفتش وإيلتش وفي أسفار بين بلغراد وقرية

حاذهكى الواقعة على بعد ستة أميال من سیراجيفو. وقد قضى فى هذه القرية شتاء ١٩١٣ — ١٩١٤ ثم عاد الى بلغراد فى فبراير سنة ١٩١٤ .

وترك ندجلكو شابرینوفتش الذى ألقى القنبلة على الغراندوق النمى ، المدرسة لأنه لم يتقدم فيها واختلف مع والده . وقد ظل ينتقل من حرفة الى أخرى ويتشاجر مع عدة من أصحاب الأعمال حتى ذهب الى بلغراد واشتغل هناك فى حانوت يطبع المنشورات الفوضوية فكان من ذلك الحين أن أخذ يتشرب الآراء الفوضوية . وعاد الى سیراجيفو مريضاً فاشتغل بأضراب لصفاء فى الحروف وتقدمت ضده شكاوى حملت ولاية الأمور فى سیراجيفو على نفيه فلجأ ثانية الى بلغراد . وقد اتصل فيها برنسيب ، كما كان له بعض الاتصال بجمعية نارودنا أودبرلنا . وأعوزه بعض المال للعودة الى سیراجيفو فنصح له صديق بالالتجاء الى هذه الجمعية ففعل وأعطاه الما جور فاستش . وكان أيضاً عضواً فى جمعية اليد السوداء وكان بينه وبين برنسيب مودة ، خمسة عشر ديناراً وكية من مطبوعات نارودنا أودبرلنا ثم زوده بقوله « كن دائماً صرياحياً » . وتشاجر فى سیراجيفو مع بعض أصدقائه فغادرها الى تريستا حيث اشتغل فى إحدى الصحف ثم بارحها الى أباتسيا فى اكتوبر ١٩١٣ حيث أخبر صديقاً بعزمه على قتل الغراندوق فرانتس فرديناند . وقد ساعده هذا الصديق على العودة الى بلغراد حيث وظفه فى مطبعة الحكومة الصربية وكان مديراً لها داشتش أحد مؤسسى جمعية نارودنا أودبرلنا . ولقد تلقى أثناء اشتغاله بالمطبعة قصاصة من إحدى الصحف عن زيارة الغراندوق المقبلة للبوسنة فعقد النية فى الحال على تنفيذ عزمه وهو اغتيال الغراندوق فرانتس فرديناند . ثم استبان عاجلاً أن بعض ضباط « اليد السوداء » مستعدون أن يمدوه واثنين من المهاجرين بالقنابل والمسدسات اللازمة .

وثالث ، عضو فى ثالث الطلبة الذين تأمروا فى بلغراد على قتل

الغراندوق هو تريفكو جرابز . طرد من مدرسة توزلا العليا للطمه مدرسا على وجهه فذهب الى بلغراد لاتمام دراسته وهناك التقى برنسيب وغيره من المهاجرين فتشبع نفسه بالروح القومية الصربية وتاقت الى الاشتراك في الاغتيالات السياسية .

وقد نشأت فكرة الاغتيال السياسى فى شتاء ١٩١٣ - ١٩١٤ عند برنسيب وجاتشينوفتش وايلتش ، وكانت هى الغرض من اجتماع فى تولوز بين جاتشينوفتش وآخرين . لكن الراجح أن هؤلاء المتآمرين لم يكونوا قرروا بعد ما إذا كان الغراندوق النمسوى أو الجنرال بوتوريك حاكم البوسنه هو الذى يكون الضحية . وقد كان هذا الجنرال مكروها لاعتباره مسئولا مباشرة عن قسوة الحكم النمسوى فى البوسنه . والظاهر أنهم كانوا فى أول الامر يميلون الى قتل حاكم البوسنه دون وريث عرش النمسا .

وغير بعيد أن يكون برنسيب قد كون فى نفس الوقت « تصميمه » — كما يقول — على قتل الغراندوق ؛ والراجح أن هذا التصميم قوى فيه ان لم يكن حقيقة أوحى به سيجانوفتش فى بلغراد وكان رفيقا حميا للمهاجور تانكوستش ، حصل منه فيما بعد على مسدسات برونج لاستعمالها فى قتل الغراندوق . وعمل كل فأن لنا أن نستخلص عما تقدم أن جاتشينوفتش تأمر بالاشتراك مع برنسيب وايلتش على إرهاب ولاية الأمور النمسيين باغتيال فرانتس ، فرديناند أو بوتوريك هو الراجح وذلك فى اجتماع تولوز فى شهر يناير ١٩١٤ لكن المؤامرة لم تسفر عن شيء إما لأن القتل خاتهم شجاعتهم ، وإما لأنهم فى بلغراد قرروا أن يكون الغراندوق هو الضحية : وقد ذهب برنسيب الى بلغراد فى فبراير ١٩١٤ بعد أن استقر رأيه على اغتيال الغراندوق واتصل هناك بسيجانوفتش وبواسطة اتصل بالمهاجور تانكوستش فلما وصلت قصاصة الصحيفة تعلن عن عزم الغراندوق على زيارة البوسنه انتهزها الشبان الثلاثة باعتبارها فرصة طيبة لتنفيذ الاغتيال الذى دار البحث فى شأنه . وكتب

برنسيب الى ايلتش في سراجيفو ينبئه بعزمه على اتيان ذلك وأنه سيحضر
ومعه أسلحة . ومهما يكن من أمر فإن الذي أوحى بالمؤامرة جماعة الثوريين
البوسنويين — جاتشينو فتش و برنسيب وايلتش وغيرهم — وجميعهم كانوا
في بلغراد وعلى اتصال فيها وثيق بأعضاء جمعية اليد السوداء .

إعداد المؤامرة في بلغراد

في مارس ١٩١٤ أعلنت إحدى صحف زاجرب أن الجيش النمساوى
سيقوم بمناوراته الصيفية في البوسنة وأن الغراندوق فرانتس فرديناند سيتولى
القيادة . فأزعج هذا الخبر بادی الأمر الجماعة الثورية الصغيرة الموجودة في
سراجيفو إذ خشيت أن تفضى زيارة الغراندوق الى تقوية ساعد الكرواتيين
وشد أزر الزعماء السياسيين المستعدين لقبول بعض تساهلات من هابسبورغ
فيكون ذلك بمثابة ضربة تصيب أمانى اليوجوسلافيين فى الوحدة القومية
والاستقلال . على أن الانزعاج لم يلبث أن سرى عن الجماعة لأنها سرعان
ما استبانت الفرصة سانحة لارتكاب خير اغتيال سياسى ممكن ، اغتيال من
النوع الذى كان جاتشينو فتش يحرض عليه من أمد طويل . وهنا فكروا فى
المهاجرين الصربيين الموجودين فى بلغراد والذين يفوقونهم تهوراً وتعصباً
وقرروا اطلاعهم على خبر زيارة الغراندوق المنوية

ولما تلقى شابرينو فتش الخبر أطلع برنسيب عليه فى مقهى كان من عاداتهما
أن يجتمعا فيه وعرض برنسيب على رفيقه شابرينو فتش بعد ذلك أن يشترك
معه فى قتل الغراندوق وكان هذا يؤثر اغتيال حاكم البوسنة لأنه رمز الاضطهاد
النمساوى لكنه رضى بفكرة برنسيب . وحدث أن جرابز جاء من بلده الى
بلغراد فأطلع برنسيب على قصاصة بخبر زيارة الغراندوق فأخبره هذا انه
وشابرينو فتش مستعدان للعمل فأجابه جرابز وكذلك أنا . ومن ذلك الحين
جعل الشبان الثلاثة يبحثون فى الطرق والوسائل لتحقيق هذا المشروع

وكان يتردد على المقهى السالف الذكر ميلان سيجانوفتش البوسنى المولد وأحد الكومتيجين الصربيين دربه الماجور تانكوستش على عمله هذا وقاتل تحت امرته فى حرب البلقان ثم انضم الى جمعية اليد السوداء تحت رقم ٤١٢. فكان كثيراً ما يتحدث مع برنسيب عن الاضطهاد اللاحق بالبوسنة فلما عرضا لفكرة قتل الغراندوق وافق عليها سيجانوفتش كل الموافقة وعرض أن يقدم الأسلحة والوسائل اللازمة. ولما كانت القنابل غير مضمونة العاقبة وتنفجر بعد مضى بضع ثوان فقد استقر رأيهم على أن يزود القتلة بالمسدسات أيضاً، والحصول عليها الى سيجانوفتش وجهه شطر زملائه أعضاء اليد السوداء ومن بينهم الماجور تانكوستش الذى حصل من ديمتريفتش على المال اللازم لشرائها. وأخبر سيجانوفتش الشبان أيضاً بأن بعض الموظفين الصربيين سيساعدونهم على اجتياز الحدود بواسطة «النفق» أو السكة الحديدية الممتدة تحت الأرض، ويجمعون بينهم وبين بعض الرجال الموثوق بهم على حدود البوسنة. وقد جعل يدرّبهم عملاً بإشارة تانكوستش على استعمال المسدسات فى منزله لاطلاق النار على مقربة من بلغراد. وقبل أن يغادر الطلبة بلغراد بقليل أخذ سيجانوفتش أحدهم وهو جرابز الى مسكن تانكوستش لأن هذا أحب أن يقتنع بأن الشبان مصممون على غرضهم وأنهم يعرفون كيف يستعملون الأسلحة.

أما ديمتريفتش فكان أبعد من سواه فى هذا الأمر عن الظهور. وقد صرح الطلبة بأن سيجانوفتش كان يشير خفية الى «رجل»، كان عليه أن يستشير فى الحصول على الأسلحة، وكان يلوح انه يتلقى التعليمات عن موعد سفرهم وعن أشياء أخرى من شخص مهم.

وقد سافر القتلة الثلاثة من بلغراد الى سيرا جيفو قبل وصول الغراندوق الى البوسنة بثلاثة أسابيع تقريباً تجنباً للشبه وتخلصاً من القبض عليهم. وزودهم سيجانوفتش قبل سفرهم بست قنابل وأربعة مسدسات برونجوشى من الذخيرة

كما أعطاهم ١٥٠ ديناراً نقداً وقليلًا من سيانيد البوتاس ليتتجروا به عقب قتل الغراندوق تفاديا من احتمال اعترافهم أو الإقضاء بأقوال يمكن أن تعرض الضباط الصربيين الذين ساعدوهم في بلغراد على اعداد المؤامرة للاتهام. كذلك زودوا بخريطة للبوسنة تبين الطرق التي كان عليهم أن يسلكوها ومحطات الجندرمة النموية التي كان ينبغي أن يعنوا بتحاشيها.

وكان دانيلا يلتش الذي كان يرأسل برنسيب قد جمع في تلك الأثناء بضعة رجال في سيرا جيفو ليسلحهم بما يزيد عن حاجة القتلة الثلاثة من أسلحة كانوا سيحضرونها من بلغراد.

رحلة القتلة من بلغراد الى سيرا جيفو

استقل القتلة الثلاثة زورقا من بلغراد الى شاباتش ويدهم مذكرة من سيجانوفتش الى الماجور بوبوفتش قومندان الحدود في شاباتش يبلغونه معها بأنهم مبعوثون من قبل الماجور تانكوستش فلما وصلوا الى شاباتش اهدتوا على عجل الى الماجور بوبوفتش في مقهى وأخبروه بأنهم مسافرون خفية الى البوسنة. وكان يلوح انه عالم برسائتهم من تانكوستش الذي قابله في بلغراد قبل ذلك ببضعة أيام. فعاد الطلبة الثلاثة الى الخفر وحصل لهم على أمر بتسفيرهم بنصف أجرة على السكة الحديدية بين شاباتش ولوزنكا حيث يجتازون الحدود. ثم زودهم ببطاقة الى سلطات الحدود طلب فيها الى الموظفين المعنيين بأن يقدموا لهم المساعدة. وأعطاهم جوازا مزورا يظهر أحدهم بأنه محصل ضرائب والآخرين مساعدين له. ووصلوا الى لوزنكا وقدموا البطاقة الى ضابط الحدود فرتب معهم أن يعودوا اليه في اليوم التالي فلما عادوا اتفق معهم على أن يسافر شابرينوفتش بالجواز المزور الى سفورنيك وهناك أعانه أحد الموظفين الصربيين على اجتياز الحدود وركب عربة عبر البوسنة الى توزلا. أما برنسيب وجرايز ومعهما "قنابل والأسلحة فهر بهما موظف آخر

من طريق أخرى وسلمهما الى فلاح قضيا الليل في كوخه . وفي اليوم التالي انتقلا الى فلاح آخر قادهما في أمان الى بريوز في البوسنة حيث قابلهما ناظر مدرسة يدعى شوبريلوفتش من رجال نارودنا أودبرنا « الموثوق بهم » فرافقهما هذا الى بيت فلاح واتفق على أن يقلهما ابن الفلاح في عربة الى توزلا ومعهما الأسلحة . واستقلا العربة فلما بلغا مكانا يسمى لوبارتركا ابن الفلاح يسير بالعربة وحده وفيها الأسلحة مخبأة في مكان حريز وعرجا تعريجة لحقاه بعدهما ثم استقلا العربة الى توزلا فبلغاها في الصباح الباكر ووجدوا كل شيء معدا لاستقبالهما .

ولما كان برنسيب وجرايز لا يملكان جوازي سفر للبوسنة فقد خشيا أن يفتشا عند دخولهما سيرا جيفو فيفتضح أمرهما فاتفقا مع جوفانوفتش على أن يخبيء الأسلحة في بيته الى أن يأتي شخص مأمون من سيرا جيفو فيتسلما . واصطلحوا على إشارة بعينها يديها الرجل المأمون لتسلم اليه الأسلحة بموجبها . وقد كان وذهب ايلتش الى توزلا فتسلم الأسلحة بعد أن نقلهما اليه جوفانوفتش الى دبوز في طريق سيرا جيفو . وعاد ايلتش أدراجه الى سيرا جيفو بالقطار ومعه الأسلحة . وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم الذي كان مقررا أن يزور الغراندوق وقرينته سيرا جيفو فيه تقابل برنسيب وشابرينوفتش مع ايلتش وتسلبا منه بعض الأسلحة التي أحضروها من بلغراد ، فأخذ برنسيب مسدسا من طراز براوننج ، وأخذ شابرينوفتش قنبلة وتناول جرايز مسدسا وقنبلة ثم تفرق الثلاثة ليأخذ كل مكانه الذي خصص له في الطريق التي قدر أن يمر منها الغراندوق .

جريمة إغتيال ٢٨ يونيه ١٩١٤

كانت سيرا جيفو منذ ٥٠٠ عام ولا تزال حاضرة البوسنة ، وهي مزدحمة تنهى بازدهامها الى واد ضيق عند سفوح تلال عالية ، في وسطها نهر صغير يحف نصفه في الصيف ، وشوارعها المفضية إلى الكنيسة في نواحيها القديمة معوجة ضيقة . لكن الرصيف المعروف الآن برصيف ستيتفانوفتش يعرض شارعاً متوسط السعة قامت المنازل على أحد جانبيه وامتد على جانبه الآخر سور واطئ . وهذا الشارع يؤدي إلى دار البلدية ويتصل بالجهة الأخرى من المدينة بجسور عدة وفي تلك الجهة مسجد من المساجد الكبرى وفيها مقر حاكم البوسنة . وقد وزع ايلتش القتلة على امتداد الرصيف الآف الذكر اذ كان مقرراً أن يكون الطريق الذي يمر منه الغراندوق وزوجته ، وزودهم بالقنابل والمسدسات وكانوا عديدين . فوقف ثلاثة هم محمدباشتش وشوبريلوفتش وشابرينوفتش على الجانب الذي يلي النهر على مقربة من جسر كومورجا ، ووقف ايلتش وبوبوفتش عبر الشارع بجوار البنك النمساوي المجري . ووقف برنسيب أولاً على بعد منهما بقرب الجسر اللاتيني ثم انتقل الى ركن من شارع فرانسوا جوزيف الضيق حيث وقع الاغتيال الفعلي أخيراً ، وعلى بعد منه و صوب دار البلدية كان جرابز يسير جيئة وذهاباً ويفتش عن مكان يكون فيه بعيداً عن تدخل البوليس .

طلع نهار الأحد ٢٨ يونيه ١٩١٤ مشرقاً بهيجاً زينت الشوارع فيه بالأعلام عملاً برغبة المحافظ تكريماً للغراندوق ، وعلقت صورته في نوافذ كثيرة ، واحتشدت الجموع لرؤيته . فلم يحاول صد تلك الجموع بضرب نطاق من البوليس كما فعلوا في سنة ١٩١٠ حينما زار المدينة فرانسوا جوزيف . ورحبت عدة من الصحف الموالية بمقدم الغراندوق . لكن صحيفة نارود الصربية وكبرى الصحف اكتفت بنشر خبر قدوم الغراندوق مجرداً من كل تعليق .

ووصل فرانتس فرديناند ومن معه الى سيراجيفو في الساعة العاشرة صباحا فبعد أن استعرضوا الجنود استقلوا السيارات الى دار البلدية حيث الاستقبال الرسمي . وكان وريث العرش مرتديا بذلته العسكرية الكاملة متحليا ينشاناته جميعا . وكانت زوجته مرتدية ثوبا أبيض وقبعة كبيرة وجالسة إلى جانبه، وقبلتها الجنرال بوتوريك حاكم البوسنة العسكرى الذى كان يشير الى كل ما يستحق الرقوية أثناء السير

وكان محافظ المدينة وحاكم دار البوليس فى عربة أمامهما يكشفان الطريق وخلفهما سيارتان أخريان تقلان بعض حاشية الغراندوق ورجال الحاكم وبينما هذا الموكب يقترب من جسر كومورجا والجنرال بوتوريك يوجه التفات الغراندوق الى ثكنات جديدة إذا شابرينوفتش يضرب كابسول قبلة بأحد العمود القائمة فى الطريق ويتقدم إلى الأمام ثم يلقي القبلة على سيارة الغراندوق . ولحظة السائق إذ ذاك فأطلق لسيارته العنان فسقط المقدوف على ثنيات غطاء السيارة المكشوفة ثم ارتد إلى الأرض . وفى رواية أخرى تناوله فرانتس فرديناند بثبات عجيب وألقاه فى الطريق فانفجر انفجارا عالى الصوت وحطم جانبا من السيارة التالية وجرح القائم مقام مريئس وبعض النظارة جراحا بليغة .

وقفز شابرينوفتش إذ ذاك الى حوض النهر من فوق السور القائم عليه وكان النهر جافا تقريبا فى ذلك الفصل من السنة . وحاول الهرب لكن بعض رجال البوليس قبضوا عليه على عجل وقادوه الى التحقيق . وفى تلك الأثناء بادرت السيارة الرابعة الى سيارة الغراندوق حيث لم يصب أحد بضرر اللهم الا خدش أصاب الغراندوق فى وجهه من كابسول القبلة الطائر على الراجح . وأمر الغراندوق جميع السيارات بالوقوف ليعلم مبلغ الضرر الذى وقع ، ولما رأى أن المصابين قد نقلوا الى المستشفى قال فى هدوء وشجاعة صميمين « هلموا . هذا معتوه نسر أيها السادة فى طريقنا . »

وهكذا سار الموكب الى دار البلدية مسرعاً في أول الأمر، ثم تمهل كأمر
الغراندوق ليراه الناس جيداً . واستقبلت الغراندوقة وفداً من السيدات
المسلمات بينما كان على الغراندوق أن يستقبل موظفي المدينة . وشرع المحافظ
الذي كان قد أعد خطبة الترحيب في تلاوتها كما لو لم يحصل شيء . لكن خطبته
لم تكن تناسب المقام ، فقد كان الكلام فيها عن ولاء شعب البوسنة وعن
الفرح العظيم الذي شمله حين ترحيبه بوريث العرش . وكان فرانتس فرديناند
بطبيعته سريع الغضب صريحاً فقاطع المحافظ بخشونة قائلاً : « كفى ! ماهذا !
أزوركم فتقابلونني بالقنابل ! » ومع ذلك فقد سمح للمحافظ بإتمام خطبته ، وكانت
ختام الرسميات في دار البلدية .

وتساءلوا إذ ذاك أيتبعون البرنامج الموضوع فيمرون في شارع فرانسوا
جوزيف الضيق وموضع الازدحام في المدينة ويزورون المتحف ، أم يسرون
حذراً من اعتداء آخر رأساً إلى مقر الحاكم على الجانب الآخر من النهر حيث
يتناولون طعام الغداء ؟ فأصر الغراندوق على التوجه إلى المستشفى ليستفسر عن
حالة الضابط الذي جرحته قبلة شابرينو قتش . وكان من رأى الحاكم العام
وحاكم دار البوليس أن من غير المحتمل أن يقع اعتداء آخر في نفس اليوم .
لكنهما قررا أن لا يمر الموكب من شارع فرانسوا جوزيف الضيق طبقاً
للبرنامج الموضوع بل أن يتوجهوا إلى المستشفى والمتحف من شارع رصيف
آبل رأساً وفي سير سريع . وعليه استقل الغراندوق وزوجه وبقية الحاشية
سياراتهم ووقف الكونت هاراخ على سلم سيارة الغراندوق الأيسر ليقية
الاعتداء من جانب الرصيف المحاذي للنهر . وعند بلوغ شارع فرانسوا جوزيف
عرجت سيارة المحافظ التي كانت في المقدمة إلى اليمين ودخات فيه وفاقا للبرنامج
الأصلي . وإذا يحاول سائق سيارة الغراندوق أن يتبع سيارة المحافظ صاح به
بوتوريك : « هذا هو الطريق الخطأ ! سر رأساً في شارع رصيف آبل ،
فحرك السائق الفرامل ليرتد عن الطريق ، وفي ذلك الركن بعينه حيث

وققت السيارة لحظة ما اشأماها ، كان برنسيب واقفا بعد أن غير موقفه الأول على جانب الرصيف المحاذي للنهر ، فأتاحت له هذه الصدقة خير فرصة بمكنة فتقدم وأطلق عيارين ناريتين اخترق أحدهما رقبة الغراندوق فتدفق الدم من فمه ونفذت الرصاصة الثانية ، ولا يبعد أنها كانت مصوبة الى بوتيوريك ، الى أحشاء صوفيا خوتك . فاستدارت السيارة وأطلقت لسرعتها العنان فوق الجسر اللاتيني صوب مقر الحاكم . وكانت آخر كلمة لفظها الغراندوق لزوجته : « صوفيا ! صوفيا ! لا تموتى بل احيى لأولادنا ! » لكن الموت أطبق على كليهما فى بضع دقائق ، وكانت الساعة الثانية عشرة من صباح يوم الأحد ٢٨ يونيو ١٩١٤ .

الفصل الثالث

تبعة جريمة سيرا جيفو

أتينا في الفصلين السابقين الخاصين بمشا كل البلقان وفرا تيس فرديناند ومؤامرة سيرا جيفو على موجز للحوادث وبيان للأحوال التي ساعدت على مأساة سيرا جيفو المشؤومة . وكان حرياً بما أوردنا أن يعين التبعة في هذه المأساة الى حد ما . لكننا تركنا عدة مسائل قام من حولها جدل كثير رأينا من الخير أن نعالجها الآن على انفراد قبل أن نحاول الادلاء باستنتاجات نهائية فيما يتعلق بالتبعة النسبية في هذه الجريمة التي كانت السبب المباشر للحرب العالمية . وفي مقدمة هذه المسائل المعرضة للجدل البواعث التي حملت القتل على ارتكاب الجريمة ، ونقص حماية البوليس النمسي ، والدور الذي قام به ديمتري فنتش وجمعية اليد السوداء ، وعلم المسيوباشتش بالمؤامرة وعدم احباطه اياها ، والقول بأن صربيا حذرت النمسا .

بواعث القتل

المألوف أن تختلط بواعث المراء وأن يشكل على الناس غالباً فهمها كل الفهم . وهذا على الأخص هكذا فيما يتعلق بالقاتل السياسي الذي يتوقع كل التوقع أن تذهب حياته نتيجة من نتائج عمله . وطبيعي أن تنتظر من القاتل أن يسوق مختلف الأسباب كباعثه على الجريمة ، وأن نجد أن مختلف المتآمرين يختلف بعضهم عن بعض في التتويه ببواعثهم المتباينة . وهذه في الواقع هي حالة أولئك الشبان الذين تأمروا على فرا تيس فرديناند . ويصح أن يعتبر برنسيب وشابرينو فنتش في ضوء واحد ليس فقط لأنهما يعتبران محرضين أو

لأنهما استمدا الشجاعة من اعتقادهم فأقهما بالفعل على اغتيال الغراندوق ولكن أيضا لأن بواعثهما كانت واحدة .

وخير ما يستند إليه للحكم على بواعثهما أقوالهما التي فاها بها عقب القاء القبض عليهما وأثناء محاكمتها ، مع مراعاة أنهما كانا يتكلمان كسجينين متهمين بالقتل والخيانة . وعلى هذا يصح القول بأن بواعث برنسيب وشابرينو قتش تنقسم الى ثلاثة أقسام ، أولها الباعث الشخصي الناشئ من تبرمهما بالحياة ورغبتهما في أن يكونا شهداء وأبطالا من طراز بوجدان زيراجتش الذي أطلق على حاكم البوسنة خمسة أعيرة نارية في سيرا جيفو واتحر . وقد كان برنسيب وشابرينو قتش تعيسين في وطنهما لا يتلقيان من أبويهما إلا قليلا من المعونة المالية لا تغنى ولا تسمن . وقد طالما تشاجر شابرينو قتش مع أبيه وبعض إخوانه الاشتراكيين في سيرا جيفو . وغادر كلا الشابين المدرسة مبكرين ولم يزاولا عملا ما . وشد كلاهما رحالهما الى بلغراد حيث وقعا تحت تأثير الدعاية الفوضوية المنطوية على الارهاب ، وسمعا الناس في المقاهي يتكلمون عن اضطهاد النساء وعن الدور الذي سوف تلعبه صربيا في المستقبل لتحرير صربيا البوسنة . وكلاهما وبخاصة شابرينو قتش كانا يشكوان من اعتلال صحتهما وقلة ذات يدهما حتى باتا فريسة بالفعل للسل . وقد ماتا في السجن ولم يعمرافيه طويلا فقضى شابرينو قتش في يناير سنة ١٩١٦ وبرنسيب في ربيع سنة ١٩١٨ ولقد كانت الحياة شحيحة لا تدخر لها شيئا ، لكنهما منيا نفسيهما بأن يكون لهما على الأقل مجد الشهيد إذا احتديا مثال زيراجتش

وباعث آخر للجريمة هو الرغبة في الانتقام من النساء لحكم الاضطهاد في البوسنة وذلك باثارة المعارضة عليه وتمهيد الطريق لثورة تضع حدا له . والباعث الثالث ملحق بهذا إذ يدور حول إحداث ثورة بين الصرب في البوسنة والهرسك وتمهيد الطريق بذلك لسلخ هذين الأقليمين عن المملكة الثنائية وضئهما إلى صربيا لتكون جميعها نوعا من دولة قومية لسلاف الجنوب .

وقد أشار برنسيب الى هذا أثناء التحقيق معه فأبدى خشيته من أنه لو عاش فرانتس فرديناند واعتلى العرش لكان أقدم على اصلاحات قوية كتففيذ خطته فى الحكم الثلاثى بتوحيد سلافي الجنوب . لا بالاتحاد مع صربيا بل باعطائهم مركزاً عضوياً تحت حكم هابسبورج يماثل مركز الألمان فى النمسا والمجرىين فى المجر .

وقد كان شابرينوفتش متفقاً مع برنسيب فى العمل لأعداد ثورة فى البوسنة تفتح الطريق لاتحاد جميع الأقطار الصربية التى كانت تؤلف فى يوم ما امبراطورية اصطفان دوشان . لكن نشأته السياسية كانت تختلف عن نشأة برنسيب بعض الاختلاف فقد كان فى مبدأ أمره يعتق الفكرة القوضية والثورية الاجتماعية ، فلما عاش فى بلغراد واختلط بالكوميتهجين أصبح أميل إلى المذهب الوطنى

هذه هى البواعث الثلاثة الأساسية التى كانت تحدد أكبر المتآمرين . لكن أيها كان أقوى من الآخر ؟ حالتها الشخصية النفسانية أو رغبتهما فى الانتقام من النمسا أو القومية الصربية . من الصعب تغليب باعث على آخر وان كان بعض كتاب اليوم من الصربيين والعاطفين يرجحون باعث القومية الصربية . والمتهمان نفسهما لم يكونا يعرفان فى سنة ١٩١٤ أى باعث كان يحدهما أقوى من غيره . وقد سئل برنسيب عما إذا كان قد أقدم على فعلته مدفوعاً فى الأصل بالرغبة فى الانتقام أو بفكرة الوحدة القومية . أو بعبارة أخرى أكان الباعث الشخصى أم السياسى هو الغالب — فأجاب « الشخصى لكن الآخر كان أيضاً قوياً وهما متكافئان . »

وقد طالما قيل فى تخفيف وقع الجريمة أو ايضاحها أن إقامة الغراندوق للناورات فى البوسنة كان تحرشاً جريئاً منه . وأن الصربيين خشوا أن تكون نيته منصرفة الى مهاجمة صربيا ، وانهم غضبوا لزيارته لسيراجيفو فى يوم عيد صربى قومى هو عيد فيدوف دان . بيد أن أقوال برنسيب

وشابرينو قتش نفسها لم تشر الى أن شيئاً من هذا كان له أى تأثير كبير عليهما .
فهما لم يشرعا فى تنظيم مؤامرتهم إلا بعد أن علما بأن الغراندوق ينتوى النزهة فى
البوسنه وقبل أن يشعرا بأنه سيزور سيرا جيفو فى عيد فيدوف دان . وقد
قررا اغتيال الغراندوق فى البوسنه لا لأنهما غضبا لزيارته أو خشيا اعتداء
على صربيا ولكن لأن وجوده فى البوسنه يتيح لهما فرصة حسنة لا كساب
البواعث الثلاثة التى أسلفنا الإشارة اليهما الأثر الفعال

المسيو باشتش

ونارودنا أودبرانا واليد السوداء

أشرنا فى فصل سابق الى نشاط نارودنا أودبرانا واليد السوداء ورجحنا
علم المسيو باشتش وبعض أعضاء وزارته بوجود مؤامرة . لكنه لى تدرك
مسئولية صربيا وتقوم لديك الأدلة الكافية عليها لا بد من أن نقول لك
شيئاً عن علاقة هاتين الجماعتين احدهما بالأخرى . وكليهما بالحكومة
الصربية .

من الجائز أن تعتبر الحكومة الصربية مسئولة عن أعمال نارودنا أودبرانا
فقد نظم هذه الجماعة علناً بعض الصريين النابيين فى جملتهم بعض أعضاء
الوزارة الصربية سنة ١٩٠٨ . وقد كان مقر لجنهتها المركزية فى عاصمة الصرب
ورئيسها هو الجبرال يانكوفتش . ونشرت قوانينها الأساسية وأذيعت أعمالها
التي زعموا أنها « ثقافية » ، وأعلن بعض أعضاء الحكومة الصربية موافقتهم
عليها وكانت صلات الجمعية بتلك الحكومة وثيقة ودية دائماً . وكان الغرض
فى الأصل من انشائها اعداد الوسائل اللازمة للحيلولة بالقوة دون تنفيذ
اتنمسا سياستها الخاصة بضم البوسنه والهرسك . لكنه بعد أزمة سنة ١٩٠٩
عنده تخات الروسيا عن مناصرة الأمانى الصربية وقطعت صربيا عهداً للنمسا
بأن تعيش واياها جارتين فى سلام . حوت نارودنا أودبرانا أغراضها فى

الظاهر من استعمال القوة ضد النساء الى العمل الثقافى ، الرامى الى تنشيط الشعور القومى فى مملكة الصرب .

ومن المعلوم انها تابعت فى البوسنة دعاية سرية بغية قلب الامور فهربت اليها نشرات صربية قومية وجندت فيها « رجالا موثوقا بهم » مكلفين فى الظاهر بتنظيم جمعيات محلية بريئة للتعليم والرياضة البدنية ومنع المسكرات ، فى حين كانت وطيفتهم فى الباطن إثارة الشعور بالقومية الصربية وتمهيد الطريق لاتحاد السكان الصربيين فى المملكة الثنائية بصربيا . فكانت تساعد الشبان البوسنويين الذين يأتون الى بلغراد للحصول أو للتأمر على اغتيال رجال السلطة النسوية أو الثورة عليهم ، وتشجعهم . وعلى أن نارودنا أودبرانا كانت فى الراجح تجهل بصفة رسمية مؤامرة اغتيال فرانتس فرديناند فأن رجالها الموثوق بهم ووسطاءها المبثوثين هنا وهناك للاتصال السرى بين صربيا والبوسنة كانوا بلا ريب يستخدمون من رجال اليد السوداء ويستعين بهم الشبان الثلاثة الذين بارحوا بلغراد إلى سيرا جيفو لارتكاب الجريمة . فهذا النشاط المتشعب بين الجمعيتين الصربيتين المتباينة أغراضه فى كل منهما حسبما تدل الظواهر ، قد سهله ويسره كون سكرتير نارودنا أودبرانا ميلان فاستش وغيره من أعضائها كانوا أعضاء أيضا فى اليد السوداء . وبذلك يمكن عد الحكومة الصربية مسئولة عن نظام كان عماله السريون فى البوسنة يمهدون الطريق لإثارة الفوضى فى النساء والمجر ويستخدمون لمساعدة قتلة الغراندوق على السفر الى سيرا جيفو ومن ثم كانت النساء محقة فيما طلبته فى بلاغها النهائى من وجوب حل نارودنا أودبرانا .

أما علاقات الحكومة الصربية بجمعية اليد السوداء فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف . فقد تفرعت هذه الجمعية عن نارودنا أودبرانا يوم أخذت عصبة الضباط العسكريين الذين قتلوا الملك اسكندر والمملكة دراجا فى سنة ١٩٠٣ تبرم بأعمال نارودنا أودبرانا الموسومة بالثقافة وتسأم سياسة

حزب باشتش الراديكالى التى كانت تقضى بتأجيل العراك النهائى مع النمسا إلى أن تحرر صربيا الصربيين الخاضعين للحكم التركى . فقد وحدث هذه العمبة مواردنا الداخلية واستوثقت من تأييد روسيا وفرنسا . كانت اليد السوداء جمعية سرية تستخدم الأرهاب وكان أعضاؤها مرموزاً إليهم بأرقام بدل الأسماء . وقد ظلت قوانينها الأساسية الغريبة التى لم يوجد مثلها الا فى القرون الوسطى مكتومة لم تنشر الا فى محاكمة سالونيك المشهورة سنة ١٩١٧ ولم تكن الحكومة الصربية تجهل وجود هذه الجمعية بل كانت تعلم علم اليقين كما كان الجميع يعلمون به والصحف تبحث فيه . بيد أن الراجح هو أنها لم تكن بادية الأمر ملة بالتفاصيل عن أعضاء الجمعية وأعمالها الخفية . وكان فى جملة أعضائها ديمترييفتش الذى رقى فى سنة ١٩١٣ إلى رئيس مصلحة المخابرات فى هيئة أركان حرب الجيش الصربى والماجور تانكوستش الذى كان أحد زعماء الكومنتجى المشهورين وعدد كبير من الضباط الآخرين . وقد كانت الجمعية فى البدء تعتبر جماعة من رجال العسكرية لكنها كانت تضم عدداً عظيماً من الموظفين المدنيين من بينهم ثلاثة من موظفى وزارة الخارجية الصربية على الأقل .

ان النزاع الحزبى الداخلى الذى كان قائماً بين حزب باشتش الراديكالى والضباط العسكريين المتمين الى اليد السوداء كان يدل به كثيراً على أن ديمترييفتش وقتله سيرا جيفولم يكونوا بحال من الأحوال متفقين مع الحكومة الصربية وانهم كانوا أدنى الى أن يخفوا عنها كل علم بمؤامرة الاغتيال . وهذا صحيح فى الراجح فان ثمة دلائل عديدة بما ظهر فى محاكمة القتلة على أن أصدقاء هؤلاء من رجال العسكرية كانوا يحذرونهم ويحضونهم على تجنب ما من شأنه أن يحيط السلطات المدنية الصربية بخبر المؤامرة .

لذلك يمكن أن تعتبر بما لا يحتمل الشك أن المسيو باشتش ووزارته لم يكن لها دخل بتدبير الجريمة ، فقد دبرت من ورائها وكانا يجهلان أمرها

حتى أوشك الاستعداد لها أن يتم وأصبح الشبان على أهبة الرحيل من بلغراد إلى سيرا جيفو . عندئذ اتصل بالحكومة خبرها . ودلينا على ذلك أقوال المسيو لجوبا جوفانوفتش وزير المعارف الذي أبان أن المسيو باشتش علم في أواخر مايو أو أوائل يونيو أنه أشخاصاً بعينهم يستعدون للسفر إلى سيرا جيفو لاغتيال الغراندوق وأنه أخبر بعض أعضاء وزارته بذلك وإن الأوامر صدرت إلى سلطات الحدود بوقف القتلة لكنها لم تنفذ لأن تلك السلطات كانت أعضاء في جمعية اليد السوداء فكتبت إثر ذلك تقول إن الأوامر بلغت متأخرة وبعد أن اجتاز الشبان الحدود . وقد أسلفنا بيان الأسباب التي تحملنا على تصديق أقوال وزير المعارف .

• إهمال صربيا في القبض على الشركاء

يتهم المسيو باشتش بأمرين على أعظم جانب من الخطورة : تقصيره في تحذير السلطات النمسية تحذيراً يبنياً بعد اذ علم أن القتلة ذهبوا إلى سيرا جيفو ، وتهاونه بعد وقوع الجريمة في البحث عن الشركاء في بلغراد والقبض عليهم . وفي الواقع أن موظفي البوليس الصربي ساعدوا فعلاً أحد هؤلاء الشركاء على ما يظهر ومكنوه من الاختفاء عن الأنظار ؛ وذلك الشريك هو سيجانوفتش . ولو كان حول القبض على سيجانوفتش العضو في جمعية اليد السوداء وفضح بذلك الدور الذي قام به أعضاء بارزون في الجمعية كديتريفتش وتانكوفتش لكان النزاع السياسي خليقاً أن يزداد حدة ولكان هذا أقوى من الخصومة التي سببت سقوط الوزارة مؤقتاً . والظاهر أن المسيو باشتش لم يجرؤ على اتخاذ إجراءات ما مع زعماء جمعية قوية كهذه الجمعية فسلك لهذا مسلكاً سلبياً محضاً وفي مرجوه أن النمسا وأوروبا لن تعلما الحقيقة .

لم تكشف المصادر الصربية عن وقت اتصال خبر المؤامرة بالمسيو

باشتش ولا كيف كان هذا الاتصال . والنظرية المأخوذة بها على وجه عام هو أنه علم بها سرّاً من ميلان سيجانوفتش الذى يعتقد أنه كان يقوم بدور مزدوج : يتآمر مع زعماء اليد السوداء . ويستخدمه المسيو باشتش فى الوقت نفسه للتجسس عليهم وإطلاعه على أعمالهم لمصلحة الحكومة المصرية والحزب الراديكالى وقد صرح متآمرو سيرا جيفو الثلاثة فى غير موارد — عند القبض عليهم وأثناء محاكمتهم — ان سيجانوفتش لعب دوراً فعالاً فى إعداد معداتهم فى بلغراد . وسيجانوفتش صربى بوسنوى جاء بلغراد فى سنة ١٩٠٨ مهاجراً فدربه تانكوستش على أعمال الكوميتجى ثم استخدم فى السكك الحديدية المصرية موظفاً صغيراً ، فعندما كان يحضر المؤامرة وبعد العدة لها كان صنيعة لتانكوستش . وقد حصل لبرنسيب وشريكه على القنابل والمسدسات التى كان مقرراً أن تستعمل فى الاعتداء على الفرانكوف من بلغراد ، وأعطاهم السم الذى كان مقرراً أن يتناولوه عقب الجريمة ليحول بذلك دون افشائهم شيئاً عنه أو عن شركائه الصربيين . وقد أخذ سيجانوفتش الشبان بناء على امر تانكوستش ، إلى روضة للتمرّن على إطلاق النار بقرب بلغراد ودرّبهم على استعمال المسدسات . وفى أواخر مايو عند ما كانوا على أهبة الرحيل زودهم ببطاقات توصية لوكلاء اليد السوداء ورجالها الموثوق بهم ليسهلوا لهم سفرهم إلى سيرا جيفو . والأسباب التى تحمل على الاعتقاد بأن سيجانوفتش أبلغ باشتش عن المؤامرة ليست واردة فى شيء سابق لوقوع الجريمة ولكنها تحزر من التواطؤ البين الذى ظهر بينهما فيما بعد ، ومن محاولة السلطات المصرية إخفاء سيجانوفتش وتمكينه من التوارى عن الأنظار ، هذا إلى الشهادة التى أدّاها سيجانوفتش فى سنة ١٩١٧ ليساعد الحزب الراديكالى على إدانة ديمترييفتش وحضه قوة اليد السوداء .

نقد حدث بعد وقوع الجريمة بيضعة أيام عند ما أخذت الاشاعات تصل إلى بلغراد عن 'تترغيت شابرينوفتش و'برنسيب أن كلا من تانكوستش وباشتش

سعيًا فيما يلوح في منع نشر الأخبار الخاصة بالشركاء الموجودين في بغداد. إذ قصد ثلاثة من الكوميتجي في مساء ٢٩ يونيه إلى المستر سفيتوليك سافتش صاحب جريدة «البلقان»، وطلبوا إليه باسم الملاجور تانكوستش أن لا ينشر شيئاً في صحيفته عن صلات القاتل شابرينوفتش وعلاقاته بمعارفه في بغداد كائنة ما كانت الظروف. وأنه يجب عليه فوق ذلك أن لا يكتب شيئاً يمكن أن يورط الصربيين «والأصابع شر». فهذا النوع من الإرهاب والخوف من أذى كوميتجي كتانكوستش وانتقامه كان يذكره «الرجال الموثوق بهم» في البوسنة باعتباره أحد البواعث التي كانت تحملهم على مساعدة القتل. وهو فوق ذلك يفسر السبب الذي من أجله لم يعن باشتش أو يجرؤ على محاولة القبض على هذا الزعيم المحبوب القوي من رجال اليد السوداء إلا بعد أن أرغمه أخيراً البلاغ النمسي النهائي على اعتقاله فاعتقله بضعة أيام. ولو اتخذت الحكومة الصربية في الحال اجراءات فعالة للقبض على شركاء المعتدين في بغداد وأقامت الدليل الصادق على ما طالما أكدته من الرغبة في العيش مع النمسا على خير ما يكون الجار مع الجار، — نقول لو فعلت الحكومة الصربية هذا لهدأ ذلك من سخط ألمانيا على الجريمة ولجعلها أقل استعداداً مما كانت للسير وراء النمسا في الطريق المشثوم. ثم لقوى هذا الأمل في التوسط أخيراً. لكن المسيو باشتش بعدم قيامه بهذا وباتخاذ موقفاً سليماً هو الانتظار إلى أن يرى ما عسى أن تقدمه النمسا من أدلة وتهم معينة مدينة، اضطلع بتبعة خطيرة أخرى عما وقع.

هل حذرت صربيا النمسا ؟

هذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية لاختلاف ما استخلص الناس من أجوبتها ان نفيًا وان إيجابًا. فلو فرضنا أن الحكومة الصربية حذرت فينا لأمكن تفسير هذا إما في مصلحة صربيا إذ يدل على أن حكومة باشتش عند

ما اكتشفت المؤامرة بذلك قصارى جهدها في درء الجريمة وبذا تكون قد فعلت كثيراً لاخلاء نفسها من الملام في هذا الشأن، وإما في مصلحة النمسا إذ يثبت أن الحكومة الصربية كانت عالمة بالمؤامرة فيكون ثمة ما يبرر طلب النمسا أن يسمح لموظفين نمسويين بالتعاون مع الموظفين الصربيين على ضبط الشركاء الموجودين في بلغراد ما دام أن هؤلاء الموظفين أنفسهم لم يتخذوا إجراءات ما في هذا الصدد.

هذا عن الفرض الأول. فإذا لم يكن هنالك تحذير فانه يصبح أولاً في مكنة الحكومة الصربية أن تزعم — كما فعلت في الواقع — أنها لم يكن لها علم بالمؤامرة قبل وقوعها وأنها لهذا بريئة منها كل البراءة، وثانياً يمكن القول إنصافاً للنمسا إن صربيا مسئولة عن التستر على المؤامرة وبذا تكون متواطئة على الجريمة.

فلا غرو. وهذه التفسيرات المختلفة للاحتمالين ممكنة، أن تجد العاطفين على صربيا يناقضون بعضهم البعض بشدة وكذلك الذين يعطفون على النمسا. ولا عجب أن تكون الأدلة المتناقضة في هذا السيل جمة، ونحن إذ نمحصها يتعين علينا أن نوجه الالتفات بنوع خاص إلى ثلاث نقط: إلى من وجه التحذير إذا كان وجهه على الإطلاق؟ هل وجهه المسيو جوفانوفتش وزير صربيا المفوض في فينا من تلقاء نفسه وبصفة غير رسمية أو هو قدمه رسمياً بناء على تعليمات من بلغراد؟ هل تضمن التحذير أى تليخ إلى مؤامرة معينة أو أنه لم يعد يائناً عاماً مبهماً عن عدم الرغبة في زيارة الغراندوق لاقليم مضطرب؟.

إن أول تأكيد ذي شأن بأن صربيا حذرت النمسا صدر عن المسيو سبايكوفتش وزير صربيا المفوض لدى روسيا إذ صرح في حديث له مع صحيفة فيشرنيه فريميا، "بأن كانت تصدر في سان بطرسبورغ، عقب الاغتيال بوضعة أيام بأن حكومة "صرب حذرت النمسا من رحلة الغراندوق إلى

البوسنة ، فقد علمت أن مؤامرة تدبر بواسطة البوسنويين المتعاضين من اضطهاد النمسا والذين يعتقدون بأن الغراندوق مسئول عنه . بيد أن وزارة خارجية فينا كذبت رسمياً في ٣ يولييه هذا التأكيد وغيره من أمثاله .

ووقفت المسألة عند هذا الحد بضعة أشهر لوقوع ما هو أكبر أثراً منها لبلاغ النمسا النهائي وبليلة الأفكار من أمر الحرب . إلى أن أثارها المسيو دينيس الفرنسى أستاذ التاريخ السلافى الشهير فكتب يقول « إن المسيو باشتش حاول بطريقة خفية أن يدل بالبلاتس (وزارة الخارجية النمساوية) على الأخطار التى يتعرض لها الغراندوق ، إذ أبلغ وزير صربيا المفوض (جوفان جوفانوفتش) وزير الخارجية أن لدى حكومته ما يحملها على الاعتماد بأن مؤامرة تدبر فى البوسنة . فلم يأبه المستشار (برشتولد) لهذا التبليغ ، وقد صدق بيان الأستاذ دينيس أشخاص خارج ألمانيا والنمسا وآمنوا به فى غضون الحرب بوجه عام . وذلك على الرغم من نفي برشتولد إياه بقوة عندما اتصل به خبره . ونفى النمساويين للقول بأن جوفانوفتش قدم أى تحذير من أى نوع الى وزارة الخارجية صحيح لا مرأ فيه . فان كل الدلائل المعتمدة تدل على أن المسيو جوفانوفتش اذا كان قدم « تحذيراً ، فقد أفضى بمخاوفه لا الى برشتولد أو الى وزارة الخارجية وفاقاً للأجراءات المرعية ولكن الى الدكتور فون بلنسكى وزير المالية . ولتوضيح السبب الغريب لهذا الاجراء غير المألوف يجب أن نقف لحظة عند هذا الموضوع فنقول :

جاء المسيو جوفان جوفانوفتش الى فينا وزيراً مفوضاً لصربيا فى أواخر ديسمبر ١٩١٢ خلفاً للدكتور سيمتش ، وكان الدكتور سيمتش رجلاً كهلاً مجرباً وسياسياً كيساً مهيباً لقي نجاحاً لا بأس به فى وظيفة كانت شاقة جداً . فان مركز المعتمد الصربى فى فينا لم يكن بعد سنة ١٩٠٣ سهلاً حتى فى الأوقات العادية ، وذلك بالنظر الى الخصومة القومية التى كانت قائمة بين شعبي البلدين وإلى المسائل المتعلقة بهم الجاسوسية والدعاية والاضطهاد والتحرىض وهى

التي كان يتراسق بها الفريقان وتسبب لهما انفعالا دائما . فلما قدم جوفانوفتش في سنة ١٩١٢ كانت الحالة دقيقة وحرارة بنوع خاص من جراء العواقب المهيبة التي ترتبت على الحرب البلقانية الأولى والجهود التي كانت تبذلها النمسا في مؤتمر لندن لحرمان الصربيين من ثمار انتصاراتهم . وكان المسيو جوفانوفتش على نقيض سلفه شابا يكاد يبلغ الأربعين قال فيه واحد من خيرة أصدقائه وزملائه عند وصوله إن شعره الأشعث الكث، وعينه القاتمتين، وشاربه الأسود، جعلت له مظهراً لا يبعث الطمأنينة التي كان يعيشها مظهر سلفه المحترم . وقد كان الناس في فينا لا يتخرجون من التأكيد بأنه آثار في ١٩٠٨ الاضطراب على ضم البوسنة والهرسك وبأنه كان يقود عصابت الكوميتجي .

لذلك لم يكن جوفانوفتش عند وصوله الى فينا يعتبر شخصاً مرغوباً فيه وفي الواقع انه قيل ان النمسا أبطأت في الموافقة على اسمه حينما اقترح تعيينه وانها لمحت بعد ذلك الى انها تكون مسرورة اذا استدعى ، وهي تلميحات أبت بلغراد أن تأبه لها . وقد كان استقباله بعيداً عن أن يكون ودياً ويقال انه لما قدم الى الامبراطور فرنسوا جوزيف اكتفى الامبراطور بأن ينحني له بدل أن يصاحبه كما هي العادة في مثل هذه المناسبات . أما الغراندوقات فلم يقبلوا استقباله مطلقا وبرشتولد كان فاتراً حياله قاصراً علاقاته به على العمل الرسمي وحده . ففي هذه الظروف الاليمية كانت علاقات جوفانوفتش الودية باندكتور فون ييلنسكى أقوم ما تكون عنده وكان ييلنسكى لتولية الادارة المدنية في البوسنة والهرسك الى جانب وزارة المالية يحد من الأمور المشتركة ما يخاطب فيه وزير صربيا المفوض كثيرا . ولما كان سلافيا (بولونيا من غايسيا) فقد كان أسهل عليه من أى نمسوى ألماني أو مجرى أن يحافظ على علاقات الوداد مع صربي كجوفانوفتش . وفي الواقع سرعان ما اتفق الاثنان بمصادقة فرانسوا جوريف وبرشتولد على أن يزاول ييلنسكى مع الوزير

الصربي الأعمال الدبلوماسية ويقوم بتبليغها الى برشتولد حرصاً على حسن العلاقات بين البلدين . وهذا بلا ريب عمل شاذ غير مألوف لكنه قد اضطرت اليه — غير الأسباب التي أوردناها — أسباب أخرى كترأخي برشتولد المركب في طبعه وطموح ييلنسكى الى أن يجمع في يده كل سلطة يمكنه أن يجرزها وأن يرفع من شأنه وأهميته . وهذا مع ذلك يفسر السبب الذى من أجله يمكن أن يكون جوفانوفتش قد أثر في يونيو ١٩١٤ اختيار ييلنسكى على برشتولد أو أى انسان آخر في وزارة الخارجية النمسية لمفاتيحه بارتياحه الدقيق وهو أنه قد يكون من الخطر على الغراندوف فرائتس فرديناند أن يتوجه الى البوسنة .

وفي سنة ١٩٢٤ وهى الذكرى العاشرة لاغتيال الغراندوق عاد موضوع « تحذير » صربيا المزعوم للنمسا الى الظهور إذ جاء فى خطاب مرسل الى إحدى صحف فينا بتوقيع « X.Y. » وقد نسب الى جوزيموفتش سكرتير المفوضية الصربية من فينا سنة ١٩١٤ أنه « فى ١٨ يونيو ١٩١٤ تلقى المسير جوفانوفتش رسالة جفرية من باشتش يكلفه فيها بحمل الغراندوق على العدول عن رحلته الى سيرا جيفو أو على الأقل تحذيره من الأخطار التى تهدده . » وعندئذ أبلغ جوفانوفتش ذلك الى ييلنسكى ظهر يوم ٢١ يونيو . وهذا يلوح لأول وهلة مؤكداً لما زعم دينيس من أن حكومة بلغراد حذرت النمسا رسمياً ، بيد أن الخطاب مشكوك فى صحته الى درجة أنه لا يمكن الاعتماد عليه . وقد ناقضه جوفانوفتش نفسه فى كثير من تفاصيله ، إذ بعث بعد نشره بأسبوع الى إحدى صحف فينا البيان الهام الآتى :

« يسرنى أن أسرد لكم حقيقة الأمر فى مسألة التحذير الذى صدر عني ومن تلقاء نفسى للغراندوق . لقد كنت إذ ذاك وزيراً مفوضاً ومنتدوباً فوق العادة لدى فينا فاتصل بي أن ولى العهد يتولى أن يحضر المناورات فى البوسنة (وهنا ذكر خطأ بعض تفاصيل رحلة فرائتس فرديناند المقترحة الى البوسنة

وأكد أن الصريين سوف يرونها عملاً مثيراً لهم ثم قال : (فبعد أن وزنت كل هذه الظروف عقدت العزم على أن أزور الدكتور فون ييلنسكى الذى كان إذ ذاك وزيراً للمالية ووزيراً للبوسنة . وعلى قدر ما اذكر كانت زيارتى حوالى ٥ يونيه — أى قبل وقوع الاغتيال بثلاثة وعشرين يوماً . وقد أوضحت للوزير فى صراحة تامة ما كنت علمته من أن المناورات ستجرى على الدين قبالة صربيا وأن الغراندوق نفسه سيتولى قيادتها وقلت للوزير فون ييلنسكى : « إذا صح هذا فانى أستطيع أن أؤكد لسعادتك أنه سيثير أعظم استياء بين الصريين الذين لابد سينظرون اليه نظرم الى عمل مثير . والمناورات اذا جرت فى ظروف كهذه تكون خطرة . فقد يكون بين الشبان الصريين واحد يضع فى بندقيته أو مسدسه رصاصة بدل الخرطوشة ثم يطلقها . وقد تصيب الرجل الذى استشار . لذلك كان من الخير والحكمة ان لا يذهب الغراندوق الى سيرا جيفو وأن لا تجرى المناورات فى يوم فيدوف دان (وهو يوم ٢٨ يونيه حيث يحتفل الصربيون بعيد القديس فيتوس) وأن لا تدور فى البوسنة .

« وقد رد الدكتور فون ييلنسكى على هذه الكلمات الصريحة بقوله إنه سيدون مذكرة بها ثم يبالغى ما يكون لها من نتيجة لدى الغراندوق وان كان هو لا يعتقد بأن المناورات تؤول الى هذا الذى تنبأت به ، هذا الى ما يده من معلومات تدل على أن البوسنة هادئة . وقد زرته بعد ذلك ببضعة أيام من أجل هذا الموضوع . فعلمت برغم ذلك أن البرنامج الاصلى سيتبع وانه لا يغير فيه شئ على الرغم من انذارى . ولا شك أن الغراندوق أبلغ الخبر لكنه لم يكن يأبه لأحد سوى نفسه . »

هذه الحكاية التى رواها المسيو جوان جوفانوفتش يلوح أنها أدنى الروايات الصربية الى الحقيقة . وقد أيد بعضها ونقض البعض الآخر بيان قيم أدلى به المسيو بول فلاندراك الذى كان فى سنة ١٩١٤ رئيساً لقسم الصحافة

في وزارة المالية في عهد ييلنسكى ، والذي يتولى منذ الحرب إدارة بنك الودائع في فينا . قال : « في مايو ١٩١٤ وطلائع الأخبار عن رحلة الغراندوق فرانتس فرديناند الى دلماسيا والبوسنة آخذة في الذيوع بين الجمهور ، حضر جوفانوفتش لآخر مرة الى مكتب وزير المالية وجعل على أثر وصوله يتكلم عن المناورات المقترحة فأبدى مخاوفه من أن تعتبرها الحكومة الصربية تحرشا بها ثم قال إلى ذلك انه يجب أن ينظر وزير المالية بعين الاعتبار الى احتمال أن تثير المظاهرات الوطنية التي لا مفر منها إذا مظهر العاهل المقبل ، شعور الجانبين على الحدود النمسية الصربية . ثم رجا ييلنسكى ألا يعتبر ملاحظاته بمثابة تبليغ رسمي فان الذي حدا به إلى ابدائها إنما هو مجرد الرغبة في أن لا يقع شيء يمكن ولو مؤقتاً أن يؤثر على المفاوضات التي كانت قد ابتدأت لتحسين العلاقات المتبادلة بين النمسا والصرب .

« لم يعر ييلنسكى هذه التصريحات أى انتباه خاص وأعتقد أنه لم يبلغها الى الكونت برشتولد على الاطلاق ، وان كان من عادته أن يبلغه كل مايجرى له من الأحاديث مع وزير صربيا المفوض وعلى ان المسيو ييلنسكى لم يكن يعلم عند ما دار هذا الحديث أنه ستفرع عن رحلة الغراندوق للتفتيش الحربى رحلة سياسية فانه كان مقتنعاً بان رحلة فرانتس فرديناند الى الأقاليم الجنوبية كانت على الاقل سابقة لأوانها وقد أعرب أيضاً للامبراطور صراحة عن مخاوفه

« من هذا الحديث الذى أداره جوفانوفتش الوزير الصربى والذي أبلغنى ييلنسكى إياه صدقة عقب وقوعه رأساً ولأنه الى حد ما يؤيد نظريته في عدم مناسبة الوقت لرحلة الغراندوق — أقول من هذا الحديث تنشأت على مر السنين طائفة من الأساطير فذهب البعض بعيدا الى درجة أن يبنى على ملاحظات جوفانوفتش انذارا بوقوع الجريمة أو تليحاً الى امكان وقوعها . أما ييلنسكى نفسه وهو الذى لم يعتد أثناء توليه وزارة المالية أن يدون

ملاحظات ، فلم يذكر مطلقاً هذا الحديث الآخر مع الوزير الصربي في مفكراته التي اعتاد أن يدونها من الذاكرة ، وهذا دليل على أنه لم ير فيه إنذاراً لا صريحاً ولا خفياً .

ومن الشائق أن تسمع ما على الشخص الذي تلقى « الانذار » أن يقوله عنه ، لكنه من الغرابة بمكان أن مذكرات المرحوم الدكتور ييلنسكى وهى واقعة فى مجلدين لم تتضمن شيئاً عن ذلك وإن كانت قد تناولت حياته العامة بالتفصيل . وقد استخلص بعض الكتاب من هذه الحقيقة الواقعة أنه لم يتلق أبداً إنذاراً ما أو لكان ذكره بالتأكيد لاهميته الحاسمة . بيد أن الأرجح أنه تجنب ذكر الواقعة الأليمة فى أنه لم يصرف الغراندوق عن رحلته المشثومة أو على الأقل لم يستوثق - وهو إذ ذاك المسئول عن إدارة البوسنة - من أنه اتخذت لحمايته تدابير كافية وأن سيرا جيفو أعدت لأناس قد يكونون من القتل . ولا بد أن هذا الإهمال قد أقض مضجعه ولزمه كابوسه المخيف طوال حياته نظراً للعواقب المرعبة التى ترتبت عليه بالنسبة للنمسا وللعالم . وقد قصده مؤرخ نمسوى والحرب لا تزال مستعرة يطلب إليه القاء بعض النور على ما يزعم من التحذير الصربي من مؤامرة سيرا جيفو فرد عليه بكتاب وجيز رداً ذا مغزى إذ قال : أنه ليتكلم عن كل شيء آخر يتصل بهذه المسألة المحزنة (الحرب) إلا هذه النقطة بالذات فإنه يحب أن يسدل عليها ستار النسيان . وكل الذى أبداه فى مذكراته هو شكواه من أن أحداً لم يستشره فى التدابير لأن الغراندوق كان قد أعرب عن رغبته فى أن يعالج هذه المسألة رئيس البلد نفسه وحده [وهو الجنرال بوتوريوس حاكم البوسنة والهرسك] باعتبار كونه الجنرال المتولى القيادة دون إدخال وزير المالية فى أى تدبير . ولم يسعنى أن أعترض على هذا لأنى لم أكن أتدخل فى تنظيم الاقليم من حيث المسائل المتعلقة بالادارة العسكرية ، فيما عدا تجنيد الرديف ودفع نفقات ذلك ، قل ، وليس صحيحاً ما أشيع من أنى أنذرت الامبراطور قبل الرحلة

لأنى لم يكن لى حق مطلقا فى التدخل فى رحلة عسكرية محضة. وتحول الرحلة الى مسألة سياسية أمر سمح به دون أن أسأل فيه أو أبلغ اياه، قال وقد أبان هذه الحقائق للأمبراطور عند ما حظى بمقابلته عقب الاغتيال يومين . وفيما عدا هذه المقابلة لم يتكلم أبدا عن رحلة الغراندوق لا قبل الرحلة ولا بعدها .

من هذه الدلائل يصح أن نستنتج ما يلى :

١ — فى ٥ يونيه أو حواليه أبلغ وزير صربيا المفوض فى فينا الميسو جوفانوفتش الى الميسو ييلنسكى وزير المالية فى النمسا والمجر شيئا ولم يبلغه الى برشتولد أو وزارة الخارجية النمساوية وهو ما كان ينبغى أن يفعله طبقا للتقاليد الدبلوماسية المرعية. وهذا المسلك الدبلوماسي الشاذ فى مناسبة كهذه ربما كان منه خلوا من الحكمة كما دلت الأمور لكنه لم يكن غير طبعى لأنه قد جرى عليه عدة أشهر . وقد أدرك جوفانوفتش أيضا بلا ريب ان الذى كان عليه أن يقوله دقيق جدا وصعب وأنه أسهل عليه بكثير أن يبلغه ييلنسكى الودود لا برشتولد الجامد الظنين . كذلك لم يرد أن يعطى تبليغه صبغة رسمية أو يلجأ فيه الى الرسمية . فان تبليغا يقدمه الى صديقه ييلنسكى يكون أقل رسمية من التبليغ الذى يقدمه الى وزير الخارجية . وكان ييلنسكى لا يخشى شيئا ذا خطر من ناحية البوسنة فضلا عن أنه كان ينتوى زيارة هذه البلاد هو وزوجه فلم ينظر الى تبليغ جوفانوفتش نظرة جدية ولم يذكره فى الراجح لا للامبراطور ولا لفرائتس فرديناند ولا لبرشتولد . وعلى ذلك تكون التكذيبات المتكررة التى نفى فيها موظفو وزارة الخارجية النمساوية تلقى أى انذار رسمى فى صربيا لا غبار عليها

٢ — من الممكن أن يكون جوفانوفتش قدم تبليغه كما يزعم من تلقاء نفسه لكنه مع ذلك يلوح غريباً أن يخطو خطوة هامة كهذه دون تفويض أو تعليمات من وزير خارجية صربيا . وهل من محض الصدقة أن « تحذير »

جاء على أثر ما أبلغه المسيو باشتش في آخر مايو أو أول يونيه الى لجوبا جوفانوقتش وغيره من أعضاء وزارته من أن هنالك أناساً يستعدون للذهاب إلى سيرا جيفو لقتل فرانتس فرديناند ؟ ، أليس هنالك بعد كل شيء نذر من الحقيقة في بيان المسيو دينيس إذ يقول إن « المسيو باشتش حاول في فطنة أن يشير الى الخطر الذي كان الغراندوق يتعرض له فكلف وزيره المفوض في فينا باتخاذ اجراءات تحول ما امكن دون وقوع المأساة ».

وقد كان المسيو باشتش من الخبرة بتوتر العلاقات النمسية الصربية في الماضي بحيث يدرك أن النمسا سوف تقدم الى صربيا مطالب صارمة جداً إذا نجح القتل ، وقد تتوسل بالجريمة لمحاربة جارتها الشكسة . ولم يكن مسيو باشتش يريد الحرب في ذلك الاوان وخاصة الحرب التي يسببها حادث كهذا ، وكان يعلم أن صربيا تريد أن تعيش في سلام عدة أشهر آخر على الأقل قبل أن تشتبك مع النمسا في حرب حياة أو موت ، وذلك كما تستجم بلاده نفسها من حروب البلقان ويستتب لها الامر في الأراضي الجديدة التي نالتها . ولما تكدها الى أنه كان في شك من أمر روسيا وفرنسا وتأيدهما له في حرب مع النمسا إذا ما تسربت الحقيقة وعلم أن الجريمة كانت تدبر في عاصمة صربيا بمساعدة ضابط عظيم في هيئة أركان حرب الصرب وأعضاء آخرين في جمعية سرية صربية ذات سمعة رديئة من جراء ما اقترفت من الاغتيالات السياسية في الماضي .

لما مشاحة في أن المسيو باشتش كان في مركز صعب ومربك جداً . فقد رغب في الحيلولة دون وقوع جريمة القتل لما يمكن أن تجره من العواقب المريعة . لكنه لو أنذر النمسا بما كان يجري وسلك لذلك الطريق الوحيدة الفعالة لدل بذلك على معرفته بالمؤامرة ولكان هذا اعترافاً منه باغتيال يضاف إلى قائمة الاغتيالات الطويلة التي دبرت في صربيا ضد المملكة الثنائية . ففي مثل هذه الظروف أليس من الجائز أن يكون قد لمح لوزير صربيا المفوض

في فينا بشيء حمل الأخير على أن يفضى إلى ييلنسكى بارتيا به في ولاء الجنود البوسنية وبأن رحلة الغراندوق المقترحة غير مرغوب فيها بوجه عام؟ وفي مثل هذه الحالة نفهم سعى جوفانوفتش إلى أن يوقع في النفس انه كان يتكلم بصفة غير رسمية ومن تلقاء نفسه وهذا أمر مألوف جداً في الدبلوماسية. وأمثله لا تحصى فيما نشر من المحفوظات الألمانية والروسية والانجليزية.

من ثم كان من الصعب أن نصدق أن جوفانوفتش يقدم على عمل هام كهذا يتعرض فيه لشئون داخلية محضة لدولة أخرى كالمناورات وأسفار الأمراء دون أن يكون قد تلقى تعليمات بذلك من بلغراد. وإلى أن تنشر السلطات المصرية كامل المكاتبات التي دارت بين باشتش وجوفانوفتش في الأسابيع السابقة للاغتيال أو على الأقل الوثيقة التي لا بد أن يكون جوفانوفتش قد روى فيها لباشتش حديثه مع ييلنسكى، نقول الى أن يقع هذا فلا حرج من الشك في أن جوفانوفتش كان فيما فعله يعمل «من تلقاء نفسه»

٣ — ان «التحذير» قدم في عبارة عامة جداً فلم يتضمن أى تليح بإمكان وقوع الاغتيال من متآمرين مدنيين أو أية اشارة الى المؤامرة التي كانت قائمة إذ ذاك. وكل الذي أشار اليه «التحذير» هو احتمال وجود خطر من أن يكون بين الجنود من هم غير موالين. وإذن فلا غرو ان لم يعره ييلنسكى التفاتاً كثيراً. وهو على كل حال لا يخلى الحكومة المصرية من ذنب كتمان خبر مؤامرة يراد بها القتل كان لضباطها ضلع فيها، وهي جريمة تعرف في الحياة الخاصة «بالتستر على الجناية».

الفصل الرابع

أسطورة مجلس بوتسدام

قد يلوح من قبيل العبث بعد الذي نشر من وثائق كاوتسكي وتقرير لجنة الريخستاج التي حققت في مقدمات الحرب، أن نعود الى ادحاض الأسطورة القائلة « بأن هذه المأساة التي هي أعظم المآسي الانسانية كانت من عمل الامراضور وحاشيته الامبراطورية في مؤتمر بوتسدام المنعقد في ٥ يولييه ١٩١٤ ». أجل قد يلوح هذا من قبيل « الضرب في حديد بارد ». لكنه لما كان هذا قد ذكرته لجنة مؤتمر الصلح التي كان يرؤسها المستر لانسنج على أنه مما يبرر المادة ٢٣١ من المعاهدة. ولما كان مسيو بورجوا ومسيو باجيه قد سلما بها وكان الرئيس بوانكاريه فيما يلوح قد وافق عليها على الرغم من الوثائق الكاملة التي كانت تحت أيديهم حينما كتبوا ما كتبوا، ولما كانت الأسطورة لا يزال يصدقها أولئك الذين تابعوا التحريات الحديثة عن أسباب الحرب، نقول لما كان هذا هكذا فقد يكون من الفائدة تمحيص هذه الأسطورة المنتشرة مرة أخرى باعتبار كونها مثالا للطريقة التي تضيع بها الخرافات وتنمو وسط بغضاء الحرب ودعاوتها.

وأمتع حكاية وأبدعها عن « مجلس التاج » الذي زعموا أنه انعقد في بوتسدام في ٥ يولييه. وهي الحكاية التي كانت أوسع من غيرها انتشاراً وأكثر ذيوعا، هي التي قصها المسيو مورجنتاو في فصل عنوانه « فأنجنهايم يقص على السفير الأمريكي كيف بدأ الامبراطور الحرب » قال :

« سأظل متمثلا شخص هذا السياسي الألماني في تلك الأيام المثيرة التي سبقت المارن... فان اخذ الطيب الذي كان من نصيب الجيوش الألمانية

استخفه إلى درجة الخرق أحيانا في أحاديثه . وقد حمله طربه يوما على أن يقص على وقائع بعينها أظن أنها ستكون أبدا ذات قيمة تاريخية عظيمة ... حدثني أن الأمبراطور استدعاه إلى برلين لحضور مجلس أمبراطوري ، فانهقد هذا المجلس في بوتسدام في ٥ يولييه برياسة الأمبراطور وحضور كافة السفراء المهمين تقريبا . وكان استدعاء فانجنهايم نفسه ليطمئن النفوس من ناحية تركيا ويطلع زملاءه على الحالة في الأستانة بوجه عام . وكانت تعتبر إذ ذاك قطب الرمح في الحرب المنتظرة ولم يذكر فانجنهايم أسماء حين أخبرني عن حضر الاجتماع وإن كان قد قال على وجه التعيين انه كان من بينهم ، والوقائع من الأهمية بحيث تحملني على اقتباس كلماته التي قالها بالألمانية : Die Haeupter des Generalstabs und der Marine (رؤساء هيئة أركان الحرب العامة والبحرية) وقد اقترضت أنه يقصد فون مولتكه وفون تربتس . قال وقد حضر كذلك كبار أصحاب المصارف ومديرى السكك الحديدية وأصحاب المصانع الألمانية وكلهم من حيث لزومهم لاستعدادات ألمانيا الحربية كالجيش نفسه ، وأخبرني فانجنهايم أن الأمبراطور سأل كلا منهم بدوره في لجة خطيرة : « هل أنت مستعد للحرب ؟ » فأجاب الكل بنعم إلا المليون فقد أبدوا أنهم بحاجة إلى أسبوع لبيع سنداتهم الأجنبية وعمل قروض . ولم يكن في ذلك الوقت من يرى أن مأساة سيرا جيفو ستجر الحرب لا محالة إلا عدد قليل . وقال لي فانجنهايم إن المجلس اتخذ كل احتياط حتى لا تحوم حوله الشكوك ، وأنه قرر إمهاء المائين لتسوية ماليته للحرب المقبلة . وعاد بعض الأعضاء على عجل إلى أعمالهم وانصرف البعض الآخر إلى إجازاتهم . وتوجه الأمبراطور إلى نروج على ظهر يخته وسافر فون يتمان هو فقيح يطلب الراحة وعاد فانجنهايم إلى الأستانة .

« ومن المعلوم أن فانجنهايم وهو يقص على حكاية هذا المجلس كان يسلم بأن ألمانيا عجلت بالحرب بر أنه كان في أضيق خورا بالرواية كلها . نخورا

بأن ألمانيا عالجت الأمور بطريقة محكمة تتطوى على التبصر ، تخوراً على الآخر بأنه دعى إلى الاشتراك في اجتماع خطير كهذا . وكثيراً ماساءلت نفسي لماذا تراه أفشى الى بهذا السر العظيم . وأكر الظن أن السبب الحقيقي هو غروره الزائد ورغبته في أن يريني كيف كان مقرباً الى مجالس أمباطوره الخاصة وان يطلعني على الدور الذي قام به في جر هذه الحرب . ومهما يكن من أمر الباعث له على هذا فقد كان من جراء هذا الخرق أن أراى على التحقيق من هم المدانون حقيقة بهذه الجريمة الفظيعة . وقد استفاضت في أوربا في الأشهر القلائل التي تلت نشوب الحرب عدة كتب زرقاء وحمراء وصفراء ومئات من الوثائق التي نشرها الدعاة الألمان يحاولون اثبات براءة ألمانيا فلم يكن لها في نفسي أقل تأثير . فان استنتاجاتي عن مسئولية الحرب ليست قائمة على رية أو عقيدة أو دراسة وقائع من عمل الظروف . ولم يكن على أن أقيم الدليل أو اجادل في الأمر لأنى أعرف . أعرف أن المؤامرة التي سببت أعظم فاجعة انسانية قد دبرها الأمباطور وبطاته الأمباطورية في بوتسدام في ٥ يولييه سنة ١٩١٤ . أخبرنى بهذا واحد من كبار المشتركين في هذا المجلس وسمعت تفاصيله من فمه وهو طروب يباهى بنجاح المؤامرة . واني كلما سمعت الناس يجادلون في تبعة هذه الحرب أو قرأت ما تقدمه ألمانيا من معاذير سمجة كاذبة تمثلت بكل بساطة شخص فأنجنهايم الضخم وقد جاءني عصر يوم من أيام أغسطس ينفخ الدخان من سيجار أسود كبير ويقص على حكاية هذا الاجتماع التاريخي . فقيم إذن ضياع الوقت في البحث في هذه المسألة .

فيم إذن البحث بعد هذا ؟ لأن الوثائق الميسورة في الوقت الحاضر تثبت بصفة قاطعة انه تكاد لا توجد كلمة صدق واحدة في هذه القصة بأكملها سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالأشخاص الذين قيل انهم كانوا حاضرين أم فيما يتعلق بموقف الأمباطور حيال التأجيل ، أم عن السبب الحقيقي للتأجيل ، وأخيراً عما زعموا من بيع السندات توقعاً للحرب .

الأشخاص الذين قيل إنهم كانوا حاضرين

والآن فلنمحص تلك القصة زعماً زعماً :

« حضور كافة السفراء المهمين تقريباً » . والسفراء المهمون لابد أن يكونوا سفراء لندن (ليخنوفسكى) وفينا (تشيرشكى) وباريس (شون) وسان بطرسبورغ (بورتاليس) .

فليخنوفسكى السفير في لندن لم يحضر مجلس بوتسدام هذا لأنه هو نفسه يقول في رسالة انه علم به فيما بعد . ومؤكد كذلك أن تشيرشكى السفير في فينا لم يكن حاضراً وإلا لما أبرق إليه يتمان هولفيج في ٦ يولييه يبلغه حدوث مقابلة هامة في بوتسدام في ٥ يولييه بين الامبراطور غليوم والسفير النمساوى تسيجيني . وسنصف هذه المقابلة ومغزاها بالتفصيل فيما بعد . كذلك ليس هنالك أدنى دلالة على أن شون وبورتاليس حضرا من باريس وسان بطرسبورغ

ولعله مع ذلك ليس سوى فانجنهايم نفسه من يعنيه فانجنهايم بالسفير المهم فصحيح أن البارون فانجنهايم غادر الآستانة في ٢ يولييه ووصل الى برلين في ٤ يولييه في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرين مساءً ثم عاد الى الآستانة في ١٥ يولييه . لكنه ليس صحيحاً ان الامبراطور « استدعاه لمجلس امبراطورى » ، فانه على النقيض من ذلك لم يقابل الامبراطور مطلقاً بل قدم تقريره إلى وزارة الخارجية فقط . وفي الواقع انه كان منفعلاً جداً من أن الامبراطور في مثل هذه الأيام القلقة لم ير أن الأمر يستأهل أن يقابل شخصاً له مثل أهمية سفيره لدى تركيا أثناء زيارة الأخير لبرلين

« رؤساء هيئة أركان الحرب العامة والبحرية » . من المؤكد أن الجنرال فون مولتكه لم يكن في بوتسدام في ٥ يولييه . فانه في ١٥ أبريل ١٩١٤ كان

قد توجه إلى كارلسباد للاستشفاء جرياً على عادته منذ سنين مستصحباً بعض أفراد أسرته . وقد زاره هناك في ١٢ مايو رئيس هيئة أركان حرب النمسا البارون كونراد . وكان قد جاء بلباسه المدني فجعل مولتك في الحالة السياسية العامة محادثة ظلت ساعتين أو ثلاثاً . وقد ألمع كونراد في حديثه إلى أنه لا يمكن الاعتماد على رومانيا وأشار إلى الطرق التي يمكن أن تستخدم بها الجنود الإيطالية شمالي جبال الألب وإلى الرغبة في أن يضع مولتك خطة تمكن في حالة الحرب من توجيه عدد أكبر من الجنود الألمان إلى روسيا فيخفف ضغطها على النمسيين في غاليسيا . فالحديث بأكمله لم يعد أنه كان حديثاً عاماً في الشؤون السياسية والتعاون العسكري بين دولتي الوسط وهو بهذه الصفة طبيعي بين رئيسي أركان حرب دولتين متحالفتين ومن قبيل ما كان يجري بينهما من قبل . بل أنه من قبيل الأحاديث التي كانت إذ ذاك دائرة بين ضباط أركان حرب فرنسا وروسيا عدة سنين .

وبارح مولتك كارلسباد في ١٤ مايو ليشارك في إحدى الجولات التي اعتادت هيئة أركان الحرب القيام بها في جبال الفوج للرقابة . ولما فرغ من رحلته هذه اجتمع في أهل يونيه بايكاردشتين في بادن بادن . ولم يكن رجلاً معافى في ذلك الحين فعاد إلى كارلسباد في يوم الأحد ٢٨ يونيه بناء على مشورة طبيبه . وكان ذلك قبل أن يتلقى نبأ مقتل فرانتس فرديناند الذي حدث في نفس اليوم . ومكث في كارلسباد إلى ٢٥ يونيه كما كان مقدراً أن يفعل ثم عاد إلى برلين في ٢٦ يوليه . ويدل سجل بوليس كارلسباد على أن مولتك حتى بعد أن وقعت جريمة سيرا جيفو ظل يعيش عيشته العادية المألوفة فكان في يوم ٥ يوليه يعيش في كارلسباد في سكoon لا متأمراً في مجلس في بوتسدام يضع التدابير لأشغال الحرب . ودليل آخر على أن مولتك لم يكن في بوتسدام في ٥ يوليه هو ذلك الكتاب الهام الذي بعث به إليه في كارلسباد وزير حرية بروسيا فالكنهاين في ٥ يوليه يقص عليه فيه ما دار في المقابلة

التي كانت بين سفير النمسا والامبراطور غليوم في بوتسدام ذلك اليوم .
ولعل مخترع الاسطورة لم يكن يعنى مولتكه وانما عنى الكونت فالدرسيه
القائم بأعمال رئيس هيئة أركان الحرب . لكن هذا لم يكن أيضاً في بوتسدام
في ٥ يوليه فانه كان قد توجه الى هانوفر في ٤ يوليه لوفاة أحد أفراد أسرته
بعد أن نبه الى وجوب دعوته تليفونياً إذا حدث شيء ذو بال ، فلو أنه عقد
حقيقة مؤتمر هام كالذى تصفه خرافة مجلس بوتسدام لكان فالدرسيه عاد بلا
ريب إلى بوتسدام من أجله . لكنه لم يعد من المؤتمر قبل ٧ يوليه وعلم من
أحد مرؤوسيه وهو الجنرال برتراب بمقابلة السفير النمساوى للامبراطور
غليوم — تلك المقابلة التي تمت في ٥ يوليه وهو غائب . بل انه لم يعتبر هذه
المقابلة من الأهمية بمكان فغادر برلين ثانية في اجازة كان قد رتبها من قبل .
فلو أن خطأ عسكرية كانت قد اتخذت أو لو أن حرباً كانت قد دبرت
وكان يظن انها على الأبواب لما كان خليقاً أن يغادر مركزه .

كذلك كان رئيس البحرية الأميرال فوق تربتس غائباً عن برلين يستمتع
بعطلة في تاراسب من أعمال سويسره من ٢ يوليه إلى ٢٧ منه ومن ثم لم يكن
ممكناً أن يكون قد حضر المجلس الشهير الذى تحكى عنه الاسطورة .

هذا ما كان من أمر هؤلاء ، فماذا كان من أمر الأعيان الآخرين الذين
أشار اليهم فانجنهايم إشارة مبهمه ، والذين كانوا من حيث لزومهم لاستعدادات
ألمانيا الحربية كالجيش نفسه ، ؟ فأما كروب فون بولين - هالباخ صاحب
مصانع كروب العظيمة لصنع الذخيرة فلم يكن في بوتسدام في ٥ يوليه بل
كان في انتظار الامبراطور في كيل وهو في طريقه إلى رحلته الشمالية . وهناك
في كيل علم بمقابلة الامبراطور لسفير النمسا لكنه لم يكن يعتقد أن مصانعه
بحاجة من جراء هذه المقابلة إلى اتخاذ معدات خاصة . والدكتور ميلون أحد
مديرى مصانع كروب ومن ذكروا كثيراً قرر انه لم يسمع عن التبليغ
النمساوى الا فى ، أواسط يوليه ، فى حديث جرى له مع الدكتور هيلفيريش

مدير البنك الألماني . وفي سنة ١٩١٩ عند ما طلب اليه أن يدلي بما يعرفه عن مجلس بوتسدام المزعوم وعن الاستعدادات الحربية التي تلتها أبان انه ليس لديه ما يقوله مما يمكن أن يلقى ضوءاً جديداً على المسألة . أما الدكتور هيلفيريش فقد نفى بشدة أن أى مجلس حربي عقد في بوتسدام أو أنه تلقى قبل تسليم البلاغ النهائي الى صربيا أية اشارة رسمية بوجوب اتخاذ أى اجراء مالى أو اقتصادى تمهيداً للحرب . وهو يرى انه قد يكون منشأ الاشاعة بحذافيرها ساقياً في أحد فنادق برلين تلقفت أذنه بعض ماذكر عن مقابلة الامبراطور لسفير النمسا .

وسئل الهر بالين رئيس شركة هامبورغ أميركا الملاحية — وكان غائباً عن برلين في أحد المصحات في أوائل يولييه ، نقول سئل بالين في يولييه عما اذا كان يجب التوجه الى انجلترا ليحاول أن يعرف من هولدين حقيقة ما أشيع عن اتفاق انجليزى روسى بحرى . فلا هو ولا مدير شركة نورديتشرلويد كان يمكن على ذلك أن يكونا قد حضرا مجلساً في بوتسدام لأنه ظهر انهما لم يكونا الى ٢٠ يولييه يعلمان أن هنالك خطراً محتملاً من مشاكل حرية . وفون ياجوسكر تير الدولة (وكيل الوزارة) لم يعد من قضاء شهر العسل في سويسره قبل ٦ يولييه . من هذه الأدلة يتبين أن نفس الأشخاص الذين كان المنتظر أن يكونوا هم الموجودين في مجلس كهذا لو انه انعقد ، قد ثبت انهم كانوا غائبين في ٥ يولييه ولم يتخذوا أية اجراءات « لتدير الحرب » . واخيراً فانه ليستحق الذكر انه لا السير هوراس رامبولد الذى كان قائماً بأعمال السفارة البريطانية في برلين في أوائل يولييه ولا أى من زملائه المعتمدين أشار أية اشارة الى مؤتمر كالذى تصوره حكاية فانجنهايم . فلو أن مؤتمراً كهذا انعقد لكانوا سمعوا شيئاً عنه على سبيل الاشاعة بعد بضعة أيام أو أسابيع . ولقد كان السير هوراس في سنة ١٩١٧ على حق في ميله الى الاعتقاد يوم ذاعت هذه الأسطورة بأن الصحف قد وقعت على يعض الأنوق .

موقف الأمبراطور من التمهّل

يُصور البارون فانجنهايم الأمبراطور والمجلس — كما جاء في الحكاية السالفة — بأنهما قررا التمهّل أسبوعين ليتمكن أصحاب المصارف من بيع سنداتهم الأجنبية. وهذا تقيض الحقيقة. فان وثائق كاوتسكى تنطوى على الكثير مما يدل على أن الأمبراطور كان يرغب في أن لا تتمهل النمسا في كل ما يمكن أن تتخذه حيال صربيا، وأنه كان يرى أن تعمل بأسرع ما استطاع، والشعور لا يزال في أوروبا في مصلحة آل هابسبورغ، بعد الذى صدمه من جريمة سيرا جيغو المروعة وأسخطه من الصربيين الآثمين، وأنه لما قرأ أن السفير الألماني في فيينا بعد حادث سيرا جيغو يومين « اتهمز كل فرصة لتحذير النمسا، في هدوء ولكن في حزم وجد، من اتخاذ شيء ينطوى على العجلة »، كتب على الهامش هذه الملاحظة: « الآن أو أبداً ! من خوله أن يفعل هذا ؟ ان هذا هو الغباء بعينه ! فليس من شأنه بل من شأن النمسا المحض ان تنظر فيما تتخذ في هذه المسألة والا لقل فيما بعد اذا جرت الأمور على غير مايرام ان ألمانيا لم تكن راغبة !! ليقطع تشرشكى عن هذا الهراء ! فإنه يجب ان تسوى الأمور مع الصربيين على عجل . وهذا لا يحتاج الى بيان وهو الحقيقة بعينها » . وروى سفير النمسا في برلين كذلك ان الأمبراطور قال له : « انه ليكون مدعاة لأسفه اذا نحن لم نستفد من اللحظة الراهنة التى كانت فى مصلحتنا كثيراً » ولما كتب تشرشكى فى ١٤ يولييه يقول ان برشتولد نفسه قد اقتنع أخيراً « بأن من المرغوب فيه أن يعمل بأقصى سرعة ، خط الأمبراطور تحت هذه العبارة خطين . ولما سمع بأن البلاغ النهائى يراد تأجيله أكثر من أسبوعين بعد أن يكون الرئيس بوانكاريه قد غادر بطرسبورغ علق على هذا بكلمة بالأسف . وهكذا كان الأمبراطور يريد أن تعجل النمسا باتخاذ ما تريد اتخاذه مدفوعاً الى ذلك بتسرعه الضيعى لا حاضاً على الإبطاء والتمهّل كما تصوره حكاية فانجنهايم

الأسباب الحقيقية التي حذت الى التمهّل

كذلك لا أساس لما زعمه فانجنهايم سيبا للتمهّل أسبوعين في ارسال البلاغ النهائى من « ان الماليين قالوا انهم يجب أن يمهّلوا أسبوعين لبيع سنداتهم الأجنبية والاقتراض » فان الأسباب الحقيقية للتأخير آتية كلها من ناحية فينا لا من ناحية برلين . وهى فى الغالب سيان أشير اليهما مراراً وتكراراً فى الوثائق الألمانية والنمسية التى نشرت فى سنة ١٩١٩ . وأول هذين السيين هو أن برشتولد وزير خارجية النمسا والمجر لم يكن يستطيع أن يتخذ اجراء ضد صربيا قبل أن يحصل على موافقة تيزا رئيس وزارة المجر . وقد استغرق صرف تيزا عن معارضته السابقة أسبوعين حتى أمكن أن يرضى بالالتجاء مع صربيا إلى العمل العنيف . وثانى السيين وأهمهما الى حد بعيد هو أن برشتولد لم يكن يرغب فى تقديم البلاغ النهائى الى صربيا قبل أن يتأكد من ان الرئيس بوانكاريه ورئيس الوزارة الفرنسية فيفيانى غادرا سان بطرسبورغ وأصبح السيل اليهما وهما فى عرض البحر فى طريق العودة الى فرنسا متعذراً ، والا لكان من المنتظر أن تساعد روسيا صربيا عسكرياً وهى تحت تأثير « حالة الشمبانيا » وتبادل الانخاب بين فرنسا والروسيا وتعصب بوانكاريه وايزفولسكى والغراندوق نيقولا وغيرهم من كانوا مجتمعين فى سان بطرسبورغ ، فتجبط بذلك خطط النمسا التى كانت ترمى الى جعل نزاعها مع صربيا نزاعاً محلياً .

النتيجة

جلى ان « مجلس بوتسدام » انما هو حديث خرافة . وهو مثال ممتع للطريقة التى تنمو بها الأسطورة وتزدهر وتذيع الذبوع كله فى جو من دعاية الحرب و« الاستعداد لتصديق كل شىء » يقال عن العدو . على انه ثمة عدة أسئلة هامة

هى : كيف نشأت الأسطورة بادية ذى بدء ؟ وكيف بلغت تلك الصورة الكاملة التى أوردتها بها المستر لانسنج ورفاقه فى مؤتمر الصلح الباريسى للتدليل على ذنب ألمانيا ؟

لقد كان للأمبراطور ، كما سنورد فى الفصل التالى ، أحاديث على انفراد مع سفير النمسا وعدة موظفين ألمان فى ٥ يوليه فى بوتسدام ، فمن الممكن جداً كما رأى الدكتور هيلفيريث أن يكون منشىء الأسطورة ساقياً فى أحد فنادق برلين سمع ذكر هذه الأحاديث فهول فيها حين نقلها . وفى سبتمبر ١٩١٤ ظهرت فى إحدى الصحف الهولندية وهى « نيفه روتردامشه كورانت » حكاية عن اجتماع فى بوتسدام فى ٥ يوليه حضره كبار الموظفين الألمان والنمساويين وفى جملتهم برشتولد وتيزا وكونراد والغراندوق فريدريك وصيغ فيه البلاغ النهائى المشؤم . ومرت هذه الحكاية فى ذلك الوقت دون أن يهتم بها أحد. ذلك ان معركة المارن كانت حينذاك تستغرق انتباه العالم فنسيت ثم عادت الى الظهور فى سنة ١٩١٧ فانتشرت على أيدى الاشتراكيين فى ألمانيا وعلى يد البرنس ليخنوفسكى الذى ألمع اليها والصحافة الأوربية التى أفسحت صدرها للنقاش فى أمرها . وقد ألف المستر مورجنتاو كتابه عقب ذلك بقليل فاشير إليه فى مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ فى تعيين المسؤولية عن الحرب .

أو ليس غريباً أن يكون البارون فانجنهايم قد زود المستر مورجنتاو بهذه التفاصيل "شيقة" التى تتنافى مع الحقائق كل التنافى ؟ أبلغت به المرأة أن يفشى أمراً كهذا يسىء الى مصالح حكومته ؟ ان ألمانيا كانت فى ذلك الحين والحرب لم يمر على نشوبها إلا بضعة أسابيع ، تبذل جهداً عنيفاً لكسب ثقة الولايات المتحدة وجعل العالم يعتقد أنها تحارب دفاعاً عن النفس فى حرب فرضت عليها فيان كيان فانجنهايم كان خليقاً أن يضر بألمانيا ضرراً بليغاً .

ثم أليس من الصعب أن تفهم لماذا لم يبلغ السفير الأمريكي واشنطن ما كان قينا أن يعتبر أهم شيء سمعه في الآستانة؟ ومع ذلك فإن البحث الدقيق في أضاير وزارة الخارجية في واشنطن يدل على عدم وجود رسالة أو برقية تشتمل على هذا الحديث الممتع مع البارون فانجنهايم؛ كذلك لم يكتب المستر مورجنتاو في كتابه شيئاً عن إرسال تقرير في هذا الموضوع إلى واشنطن.

الفصل الخامس

إعداد البلاغ النمسي النهائي

لقد قضى مقتل فرانتس فرديناند وزوجه على تردد برشتولد نخرج عن موقفه الماضي المزعزع ، وصمم على أن يتخذ من هذه الجريمة أداة حسنة وذريعة طيبة لتسوية الحالة غير المرضية القائمة بينه وبين صربيا والقضاء نهائيا على الخطر المداهم للمملكة الثنائية من ناحية الدعاية لفكرة « صربيا الكبرى » والدسائس الروسية الموجهة إلى نفوذ النمسا في البلقان . فقد مضت أشهر وسنون والاعتقاد يتزايد بين بعض الجماعات في فينا بأن الحالة السياسية تصبح في البلقان خطراً على النمسا وعبئاً لا يحتمل . وكانت صربيا قد خرجت من حروب البلقان اكبر مما كانت حجماً وأزيد سكاناً ودعاًوى . وكانت الحركة القائمة لتحقيق ما يسمى بصربيا الكبرى تقوى وتلقى تأييداً من الحركة الوطنية التي كانت تنمو بين سلافي الجنوب العثنيين تحت الحكم الهابسبورغي . وقد راجت في سنة ١٩١٤ الاشاعات بأن صربيا واجبل الأسود سيندمجان . ومعنى هذا الاندماج ان يصبح اصربيا منفذ على بحر الادرياتيك وأن تهدد دولة البانيا الوليدة في كيانها الذي كانت تجاهد من أجله فتعرض بذلك التدابير التي سعت النمسا بواسطتها إلى ان تكون بمأمن من الخطر السلافي على حدودها الجنوبية للخطر . ورومانيا لم يكن يستطيع الاعتماد عليها كحليف . وهياج الأقلية الرومانية في البحر كان اذ ذاك في شدته المألوفة . وقد كان يهيجس بالخواطر ان روسيا تشجع سراً على تشكيل عصبة في البلقان من صربيا ورومانيا واليونان وانها كانت تتحين الفرصة

الملائمة بموت فرنسوا جوزيف الشيخ أو بنشوب حرب أوربية ، لتمزيق النمسا بتحرير القوميات المضطهدة بينما تصبح روسيا نفسها صاحبة السيطرة على المضائق وهو ما طالما اشتتهه ، ويصبح لها منفذ حر الى البحر الايض المتوسط. وكان تسليح روسيا إذ ذاك وانشاء السكك الحديدية فيها لاغراض حرية واجراء التعيينات على سبيل التجربة قائما كله على قدم وساق . وكانت فرنسا تقرض روسيا لهذه الاغراض ملايين الفرنكات بينما هي في نفس الوقت تزيد في منشئاتها العسكرية . وكانت ألبانيا صنيعة النمسا وصنع يدها لصد صربيا ، في غمار الفوضى والثورة على أميرها الضعيف الذي اختير أخيرا حاكما لها . وكان الانفعال الدفين الناشئ بين ايطاليا والنمسا من تطلع إيطاليا الى تريستا والترتينو ومن الغيرة والتنافس بين الدولتين في البلقان قد عادت له أخيرا حدة من جراء مرسوم نمسوى يحرم الأشخاص الايطالي المولد من تقلد الوظائف البلدية في تريستا . حتى ألمانيا كانوا يحسون من نحوها انصرافا عن مصالح حليفها النمسوية في البلقان وعدم اكتراث للاخطار التي تهددها فيه فيمضهم هذا الشعور . واذن غير طريقة لحل ألمانيا على احترام النمسا كحليفة جديرة بالتحالف هو أن يلجأوا الى سياسة أكثر انطواء على القوة والعزم من ذي قبل ليروا ان النمسا قادرة على العمل الحاسم ويبرهنوا على أنها عتاد في الواقع للمحالة الثلاثية لا عالة عليها .

بلى لقد كان ثمة شعور عام ، حتى قبل فاجعة سيرا جيفو ومن ناحية الكثيرين من الموظفين في فينا ، بوجوب عمل شيء للحيلولة دون تهدم بناء هابسبورغ المتداعي ، اما من جراء ضعفه الداخلي وتردد أصحابه بين هذا الرأي وذاك لا يستقر لهم قرار . واما بواسطة أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ليقوضوه عاجلا . فلما جاء نبأ مقتل الغراندوق اشتد هذا الشعور وقوى ، وراح أصحابه يقولون لأنفسهم انه اذا لم تغضب النمسا لهذه الضربة التي أصابت أسرتها المالكة ولم تتخذ اجراءات قوية للقضاء الى الأبد على

لخطر المداهم من فكرة صربيا الكبرى فسوف تفقد مركزها في اللقان وفي أوروبا الى الأبد. وإذن فيجب أن تظهر أن لديها من الحيوية ما يرد إليها هيبتها ويقوى دعائمها . وخير أن تفعل هذا في الحال لأن المركز لن يزداد في المستقبل الا سوء ما دام تسليح روسيا قد بلغ التمام والمطامع القومية تتفاقم على مر الأيام . لقد كان كيان النمسا كدولة عظمى في خطر . كان كما صورته كونراد رئيس هيئة أركان الحرب وزعيم الحزب العسكرى في فينا إذ يقول :

« كان ثمة بديلان بارزان أحدهما تجاه الآخر : المحافظة على النمسا والمجر كمجموعة من القوميات المختلفة ينبغى أن تشد بعضها بعضا حيال الخارج ، وأن تجد في ظل حاكم واحد رفاهيتها المشتركة ، أو قيام دول قومية مستقلة منفصلة تغير على الأراضي النمسية المجرية التي يسكنها مواطنوها فتدمر الملكية بذلك .

« وقد بلغ النزاع بين هذين البديلين اللذين كان يتكهن بهما من زمن طويل مرحلة حادة بعمل صربيا فلا سبيل الى تأجيل القرار في شأنهما أكثر مما تأجيل . ولهذا لا للانتقام لجريمة القتل يجب أن تجرد النمسا والمجر سيفها في وجه صربيا... فالنمسا والمجر لا يسعها بعد الآن أن تبقى عديمة الاكتراث للحالة ، وأن ترضى هذا التحرش في هدوء ، وأن تعمل بالمذلة المسيحية فتدير خدها الأيسر بعد الأيمن للضرب . »

هكذا حضر كونراد برشتولد وهو مقتنع بأنه لا مندوحة للنمسا عن اشهار الحرب على صربيا محافظة على كيائها — على الموافقة على التعبئة العاجلة ضد صربيا . لكن برشتولد عارضه بأن هنالك صعوبتين : وجوب إعداد الرأى العام ، وضرورة بناء أسباب الحرب على نتيجة التحقيق في سيرا جيفو . وكان فرانسوا جوزيف يعارض في أى عمل سريع . كذلك كان الكونت صطيفان تيزا رئيس وزارة المجر لا يريد أية حرب على الاطلاق ضد صربيا

حتى يستوثقوا من أن ألمانيا سوف تحمى مؤخرة النمسا من هجوم روسيا .
ثم كان أن بات برشتولد مثل كونراد مقتنعا بضرورة حرب محلية ضد صربيا
وعكف في الأيام التالية على العمل في سبيل ضمان تأييد ألمانيا وإقامة حاجز
في وجه صربيا والتغلب على العقبتين الداخليتين المهمتين اللتين كانتا تعترضان
الحرب المحلية العاجلة ضد صربيا وهما تردد فرنسوا جوزيف ومعارضة
الكونت تيزا

الأمبراطور فرنسوا جوزيف

لم يكن الأمبراطور فرنسوا جوزيف حين مقتل سيرا جيفو قد أبل من
المرض الذي أصابه في الشتاء السابق وظن الكثيرون من ملاحظيه أنه قد
يودى بحياة العاهل الشيخ . وقد كانت كافة الحروب التي شهرها في الماضي
تبوء بالهزيمة أو بضياع الأراضي أو بكليهما معاً على وجه عام . ولم يكن
الامبراطور مولعاً بكونراد كرئيس لهيئة أركان الحرب أو متفائلاً من ناحية
التخيرات التي أحدثها في الجيش النمساوي . وليس شك في أنه كان يريد أن
يعيش بقية أيامه في سلام . أما الآن فقد جعل الخوف يتولاه من أن تبيت
الحالة الصربية في آخر الأمر بما لا يطاق . وعلى أنه كان حزينا جدا وذاها
في التشاؤم مذهباً بعيداً فانه كما يظهر لم يكن يتوقع أن تكون الحرب المحلية
مع صربيا قرية النشوب لأنه كان يتكلم عن خطته التي أعدها للصيف
وعما ينتظر لصيد الوعول من نجاح .

وفي ٥ يولييه حث كونراد على التعبئة فرفض فرانسوا جوزيف التصديق
على اجراءاتها قائلاً : « كلا ، هذا محال ، ومشيراً الى خطر هجوم روسيا
والى عدم الوثوق بمساعدة ألمانيا : فقد كان قبل اجتماع كونيوبشت قد سأل
فرانتس فرديناند أن يحصل من الأمبراطور غليوم على تصريح بأن في استطاعة

النمسا أن تعتمد على ألمانيا ، وهو تصرّح كان يريد بلا قيد ولا شرط . لكن غليوم الثانى تخشى أن يتورط . وفى ٧ يوليّه عاد الشيخ الحزين إلى مصيفه ومراحه فى إيشل كارها أن يتخذ قراراً يمكن أن يجر الى حرب . وبعض الأوراق البالغة الأهمية التى عرضها عليه برشتولد أثناء الأيام التى تلت قد أشر عليها بأمضائه بالقلم الرصاص على أنه قرأها والحال أنها لم تعد تحمل تلك الملاحظات المخصصة التى كان يديها فى سنيه السابقة النشطة . ومن الممكن جداً أن يكون العاهل الشيخ لم يدرك كل الادراك نتائج السياسة والخطط التى كان يضعها برشتولد إذ ذاك . وليس لدينا روايات مرضية عن الأحاديث التى دارت بينه وبين وزير خارجيته ، بيد أن الظاهر أن برشتولد لم يلق كبير عناء فى اقناع مليكه بوجوب التصديق على الاجراءات التى عرضها عليه . أما تيزا فقد كان أقوى شكيمه وأشد مراساً .

برنامج تيزا السلمى

الكونت صطيفان تيزا الشهير بن الشهير ربما كان إذ ذاك أقدر سياسى فى المملكة الثنائية وأوقع سياسى فى النفس . كان بين نبلاء المجر كالمارد الصغير بشعره المقصوص ووجهه الأسمر المربع ومعطفه المجرى الفضفاض ، حين تولى زعامة حزب الأغلبية كما كان أبوه من قبله . كان رجلاً يدرك الأخطار الحائقة بالبلاد من كل الجهات كل الادراك ، قديراً على التفكير فيها والتدليل عليها فى هدوء ، وكان يعرف بالضبط ما يريد . فلما أصبح فى يونيه ١٩١٣ رئيساً لوزارة المجر مكنه مركزه الرسمى من توجيه الالتفات الى آرائه . وقد وضع فى ربيع ١٩١٤ « سياسة بعيدة النظر ، ليكسب بلغاريا الى جانب ألمانيا والنمسا ويضمن السلام فى البلقان بضع سنوات على الأقل . فرضى برشتولد هذا البرنامج السلمى مع بضعة تعديلات واتخذ منه قاعدة لمذكرة مسببة كان قد وجهها الى برلين ولما يكّد قبل أن تحمله أنباء سيرا جيفو على التحول

فجأة الى برنامج كونراد . ولم يكن تيزا مع ذلك بالرجل الذى يسمح بأن تقلب آراؤه الناضجة فى لحظة رأساً على عقب ولو بجرمة كهذه . فانه باذر الى فينا فى ٢٩ يونيه فى اليوم التالى للاغتيال لعرب لفرنسوا جوزيف عن عطف بلاده ولكن دون أن يحول بخاطره أن سياسة المملكة ستبدل من جراء ما وقع . وبعد أن عزى الامبراطور زار البالبلاتس وليس لديه أقل فكرة عن التغيير الفجائى الذى طرأ على موقف وزير الخارجية . وهاك فى وزارة الخارجية علم مع الدهشة الالمية بعزم برشتولد ، على أن يخلق من جريمة سيرا جيفو الفضيعة سبباً لمناقشة صرياً الحساب نهائياً .

عندئذ أبلغ تيزا برشتولد صراحة أن إثارة حرب كهذه مع صرياً لتكون « غلطة مشؤمة » ولتضمن النمسيين « أمام العالم أجمع بأنهم عكروا السلام ، هذا الى خوضهم حرباً كبرى فى ظروف هى أسوأ ما تكون بالنسبة لهم » . على أن الظاهر أنه لم يؤثر فى برشتولد فيلاً وعلى كل فقد وجد تيزا من واجبه عند عودته الى بودابست أن يبلغ فرنسوا جوزيف عن خطط برشتولد الرعناء ويحذره منها . ولما كان متوقفاً أن يقدم الامبراطور غليوم الى فينا للأعراب عن عطفه الشخصى لأخيه الامبراطور رجا تيزا فرنسوا جوزيف أن ينتهز هذه الفرصة « لجملة على تأييدنا فى سياستنا البلقانية » وهى كسب بلغاريا والمحافظة على السلام فى البلقان . وكان تيزا فى خلافه مع برشتولد يريد أن يستخدم نفوذ ألمانيا فى مصلحة برنامج السلى السياسى ضد برنامج برشتولد الحربى الجديد الأرعن . لكن برشتولد تقدم لنزع هذا السهم بعينه من كنانة تيزا وتوجيهه الى تيزا نفسه كما سترى

فى مارس ١٩١٤ وضع تيزا مذكرة بالنظر الى أن رومانيا لم يكن يمكن الاعتماد عليها كخليفة والى الأخطار المتزايدة التى استهدفت لها المملكة الثنائية عقب حروب البلقان . وفى هذه المذكرة شرح برنامجا للسلام وعودة الأمور الى مجاريها ووضعها فى نصابها فى شبه جزيرة البلقان ، ثم عرضها على فرنسوا

جوزيف وبرشتولد مؤملا قبولها كقاعدة لسياسة رشيدة تجرى عليها النمسا
وألمانيا في تلك الناحية . وإليك خلاصة هذه المذكرة :

« ان حروب البلقان واصلح بوخارست جرت جميعها على النمسا والمجر حالة
لا تطاق ، أصبح معها وجود سلام حقيقى دائم غير ممكن ما لم تتحسن تلك
الحال . ومن جهة أخرى فان الأعياء والفرع العام من الجسامة بحيث لا يسمحان
بأى عمل عسكري نافع في المستقبل القريب ، فالأحقاد والعواطف تعترض
المرء في الحكم على مصالحه ومصالح جيرانه وتقديرها تقديراً سليماً صحيحاً .
وغلو المتصر في الثقة بنفسه ومرارة المغلوب سواءً في الحيلولة دون الرأي
الرشيد . لذلك لا تستطيع النمسا أن تقدر قيمة نفسها التقدير الصحيح وأن
تقتضى الاحترام المناسب لمصالحها ونصائحها بين دول البلقان الا اذا تبدد
الدخان وأمكن للعقل الهادي أن يسود . وانها لتكون غاظة شنيعة أن تتعجل
الحوادث أو نحاول إحداث تطور غير ناضج لا يقع الا نتيجة الزمن والآناة
والسياسة المحصنة الرشيدة . وليس معنى هذا أن نهبط الى الخنوع والبلادة
وننحط الى الكسل السلى فانه يجب على النقيض من ذلك أن نتخذ سياسة
بأكبر تنعم فيها الفكر لنستطيع أن نذلل بها متاعبنا الداخلية تدريجاً
ونوجد في البلقان حالة أصلح . » وانه يجب وهذا الغرض نصب أعيننا أن
لا نفكر في مصالحنا الخاصة وحدها بل أن تفاهم مع ألمانيا تفاهماً لا يعتوره
إبهام . فهمتنا شاقة ولا سبيل الى النجاح ما لم تتأكد تماماً من أن ألمانيا فهمتنا
واحترمتنا وباتت تؤيدنا فانه يجب أن ترى ألمانيا أن البلقان لا يهمننا وحدنا
تلك الأهمية الحاسمة بل يهم الامبراطورية الألمانية كذلك . »

« أما ما يتعلق بالروسيا فلم يكن تيزا يعتقد أن في نيتها خوض حرب عاجلة
فان موقفها العدواني وقعة سلاحها انما كان يراد به التأثير في دول البلقان
وتشجيع الحركة الوطنية في رومانيا وصربيا ، وقد يكسب فرديناند ملك بلغاريا
الى جانب القيصر . ويعتقد تيزا أن بلغاريا يمكن وينبغي أن تجذب الى جانب

دول الوسط . وقد وقع فرديناند بلا ريب في مركزه المويئس الذي وجد فيه بعد الحرب البلقانية الثانية لا تباعه سياسته الخرقاء وعدم إصغائه الى نصيح النمسا . ومع ذلك فإن احاطة رومانيا وصربيا واليونان ببلغاريا ، وكون تركيا لا تزال تهددها قد يدفع بها الى أحضان روسيا ما لم تبادر النمسا الى نجاتها . وهذا التشكيل الذي قد يصلح ذات البين بين بلغاريا والدول المسيحية الاخرى تحت رعاية روسيا قد يفضي الى حرب ناجحة ضد النمسا والى مكافأة بلغاريا بمقدونيا ، وتصبح النمسا محصورة وسط هذا الطوق الحديدي الذي لا تتي روسيا عن صنعه فيتم تفوق الوفاق الثلاثي عسكرياً في أوروبا وعندئذ تكون اللحظة التي تنشدها روسيا وفرنسا من زمن طويل قد دنت فهاجمان ألمانيا بقوى هائلة وتشهران الحرب العظمى يحدوها الأمل في النجاح .

وكان تيزا يعتقد أن الوفاق الثلاثي لن يهاجم ألمانيا مع ذلك الا بعد أن تكسب روسيا جانب بلغاريا وبذا تهدد النمسا بحرب في ثلاثة ميادين . ومن ثم كانت عقدة المركز الأوربي في البلقان وخاصة في ضم بلغاريا الى دول الوسط . وهذا كان من الأهمية الحيوية لألمانيا كما هو للنمسا على السواء . ولذلك وجب على المملكة الثنائية أن تعارض سياسة روسيا في البلقان بسياسة ألمانية نمسوية تكون ثمرة التحيص وانعام النظر ويسودها الوفاق . وخير طريقة لكسب بلغاريا هي في رأى تيزا أن يلوح لفرديناند بأمل الحصول على مقدونيا . وهذا أمر لا يمكن أن يتم في الحال فإنه لا يزال أمام بلغاريا عدة سنين لتسترد فيها قواها وتلتئم جروحها من جراء الحرب . وفي تلك الأثناء يجب أن تطمئن دول الوسط بلغاريا من ناحية تركيا أو اليونان وتضمن لها الحماية من اعتدائهما . وقد كان شعور الجمهور الروماني شديد العداء للمجر فيجب أن يبدل مجهود لمل الملك كارول على الثبات في محالفته وطمأنينته بأن رومانيا ليست في خطر من أى اعتداء عليها من جانب بلغاريا .

يجب أن تتعاون المانيا والنمسا من الآن فصاعداً على إيجاد عصبة لمصلحتها من دول البلقان فتبعد رومانيا واليونان عن صربيا وتُصالح مع بلغاريا على قاعدة توسع هذه على حساب صربيا .

هذا هو هيكل السياسة التي رأى تيزا أنه ينبغي أن تُقنع المانيا بها حتى يسع الدولتين — دولتي الوسط — أن تؤيد إحداها الأخرى في صوفيا وبوخارست والآستانة . وقد ردد في نهاية مذكرته « أن سياسته في الوقت الحاضر سياسة سلام وأن بلغاريا لن تستطيع أن تعوض نفسها بمقدونيا إلا في المستقبل البعيد نسبياً ، ثم قال في الختام مؤكداً : « إننا يجب أن نحافظ في البلقان على السلام أولاً ثم نعد بعد ذلك تطوراً صالحاً فلا موجب إذن لاضاعة الوقت »

والظاهر أن برنامج تيزا صادف قبولا لدى فرنسوا جوزيف وبرشتولد الذي كلف البارون فلتوتو إخصائي وزارة الخارجية في شئون البلقان بأعداد مذكرة أطول من مذكرة تيزا تبسط فيها آراؤه . وقد أكد فلتوتو المركز العصيب الخطر الذي توجد فيه النمسا وأبان أنه على رغم ولاء الملك كارول شخصياً ولاء لا سبيل الى الشك فيه ، لا يمكن الاعتماد على رومانيا نظرا للتيار القوي المعادي للنمسيين بين الشعب الروماني ولذا يجب على النمسا أن ترغب رومانيا على اعلان موقفها صراحة سواء أ كان هذا الموقف مع النمسا أو عليها . وخير وجه للضغط على رومانيا في هذا الصدد هو أن تحالف النمسا بلغاريا وأن تجعل صوفيا محور سياسة النمسا البلقانية لا بوخارست وفي هذه الحالة تكلف بلغاريا بأن تضمن لرومانيا الحدود الراهنة بينهما وبذا لا يخاصم الملك كارول ولا يكون ثمة ما يبعث على خوفه . بل انه ليرى عندئذ حكمة التعلق بالمحالفة الثلاثية . وقد يضطر الى استخدام نفوذه العظيم مع صربيا ولتقريب صربيا الى المملكة الثنائية . وفي هذه الحالة تتقدم المملكة الثنائية منتصف الطريق الى صربيا عن إخلاص وفي حدود حالة سياسية كهذه .

لكنه إذا لم يوافق الملك كارول على إعلان ولائه للمحالفه الثلاثية في تصريح علني مرض فيكون على النمسا أن تعدل تدابيرها العسكرية وأن تسعى لجذب تركيا الى التحالف مع بلغاريا حتى تعضد كلاهما المحالفه الثلاثية .

وقد عرضت مذكرة فلوتو على برشتولد في أواسط يونيه بعد أن فصلها ماتشيكو وبوجاشر . وليس جلياً ما إذا كانت قد عرضت على فرانسوا جوزيف في خلال زيارة برشتولد لكونوبشت في اليوم التالي لاجتماع الإمبراطور غليوم بولي عهد النمسا . وعلى كل فقد كان تقرر أن تزد تفصيلاً وتعرض على السلطات الألمانية لتكون بمثابة مرشد للحليفين في شئون البلقان . وكان أن وضع مشروع بهذا المعنى في ٢٤ يونيه ، وراجع برشتولد المشروع ووضع في صيغته الأخيرة المهدبة مؤملاً أن لا تلقى هذه الصيغة معارضة من وزارة خارجية برلين وأن تقنع بها .

بهذه الصيغة كانت المذكرة كاملة ومعدة لأن ترسل الى برلين . وكان الغرض منها أن تفتح أعين ألمانيا الى الحاجة الى معاونة النمسا بهمة على خطب ود بلغاريا . لكنه في عصر يوم الأحد ٢٨ يونيه جاءت تلك الرسالة التليفونية المزعجة تنبئ بمقتل فرانتس فرديناند وزوجه في سيرا جيفو . والظاهر ان هذا النبأ أثر تأثيراً قوياً في ذهن الكونت برشتولد وانتشله من تراخيه وتردده المعتاد . ويذكر الكثيرون من المؤرخين وعدة من الفيناويين الذين تحدث اليهم كاتب هذه السطور أن برشتولد كوزير كان يخضع لغيره ويسمح لأعداء الصرب من الموظفين المجريين في وزارة الخارجية النمساوية كهويوس وفورجاخ وماتشيو ولبارون كونراد رئيس هيئة أركان حرب النمسا بتسييره . فكان وزير الخارجية يعتبر مجرد « باصم من المطاط » يصدق على ما يقدم اليه . وإذا كان لهذا الرأي قبل فاجعة سيرا جيفو ما يسوغه الى حد ما فهو على ما يلوح ليس كذلك فيما يتعلق بأزمة يولييه ١٩١٤ فان الدلائل المملاسة لعصره ترينا ان برشتولد على كثرة ما كان مرؤوسه في البلاط ورجال العسكرية يقودونه

قد قام في الحوادث التي أفضت إلى الحرب العالمية بدور فعال مشثوم . وقد كان الى ما قبل ذلك يتردد بين رأيين متعارضين يمثل أحدهما كونياد ويمثل الآخر تيزا . أما الآن بعد أن وقع حادث سيرا جيفو فانه قرر أن يتخذ من هذه الجريمة مبررا نهائيا لتسوية علاقات النمسا بصريا دفعة واحدة

برشتولد يطلب مساعدة المانيا

لقد تحول برشتولد الآن نهائيا الى رأى كونياد وجاراه في رغبته في الحرب العاجلة مع صريا . لكنه نظراً إلى تردد فرنسوا جوزيف ومعارضة تيزا لم يكن يسعه أن يتخذه في الحال . هذا الى أنه أدرك ان من الجنون ان يلجأ إلى عمل أخرج كهذا قبل أن يتأكد أولاً من برلين ان ألمانيا ستساعده . وقد كانت هذه في بضع السنوات الأخيرة تحول على الدوام دون التجاء النمسا في البلقان الى عمل عدائي قد يجر المحالفة الثلاثية إلى نزاع مع الوفاق الثلاثي . وقبل حادث سيرا جيفو يومين كان تشيرشكي السفير الألماني في الوقت الذي كان بعض ذوى الخطر في فينا « يعربون الحين بعد الحين عن الأمل في ان تنذر النمسا بالحوادث لتحاسب الصريين نهائيا » - في هذا الوقت كان تشيرشكي يتهمز كل فرصة للتحذير في هدوء ، ولكن في حزم وجد ، من التسرع في اتخاذ الاجراءات . وقد أشار قبل كل شيء الى انه يجب أن تثبت النمسا بما تريده بالدقة ، وأن تنظر بعين الاعتبار الى حلفائها وتزن المركز الأوربي بمخذا فيره وخاصة الموقف الذي يمكن أن تقفه ايطاليا ورومانيا حيال صريا . وقد سرد له برشتولد في ٢ يوليه كل الاخطار المنطوية عليها الدعاية لصريا الكبرى وكانت الأنباء قد وصلت إذ ذاك بأن اثني عشر قاتلا في طريقهم لاغتيال الأمبراطور غليوم فكان من مصلحة المانيا كما هو من مصلحة النمسا أن يوضع حد لمؤامرات

بلغراد . وقد سلم تشرشكى بهذا لكنه أبدى للوزير النمساوى بصفة خاصة ، أن السبب الذى من أجله لم تعط ألمانيا فيما مضى وعوداً بالمساعدة أكثر مما فعلت هو أن النمسا تكلمت من الوجهة النظرية كثيراً ولكنها لم تضع للعمل خطة محدودة معينة ، . وحين توضع خطة كهذه يسع برلين أن تعد بالتأييد الكامل التام . ثم عاد تشرشكى فحذر برشتولد من خطر ابعاد رومانيا وإيطاليا . كذلك جاءت من برلين عبارات تنطوى على العطف يد أنها كانت مصحوبة بالنصح بالحيلة والحذر .

تلقاء هذا الموقف ، موقف الحذر والاعتدال من جانب فرنسوا جوزيف وتيزا وألمانيا ، لم يكن برشتولد يجرؤ على اتخاذ شيء ضد صربيا وكان يخشى إن هو عبأ الجيش فى الحال أن يفضى ذلك الى أن تبقى النمسا وحدها دون مظاهره ألمانيا وعواقب هذا قد تكون فادحة . فكان يرى أن عليه أن يحصل من برلين على تأكيد بتأييده فى أية سياسة يمكن أن يتخذها فى النهاية . وليضمن ذلك قرر أن يتبعث الكونت هويوس الى برلين فى رسالة خاصة . وكان برشتولد ينتوى أن يكون لقوسه وتران : أن لا يعدل جهاراً عن برنامج تيزا السلمى الذى يقصد به كسب بلغاريا الى جانب النمسا وألمانيا وهو ما يرجح أن تقره برلين ، وأن يفرغ قصاره لاستدراج ألمانيا الى أقصى حد ممكن لإقراره على اتخاذ عمل حربى عاجل حازم ضد صربيا ، ولهذا الغرض يريد أن يستغل فظيعة سيرا جيفو الى أقصى ما يمكن ، فيؤكد أن خيوط المؤامرة تمتد بلا ريب الى بلغراد وأن الجريمة خاتمة سلسلة الاعتداءات الصربية المرهقة التى يجب أن يقتصر منها أخيراً بالقوة . وهكذا قرر ، وهذا البرنامج المزدوج نصب عينيه ، أن يبعث فى الحال الى برلين بالذاكرة المستفيضة المتعلقة بالسياسة السالفة الذكر مشفوعة بالحاشية التالية :

« كانت هذه المذكرة قد تمت ولما تكدر يوم أن وقعت حوادث سيرا جيفو المرعبة . ويكاد لا يكون اليوم فى مكنة أحد أن يقدر خطورة هذه الجريمة

النكراء. وهى بلا أدنى شك الدليل لمن يعوزه الدليل على أن الهوة الفاصلة بين المملكة وصرىا لا سبيل الى تخطيها أو أن طمع صرىا فى التوسع لا يقف فى شدته واستهتاره عند حد. وليس من سبيل الى نكران حسن النية عند النمسا والمجر أو أنه يعوزها الاستعداد لأن تكون علاقاتها بصرىا مما يحتمل، لكن الأحداث أثبتت أخيراً أن كافة هذه المجهودات ذهبت هباء، وان المملكة يجب أن تجعل بالها فى المستقبل الى عداوة صرىا اللدودة الخالية من الرحمة والبادية العدوان. وهذا كله من شأنه أن يحمل المملكة على أن تقطع يد حازمة تلك الخيوط التى يحيكها أعداؤها شبكة فوق رأسها.

وأنشأ برشتولد كتاباً مبهماً ذا وجهين ليوقعه فرنسوا جوزيف ويرسله الى الامبراطور غليوم وكان شطره الأكبر كالمذكرة المتعلقة بالسياسة وفقاً على برنامج تيزا السلى لكن بدء الكتاب وختامه — كالحاشية الآتفة الذكر — كان يراد بهما أن يقنعا العاهلين الامبراطورين بمسئولية صرىا عن جريمة سراجيفو وبذا يوضع الأساس الذى يمكن أن يقيم عليه برشتولد عمله الحربى، ومع ذلك فإن العمل الحربى لم يرد له ذكر لأنه لم يشأ أن يزعم الامبراطورين بادى بدء دون موجب وفى صورة جافة. لكنه اذا وجد أنهما قلا نظريته فيما يتعلق بمسئولية صرىا فقد يصبحا ميالين الى الموافقة على غزو صرىا عسكرياً، أو فيكون على كل حال فى وسعه أن يعود أدراجه الى برنامج تيزا السياسى.

محادثات بوتسدام فى ٦، ٥ يوليه

كان هذا الكتاب الملكى مصحوباً بمذكرة برشتولد التفصيلية وحاشيتها وقد أرسلا معاً الى برلين مع اسكندر هويوس سكرتير وزارة الخارجية وكاتم سر برشتولد، وحملهما الكونت تسيجينى سفير النمسا الى الامبراطور فى بوتسدام فى يوم الأحد ٥ يوليه. وإليك تقرير تسيجينى عما وقع:

« بعد أن ابليت الامبراطور غليوم أن يدي كتاباً خطياً أريد أن أسلمه إياه تلقيت دعوة جلالتى الامبراطور والامبراطورة لتناول طعام الغداء فى القصر الجديد . وقد سلمت جلالته الكتاب ومعه المذكرة فقرأها فى حضورى باهتمام زائد ثم اكدلى بادى الرأى انه كان يتوقع عملاً جدياً من جانبنا ضد صربيا لكنه قال انه يعترف فى الوقت نفسه بأن أقوال جلالة امبراطورنا تزيد فى احتمال وقوع تعقيدات خطيرة فى أوربا ، ولذلك فهو يرغب فى أن لا يجيب جواباً نهائياً قبل أن يستشير المستشار الامبراطورى .

« وعقب الغداء خولنى جلالتى لما عدت فأكدت له خطورة الحالة ان اكتب بأنه فى استطاعتنا فى هذا الصدد أن نعتد على مساعدة ألمانيا التامة . على أنه يجب كما قال من قبل أن يسمع ما يقول المستشار الامبراطورى وان كان لا يشك فى أن يتمان هو لفيج سيوافقه كل الموافقة . أما فيما يتعلق بأى عمل من جانبنا ضد صربيا فيرى ان مثل هذا الاجراء لا ينبغي ان يتأخر فان موقف روسيا سيكون بلا ريب عدائياً وهذا أمر توقعه من سنوات وحتى لو «أفضى الأمر الى وقوع حرب بين النمسا والروسيا فيجب ان نعتقد ان ألمانيا ستقف إذ ذاك الى جانبنا بولائها المعتاد كخليفة . » قال والروسيا فوق ذلك وكما تدل الأحوال اليوم ليست مستعدة للحرب وستنعم الفكر طويلا قبل ان تلجأ الى السلاح . لكنها ستثير علينا دول الوفاق الثلاثى وتنفخ فى نار البلقان .

« وقال جلالتى انه يفهم ان من الصعب على فرنسوا جوزيف ، لما عرف عنه من حب السلام ، ان يغزو صربيا . لكنه إذا قررنا ان من الضرورى اتخاذ اجراء عسكرى حيال صربيا فانه يؤسف ان لا تنتهز اللحظة المبرهنة لأنها فى مصلحتنا جداً

« أما فيما يتعلق برومانيا فسيغنى بأن يقف الملك كارول ومستشاروه موقفا لا غبار عليه . فهو لا يرحب بفكرة المحالفة مع بلغاريا إذ انه لم يثق يوماً

بالمملك فرديناند ولا مستشاريه السابقين او الحاليين ولا هو يثق به الآن .
على انه لن يعارض في عقد محالفة بين النمسا وبلغاريا لكنه يجب ان يلاحظ
أن لا تحتوى المعاهدة شيئاً سيئاً الى رومانيا كما يجب أن يبلغ خواها الى
روما وفقاً لما جاء في المذكرة .

« وينوى الامبراطور غليوم ان يكر في صباح الغد بالذهاب الى كيل ليبدأ
من هناك رحلته البحرية الى الشمال لكنه سيحدث المستشار قبل السفر
وقد دعاه من . هوهنفيو لهذا الغرض وسيقابله مساء اليوم في القصر
الجديد . وعلى كل فساخلق مناسبة للتحدث الى المستشار في أى وقت من
صباح الغد . »

كيف كانت عواطف الامبراطور غليوم وقت هذه المقابلة ؟ لقد صدمه
بأ اغتيال فرانتس فرديناند وزوجه صدمة الية وأثر تأثيراً عميقاً في نفسه
السريعة الانفعال بطبيعتها ، وهو الذى كان قد استقبل الغراندوق في كونيويشت
ولما يكد . وفي يوم الأحد السابق بينما هو في كيل على ظهر يخته عصر ذلك
اليوم لمح لنشاً صغيراً يشق عباب الماء بأقصى سرعته كما لو كان يسدد مقدمه
الى قلب اليخت فأشار اليه اشارة قاطعة بأن يتنحى لكن الاميرال ميلر الذى
كان يدير دفة اللنش بدل أن يفعل ذلك أشار الى اليخت بأن لديه شيئاً يريد أن
يلغنه ورفع ساعده بقطعة من الورق ثناها بعد ذلك وأودعها علبة سكاثر ثم
ألقى بها الى ظهر اليخت محاذراً فالتقطها بحار سلها الى الامبراطور ففتحها
غليوم الثانى ولم يأت على ما في الورقة حتى امتقع لونه إذ كانت تتضمن نبأ
حادث سيرا جيفو المشنوم . وأصدر الامبراطور أوامره على الأثر بالرجوع
والعدول عن سباق الزوارق . وقد كان في نيته أن يذهب الى فينا ليشارك في
تشيع جنازة الغراندوق وليظهر احترامه للشيخ فرنسوا جوزيف في أخرى
محنه . لكنه لما نقل اليه أن اثني عشر من الصربيين القتلة في طريقهم من
بلغراد الى فينا ليغتالوه رضح لمشورة مستشاره وعدل عن الزيارة . وقد

أعلن بصفة رسمية أن السبب في تغيير الإمبراطور لعزمه يرجع الى الروماتزم . وليس للمرة الى اعتبارات تتعلق بسلامته الشخصية . بيد أن قراره الفجائي بعدم السفر إلى فينا لتأدية واجبه نحو صديقه الراحل أثار كافة أنواع الأقاويل المتناقضة والاشاعات الخيالية . ومن التسرع أن يحاول كاتب تحليل نفس الإمبراطور في ٥ يولييه ١٩١٤ أو في أى وقت آخر تحليلاً سديداً . وقد زعم كارل كاوتسكى الزعيم الاشتراكي الألماني انه كان على شيء من الجنون وقام هرمان لوتس يبحث دقيق في هذا الصدد ليُرى أن الإمبراطور كان يعاني من أمد طويل ضيقاً جنونياً دورياً كان كل دور فيه يقع مع ايماءة من ايماءاته خرقاء المنصوية على المشاغبة والتي ضل يزعم أوربا بها بلا انقطاع . وغيرهما من الكتاب الذين قرأوا خُطب الإمبراطور أثناء الحرب بادية الانفعال وهو يتنقل فيها بين الابتهاج والتأثر إلى حد البكاء ، أو ما ألفه بعد الحرب كـ Comparative Tables ومذكراته ، التي لا فائدة فيها يرون فيه آراء مختلفة ، فمنهم من يعدّه مخبولا خطراً ومنهم من يعتبره معتوهاً كبيراً أو أبه أنانياً . لكن هؤلاء ينسون أن الحكم على الزعماء ، حتى في دول الوفاق ، بما قالوه تحت تأثير الحرب أو الدعاية السياسية لا يدل دلالة منصفة على آرائهم أو عقيدتهم قبل الحرب . وهم ينسون حين قراءة ما هطلت به دُورن ، ذلك التأثير الماحق الذي خلفته متاعب الحرب في عقل قابل للانفعال والهياج . وليس لتقدير مواقف الإمبراطور في يولييه سنة ١٩١٤ خير من الهوامش التي كان يبعثها على ما كان يقدم إليه من رسائل . فقد كانت هذه منه عادة انحدرت إليه من ناحية بسمرك فذهب يقلده فيها . وقد كان بسمرك يجد أنه مما يوفر عليه وقته أن يدب على رغباته بهذه الملاحظات التي كان يدونها على الهامش بدب أن يكتب أو يملأ تعليقات ضوئية . وكلا بسمرك و غليوم الثاني كانا يعتقدان أن هذه الملاحظات ستظل من الأسرار المحفوظة ، ولو تبناً كلاهما بأنها

ستنشر على العالم عاجلاً لبانت دهشتها كبيرة . على أنه بينما كانت ملاحظات بسمرك عصارة تفكير عميق ويراد بها عادة أن تكون بمثابة تعليقات ، كانت هوامش الامبراطور في الغالب مجرد معارضة للوثيقة التي أمامه تنطوي على الانفعال والتسرع . ويجب أن نذكر أن هذه الملاحظات متناقضة مبالغ فيها ولم يكن لها أي نفوذ أو تأثير في سير الحوادث من الوجهة الفعلية لأنها كانت تدون متأخرة عدة أيام على أوراق كانت وزارة الخارجية قد اتخذت في شأنها قراراتها بالفعل . ومع كل فأنها تدل بعض الشيء على اتجاه ذهنه والتأثير الحاسم الذي كان لمقتل صديقه عليه .

كان الامبراطور غليوم قبل حادث سيرا جيفو ميالا الى الظن بأن النمسا كانت تهيج من ناحية صربيا بلا ضرورة أو داع وأنه ينبغي أن تحاول الوصول معها الى تفاهم حي كائناً ما كان . وفي ربيع ١٩١٤ لما أزعجت النمسا تلك الاشاعات التي راجت بأن صربيا قد يدفعها تحريض روسيا الى الاتحاد مع الجبل الاسود بأية صورة ، كان الامبراطور على ما بدا منه ، في جانب صربيا أكثر مما كان في جانب النمسا . وقد اعتبر المجهودات التي بذلتها النمسا أثناء حرب البلقان لمنع صربيا من أن يكون لها منفذ على بحر الادرياتيک عملاً أخرق ، كما اعتبر بمجهودها الجديد في سبيل منع صربيا من الوصول الى الادرياتيک بالاتحاد مع الجبل الاسود غير معقول ، قال : ، ويجب قطعاً أن لا يمنع هذا الاتحاد ، فاذا حاولت فينا هذا المنع ارتكبت جهالة شنيعة وأثارت خطر الحرب مع السلافيين وفي هذه الحالة لن نحرك ساكناً . كان يوافق تيزا الذي كان يسلم بهذا الاتحاد باعتبار أنه قريب الوقوع أكثر من موافقته لبرشتولد وفرنسوا جوزيف اللذين كانا يعتبرانه بما لا يمكن قبوله . وقد أبقى من كورفو الى بيتمان هولفيج في ٥ ابريل يقول :

« ان من اللازم قطعاً أن يواجه أولئك الذين هم في فينا احتمال اتحاد صربيا بالجبل الاسود بجد وأن يعرفوا جلياً هل يقفون مهماً كانت

الظروف في الموقف الذي يراه الامبراطور والكونت برشتولد أو ينحازون إلى آراء تيزا . والأول ممكن فقط إذا كانوا مصممين تصميمًا قاطعًا على منع الاتحاد بقوة السلاح . وعلى كل فيجب أن لا تعرض النمسا هيبتها للخطر وتعلن على الملأ أموراً غير مقبولة تسمح بها في النهاية . أما إذا وافقوا على آراء تيزا 'المعقولة' فستكون السياسة النمساوية قادرة دون جهد آخر على أن توطن نفسها على الأحوال المتغيرة وفي الاتجاه الذي ندعو إليه من سنين . يجب أن يكون هناك ميثاق سلام مع المملكة الثنائية يجذب صربيا .

فبينما كان الامبراطور الألماني إلى ذلك الحين ميالاً على وجه عام إلى حماية صربيا من مطالب النمسا الخطرة المجحفة ومؤملاً في تسوية سلمية لمتاعبهما ، إذا به الآن بعد أن قتل واحد من خيرة أصدقائه كان يزوره قبل هنية يد قتلة قد سلم بأنهم أتوا من بلغراد ثور ثأرته على الصربيين ويصب عليهم جام غضبه . وقد وصفته ملاحظاته "تي هي على 'لها مش بأنهم 'قتلة' ومقتالون ، و ، قطاع ضرق . وقد شعر في اخلاص أن الملكية في خطر وأن الروح الذي حدا بهم إلى قتل ملكهم وملكتهم في سنة ١٩٠٣ لا يزال يسود البلاد . وأن جميع الملوك ونيقولا الثاني في مقدمتهم ينبغي أن يؤبدوا النمسا بدل أن يعارضوها في أي عمل يمكن أن تتخذه لقمع التهييج المنطوي على الاستهتار الذي كان قائماً منذ سنين بين الصربيين والذي يهدد كيان الحليف النمساوي كما أبخه برشتولد الآن ، وقد ذهب صديقه هو فريستهله . لذلك لما قرأ أن تشيرشكي سفيره في فينا كان يتهمز كل فرصة لتحذير برشتولد في هدوء ولكن في حزم وجد من 'تخاذ أية إجراءات تنطوي على التسرع لاحظ على 'لها مش كما أسلفنا "قول في "فصل" سابق . "الآن أو أبداً ! من ذا الذي خوله أن يفعل هذا ؟ إن هذا هو 'خرق بعينه ! ليس من شأنه بل من شأن 'نمسا' المحض أن تتضرر مدّاً تعمل في هذا 'تصدد لأنه سوف يقال فيما بعد إذا جرت الأمور على غير ما يرام إن ألمانيا لم تكن راغبة !! أرجو

أن تسوى الأمور مع الصريين . وليكن هذا عاجلاً . وهذا جلي وبديهي ،
وهكذا كان يريد باندفاعه الطبيعي أن تقدم النمسا على عمل حيال الصرب
بأسرع ما استطاع والعالم المتمدن لا يزال بأسره يعطف عليها تحت تأثير
الجريمة الفظيعة ووقعها الشديد . ولم يكن الإمبراطور يعلم في ٥ يولييه بالضبط
ما هو العمل الذي يجب أن تقدم عليه النمسا ، ولم يكن يهمه أن ينصح به . لكنه
لا هو ولا بيتان هولفيج كانا يظنان أن النزاع النمسي الصربي قد يؤدي إلى
حرب أوربية . ولذا أمكنه أن يسافر في أمان إلى نزهته البحرية في صباح
اليوم التالي كما كان مقرراً من زمن طويل وكما نصح له بيتان . وما كان خليقاً
أن يفعل هذا لو أنه ظن أن العمل الذي أراد أن تقدم عليه النمسا في الحال
أن لا تبطل فيه أكثر من أسبوعين ، سيؤدي على الراجح إلى حرب أوربية .
وبما له مغزى هو أنه لما سمع بنوع البلاغ النهائي الذي قدمه برشتولد إلى صربيا
عجل بالعودة إلى برلين . وتنسب إليه أسطورة « مجلس بوتسدام » أنه بارح
ميدان العمل ليخدر أعصاب أوربا في صورة مكيفالية من ناحية أمنها قبل أن
يياغت فرنسا وروسيا بالهجوم . لكن مثل هذا الرأي قد وصفه غليوم نفسه
في ذلك الحين بأنه « عبث أطفال » وذلك في هامش رسالة وصلت إليه من فينا
تقول ان هذا هو عين ما فعله رئيس هيئة أركان الحرب ووزير الحرية النمسيان
فضلاً عن أن الإمبراطور لم يكن من أولئك الذين كان يمكن أن يغادروا
برلين لو أنه توقع تعقد الموقف الأوربي بصفة جدية . وعدوله عن رحلة
الشمال التي كان قد اعتاد القيام بها في ذلك الفصل منذ سنين والتي كان قد
أعلن عنها في الصحف من زمان طويل ، كان خليقاً ان يكون هو الذي يثير
في الخارج القلق ويتيح للعسكريين في كل مكان فرصة العمل . لذلك
قرر الإمبراطور ان ينفذ ترتيباته التي كان قد رتبها على الرغم من حادث
سراجيفو كما قرر بالضبط بوانكاريه أن ينفذ ما كان قد قرره من قبل من
القيام برحلته إلى روسيا .

ومع ذلك فقد أدرك الامبراطور أن عمل النمسا قد يشعل حرباً اوربية وان كان لم يرجح هذا . وكان من المحتمل على كل حال أن يثير عمل النمسا في غيبته اشاعات الحرب ولذا رأى من الحكمة ان يحيط في هدوء بعض ممثلى الجيش والبحرية الذين اتفق وجودهم فى برلين بما جرى له من حديث مع تسجيبنى كما أحاط به يتمان أيضاً .

وهكذا قابل الامبراطور هؤلاء بعد ظهر الأحد أو فى صبيحة الاثنين قبل أن يستقل السيارة من بوتسدام الى كيل فى الساعة التاسعة والدقيقة ١٥ من صباح يوم ٦ يوليه . فأحاط كلا منهم بحديثه مع السفير النمساوى وكلفهم أن يبلغوه بصفة خاصة رؤساءهم الغائبين بالاجازة . ثم أضاف إلى ذلك قوله انه لا حاجة بهم الى الغاء أجازاتهم والعودة الى برلين او الى اتخاذ استعدادات عسكرية لأنه لا يتوقع أى تعقد جدى يفضى الى حرب . كذلك خاطب الامبراطور عصر الأحد وزير حرية بروسيا فالكنهاين تليفونيا ليعود الى بوتسدام . ولما وصل استقبله وتلا عليه الرسالة المقدمة من تسجيبنى مرتثياً امكان حدوث تعقدات خطيرة . ولما سأله فالكنهاين هل ينبغى أن تتخذ أية استعدادات حرية أجابه الامبراطور سلماً وانتهت تلك المقابلة القصيرة . ولم يكن حاضراً سوى بلسن وليشكر السكرتيرين العسكريين اللذين كانا يلان زمان الامبراطور بانتظام . ولم يعط فالكنهاين أوامر باستعدادات حرية فى ذلك الحين نزولاً على إرادة الامبراطور حتى ولا بعد أن قدم البلاغ النمساوى النهائى الى صربيا . بل انه على النقيض من ذلك بارح برلين فى ٨ يوليه فى زيارة رسمية ثم النحق بأسرته حيث كانت تقضى معه العطلة على شاطئ البحر ولم يعد الى برلين الا فى ٢٥ يوليه غداة اليوم الذى نشر فيه الانذار الهائى فى الصحف .

وقد يلاحظ ان هذه البيانات التى لم تقدم الا فى سنة ١٩١٩ عن حوادث وقعت فى سنة ١٩١٤ مما يصح أن يطعن فيه ، لكنها مؤيدة بخطاب جدير

بالذكر كتبه فالكنهاين الى مولتكه على أثر حديثه مع الامبراطور . ولما كان هذا الخطاب رسالة خاصة من ضابط عظيم في الجيش الى ضابط عظيم آخر فانه يستحق أن يقتبس بحذافيره لانه يروى بالضبط ما قاله الامبراطور في ه يوليه وما كان يفكر فيه :

« استدعاني صاحب الجلالة عصر اليوم الى القصر الجديد ليبلغني أن النمسا والمجر فيما يلوح مصمة على أن لا تطبق الدسائس التي تدبر ضدها في البلقان أكثر مما أطاقت وعلى أن تغزو صربيا عاجلا إذا تبينت ضرورة ذلك ، وانها لا تميل إلى التساهل حتى ولو لم توافق روسيا على عملها .

« ويعتقد جلالتة ان هذا هو الرأي الذي أمكن أن يكونه مما تحدث به اليه سفير النمسا حين سلبه ظهر اليوم مذكرة من الحكومة النمسوية وكتاباً من الامبراطور فرنسوا جوزيف .

« وأنا لم أسمع حديثهما ولا يسعني لذلك أن أحكم عليه بشيء . وقد قرأ لي جلالتة الكتاب والمذكرة فلم يقع في نفسى منهما ، بقدر ما أمكن لي أن أكون رأياً أثناء تلاوتهما السريعة ، ولم أقتنع أن حكومة فينا قد صممت تصميماً ثابتاً . فكلتا الوثيقتين تعطيان صورة مظلمة لحالة المملكة التنائية العامة المرتبة على دسائس الجامعة السلافية . وكلتاها تريان من الضروري أن يفعل شيء بأسرع ما يمكن لوقف هذه الدسائس . لكن كليهما لم تذكر شيئاً عن عمل حربي ، ويغلب ان يكون الأمر إجراءات سياسية « حازمة » تلوح بينة كعقد معاهدة مع بلغاريا يريدون ان يضمنوا تأييد الامبراطورية الألمانية لها .

« وسيوعدون بهذا التأييد مع بيان ان اتخاذ النمسا الاجراءات اللازمة لصيانة مصالحها من الشئون التي تخصها وحدها أصلاً ، ولا يعتقد المستشار الامبراطوري الذي قدم ايضاً إلى بوتسدام أكثر مما اعتقد أن الحكومة النمسوية ، وان كانت أكثر تصميماً مما سبق لها ، ليست جادة في حديثها . وعلى

الأقل فانه لم يسكت عن سفر الامبراطور الى رحلته الشمالية فقط بل نصح له بها . وسيمر زمن طويل قبل ان توقع المعاهدة مع بلغاريا ولذا تكاد لا تكون هنالك ضرورة لازعاج سعادتكم في مقامكم في الحمامات . وعلى أنى لم يكفى أحد بابلاغكم ما تقدم فقد رأيت من الصواب ان أحيطكم علماً بضغط الحالة حتى لا تأخذكم الحوادث المباغتة التى قد تقع دائماً فى النهاية على غرة

فون فالكنهاين

. ويرى هنا ان خطاب فالكنهاين يختلف فى نعمته كل الاختلاف عن تقرير تسيجينى الذى رفعه عن حديث الغداء وأسلفنا بيانه . فان فالكنهاين لم يتوقع مطلقاً أى خطر عاجل على سلام اوربا لا ولا ان الحكومة النمساوية كانت جادة فى حديثها وان كانت اكثر تصميماً من ذى قبل . وكل الذى وقع من نفسه هو ان النقطة الاساسية فى رسائل برشتولد الغامضة هو العمل الدبلوماسي لكسب بلغاريا وحتى هذا كان يتوقع ان يستغرق زماناً طويلاً .

وكما قال الامبراطور لتسجينى بحق انه لا يسعه ان يعطيه جواباً نهائياً قبل ان يستشير مستشاره ، استدعى يتمان هولفيج الى بوتسدام عصر ذلك اليوم . وقد ذهب مع تسيرمان الذى كان قائماً بأعمال وزير الخارجية اثناء غيبة فون ياجو لقضاء شهر العسل فى سويسره . وقد أبلغ يتمان تسجينى فى برلين نتيجة هذا الاجتماع او بعبارة اخرى قرار ألمانيا الرسمى . ثم أحاط به سفير ألمانيا فى فينا فى البرقية التالية :

« لقد سلم سفير النمسا والمجر أمر الى صاحب الجلالة كتاباً خاصاً من الامبراطور فرنسوا جوزيف يصف الحالة الحاضرة من وجهة نظر النمسا والمجر ويسرد الاجراءات التى ارتأتها فينا ، وفى طيه صورة منها .

« وقد رددت اليوم على الكونت تسجينى شاكرآ إياه على كتاب فرنسوا

جوزيف الذى سيرد عليه الامبراطور قريباً بشخصه . وفى هذه الاثناء يرغب جلالة فى أن يؤكد أنه غير غافل عن الخطر الذى يهدد النمسا والمخالفة الثلاثية بالتالى ، من ناحية حملة التيسيج التى تقوم بها روسيا ويقوم بها أنصار الجامعة السلافية . ومع أن جلالة كما هو معروف لا يثق كثيراً ببلغاريا وحاكمها وأنه بطبيعة الحال أكثر ميلاً الى رومانيا حليفته القديمة والى ملكها المنتمى الى أسرة هوهنزلرن ، فإنه يفهم أن الامبراطور فرنسوا جوزيف يجب أن يضم بلغاريا الى المخالفة الثلاثية نظراً لموقف رومانيا وللخطر الناشئ من تأليف عصبة بلقانية جديدة موجهة مباشرة ضد مملكة الطونة . لذلك سيكلف جلالة وزيره المفوض فى صوفيا بتقديم يد المعونة الى ممثل النمسا فى هذا الصدد اذا طلب اليه ذلك . كذلك سيدل جلالة المساعى لدى بوخارست كما ارتأى فرنسوا جوزيف لحمل الملك كارول على تأدية واجباته كخليف وعلى إطراح صربيا وفتح حملة التيسيج الموجهة ضد النمسا والمجر .

« أما فيما يتعلق بصربيا فجلالة بطبيعة الحال لا يسعه أن يتخذ أى موقف فى المسائل القائمة بينها وبين النمسا لأنها ليست من اختصاصه ولكنه يسع فرنسوا جوزيف أن يطمئن الى أن جلالة وفاقاً لارتباطه بالمعاهدة ولصداقته القديمة ، سيقف مخلصاً الى جانب النمسا . »

وقد أرسل تسجينيى برقية ثانية الى برشتولد عقب حديث جرى له مع ييتمان فى صباح يوم ٦ يولييه وحضره هويوس وتسيمرمان . وكان الشطر الاول من هذه البرقية بمثابة ترديد ما أبرق به ييتمان الى تشيرشكى فى جوهره باعتباره القرار الذى اتخذته المانيا عما يندل فى صوفيا وبوخارست من مسعى سياسى جديد . وأما عن صربيا فقد ذكر تسجينيى أن « على النمسا أن تقرر ما تفعله لتسوية علاقاتها مع صربيا . لكنه كائننا ما كان قرارها فلها ان تعتمد وملؤها الثقة على ان المانيا ستقف الى جانبها حليفة وصديقة »

ثم مضى تسجينيى يورد تأكيدات أخرى لا أثر لها فى خطاب فالكنهاين

أو في برقيات بيتان الخاصة بموقف ألمانيا في ٦ و ٥ يولية فقال :
« لقد تأكدت في خلال حديث آخر ان المستشار يرى رأى الأمبراطور
في أنه خير للنمسا ان تعجل بمحاسبة صربيا . . . ووافق كل الموافقة على أن
لا نطلع ايطاليا أو رومانيا مقدماً على ما يستقر الرأى عليه ضد صربيا . »
ومن السهل أن نرى لماذا زعم تسجيلنى أن بيتان هولفيج كان متفقاً معه
تمام الاتفاق على أن لا تحيط النمسا ايطاليا مقدماً بأى عمل ضد صربيا .
فهو كأغلب الموظفين النمسيين كان يريد الحرب إذ ذاك مع صربيا فكان
أن شجع هذا القول برشتولد على عدم إشعار ايطاليا مقدماً بما يحدث
خشية أن تفضح روما التدبير في بلغراد أو على الأقل أن تطلب ايطاليا على
سبيل التعويض شيئاً من الأراضى لا تقتوى النمسا نزولاً عنه . لكن هذه
السياسة ، سياسة خديعة ايطاليا أو تأخير إحاطتها كانت من المناقضة التامة
لموقف ألمانيا قبل ٥ يولية وبعده بحيث تحملنا على الطعن في صحة تأكيد السفير
النمسى ، فقد كان كل سعى ألمانيا في السنوات الأخيرة هو أن تحمل ايطاليا
على البقاء موالية وأن تكبح النمسا عن عمل أشياء في البلقان تسيء اليها بلا
موجب وتجعل من المحتمل أن تملص تماماً من ارتباطات المحالفة الثلاثية .
وقد أعرب تشيرشكى لبرشتولد في ٣ يولية عن موقف ألمانيا الثابت بتذكيره
« بأيطاليا التى ينبغى بالنظر الى علاقاتها كخليفة أن تستشار في أى اجراء عسكرى
قبل اتخاذه » وقد رد عليه برشتولد بقوله : « إننا لو طرحنا هذه المسألة على
الوزارة في رومـه لكان من الراجح أن يطالب الايطاليون بقالونا تعويضاً
لهم ونحن لا يسعنا أن نسلم بهذا » .

كذلك بعد هذا التاريخ بقليل ، في ١٥ يولية ، ردد ياجو بيان تشيرشكى
وهو أن النمسا ينبغى أن تبلغ ايطاليا مقدماً فقال : انه من الأهمية فى رأى بأعظم
مكان أن تتفاهم النمسا مع وزارة رومـه على أغراضها التى توخاها فى حالة الحرب مع
صربيا وأن تكسب جانبها أو تبقيا على الحياد الدقيق (مادام أن الحرب

مع صربيا وحدها لا توجد (Casus foederis) . وإن لا إيطاليا الحق وفاقا لاتفاقاتها مع النمسا أن تطالب بتعويض في حالة حدوث أى تغيير في البلقان لمصلحة المملكة الثنائية . ، وبذا كان تأكيد تسيجيني بأن يتمان وافقه على أنه لا ينبغي أن تبلغ إيطاليا مقدماً أى عمل يمكن أن يستقر عليه الرأى ضد صربيا مناقضاً لطبيعة السياسة الألمانية كلها . بل إنه ليلوح أن هذا التأكيد تناقضه نفس أقوال تسيجيني في ختام رسالته إذ يقول إن يتمان « حذرنا بكل قوة من أية تدابير يمكن أن تعرض علاقاتنا بإيطاليا للخطر . ، وليس ثمة ما هو أكثر احتمالاً لأن يؤدي الى هذا من مراجعة إيطاليا بالامر الواقع الذى لم تبلغها عنه حليفتها شيئاً ، وهذا ما أثبتته الحوادث . ويلوح مع ذلك أن هويوس أفصح في خلال حديث طائش مع تسيمرمان عن نية برشتولد وحرصه على أن يخفى عن إيطاليا ما يضر ، والظاهر انه حصل على موافقة تسيمرمان وأبلغها فيما بعد ذلك . لكن المشكوك فيه هو أن الامبراطور أو يتمان أبدى موافقة كهذه . وإذا كان هذا هكذا وكان تسيجيني قد نسب إلى يتمان تساهلاً لم يصدر الا من تسيمرمان فان هذا ليكون مثالا لما لم ينقله تسيجيني بالضبط عاملاً بذلك على تشجيع النمسا في سياستها الطائشة .

استنتاجات عن موقف ألمانيا في ٦ يوليه

إن المقابلة بين روايتى يتمان وتسيجيني عن موقف ألمانيا خليفة أن تدلنا على ما بينهما من خلاف فى المبنى والروح . فان يتمان يوجه أربعة أخماس اهتمامه إلى ما دخل على السياسة الألمانية من مشروع النمسا الديبلوماسية المتعلق بكسب بلغاريا إلى جانب المحالفة الثلاثية . أما العلاقات النمسية الصربية فلم يمسها إلا موجزاً وفى ختام برقيته وذلك فقط ليردد مبدئاً كان هو وكيدرلن قد صرحا به بمناسبة أزمة من أزمات الحروب البلقانية وهو

أن ألمانيا ستظل تعمل كخليفة موالية ولكنها يجب أن تترك للنمسا تقرير ما تراه لازماً لمصالحها الحيوية . أما تسجينى فكان على الأكثر مهتماً بمشروع برشتولد العسكرى ضد صربيا وقد أحاطه الكونت هويوس علماً به . وبرقياتة تصور الإمبراطور ویتمان كما لو كانا يعتقدان أن « لجوء النمسا الى عمل عاجل ضد صربيا هو خير حل جوهرى . » وان الوقت الحاضر هو أنسب لذلك من أى وقت مقبل . وهو يقول إن یتمان على اتفاق تام فى أن لا تحاط إيطاليا أو رومانيا مقدماً .

فماذا تفسر هذا التباين فى الروایتين ؟ الراجع أن تفسير ذلك هو الى حد ما وكما یرتأى جوس أن تسجينى كان يعانى الشیخوخة ولم یكن دائماً یدرك الأحادیث تماماً ویرويها بالدقة . وقد كان عدم كفايته سبباً لشيء من الخلاف السياسى بین برلين وفينا فى أثناء الحروب البلقانية . لقد كان من المقربين الى الإمبراطور غليوم لكنه كان أيضاً یختلف الى المحافل العسكرية فى برلين ، وهذه لم تكن أفكارها مما یتفق وآراء یتمان التى كانت أكثر اعتدالاً وحیطة . وقد كان فرانتس فردیناند قبل أن تقع مأساة سیراجيفو بعدة أسابيع قد أثار بالنظر الى تقدم تسجينى فى السن مسألة إحلال معتمد سیاسى محله یكون أجدر منه . ولعله من بین الاسباب التى حملته على هذا میل تسجينى الى المشاغبة وعطفه على المجر . وكان خلفه وهو البرنس جوتفريد هو هنلو هه قد اختير فعلاً وصدقت برلين على اختياره فى ١٢ یونیه . لكن هذا التغير لم یقع لسوء الحظ الا فى ١٩ اغسطس ١٩١٤ نظراً لتطور أزمة یولیه ذلك التطور الفجائى . والظاهر ان تسجينى قد بالغ فيما يتعلق بالأحداث التى دارت فى بوتسدام فى تأكيد مصادقة المانيا على الشرط الاخير من نداء برشتولد وهو الجزء الذى جاء بیانه مبهماً .

ومن الراجع أيضاً أن بعض السبب فى هذا الخلاف یرجع الى تباين طفيف فى موقف كل من یتمان والإمبراطور وتسیمرمان . فأن یتمان لكونه

بطبيعته ، أكثر تفاؤلا وطلباً للكمال كان يرغب في أن تكون العلاقات بانجلترا والوفاق الثلاثي خيرا مما كانت ، فكان يأمل أن تكفى الخطة الديبلوماسية السليمة التي كانت ترمى الى كسب بلغاريا لعلاج الازمة النمساوية الصربية ، يشجعه على ذلك ما كان إذ ذاك من أمر معاهدتي بغداد ومستعمرات البورتغال اللتين كانتا معدتين للتوقيع نهائياً . أما موت الغراندوق فكان أقل تأثيراً في عواطفه ؛ وقد أزعجه برشتولد في قبل ذلك بمسلكه الذي لم يبال فيه بعداوة إيطاليا فيما يتعلق بالجبل الأسود وبذا عرض بناء المحالفة الثلاثية للخطر ، وكانت زعزعته إذ ذاك في إزدياد . وقد كتب يتمان قبل ذلك بيضعة أسابيع يقول : « إن فينا قد أخذت في التخلص منا في شيء من العنف وفي رأي أنها في حاجة الى أن يكبح جماحها قبل أن يفوت الأوان . » وهذا ما حدا به الى أن يرسل الى برشتولد تحذيراً قوياً . والآن وقد وقعت حادثة سراجيفو لم يشأ أن يشجع برشتولد على مغامرات رعناء أخرى . وعلى أنه اضطر إلى موافقة الامبراطور على أن ألمانيا يجب أن تعد بتأييد النمسا فقد شطب كلمة « في كل الظروف » من البرقية التي وضعها تسيمرمان .

أما الامبراطور ، وكان يفوق يتمان بصراً بالأمور وثقوب فكر ، مع علم بالمسألة البلقانية ومعرفة أوسع من معرفته . هذا الى ما كان بينه وبين فرنس فرديناند وفرنسوا جوزيف من روابط شخصية وثيقة ، فقد كان مع ذلك أقل من يتمان ضبطاً للنفس ودونه تقديرأ للعواقب السياسية التي تترتب على أعماله فأعرب عن مشاعره بقوله على الهامش « الآن أو أبداً ، الخ ما هنالك مما أوردناه . فقد كان ميالا الى الموافقة على خطة النمسا في كسب بلغاريا وان كان هذا لم يكن يتفق وسياسته الماضية وعدم ثقته شخصياً بالملك فرديناند . كان أكثر تأثراً بالشر الأخير من مذكرة برشتولد وخطاب فرنسوا جوزيف اللذين كانا يبينان ضرورة العمل الحازم للقضاء على خطر صربيا الكبرى . وقد نصح للنمسا بسرعة العمل وعطف أوروبا لا يزال نحوها لأنه كان قد رأى

ترردها في الماضي وتذبذبها هنا وهناك . لكنه كما دل فالكنهاين في خطابه الى مولسكه كان يشك في هل يخطو برشتولد حقيقة خطوات سريعة حاسمة .

وكان تسيرمان الذي ناب في الوزارة عن ياجو حين عودته الى برلين بعد أحداث ٥ و ٦ يولييه ، يشاطر ويتان بادية الامر آراءه الحذرة فانه عقب سيرا جيفو مباشرة اوصى تسيجيني بالمبالغة في الحذر ونصح لصربيا « بحاسبة المذنبين » وحض سفراء دول الوفاق على تأييد هذه النصيحة المناسبة تقادياً من عواقب خطيرة . لكنه في ٤ يولييه تلقت وزارة الخارجية ملاحظة الامبراطور الهامشية بالعمل « الآن أو أبداً الخ » فجعل تسيرمان من ذلك الحين يسترشد بها . وظهر أنه لم يبد أية اعتراضات عند ما أفضى اليه هويوس « بأن النمسا تنوي تقسيم صربيا تقسيماً كاملاً » . وقد تحاشى برشتولد أن يذكر شيئاً من هذا في الرسالتين اللتين بلغهما تسيجيني للامبراطور فلما عاد هويوس الى فينا وروى ما قاله لتسيرمان عن تقسيم صربيا أنكرت ملاحظاته في الحال وبعث « أن برشتولد وتيزا خاصة يريدان أن يؤكدوا بصريح العبارة أن هويوس انما كان يعرب عن رأيه الشخصي فقط . »

هذه هي آراء كبار موظفي برلين الثلاثة في الوقت الذي كان على ألمانيا فيه أن تصدر قرارها في ٥ و ٦ يولييه . ومن الخطأ أن يبالغ في تقدير هذا التباين بين مواقفهم ، لكن سرد هذه الآراء مما يعين على توضيح الطريقة التي أطلقت بها برلين لفينا حرية العمل ، والطريقة التي فسرت بها فينا هذا الإطلاق واستخدمته . فقد كان الامبراطور غائباً في خلال الأيام التالية في رحلته البحرية الى الشمال ويتان في مزارعه في هوهنفينو . وهو امر كان من شأنه ان لم يجعل لها تأثيراً كبيراً على مجرى الاحوال فقد تركت وزارة الخارجية في عهدة تسيرمان ثم تسلمها ياجو الذي عاد الى برلين واستأنف اعمال وظيفته كوزير على اثر سفر هويوس في ٦ يولييه . ومع ان ياجو كان متفقاً في الرأي مع تسيرمان بصفة عامة فقد جعل على اثر عودته يتخذ موقفاً

أكثر انطواء على الحذر ، فأسدى لفينا نصيحة حسنة لم يأبه بها برشتولد .
فأنه لكي يهتدى الى الغرض التي تسعى اليه النمسا والهدف الذي ترمى اليه
الخطة النمساوية اخذ يقدم النصيح ويوجه أسئلة لم يجب عنها برشتولد إجابة
كاملة صريحة .

هكذا اتخذ الامبراطور ونصحاؤه قرارهم متأثرين بمقتل سيرا جيفو
ومطالبين من برشتولد بالمساعدة والتأييد . وقد اتفقوا على ان يسلكوا نحو
بلغاريا سياسة جديدة ، وفيما يتعاق بصريا أبانوا على قول تسيجينى : « ان
على النمسا ان تقدر ماهى فاعلة لتسوية علاقاتها بصريا . وكأنا ما كان القرار
الذي تتخذه النمسا قفى استطاعة النمسا ان تعتمد وملؤها الثقة على ان المانيا
ستشد أزرها كخليفة وصديقة . لقد أطلقوا للنمسا حرية العمل فارتكبوا غلطة
شنيعة إذ نقلوا السيطرة على الموقف من أيديهم الى يد رجل متهور لا يبالى
كبشتولد ، وغامروا بأنفسهم فى عمل لا يعلمون نتيجة فلم يلبثوا أن ألفوا
أنفسهم متورطين فى افعال لا يقرونها ، كما سوف ترى ، وفى قرارات اتخذت
خلافًا لما نصحوا به . ولم يكن يسعهم ان يعارضوا او يحتجوا فى صورة جدية
إلا فى اللحظة الأخيرة وبعد فوات الأوان . ذلك أنهم وعدوا النمسا
مقدماً بأن يؤيدوها ، وأى تردد من نحوهم كان خليقا أن يفضى الى إضعاف
المخالفة الثلاثية فى لحظة عصبية هى أحوج ما تكون فيها إلى القوة لا الى
الضعف . ولم يكن الامبراطور ونصحاؤه فى ٥ و ٦ يولييه مجرمين يدبرون
الحرب العالمية وانما كانوا بلهاء يضعون « الخبة » حول رقابهم ويسلبون
الطرف الآخر من الحبل الى مغامر غبي غليظ الطبع أحس الآن أنه حر فى
الذهاب الى الحد الذى يريد . فهم بعملهم هذا كانوا يتحملون تبعه خطيرة
عما حدث فيما بعد .

مجهودات برشتولد لتحويل تيزا

بعد أن علم برشتولد من تسيجينى أن ألمانيا وافقت على الشرط الثانى من ندائه ذى الوجهين . ومعنى ذلك أن ألمانيا ستقف ثابتة كخليفة فى كل ما يمكن النمسا أن تقرره ضد صربيا ، لم يعد يزعم أنه يدافع عن الشرط الأول وهو برنامج تيزا السلمى . لأنه بات الآن وقد تغلب على نصف متاعبه ، واصبح لا يعوزه إلا اقناع أمبراطوره الشيخ وتيزا ليوافقا على استئصال الخطر الصربى الذى طالما حض على استئصاله كونراد ، والذى كان قد اعتزمه هو نفسه نهائياً . فكيف العمل ؟

إن سياسة تيزا *politique de longue main* لكسب بلغاريا وضمها السلام فى البلقان بضع سنين على الأقل قد اتخذها برشتولد وجعل منها قاعدة مذكرته التى بعث بها الى برلين الى اليوم الذى جاءت فيه أنباء سيرا جيفو فجعلته ينقلب فجأة الى برنامج كونراد الحربى . وتيزا مع ذلك ليس بالرجل الذى يسمح لأرائه الناضجة بأن تقلب فى لحظة رأساً على عقب حتى ولو بجرمة كجرمة سيرا جيفو . فقد أبلغ برشتولد فى صراحة أن إثارة حرب كهذه مع صربيا لتكون « غلطة مشومة » ، ولتضمن النمساوين « أمام العالم أجمع بأنهم عكروا السلام فضلاً عن بدئهم حرباً عظيمة فى أسوء الظروف » ، لكنه فيما يلوح لم يؤثر على برشتولد كثيراً . كذلك أنهى تيزا الى فرانسوا جوزيف خطط برشتولد المتطوية على التهور وحذره منها . ولما عاد تيزا الى بودابست أضاف برشتولد حاشيته للذاكرة الموجهة الى برلين منحياً على صربيا ، ووضع الرسالة الملكية الموجهة من فرانسوا جوزيف الى الأمبراطور غليوم وكانت كالمذكرة تسرد برنامج تيزا السلمى لكنها فى الختام ألمعت كذلك الى عمل أحزم حيال صربيا « فان السلم لن تستقر إلا اذا تخلصنا من صربيا كعامل سياسى فى البلقان ، فانه بعد الحوادث المرعبة التى وقعت فى البوسنة ستقتنع أنت أيضاً بأنه لا سبيل الى التفكير بعد الآن فى أية

تسوية حية للخصومة التي تفرق بين النمسا وصربيا ، وان السياسة السلبية التي يجرى عليها جميع ملوك اوربا ستظل مهددة ما دام هذا المصدر للتيسج الاجرامى فى بلغراد قائما بلا عقاب .

ولم يكن يسع برشتولد أن يبعث رسالة هامة كهذه فى شئون السياسة الخارجية وفاقا للأصول وللدستور دون أن يبلغ رئيس وزارة المجر فخاها وهى التى كانت ترتئى تحوير ما كان قد تم الاتفاق عليه . لذلك أرسل منها صورة الى تيزا ، لكن تيزا بعد تلاوتها لم ترقه مطلقا فقد خشى ان تنفر برلين من التصديق على البرنامج الديبلوماسيكي السلى وحزر حقيقة الامر وهى أن برشتولد كان يعمل على الظفر بتأييد المانيا لعمله الحربى ضد صربيا لا « لسياسة بعد النظر » التى سبق الاتفاق عليها ، فأبرق فى الحال الى برشتولد يطلب حذف العبارات المنوه عنها آنفا . لكنه فى الوقت الذى كان يرسل فيه هذه البرقية كان تسيجينى يسلم النص غير المعدل الى الامبراطور غليوم فى بوتسدام . فأن برشتولد كان قد بعث بالخطاب دون ان ينتظر رد تيزا لاجئا بذلك الى مسلك غير محمود سيسلكه فيما بعد بنفس الصورة ولكن فى أمور أعظم من هذا شأننا بكثير ، وذلك المسلك هو الاستفادة من الامر الواقع ، فهو لكرأهته للبحث بطبيعة تراخيه وجهله بالتفاصيل واعتماده من جراء ذلك على كتبة سره فى استقاء الاخبار ، كان على الدوام يرى انه أسهل عليه ان يتخذ الاجراء أولاً ويتجنب البحث فيه والجدل حوله حتى تمر اللحظة التى يصبح فيها العدول عنه غير ممكن بصورة مقبولة وعندئذ يكون الجدل فيه نوعا من العبث . وخير أداة لزعزعة تيزا عن موقفه الثابت كان كما اعتقد برشتولد وهويوس وفورجاخ ان يصور لتيزا ان برلين تريد أن يسلك مع صربيا مسلكا حازماً سريعاً ويزين له أن النمسا اذا لم تستفد من الفرصة الصالحة السانحة فى الآونة الراهنة فقد يزداد عن ذى قبل اعتبار المانيا للنمسا أنها غير كفء للتحالف ، وبعبارة اخرى انها دولة ضعيفة مترددة عاجزة لا تنفع

ألمانيا كثيراً كحليفة ، وانه يترتب على ذلك ان تغفل ألمانيا مصالح النمسا وتزهي عليها في المستقبل وتصبح أكثر شموخاً بأنفها . وقد ساعدتهم في هذا الصدد أو بالحرى استخدموا لهذا الغرض تشيرشكي السفير الألماني في فينا .

ففي ٤ يوليه ارسل برشتولد بناء على ارياه فورجاخ الى فرنسوا جوزيف وتيزا يبلغهما اشاعة سمعها أحد رجال وزارة الخارجية المتصلين بالصحافة وهي ان تشيرشكي صرح وفي نيته ان ينقل كلامه الى وزارة الخارجية ، أن ألمانيا ستؤيد المملكة الثنائية في الجليل والحقير كائنا ما كان القرار الذي تتخذه حيال صربيا ، وانه كلما عجلت النمسا بالهجوم كان ذلك خيراً لها . والامس كان يكون خيراً من اليوم لو انها فعلت واليوم كذلك خير من الغد . وحتى لو نصحت الصحف الألمانية المعادية لصربيا اليوم بالتمسك بأهداب السلام فلا تدع فينال الشك سيلا اليها في ان الامبراطور (الألماني) والامبراطورية سيشدان أزر النمسا والمجر بلا قيد ولا شرط . وليس يسع دولة عظمى ان تخاطب دولة اخرى بأكثر وضوح من هذا .

ثم في ٦ يوليه كلف برشتولد فورجاخ في اللحظة التي تلقى فيها من برلين تقرير تسيجينى عن حديثه مع الامبراطور ويتمان أن يبلغ الخبر الى تيزا ثم دعا مجلس الوزراء للانعقاد في يوم الثلاثاء ٧ يوليه للتصديق على اجراءات القمع في البوسنة وعلى العمل الحربى الذى يرغب فى القيام به ضد صربيا . وقبل أن ينعقد المجلس رتب برشتولد اجتماعاً تمهيدياً منه ومن تيزا وشتيرج رئيسى وزارتى المجر والنمسا على التعاقب ، ومن تشيرشكى وهويوس أيضاً وكان قد وصل من برلين ولما يكده ، والآخر من أنشط المحرضين على الحرب مع صربيا . وقد تلا هويوس رسالتى تسيجين ومذكرة بحديثه هو مع تسيمرمان بصوت عال ، فأعرب برشتولد لتشيرشكى عن شكره واعترافه بحميل الامبراطور ويتمان « لموقفهما الجلى المتفق وارتباطات المعاهدة والصداقة ، لكنه تنصل بسرعة مما قاله هويوس لتسيمرمان عن نية النمسا تقسيم صربيا .

وقد عرض برشتولد على مجلس الوزراء في ٧ يولييه المسألة الآتية وهي :
« ألم يحن الوقت لاستخدام القوة مع صربيا للمرة الأولى والاخيرة لجعلها عاجزة عن الأضرار بأحد . ثم قال إن مثل هذه الضربة الحاسمة لا يمكن أن توجه دون تمهيد دبلوماسيتكى ، ولذا فقد اتصل بالحكومة الألمانية وأفضت المباحثات في برلين الى نتيجة مرضية جداً أكد الامبراطور غليوم وبيتمان هولفيج تأييد ألمانيا بلا قيد ولا شرط في حالة وقوع حرب مع صربيا . ولا يزال من الواجب أن يعمل حساب ايطاليا ورومانيا . وهو في هذا متفق مع وزارة برلين على أنه يحسن العمل أولاً دون استشارتهما ثم انتظار ما يمكن أن تطلباه من تعويض . »

« وهو — أى برشتولد — يعلم أن القتال مع صربيا قد يجر الى حرب مع روسيا ، بيد أن روسيا تتبع سياسة ترمى إذا تطلعنا الى المستقبل الى تشكيل حلف من دول البلقان يشتمل على رومانيا لاستخدامه ضد المملكة في الوقت المناسب . ومن رأيه أنه يجب على النمسا أن لا تغفل من حسابها أن مركزها حيال سياسة كهذه خلق أن يزداد على مر الأيام سوءاً لاسيما وان احتمال النمسا هذا دون أن تحرك ساكناً يمكن أن يفسره سلافيو الجنوب والرومانيون بأنه أمانة ضعف فيقوى ساعد دولتي الحدود . »

« والنتيجة المنطقية لما أسلف برشتولد قوله هو أنه ينبغي أن تبادى النمسا أعداءها وان تضع بمحاسبة صربيا في الوقت المناسب حداً للحركة التي باتت على أشدها فانها إن لم تفعل فقد يصبح هذا بعد الآن مستحيلاً . »

وقد رد تيزا على ذلك وفاقاً على الأقل لما أورده هويوس من تفاصيل ألمع اليها برشتولد فيما بعد فقال :

« إنه — أى تيزا — متفق مع برشتولد على أن الحالة قد تغيرت بعض الشيء في بضعة الأيام الاخيرة كنتيجة للتحقيق في سيرا جيفو ولوقف الصحف الصربية ، وأكد انه هو ايضاً يرى ان احتمال الاشتباك مع صربيا

في حرب بات اقرب مما كان يعتقد بعد جريمة سيرا جيفو لكنه لن يوافق ابداً على مباغته صربيا بالهجوم دون التمهيد لذلك بعمل سياسى وهو ما يلوح ان النية معقودة عليه ، وقد ذكره هويوس في برلين لسوء الحظ . ذلك اتنا في هذه الحالة نضع أنفسنا في مركز سيء جداً امام اوربا ويكون علينا بكل تأكيد ان نحسب حساب الدول البلقانية وعداوتها فيما خلا بلغاريا ، وبلغاريا في الوقت الحاضر ضعيفة جداً فلن تستطيع مساعدتنا .

« ولا مشاحة في أنه لا بد من اقتضاء صربيا بعض المطالب لكنه يجب أن لا يرسل اليها انذار نهائى إلا في حالة عدم الاذعان لتلك المطالب وهذه بلا ريب يجب أن تكون قاسية ولكن على أن تكون بما لا تعجز عن إجابته . فاذا قبلتها صربيا أمكننا أن نسجل لأنفسنا نجاحاً سياسياً يتناوazدادات هيبتنا في البلقان ، واذا لم تدعن لها فإنه أيضاً يوافق على العمل الحربى لكنه لا يزال من واجبه أن يفوه بأن غرضنا انما هو انتقاص حجم صربيا لا القضاء التام عليها ، ذلك أن روسيا لن تقر هذا دون حرب حياة أو موت وأنه كرئيس لوزارة المجر لن يوافق مطلقا على أن تضم المملكة الثنائية اليها أى جزء من صربيا . »

وقد أكد له برشتولد أن ألمانيا توافق على القيام بعمل حربى عاجل فأبى أن يتأثر بهذا وقال :

« انه ليس من شئون ألمانيا أن تقرر لنا ما إذا كنا نهاجم صربيا أولا نهاجمها فمن رأيه هو شخصياً أنه ليس من الضرورى بتاتا أن نشتبك في حرب في اللحظة الراهنة وأنه بالنظر الى هياج الرأى العام في رومانيا ينبغى أن نحسب حساب هجوم من جانبها ، وعلى كل ينبغى أن نستبق في ترنسلفانيا قوى كبيرة لأرهاب الرومانيين . ولقد مهدت ألمانيا الطريق لحسن الحظ لانضمام بلغاريا فبات الأمل في الوقت الحاضر قوياً في نجاح عملنا السياسى في البلقان ، وبالإشتراك مع بلغاريا وتركيا وتحقيق انضمامها الى المحالفة الثلاثية نستطيع

أن نرجح كفتنا على كفة رومانيا وصربيا فتضطر بذلك رومانيا الى الرجوع الى المحالفة الثلاثية. أما عن أوروبا فيجب أن نكون على ذكر من أن قوة فرنسا بالنسبة الى قوة ألمانيا تقل تدريجاً بالنظر الى نقص موالدها وأن ألمانيا على ذلك سيتوفر لها في المستقبل من الجنود ما يستطيع توجيهه ضد روسيا. انه لا يستطيع أن يقرر الحرب بلا قيد ولا شرط ولكنه يرى أن إحراز نجاح دبلوماسيتكى بدلا من ذلك مع إذلال صربيا إذلالا قاسياً هو الوسيلة الملائمة لتحسين موقف النمسا وانجاح سياستنا في البلقان .

« وقد رد برشتولد على ذلك بقوله إن بضع السنوات الأخيرة قد أثبتت أنه وإن كانت الانتصارات الدبلوماسية قد رفعت من هبة المملكة مؤقتا فهي قد زادت المشادة الحائرة بالعلاقات النمسية الصربية . فإنه لا النجاح الذى أصبناه فى أزمة الضم (ضم البوسنة والهرسك) ولا الذى أحرزناه بخلق ألبانيا قد غير الموقف تغيراً مادياً. قال : إن حل المشكلة الناشئة من دعاية صربيا الكبرى حلاً أساسياً لا يمكن أن يتم إلا بتدخل حازم ، وهى دعاية مدبرة تديرها بلغراد ويتناول قوتها المخربة حتى أجرام وزارا ، وهو لا يظن أن الخطر من رومانيا جدى أما عن القوة النسبية للدول العظمى فإن الزيادة المطردة فى عدد سكان روسيا تغطى نقص المواليد فى فرنسا . »

لم يصل المجلس الى إتفاق تام بعد المناقشة الطويلة التى دامت من الصباح الى العصر والتى أعرب فى خلالها جميع الوزراء ، فيما عدا تيزا ، عن اتفاقهم الحقيقى فى رأى مع برشتولد . وقد سرد فيها كونراد خططا عسكرية سرية طلب أن لا تثبت فى محضر الجلسة ، وأصر تيزا على أن يطلع على المطالب التى توجه الى صربيا قبل إرسالها حتى لا يواجه مرة أخرى بأمر واقع . ومع ذلك فقد اتفق كافة الوزراء مع برشتولد على تيزا فى قوله : « إن الانتصار الدبلوماسيتكى وحده لا قيمة له حتى ولو أدى الى إذلال مابين لصربيا ولذلك يجب أن تكون المطالب التى تقدم الى صربيا من الفداحة بحيث أن رفضها

يكون أمراً متوقفاً وبذا يمهّد الطريق لتسوية أساسية بهجوم عسكري .
وقد جعل تيزا رايه فيما يتعلق بالاستعدادات العسكرية يسود الى حد
أن الآخرين وافقوا على أن لا تكون هنالك تعبئة قبل أن تقدم مطالب
صريحة يتبعها بلاغ نهائي ويكون قد رفض هذا وذاك .

وصرح برشتولد في ختام الاجتماع بأنه سيرفع نتائجها الى فرانسوا
جوزيف في إيشل في اليوم التالي . بيد أن تيزا الذي كان مقرراً أن يعود الى
بودابست خشي أن لا ينهي برشتولد الى الأمبراطور الشيخ بصورة فعالة
ما أبدى هو من آراء ضد تعمد إرغام صربيا على الحرب ، فرجا برشتولد أن
يؤخر مقابله للأمبراطور ريثما يضع له مذكرة تقدم الى الأمبراطور مع
تقرير برشتولد عن مجلس الوزراء ، وقد وافق برشتولد على هذا وأجل مقابله
للأمبراطور الى صباح الخميس ٩ يولييه .

وقد أبان تيزا في مذكرته المؤرخة في ٨ يولييه صواب برنامجه السياسي
الأصلي الذي وضعه لكسب بلغاريا لكنه بالنظر الى إجماع مجلس الوزراء
الرأي ضده في اليوم السابق وقف الجانب الأكبر من مذكرته على ما أصبح
إذ ذاك أهم مسألة سرية في فينا وهي : هل تتخذ المطالب التي توجه الى صربيا
شكل المذكرة المهددة كما يريد تيزا فتذل صربيا دون أن يستحيل عليها قبولها
وتسرد شكاوى صريحة تطالب بعلاج لها تكون النمسا مستعدة للرضا به بنية
خالصة ، أو تكون المطالب كما ينبغي برشتولد والأغلبية إتهاماً عاماً لصربيا في
صورة انذار نهائي يصاغ عمداً في قالب يجعل الحرب العاجلة مع صربيا أمراً
لا مفر منه ؟ وقد أدلى تيزا الى الأمبراطور بحججه دفاعاً عن الرأي الأول
كما فعل في المجلس فقال :

« إني لست مطالباً بالمرّة بأن أسيع كل هذه التحرشات بل إني مستعد لأن
أتحمل عواقب حرب تنشأ من رفض مطالبنا العادلة . لكنه في رأيي يجب
أن تمكن صربيا من تجنب الحرب بقبول هزيمة دبلوماسية قاسية . فاذ

وقعت الحرب بات جلياً للعالم اتنا تتخذ موقف الدفاع المشروع عن النفس .
واذن فيجب أن تقدم الى صربيا مذكرة مصوغة في لهجة معتدلة لا تنطوي
على التهديد نسردها فيها شكوا وانا المعينة ونورد فيها بالدقة ما نريده في شأنها .
فاذا أجابت صربيا جواباً غير مرض أو حاولت أن تتلكأ أتبعنا تلك
المطالب بلاغا نهائياً وشهرنا الحرب بآتها موعده . . . فاذا خرجنا من
الحرب فائزين أمكن انقاص مساحة صربيا باعطاء بعض الأقاليم المغزوة
لبلغاريا واليونان ورومانيا . أما نحن فلا ينبغي أن نطلب لأنفسنا سوى بعض
تعديلات مهمة للحدود . ولا مشاحة في انه يسعنا إذ ذاك أن نطالب بتعويض
حربي يتيح لنا فرصة الضغط على صربيا أمداً طويلاً . . . أما إذا سلبت صربيا
بالمطالب فيجب أن يكون هذا حلاً تقبله بخلوص نية ولا نجعل تراجعها
مستحيلاً . .

هذا الحل السلي الممكن الذي كان تيزا يحض عليه لم يكن مطلقاً ما يريده
برشتولد . وقد انتظر حتى غادر تيزا فينا فحاول مرة أخرى الاستفادة من
موقف ألمانيا فزعم في كتاب إلى تيزا في ٨ يولييه :

« أن تشيرشكي غادرني ولما يكذب بعد أن أبلغني انه تلقى برقية من برلين
يكلفه فيها أمبراطوره بأن يعلن هنا بكل تأكيد أن برلين تنتظر أن تقوم
النمسا بعمل ضد صربيا وأنها إذا أفلتنا هذه الفرصة دون أن نوجه ضربتنا
فلن يكون عملنا هذا مفهوماً في ألمانيا . . . وقد قال السفير من بين ما قال غير
ذلك إنه يرى أن أي تساهل من جانبنا نحو صربيا سيفسر في ألمانيا بأنه
اعتراف بالضعف قد يكون له رد فعل في موقفنا في المحالفة الثلاثية وفي
سياسة ألمانيا المستقبلية .

« وهذه الأقوال من تشيرشكي تلوح لي من الأهمية بحيث يمكن أن تؤثر
في آرائك ولذا أحبت أن أحيطك علماً بها في الحال وأن أرجوك اذا وجدت
ذلك مناسباً أن تبعث الى بيرقية شفوية بهذا المعنى في ايشل حيث أكون

غداً صباحاً فيسعى أـ أدلى برأيك الى جلالة الامبراطور .
والظاهر أن تيزا لم يتأثر بهذا فلم يبعث بالبرقية كما طلب اليه وعلى ذلك
لم ينجح برشتولد كما سنعلم من تقرير تشيرشكى في ١٠ يولييه وان كان برشتولد
قد ذهب الى إيشل ليحصل على تصديق فرنسوا جوزيف على تقديم مطالب
الى صربيا « يكون قبولها من المستحيل » واليك التقرير :

« أطلع الوزير الامبراطور على الطريقتين الممكنتين للعمل ضد صربيا
وهما ما يتعلق بهما الأمر هنا ، فكان من رأى جلالة انه من الممكن ازالة
التباين القائم بينهما . لكن جلالة يميل بوجه عام الى الرأى القائل بتوجيه
مطالب صريحة الى صربيا والكونت برشتولد لا ينكر مزاياء مثل هذا
الاجراء ... ويرى انه يصح أن يطلب ضمن أشياء أخرى انشاء وكالة للنمسا
والمجر في بلغراد تراقب من هناك أعمال دعاية صربيا الكبرى وتشرف على
حل الجمعيات ورفت الموظفين الضالعين في المؤامرة ، وأنه ينبغي أن تكون
المهلة المعطاة للجواب أقصر ما يمكن ، ربما ٤٨ ساعة . وحتى هذه المهلة
القصيرة تكفى بالتأكيد لأن تتلقى بلغراد تعليمات من سان بطرسبورغ . فاذا
قبلت صربيا جميع المطالب فسيكون قبولها هذا حلاً « لا يرحب به أبداً ، ولذا
فهو يفكر في كيفية صوغ مطالبه صوغاً يجعل من المستحيل كل الاستحالة
على صربيا أن تقبلها .

« وقد شكك الوزير أخيراً من موقف الكونت تيزا لأنه يجعل من المتعذر
عليه اتخاذ عمل حازم ضد صربيا . ويستمسك الكونت تيزا بوجوب سلوك
مسلك لا غبار عليه . لكن هذا يكاد لا يكون ملائماً مادامت مثل هذه
المصالح الهامة المتعلقة بالدولة محل نزاع وبخاصة حيال خصم كصربيا . »

وهكذا كان برشتولد في ٩ يولييه حاصلاً على موافقة فرنسوا جوزيف
وتيزا على الفكرة القائلة بوجوب تقديم بعض المطالب الى صربيا لا على
أن تكون في صورة انذار نهائى يعتمد في صوغه أن يكون مستحيلاً قبوله .

ومع ذلك فقد لبث يعمل في الخفاء لتحقيق هذا الغرض الثاني ، فقد أبلغ تشيرشكي في ١١ يولييه أنه دعا تيزا الى فينا لحضور اجتماع انعقد في ١٤ يولييه . وهو يأمل أن يتم فيه وضع الوثيقة نهائياً :

« والذي يسع برشتولد أن يقوله اليوم هو أن أهم ما سيوجه الى صربيا من مطالب هو مطالبتها بأن يعلن الملك بصفة رسمية عدول صربيا عن سياسة « صربيا الكبرى » وأن يصدر هذا الاعلان بصفة منشور للجيش ؛ ثانياً ان تنشئ حكومة النمسا والمجر من قبلها مكتباً يتولى الاشراف على تنفيذ هذا التصريح بدقة ؛ وأن تكون مهلة الرد على هذه المذكرة أقصر ما يمكن كأربع وعشرين ساعة . فاذا رأت فينا ان الرد غير مرض عبأت جيشها في الحال .

تقرير ويزنر المؤرخ في ١٣ يولييه

كان كل عمل يقترح القيام به ضد صربيا في كلتا فينا وبرلين قائماً في خلال الاسبوعين الاولين اللذين تلوا مقتل فرانتس فرديناند على الاقتناع بأن « الجريمة نتيجة مؤامرة مدبرة تدبيراً حسناً تتصل خيوطها ببلغراد . » ولأقامة الدليل على ذلك بعث برشتولد الدكتور ويزنر ، وهو مستشار قضائي لوزارة الخارجية الى سيرا جيفو في ١١ يولييه ليتحرى المسألة على المكان . وكان ويزنر محامياً حذراً محافظاً لا يريد أن يوجه الى صربيا سوى التهم التي يقوم عليها الدليل بالوثائق وتصمد للتمحيص في ساحة القضاء . ولما كان لا بد له ان يفحص مادته على عجل وفي يومين وليلتين يقضيها في سيرا جيفو فانه لم يلم الا بالنزول اليسير مما نعلمه الآن عن الطريقة التي دبرت بها المؤامرة في بلغراد . وقد ارتأى بناء على ما جمعه من أدلة : منع التعاون بين الوكالات الصربية الرسمية على تهريب الأشخاص والبضائع عبر الحدود ورفعت موظفي الحدود في شاباتز ولوزنيكا وكذلك موظفي الجمارك الضالعين ومحاكمة سيجانوفتش وتانكوفتش . وقد أطلع الدكتور ويزنر الجنرال بوتوريك أيضاً على صورة من

برقية بعث بها الى برشتولد يخلى الحكومة المصرية من المسؤولية المباشرة عن جريمة سيرا جيفو وان لم يخلها من حملة التهييج الضارة بالنمسا. فرأى بوتوريك أن النزعة المحافظة في هذا التقرير مغالى فيها فكتب في الحال الى كونراد يفضي اليه بارتياحاته هو وكانت ، كما نعلم الآن من أعمال « اليد السوداء » ، أقرب جداً إلى الحقيقة . ثم أعلن انه لا يمكن أن يتولى مسؤولية البقاء في منصبه ما لم تتخذ في الحال اجراءات صارمة ، فان طلبات كالتى ارتأها ويزنر ليست كافية ومن الضروري سحق الآلة القائمة وراء كل هذا التهييج ويعنى بذلك الجيش الصربى . « وقد كان كل هذا خليقاً أن لا يقع لو لم تعمله الحكومة المصرية وتطبيقه بل وتشجع عليه . »

وهذه الآراء التى كانت تعززها إقامة بوتوريك الطويلة في البوسنة واتصاله الوثيق بصربيا كانت أكثر مطابقة لما كان برشتولد وموظفو وزارة الخارجية يرونه الحقيقة من آراء ويزنر القانونية المحافظة . وقد أدمجت المطالب الثلاثة التى ارتأها ويزنر في الانذار النهائى لصربيا ؛ لكنه يلوح فيما عدا ذلك أن برشتولد لم ينتفع بتقريره الا قليلا أو هو لم ينتفع به انتفاعا مباشراً . وقد ترك ويزنر يشغل بفحص المواد ووضع ملف الأدلة الذى يقدم الى الدول ومضى في تلك الخطة التى كان كونراد وبوتوريك يرغبان فيها وهى الدخول مع صربيا في حرب ممانعة محلية .

تحويل تيزا

في ١٤ يوليه وفق برشتولد نهائياً الى اقناع تيزا بالعدول عن معارضته في ارسال بلاغ نهائى ذى مهلة وجيزة . لكنه لم يكن له بد من الاذعان لما كان تيزا يصر على طلبه وهو أن يوافق مجلس الوزراء قبل أن يقدم البلاغ النهائى على قرار رسمى مؤداه : « ان النمسا فيما عدا بعض التحويلات الطفيفة في الحدود لا تسعى من وراء الحرب مع صربيا الى الحصول على أراض ، .

وهو قرار يراد به تأمين ما يعتبره تيزا مصالح المجر الخاصة والحيلولة دون مطالبة ايطاليا بتعويض ومنع تدخل الدول . كذلك تقرر ألا يقدم البلاغ النهائي الا بعد التأكد من أن بوانكاريه غادر روسيا . لأن برشتولد كان يخشى « أن يفسر اتخاذ إجراء كهذا في وقت يحتفل فيه برئيس الجمهورية الفرنسية كضيف على القصر بأنه اهانة سياسية وهو ما يجب أن تتجنبه . » كذلك كان يخشى أن يكون من خطر الرأي تهديد بلغراد في اللحظة التي يقع فيها القصر المتردد والمحجب للسلام وسازونوف الحذر تحت تأثير المحرضين بوانكاريه وايزفولسكي مباشرة . ، لأن روسيا وهي تحت تأثير « الشعبانبا » ، والانتخاب الفرنسية الروسية الحارة حقيقة بما يحوطها من تعصب الرئيس الفرنسي وايزفولسكي والغراندوق نيقولا أن تتدخل عسكرياً . فبعد أن بدل التاريخ عدة مرات تقرر أخيراً أنه إذا لم يقدم البلاغ النهائي في بلغراد قبل الساعة الخامسة من مساء الخميس ٢٣ يولييه فلن يصل الخبر إلى سان بطرسبورغ الا بعد ان يكون بوانكاريه وفيفياني قد ركبا متن البلطيق وأصبحا بعيدين عن الاتصال بولاية الأمور الروسيين

فلماذا غير تيزا رأيه ووافق على تقديم بلاغ نهائي وعلى فكرة الدخول عاجلاً في حرب محلية مع صربيا ؟ إننا لانستطيع أن نعرف هذا على التحقيق والراجع أن لا استخدام برشتولد « للعتلة » الألمانية علاقة بذلك . فلقد كتب تيزا الى تشيرشكي عقب هذا بيضة أشهر ، بينما كان بعض الموظفين النمساويين والألمان يتشاحنون فيما بينهم على تبعة الحرب ، يقول : « لقد توجهنا الى ألمانيا نسألها النصيح قبل أن نقدم على عملنا ضد صربيا . وعلى أثر تشجيع الحكومة الألمانية المباشر واعلانها أنها تعتبر الحالة الحاضرة صالحة لتسوية مركز يزداد على مر الأيام خطراً قدمنا مذكرة لنا الى بلغراد . » فهذا كما رأينا هو ما كان برشتولد يصوره على الدوام لتيزا بأنه موقف ألمانيا وما كان يتذرع به لانتهاز اللحظة الراهنة لمناقشة صربيا الحساب بصفة نهائية .

على أن هنالك تأثيراً أقوى حمل تيزا على تغيير رأيه على الرغم منه وهو تزايد اقتناعه بأنه إذا لم تعمل النمسا الآن فسوف يجند لها أعداؤها غدا . وعامل حاسم آخر من العوامل التي غيرت رأى تيزا هو ترديد برشتولد لرأى كونراد العسكري القائل بأنه « يجب أن تتجنب في الطريق الديبلوماسية كل ما من شأنه أن يكسب العدو وقتاً لاتخاذ اجراءات عسكرية تجعلنا في مركز غير حسن ، كأن تباطأ أو نأخذ في سلسلة اجراءات ديبلوماسية يتلو بعضها بعضاً . » وهكذا عدل الكونت تيزا — كما أبلغ برشتولد فرنسوا جوزيف عقب اجتماع ١٤ يولييه ، عن المعارضة في ارسال بلاغ نهائى ذى مهلة وجيزة بعد إذ أبان له المصاعب العسكرية التي يمكن أن يجرها الأباطم في العمل .

بذلك تغلب برشتولد على العقبات الرئيسية التي كانت تعترض إرساله بلاغا نهائياً الى صربيا لم يكن ينتظر أن تدعن له . ولم توضع صيغة المطالب بالضبط في اجتماع ١٤ يولييه . لكن برشتولد وعد تشيرشكى في مساء ذلك اليوم بأنه بمجرد وضع هذه الصيغة في اجتماع ثان لمجلس الوزراء ينعقد في ١٩ يولييه سيطلعه على صورة منها بصفة سرية جدا حتى قبل أن تعرض على فرنسوا جوزيف للتصديق عليها . بيد أن برشتولد لم ينجز وعده هذا كما سيتضح بعد .

في تلك الاثناء أخذ برشتولد ومعه أحد سكرتيرى وزارة الخارجية وهو البارون موسولين يضع في الحال صيغة البلاغ النهائى .

سعى النمسا لخديعة أوروبا

بينما كان البلاغ النهائى يوضع وبرشتولد ينتظر في تلك الايام أن تجرى زيارة بوانكاريه للروسيا مجراها كان يبذل كل جهد في سبيل تكتم محتويات البلاغ وعدم تسرب شيء منها . فزعم أنه كان ينتظر ريثما يعرف النتائج

النهائية للتحريرات القائمة في سيرا جيفو قبل أن يطلب من صربيا شيئاً .
ولكى يبدد برشتولد كل ارتياب في أغراضه الحقيقية دبر أن يغادر
رئيس هيئة أركان حرب النمسا ووزير حريتها فينا كما لو كانا في أجازة ،
واستعمل كافة الموظفين النمساويين المجرين في أحاديثهم لهجة أكثر انطواء
على السلم والمسالمة . وألغى برشتولد فوق ذلك مقابلاته الأسبوعية المعتادة تفادياً
بما يمكن أن يوجه إليه من أسئلة مربكة ، وأمسك عن البحث في حادث اعتداء
سيرا جيفو مع ممثلي الدول الأجنبية . فاذا كانت مع ذلك قد حدثت مناقشات
في وزارة الخارجية فقد كان من شأنها أن تبديد جميع المخاوف والريب في
تبيت النمسا لصربيا اجراءاً خطيراً . وقد كان موظفو وزارة الخارجية
يسلمون بوجوب اتخاذ اجراء ما بمجرد ما تثبت التحريات الجارية في البوسنة
أن هنالك علاقة بين بلغراد وجريمة سيرا جيفو . لكنه قيل في نفس الوقت
إن هذا الاجراء لن يكون بحيث يثير أى قلق . وقد بعث دومين السفير
الفرنسي في فينا يقول : إن المطالب التي تطلبها حكومة النمسا والمجر لمعاقبة
المعتدين وللحصول على ضمانات للسيطرة والاشراف على البوليس مما تقبله
كرامة الصربيين فيما يلوح . ومن رأى جوفانوفتش أنها ستقبل . وقد
أعرب باشتش عن رغبته في الوصول الى حل سلمي لكنه يوطن نفسه على
المقاومة التامة .

وتحدث شيكو سفير روسيا في فينا مع فورجاخ مرارا عن الحالة في
غية برشتولد فلم يستطع أن يستبين حقيقة نيات النمسا . وقد أخبره تساباري
سفير النمسا والمجر في سان بطرسبورغ وكان موجودا في فينا إذ ذاك لأسباب
عائلية أن الاجراء الذي سيتخذ في بلغراد سيكون منظوياً على المسالمة ولن
يسبب للروسيا أى إستياء . فكان من جراء هذه الايضاحات المطمئنة أن
سافر شيكو في نزهة الى روسيا ولم يكن حاضرا في فينا في خلال الأيام
الأولى للأزمة التي سرعان ما حلت .

وفي بلغراد أكد البارون جيزل لصحفي مجرى في ١١ يولييه أنه عند ما ينتهى التحقيق الجارى فى سيرا جيفو « سنتخذ اجراءات على أعظم جانب من اللين وفى حدود الأصول الدولية الديبلوماسية المرعية » . وعقب ذلك بأسبوع أخبر زميله الانجليزى أنه « شخصياً لا يجذ الضغط على صربيا أكثر مما يجب ما دام أنه مقتنع بأن الحكومة الصربية مستعدة لاتخاذ أية اجراءات يمكن أن تطلب فى تعقل وهو لذلك لا ينظر الى الحالة نظرة المتشائم » ، ومع ذلك فان جيزل هذا هو الجنرال الذى يمقت الصريين والذى كان تعيينه فى بلغراد قبل هذا بيضعة أشهر بمثابة القاء عود يحترق من التقاب فى مخزن بارود . وهو نفسه الذى كتب الى برشتولد فى ٢١ يولييه فى ختام حملة سرية على صربيا يعرب عن اقتناعه بأن خير ما يعمل هو « سحق العدو الذى يهددنا فيتم للنمسا الهدوء بعد سنى الازمة . فان الاجراءات الناقصة وتقديم المطالب والمفاوضات الطويلة ثم الوصول فى النهاية الى تراض فاسد هو أقصى ضربة يمكن أن توجه الى هية النمسا والمجر فى صربيا والى مركزها فى أوروبا . »

بهذا الغش المكيفالى كان برشتولد وموظفوه يسعون فى تخدير أعصاب أوروبا وصرفها الى شعور كاذب بالطمأنينة قبل أن تنفجر القنبلة الديبلوماسية . ومع ذلك فان برشتولد لم يكن موفقاً فى مجهوداته هذه الى درجة أن يخدع أوروبا فى نياته الحقيقية كما زعمت الكتب الملونة التى نشرت فى سنة ١٩١٤ . فقد اجتهدت صربيا ودول الحلفاء فى بداية الحرب بقدر الامكان فى التظاهر بأن مذكرة النمسا الى صربيا أخذتها على غرة والحال ، بما نعرفه الآن من أحدث الوثائق المنشورة ، أن بريطانيا العظمى كانت ترتاب فى نيات برشتولد وتعرف منها أكثر مما كان يظن عادة . فقد أبرق السفير الانجليزى فى فيينا فى ١٦ يولييه الى السير ادوارد غراى يقول :

« إن هنالك نوعاً من الاتهام يعد للحكومة الصربية حيث ينسب اليها

الاشتراك في المؤامرة التي أفضت الى اغتيال الفرانكوف . وسيني هذا الاتهام على اجراءات محكمة سيرا جيفو . ويقول مبلغى أن الحكومة الصربية ستطالب باتخاذ اجراءات محدودة معينة لكبح جماح الدعاية القومية والفوضوية وأن حكومة النمسا والمجر لن تدخل فى أخذ ورد مع صربيا بل هى ستصر على الاذعان العاجل بلا قيد ولا شرط أو قتلجأ الى استخدام القوة . ويقال إن المانيا موافقة على هذا المسلك كل الموافقة . والمظنون أن بقية أوروبا ستعطف على النمسا والمجر وتطالب بأن تقف صربيا فى المستقبل موقفاً يكون أكثر انطواء على الاذعان

« وقد سألت مبلغى عن روسيا هل ينتظر أن تقف مكتوفة اليدين فى حالة استخدام العنف مع صربيا فقال انه يظن أن روسيا لن ترغب فى حماية القتل من الأجناس الأخرى على أن النمسا والمجر لن تغلو على كل حال فلا تعباً بالتأجيل . قال : وستخسر مركزها كدولة عظمى اذا هى أطاقت أى عبث آخر من ناحية الصرب . »

وكذلك تولى الرئيس بوانكاريه فى ٢١ يولييه وهو فى سان بطرسبورغ . وكان اعتقاده « أن النمسا تستعد لتوجيه ضربة » ، أن يندر السفير النمساوى كما سترى انذاراً خشناً قاسياً فقال له قولاً ذا مغزى وهو « أن الشعب الروسى صديق حميم جداً للصربيين وفرنسا حليفة روسيا . » وكان يريد حمل النمسا على ألا تفعل ما كان برشتولد يتولى بالضبط فعله ، وتشجيع سازونوف على الثبات فى تأييد صربيا .

ويلوح أيضاً أن ايطاليا كانت قد أملت بعض ما كانت فينا تعده فى الخفاء ، اذ كان السفير الايطالى فى سان بطرسبورغ « يحس أن النمسا لا تحجم عن اتخاذ اجراء نحو صربيا يصعب الرجوع فيه » فنصح فى ١٦ يولييه للروسيا بأن تنذر فينا « بأن روسيا لن تحتل أى اعتداء من جانب النمسا على سلامة صربيا واستقلالها » ، وفى مساء ٢٣ يولييه أبلغ مستشار فى السفارة الايطالية

البرنس تروبتسكى على التحقيق ، أن النمسا والمجر ستقدم اليوم الى صربيا
بلاغاً نهائياً لا يمكن قبوله بالمرّة .

صوغ البلاغ نهائياً

لقد عرضت النصوص المضبوطة للبلاغ النهائى أو المذكرة المهمة ، كما
سميت على سبيل المجاز ، على مجلس وزارى ثان انعقد فى ١٩ يوليه بصفة سرية .
ومضاعفة للسرية عقد الاجتماع فى الساعة العاشرة صباحاً بمنزل برشتولد
بدلاً من أن ينعقد فى وزارة الخارجية . وقد أقبل من حضروا الاجتماع فى
سيارات عادية بدل سياراتهم الرسمية ، غير المرقومة . وفسر مجيء تيزا الى
فيينا مرة أخرى بأنه كان لحاجته الى معلومات جديدة ، وهو تفسير جدير بالثناء
لأن المجلس المجرى كان لا يزال منعقداً يتعطش الى الأخبار . وعاد كونراد
الى العاصمة فى طائرة على عجل وقيل فى تفسير ذلك إنه من جراء مرض ابنه .
وقبل أن يدعو الرئيس (برشتولد) المجلس الوزارى المشترك الى
المداولة جرت مناقشة غير رسمية فى صيغة المذكرة التى ترسل الى صربيا
ووضع نصها النهائى . وعندئذ افتتح الرئيس المجلس وطلب الموافقة على
تقديم المذكرة الى الحكومة الصربية حوالى الساعة الخامسة فى مساء يوم
الخميس ٢٣ يوليه ليتيسر بعد انقضاء مهلة الثمانى والأربعين الساعة فى الساعة
الخامسة من مساء يوم السبت ٢٥ يوليه ارسال الأوامر بالتعبئة ليلا بين
السبت والأحد . وكان فى رأى الكونت برشتولد أنه ليس من الراجح أن
تعرف سان بطرسبورغ ما أقدمنا عليه قبل رحيل رئيس الجمهورية الفرنسية .
على أنه حتى اذا حدث هذا فانه لا يرى فيه ضيراً كبيراً إذ نحن قد راعينا
المجاملة مراعاة كافية بانتظارنا الى أن تنتهى الزيارة . ومن جهة أخرى فانه
لا اعتبارات دبلوماسية خلى أن يعارض كل المعارضة فى أى تأجيل آخر
لأنهم كانوا قد أخذوا فى برلين يقلقون والأخبار عن نيائنا قد تسربت

بالفعل الى رومه ، حتى انه لن يأخذ على عاتقه تبعة حوادث لا يرغب فيها
إذا اقتضى الأمر تأجيل المسألة أكثر من ذلك ، *

وبعد أن أدلى كونراد رئيس هيئة أركان الحرب ببيان عن العمليات.
العسكرية واطمأن تيزا على سلامة ترانسلفانيا من أية قن أو غزو يقع من.
جانب رومانيا ، جدد تيزا طلبه الذي أبداه في ١٤ يولييه وهو أن يعلن المجلس
باجماع الآراء : « ان عمل النمسا حيال صربيا لا يتصل بأى تدبير من تدابير
الفتح وان النمسا فيما عدا تصحيح الحدود تصحيحاً تقتضيه أسباب
استراتيجية لا ترغب في ضم أية بقعة من الأراضى الصربية . » فلاحظ
برشتولد انه إنما يقبل هذا مع « تحفظ بعينه » :

« فانه في حالة انتصار النمسا على صربيا لا ينبغي لها أن تضم أرضاً من
أراضيها ولكنها تسعى إلى انقاص حجمها بحيث لا تصبح بعد ذلك خطراً.
وذلك باعطاء أكثر ما يمكن اعطاؤه من أراضى صربيا الى بلغاريا واليونان
والبانيا ولا مانع من رومانيا أيضاً . فقد تتغير الحالة في البلقان ، وقد لا يستحيل
أن تنجح روسيا في قلب الوزارة التى تكون قائمة فى صوفيا واللاتيان بحكومة
معادية للنمسا . وهو باعتباره الشخص المسئول عن السياسة الخارجية يجب
أن يحسب حساباً لا مكان الاضطرار إلى ضم شيء فى نهاية الحرب لظروف
تكون قائمة إذ ذاك » هذا اذا كنا نريد أن تسود على الحدود خير من الأحوال
السائدة فى الوقت الحاضر . »

وأشار الكونت سترج رئيس الوزارة النمساوية إلى أن النفي العلنى لأية
نية لضم شيء من الأراضى الصربية لا يمنع « أن تعدل الحدود تعديلاً
استراتيجياً ، أو « أن تجعل صربيا فى مركز يربطها بالنمسا وذلك بأسقاط
الأسرة المالكة أو باتفاق عسكرى أو بأية وسيلة أخرى صالحة . »

وقد وافق تيزا مع ذلك عن نفسه وعن الحكومة المجرية مع الشرط الذى لم يتحول عنه وهو قبول طلبه بالاجماع ، فأجمعوا على الاثر على ما يلى وهو :
« انه على اثر البدء فى الحرب يصدر تصريح للدول الأجنبية بأن المملكة لا تبغى بالحرب فتحاً ولا تنوى أن تضم اليها مملكة الصرب لكن هذا القرار لا يمنع بطبيعة الحال تعديل الحدود من الوجهة الاستراتيجية التعديل اللازم أو تخفيض مساحة صربيا لمصلحة دول أخرى أو احتلال بعض جهاتها بصفة مؤقتة وهو ما قد يرى ضرورياً . »

هذا الارتباط الخطير بأن يعلن الى الدول فى بدء الحرب انه لا مصلحة للنمسا فى أراضي صربيا كان من بين الوعود التى لم ينجزها برشتولد كما سنرى . فانه حتى عند ما أعطى هذا التصريح نهائياً كان عدم الاخلاص فيه ظاهراً من تلك التحفظات التى أدلى بها عدة وزراء ومن الملاحظة التى أبدتها كونراد لوزير الحرية وهما خارجان من اجتماع المجلس إذ قال : « حسناً ، سنرى . لقد كانت الدول قبل حرب البلقان تتحدث عن الحالة الراهنة فلما انتهت الحرب لم يكثر أحد لها . »

وأرسلت المذكرة فى اليوم التالى وهو ٢٠ يولييه إلى جيزل فى بلغراد صعبة رسول ومعها تعليمات بتقديمها إلى الحكومة الصربية فى يوم الخميس ٢٣ . وقد أرسلت أيضاً فى ٢٠ يولييه ، وعليها خاتم السرية التامة ، إلى سفراء النمسا والمجر فى برلين ورومه وباريس ولندن وسان بطرسبورغ والآستانة وإلى وزرائها فى ما هو دون هذه البلاطات أهمية . وقد أعطى كل من هؤلاء التعليمات المناسبة بأن يبلغ فى صباح الجمعة ٢٤ يولييه الحكومة التى يكون معتمداً لديها « المذكرة » التى تكون قد قدمت إلى صربيا فى الليلة السابقة ، وأن يدلى ببيان عن عدالة القضية النمساوية وأن يبدى فى بعض الحالات أن ملفاً يحتوى كامل تفاصيل القضية النمساوية ضد صربيا موجود تحت تصرف الدول للاطلاع عليه .

اتقد بعث برشتولد بالبلاغ النهائي دون علم فرنسوا جوزيف أو موافقته .
فان الامبراطور الشيخ الذي كان غائباً في إيشل وكان قد أبلغ أن « المذكرة »
ستسوى في جلسة لمجلس الوزراء تتعقد في ١٩ يوليه ، لم يسمع عنها بعد ذلك
شيئاً ومن ثم أبرق في ٢٠ يوليه يسأل عما تم فيها . وقد بادر برشتولد بالرد
بأنه لم يمكن الفراغ منها في ١٩ يوليه (١) ولكنها الآن حاضرة وسيحملها
رسول الى إيشل . أما هو فيصل في صباح اليوم التالي ٢١ يوليه ليحظى بمقابلة
الامبراطور . وليس ثمة ما يسجل الايضاحات التي ربما كان قد أدلى بها
لفرنسوا جوزيف في هذه المقابلة التي جرت صبيحة الثلاثاء اللهم الا ما أبرق
به عند انتهائها الى مرؤوسه البارون ماتشيو في فينا وهو : « لقد أقر جلالاته
نص المذكرة المقدمة الى صربيا والى الدول دون تغيير . فأرجوك أن تبلغ
سفير ألمانيا تشيرشكي انه لا يمكن أن يعطى المذكرة قبل صبيحة الغد لأنه
سيجرى فيها بعض تصحيحات . » فلماذا هذا الكذب ؟ ولم أخلف برشتولد
وعده الذي وعد تشيرشكي به قبل ذلك بيضعة أيام وهو أن يبلغ نص المذكرة
الى الحكومة الامبراطورية (الألمانية) بصفة سرية جداً بمجرد وضع صيغتها
في يوم الأحد (١٩ يوليه بمجلس الوزراء) حتى قبل أن تعرض على فرنسوا
جوزيف للبصادة عليها ؟ واذا كان « النص النهائي قد وضع » في ١٩ يوليه
وأرسل سراً الى جميع سفراء النمسا في ٢٠ يوليه « وصادق عليه الامبراطور
دون تغيير » في ٢١ يوليه فلماذا كان برشتولد لا يزال يريد حبسه عن
تشيرشكي فيزعم أن تصحيحات ستجرى فيه ؟

الراجح أن برشتولد كان يخشى أنه حتى وزارة خارجية برلين قد
لا توافق على لهجة المذكرة تلك اللهجة المتطرفة العنيدة . وقد تمد يدها في
اللحظة الأخيرة لتقفها . وقد قال عن برلين لمجلس الوزراء في ١٩ يوليه إنها
باتت « قلقة » وإنه « لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه تبعة حوادث لا يرغب
فيها اذا اقتضى الأمر تأجيل المسألة أكثر مما أجلت . » واذن فيجب أن

لا تعلم برلين نص المذكرة حتى يفوت الأوان فلا يستطيع عمل شيء. وبرلين يجب أن تقبل الأمر الواقع وهو أن بلاغا نهائياً هو أقصى ما يكون قد أرسل وأنه لم يعد في الامكان سحبه أو تعديله.

النمسا لا تأبه بنصيحة ألمانيا

من المهم في هذا الصدد والنظر الى ما أباته ألمانيا فيما بعد مراراً وتكراراً من أنها لم تكن تعلم بالبلاغ النهائي النمسي قبل ارساله — أن نلاحظ التغير الذي طرأ على معاملة برشتولد لألمانيا قبل ١٤ يولييه وبعده يوم ان فاز بموافقة تيزا على إرسال بلاغ نهائي صارم. قبل ذلك التاريخ كان برشتولد يعلم ألمانيا بكل دقيقة وجليظة عن التدابير التي كانت تتطور لتنتهي الى تقديم بلاغ نهائي الى صربيا. وقد دل برلين على بعض الشروط التي كان يرجع ان يشتمل عليها هذا البلاغ فأنبأها انها ستكون من الصرامة بحيث يتعذر على صربيا قبولها، وان قبولها اياها مما سوف يضايقه جداً. وقد سأل برلين النصيحة وبدأ كما لو كان على استعداد لتقبلها والعمل بها. ولما كانت ألمانيا قد اطلقت يد النمسا في ٥ يولييه فقد رضخت لهذه التدابير؛ ولما كانت تعلم عن برشتولد في الماضي تردده وعدم استقراره على رأي وكانت ترغب في ان تبادر النمسا بالعمل قبل أن يتلاشى الرعب ويفتر العطف اللذان اثارهما في اوربا جرم سيرا جيفو — نقول لما كانت ألمانيا هكذا فانها لم ترضخ فحسب بل شجعت برشتولد على العمل السريع. وكانت ألمانيا تجهل نص المذكرة المتروكة بالضبط وكانت لا تزال متفائلة بأن تجصر الحرب — اذا هي وقعت — بين النمسا وصربيا فجعلت تتخذ الاجراءات وتقدم النصيح الذي يساعد على ضمان حصر الحرب بين الدولتين. فالآن بعد أن وعد برشتولد من ألمانيا بالمساعدة وبعد ان حول تيزا عن رايه لم يعد بعد ١٤ يولييه يعنى عنايته السابقة بألمانيا أو يعبا بنصحها ومطالبها.

مثال ذلك ان ياجو نصح لفينا بجمع الأدلة الكافية لاثبات ان هنالك حملة تهيج في صربيا ترمى الى التوسع وتعرض المملكة الثنائية للخطر ، حتى يمكن ان يقتنع الراى العام الاوربى بعدالة القضية النمسوية . «والأصوب ان تنشر هذه الأدلة مجتمعة لا متفرقة وذلك قبل أن تقدم الى صربيا المطالب او الانذار النهائى كما تكون الحال . ، لكن برشتولد لم يعبأ بهذه النصيحة الثمينة . والملف الذى كان يشرح شكاوى النمسا من صربيا ونتائج التحقيق الذى جرى فى سيرا جيفو لم تعرض كلها على الدول الا بعد تقديم البلاغ النهائى بعدة ايام . وقد جاء هذا الملف متأخراً وبعد ان اخذت ازمة دبلوماسية خطيرة تستفحل ، فلم تعن الدول بالالتفات اليه وافلتت النمسا الفرصة التى كان يمكن أن تنتهزها للتأثير فى الراى العام لمصلحتها وضد صربيا تمام الافلات .

كذلك حضت ألمانيا برشتولد على أن يتفاهم مع ايطاليا فى حينه ، فإن الحكومة الايطالية كانت قد أخذ قلقها يتزايد جداً من جراء تهور الصحف النمسوية مع صربيا وموقف الصمت المريب الذى كان ولاية الأمور فى فينا قد اتخذوه . وقد بعث البارون فلوتو السفير الألمانى فى رومه بتاريخ ١٤ يوليه تقريراً قال فيه « إن سان جوليانو متطير جداً خشية أن يكون برشتولد قد بيت أموراً مدبرة . وقد قال الوزير الايطالى انه لا يسلم فى القانون الدولى بتحميل حكومة مسئولية عمل اجرامى يقترفه فرد أو دعاية سياسية لا تكون جهاراً . لذلك يخشى أن لا تستطيع الحكومة الايطالية تأييد المطالب التى يشتهه فى أن النمسا ستقدمها لصربيا وخاصة لأنها ستكون مناقضة لاحساسات الشعب الايطالى العميقة ، مناقضة للبادئ الحرة ولبدأ القومية الذى تمنع لإيطاليا تقاليدھا من معارضته . » واستخلص فلوتو ان سان جوليانو « يريد على ما يظهر انذارنا بأن ايطاليا لن تبقى فى جانب النمسا اذا تعقدت الحالة أكثر مما هي . » وبعث فى الأيام التالية مجموعة برقيات تتزايد توكيداً

وانذاراً بأن إيطاليا لن تظاهر النمسا على صربيا لعداوة الشعب للنمسا وعطفه على الحركة الوطنية الصربية التي تماثل جهاد إيطاليا نفسها في سبيل وحدتها ومغالبتها الاضطهاد الهابسبورغي من نصف قرن مضى . وقد قال أيضاً ان من المحال في الواقع التأثير على الصحف الإيطالية .

وقد أدرك ياجو أهمية الابتعاد بالإيطاليين عن مظاهرة صربيا وصعوبة رشوتهم أو المساومة معهم فبعث بريقة فلو تو الى تشيرشكي في فينا وطلب اليه ان يباحث برشتولد في مركز إيطاليا بصفة سرية . وقد صرح بأن أي توسع من جانب النمسا أو أي سعي للاستزادة من النفوذ في البلقان سيرعب إيطاليا لا محالة . فانه كلما هددت النمسا صربيا استحوذ القلق على إيطاليا وتوترت أعصابها . وتأيد إيطاليا لصربيا مما يزيد في شهوة روسيا للعمل ويغريها به . ومن ثم كان يرى ان تفاهم النمسا مع الوزارة الإيطالية من الأهمية بأعظم مكان ، وانه ينبغي عليها ان تلوح لها ببعض التعويضات كفالونا التي تؤلف جزءاً من ألبانيا ولا تكلف النمسا شيئاً ؛ لكنها قد لا ترضى إيطاليا أو تمنحها بلقمة اضخم كالترتينو الذي سوف يملأ بالتأكد أفواه الرأي العام الإيطالي المعادي للنمسا .

وعملاً بهذه التعليمات ولغياب تشيرشكي سأل شتولبرج مستشار السفارة الألمانية في فينا برشتولد هل ينوي الاتصال بإيطاليا قبل ان يلجأ مع صربيا الى عمل ما . فأجابه برشتولد بأنه الى الآن لم يلفظ بكلمة واحدة عن عمل كهذا وانه في الحقيقة ينوي ان يواجه الحكومة الإيطالية بأمر واقع لأنه ليس متأكداً كل التأكيد من انها تحفظ سرّاً ، ومن السهل ان تلمح لبلغراد بشيء ما نظراً لموقفها الذي تعطف فيه على صربيا . ولم يشأ شتولبرج ان يمضي في الحديث مع برشتولد مؤثراً ترك مسألة التعويضات الدقيقة لتشيرشكي يعالجها هو بنفسه . على أن شتولبرج حادث هويوس موضع سر برشتولد حديثاً طويلاً وحث على مسالة إيطاليا لكنه لم يلق آذاناً صاغية .

وقد ارتأى هويوس تعويض إيطاليا بأرض أخرى لا تملكها النمسا وهي جزر الدوديكانيز .

بعد ذلك يومين ، أى فى ٢٠ يولييه ، جرى لتشيرشكى حديث طويل مع برشتولد اكد له فيه حجج ياجو فيما يتعلق بأهمية استمالة إيطاليا وتعويضها قبل فوات الأوان . بيد أنه لم يلق هو ايضاً نجاحاً يذكر ، فأن برشتولد كان يصر اصراراً اعمى على أنه لاحق لايطاليا فى تعويض ما ، وأنه لا يحتاج الى تعاون إيطاليا او تأييدها بل يريد فقط ان تمتنع إيطاليا عن التدخل ؛ وان خير وسيلة لابعاد إيطاليا هو كتمان العمل المنوى عنها الى ان يصبح امراً واقعاً . وقد حذر على ميرى السفير النمساوى فى رومه ان يتكلم فى المسألة الصرية لانه واثق من ان اقل تلميح ستبلغه إيطاليا فى الحال الى سان بطرسبورغ وتذرع به رومه للقيام بعمل معاكس او للبطالة بتعويضات . وقد رفض برشتولد بتاتاً ان تعطى إيطاليا فالونا فحمل تشيرشكى بهذا على تحاشي الخوض معه فيما هو أدق : وذلك أن تنزل النمسا عن الترتينو .

وبدلاً من أن يعمل برشتولد بنصيحة ألمانيا ورأيها الحكيم وهو مساومة إيطاليا مساومة معقولة بعث الى ميرى بيان طويل حاول أن يجادل فيه التفسير الذى ترتبه ألمانيا وإيطاليا على السواء للمادة السابعة من المحالفة الثلاثية وهى التى تتعلق بالتعويضات التى تكون من حق إيطاليا فيما لو وقع تغيير فى البلقان لمصلحة النمسا . وفى نفس اليوم بعد أن أرسل الى ميرى نص البلاغ النهائى كلفه أن يقول لسان جليانو اذا سئل : « إنه لا يعلم شيئاً الى الآن بالضبط عن انتهاء التحقيق الدائر فى سيرا جيفو وعن الاجراء الذى تتخذه النمسا فى بلغراد نتيجة لذلك » ، وقد نهيه الى وجوب تجنب أى بحث فى المادة السابعة بقدر الامكان لأن « كلا من الفريقين لن يستطيع اقناع الآخر بتفسيره وأن هنالك خطراً من أن البحث فى هذا قد يهيج بعض العواطف الثائرة ويعرض معاهدة المحالفة الثلاثية فى النهاية للأخطار . »

وقد وعد بروشتولد تشيرشكى بأنه مجاملة لـ إيطاليا كخليفة سيعلم الوزارة الإيطالية بالبلاغ النهائى قبل أن يسلم الى صربيا حتى لا يضطر سان جوليانو وزملاؤه الى العلم به من الصحف وأنه فى نفس الوقت سيعلم أن النمسا فيما تتخذه من اجراء حيال صربيا لا ترمى الى أى توسع أرضى لنفسها ، لكنه لم يف بأى من هذين الوعدين كل الوفاء . فإنه فيما يتعلق باحاطة إيطاليا علما بالبلاغ قبل ارساله أرسل الى ميرى مجموعة من الأوامر يناقض بعضها بعضا جعلته بحيث لا يدري ما ذا يفعل . وأخيراً آوى الى فراشه وبعث سكرتيره الى سان جوليانو عصر يوم ٢٣ يولييه فاستقل اليه فى الريف سيارة فى الوقت الذى كان البلاغ النهائى يقدم فيه فى بلغراد . وحتى عندئذ لم تعط الى الوزير الإيطالى صورة من البلاغ بل بلغ ما لا يغنى ولا يضمن وهو أن المذكرة المهمة بثمان وأربعين ساعة تحتوى طائفة من المطالب تستند الى تحقيق سيرا جيفو وترمى الى حماية النمسا من دعاية صربيا الكبرى .

كذلك لم يصرح بروشتولد فى حينه بتصريحاً جلياً سواء لـ إيطاليا أو لـاية من الدول بأن النمسا لن تسعى الى التوسع الأرضى على حساب صربيا وهو التصريح الذى رغب فيه تيزا كما رغبته فيه ألمانيا . ذلك أن بروشتولد بعد حول تيزا عن رأيه فى ١٤ يولييه لم يعد يعبأ بنصيحة ألمانيا فيما يتعلق بإيطاليا أو بنشر الأدلة الخاصة بحادث سيرا جيفو فى وقت واحد مع مطالب النمسا من صربيا .

ما الذى كانت ألمانيا تعلمه من أمر البلاغ النهائى ؟

كذلك لم يحفل بروشتولد كثيراً بما طلبته ألمانيا بعد ١٤ يولييه من أن تحاط علما بنيات النمسا النهائية وبشروط المطالب المنوى مطالبة صربيا بها بالضبط . وهذه الحقيقة وما أكده ياجو مرارا عقب ذلك بيضعة أيام من أنه لم يكن يعلم بمحتويات المذكرة النمسية المجرية ، هذا الى الحقائق الجديدة

التي كشفت عنها الوثائق الألمانية التي نشرت بعد قد أثار كله جدلا كثيرا حول مبلغ ما كانت ألمانيا تعلمه من أمر البلاغ النمساوي .

لقد ظل برشتولد في خلال الأسبوع التالي لمخاضات بودتسدام كما أشرنا من قبل يطلع السفير الألماني في فيينا على كل ما يتعلق بخطته كما أحاطه بعدة من المطالب التي كان يرجح أن يضمنها البلاغ النهائي . وقد أبلغت هذه المعلومات إلى القائم بالأعمال البفاري في برلين فخلصها في رسالة طويلة بعث بها في ١٨ يولييه قال :

« ستحتوي المذكرة كما أخبرني تسيرمان وعلى قدر ما قر الرأي عليه إلى الآن ، المطالب الآتية :

١ — أن يصدر ملك الصرب منشورا يبين فيه أن الحكومة الصربية لا علاقة لها بحركة صربيا الكبرى ويستجيبها .

٢ — اجراء تحقيق مع الاشخاص المدينين بالاشتراك في حادث الاغتيال الذي وقع في سيرا جيفو واشتراك موظف نمساوي في هذا التحقيق .

٣ — اتخاذ الاجراءات ضد جميع الاشخاص الذين اشتركوا في حركة صربيا الكبرى .

« وستحدد لقبول هذه المطالب مهلة ثمان وأربعين ساعة ؛ وظاهر أن صربيا لن تستطيع قبولها لأنها لا تتفق وكرامتها كدولة مستقلة ؛ واذن فالنتيجة ستكون الحرب .

« وهنا في برلين راغبون كل الرغبة في ان تنتهر النمسا هذه اللحظة المناسبة حتى ولو ترتبت على ذلك تعقيدات أخرى . ولكن الذي لا يزال ياجو وتسيرمان يرتابان فيه هو أن تنتهز فينا الفرصة . وقد أعرب الأخير منهما عن رأيه في أن النمسا والمجر لترددها وتفككها قد أصبحت هي رجل أوروبا المريض كما كانت تركيا من قبل . وأصبح الروسيون واليطاليون والرومانيون والصربيون وأهالي الجبل الاسود يترقبون تقسيمها . فاذا هي قامت بحركة

قوية ناجحة ضد صربيا فسوف يترتب على ذلك أن يحس النمسيون والمجريون مرة انهم قوة وطنية فيعيشوا الحياة في الهيكل الاقتصادى المتداعى ويقمعوا الألمانى الأجنيه لعدة سنين مقبله ...

« ويتوقف الموقف الذى تتخذه الدول حيال حرب تقع بين النمسا وصربيا فى الغالب ، كما يرون هنا ، على النمسا وهل تكتفى بتأديب صربيا أو تطلب أيضاً لنفسها أراضى تعويضاً لها . ففى الحالة الأولى يصبح فى الامكان حصر الحرب بين الدولتين وفى الحالة الاخرى لن يخلو الأمر من تعقيدات خطيرة أخرى » وستفتح ألمانيا الدول بمجرد تقديم المذكرة النمسية الى بلغراد فى صدد حصر الحرب وجعلها محلية ؛ وستقول إن عمل النمسا باغتها كما باغت الدول مشيرة الى أن الأمبراطور متغيب فى رحلته البحرية فى الشمال وأن رئيس هيئة أركان الحرب ووزير حرية بروسيا غائبان بالاجازة ...

« ستؤكد انه من المصلحة العامة لكافة الحكومات الملكية أن ينبش « عش الفوضيين » فى بلغراد ويستأصل دفعة واحدة ؛ وستجهد فى حمل الدول جميعا على الأخذ بالرأى القائل بأن تسوية ما بين النمسا وصربيا أمر يتعلق بهاتين الدولتين وحدهما ؛ وسيمتنع عن تعبئة الجيش الالمانى وسيعملون بواسطة الساطات العسكرية على منع النمسا من تعبئة جيشها كله وعدم تعبئة جيش غاليسيا خاصة تفاديا من أن ترد روسيا من نفسها بتعبئة جيوشها : الأمر الذى لو حصل لحملنا بدورنا ثم حمل فرنسا بدورها على اتخاذ اجراءات مماثلة فيكون هذا سبباً فى حرب أوربية . »

ويدل الجزء الأول من هذا التقرير الشهير على أن المانيا لم تتلق الا خلاصة وجيزة لجزء من البلاغ النهائى الفعلى الذى تلا بعد ذلك . ومن جهة أخرى فإنه بينا قد ثبت أن الحكومة الألمانية لم يكن لها علم بنصف المطالب ولا بالصيغة الفعلية للبلاغ النهائى (الذى لم يكن فى الواقع قد وضع بعد بصفة نهائية فى فينا) فإن هذه الحكومة كانت تعلم جوهر بعض المطالب

المرجحة التي كانت على أعظم جانب من الأهمية . وكانت تعلم أن البلاغ النهائي سيصاغ بحيث لا ينتظر ان تسلم به صربيا . وإذن فقد كان ياجو كاذبا حينما أكد مرارا بعد ذلك بوضحة أيام أنه ليست له سابقة علم بالمذكرة النمساوية المجرية . وسنعود الى هذا الموضوع بعد قليل . ومع أنه ليس ثمة ما يبرر الكذب فانه يصح أن نشير الى أن السير ادوارد غراي الذي طالما أثر عنه أنه مثال الشرف والنزاهة قد تعمد كذلك الكذب حينما نفى سابق علمه بالشروط المرجحة للبلاغ النهائي . فقد علم في ١٦ يولييه من صديق لبرشتولد أخبر السفير الانجليزي في فينا ، أن هنالك نوعا من الاتهام يعد للحكومة الصربية باشتراكها في المؤامرة التي أفضت الى اغتيال الغراندوق . إذ سيطلب من الحكومة الصربية اتخاذ اجراءات معينة محددة لكبح الدعاية الوطنية والفوضوية . وحكومة النمسا والمجر لن تأخذ بحال من الأحوال أو ترد مع صربيا ، ولكنها ستصر على الاذعان العاجل بلا شرط ولا قيد والا استخدمت القوة . ومع ذلك فان السير ادوارد غراي وقد سأل السفير الألماني في ٢٠ يولييه ألم تصل اليه أنباء عما يقع في فينا حيال صربيا ، وتلقى منه الجواب بالنفي أبدى انه هو أيضاً لم يسمع أخيراً بشيء . سوى أن الكونت برشتولد قد حدث السفير الايطالي بلمهجة مطمئنة . فاما أن يكون السير ادوارد غراي لم يعلم برسالة بنسن الهامة التي تلقتها وزارة الخارجية الانجليزية قبل ذلك بأربعة أيام (وهذا يصعب أن يكون محتملا) واما أن يكون هو أيضاً قد أكد كذبا جهله بما كان يجري في فينا . وهذا النوع من الكذب الدبلوماسيكي ليس لسوء الحظ وقفا على دولة بمفردها بل كان يعم الجميع وينغمس فيه وزراء الخارجية والسفراء في يولييه سنة ١٩١٤ في كل مكان تقريبا .

وعلى أن المانيا كانت في خلال الأسبوع الأول أو العشرة الأيام التي تلت اجتماع بوتسدام ، على مثل هذا العلم فيما يتعلق بالبلاغ النهائي كما أسلفنا

البيان فان هذا الشيء الذى علمته كان يعد فى برلين غير نهائى . فانها بعد ١٤ يوليه ظلت تطلب معلومات أخرى عن مقاصد النمسا النهائية وعن شروط البلاغ النهائى بالضبط كما تعد رأى العام لتعزيف فكرة حصر الحرب وجعلها محلية ومن ثم استبان ياجو فى ١٧ يوليه أن خطط برشتولد يمكن أن « يؤثر فيها مجرى الحوادث أو يعدلها ، لكنه زعم » أنه يتمثل صورة عامة للمقاصد التى يسعى اليها بما فى ذلك مسألة الأراضى ، وكلف السفير الألمانى فى فينا بناء على ذلك بأن يسعى للحصول على معلومات عن هذه النقطة وعن « الوجهة التى ينتظر أن تؤدى بنا الطريق اليها » . وفى ٢٠ يوليه كتب ثانية يقول « انه لكى يتيسر لنا معالجة رأى العام نرى أن من الأهمية لنا بمكان عظيم أن نبليغ الأشياء بالدقة قبل أن تأخذ مجراها وليس ذلك عن فحوى المذكرة فقط بل أيضاً عن اليوم والساعة اللذين تنشر فيهما . الرد تلغرافيا ، لكن برشتولد بات الآن لا يعبأ كثيراً بهذه الطلبات فأصبحت ألمانيا فى الواقع لا تعلم شيئاً جديداً سوى ما يتعلق باليوم الذى ينشر فيه البلاغ النهائى . وبعناد برشتولد فى رفض نصيحة المانيا الخاصة بإيطاليا .

وقد لجأت وزارة الخارجية الألمانية فى طلب المعلومات الى السفير النمساوى فى برلين وكانت التعليمات التى بيد سيجينى تفرض عليه أن لا يرى البلاغ النهائى لألمانيا قبل يوم ٢٤ يوليه أى فى صباح اليوم التالى لتسليمه فى بلغراد . بيد أن سيجينى ألفى نفسه مضطراً الى أن يبرق الى برشتولد « بأنه يرى من الضرورى بلا قيد ولا شرط أن يعلم الحكومة الألمانية فى الحال أو بعبارة أخرى قبل الدول الأخرى وبصورة سرية جداً » . وقال فى خطاب له فى نفس اليوم : « ان ياجو قد أفهمنى جلياً أن المانيا ستظهرنا بطبيعة الحال بلا قيد ولا شرط وبكل قواها ولكنه من المصلحة الحيوية لألمانيا لهذا السبب عينه أن تطلع فى حينه على الغاية التى تؤدى طريقنا اليها . » وعلى ذلك أبدى برشتولد فى عصر اليوم التالى أى فى ٢٢ يوليه موافقته نهائياً وأطلع سيجينى

ياجو على نص البلاغ النهائي . وبعد ان قرأ ياجو البلاغ في مساء الأربعاء ٢٢ يوليه أخبر سيجيني أن البلاغ في رأيه « أشد مما يجب » وأبعد في المطالب مما ينبغي . ثم لام السفير النمساوى على تبليغه إياه في اللحظة الأخيرة فقط فأجابه سيجيني بأنه لم يعد في الامكان عمل شيء في شأنه لأنه أرسل فعلا الى بلغراد . وسيقدم هناك في صباح اليوم التالى وتنشره شركة تلغرافات فينا رسمياً في نفس الوقت .

وبينما كان ياجو ينظر في البلاغ النهائي جاءت نسخة أخرى منه كانت قد وصلت من تشيرشكى ولما تكبد . ومن الغريب أن فورجاخ وكان يجهل أمر برشتولد لما تشيو بأن لا يطلع تشيرشكى على نص البلاغ « لأنه لا تزال هناك تصحيحات ستجرى فيه » — نقول من الغريب أن فورجاخ سلم الى تشيرشكى هذا البلاغ في اليوم السابق في فينا ليعث به الى برلين . « وقد أكد فورجاخ أنه لا اطلاع سعادتك بصفة شخصية بحته لأن الامبراطور لم يصدق عليه بعد وان كان لا شك هناك في أنه سيصدق عليه . » وقد بعث به تشيرشكى بالبريد بدلا من أن يرسله برقيا والراجح أنه خشى ان نشره فيما بعد قد يعرض الشفرة الألمانية للخطر . لذلك لم يصل برلين الا في مساء ٢٢ يوليه حيث كان ياجو مكباً على النسخة التى أعطاها سيجيني لمقطب الجبين . أما يتمان الذى كان في هوهنفيو إذ ذاك فيظهر أنه لم يعلم بنص المذكرة الا في ساعة متأخرة من ليل ٢٢ يوليه أو في صباح ٢٣ لكنه لما اطلع عليه كان رأيه فيه كراى ياجو أى أنه أشد مما يجب . وكان الامبراطور غليوم في عرض البحر على ظهر يخته هوهنزولرن فلم يسمع بفحوى البلاغ النهائي الا بعد ذلك ، وكان سماعه به من شركة صحفية لا رسمياً من وزارة الخارجية الألمانية كما نعلم من برقية حادة بعث بها الى « مستشاره المدنى » .

وهكذا كان صحيحاً أن ألمانيا عرفت خلاصة بعض شروط البلاغ النهائي وأنها كانت عالة بأنها يحتمل أن تودى الى حرب محلية مع صربيا لكنها لم

تمكن لها سابقة علم بنصه بوقت كاف لتعديله أو لسحبه . وقد حال ذون ذلك ما كان يلجأ اليه برشتولد من وسائل الامر الواقع . وفي الوقت الذي أطلع فيه ياجو نهائياً على النص أى فى ٢٢ يوليه كان باقياً على تقديم وزير النمسا المفوض إياه فى بلغراد أقل من ٢٤ ساعة ، إذ كان النص فى يده . ولو أنه كان يتيسر حينذاك ما يتيسر فى هذه الأيام الحديثة من المسارة والبرق لكان مع ذلك من المستحيل فعلا على الموظفين الألمان والنمسيين فى برلين وفيينا وبلغراد أن يتصلوا بعضهم ببعض فى وقت وجيز كهذا وأن يتفقوا على إجراء تعديل فى البلاغ . وحتى لو كان ييتمان وياجو قد اطلعا على نصه قبل ذلك بكثير فليس من سبيل الى الزعم بأنهما كانا يعدلانه أو يقفانه . والراجح أنهما كانا يلتزمان السياسة التى اتخذها فى ٥ يوليه وهى أن المسألة النمسية الصربية ليست من اختصاص ألمانيا ، لكن على ألمانيا أن تؤيد حليفها فى العمل الذى قرره لحماية نفسها من خطر « صربيا الكبرى » . ولقد شعرا بأن عليهما أن يرضا الامر الواقع الذى هياه برشتولد . وقد كان هذا الامر الواقع نتيجة جهالتهم إذ أطلقا يده فى العمل فى ٥ يوليه . ولو أنهما استنكرا عمل النمسا فى اللحظة الأخيرة لكان هذا أحكم بالتأكيد من حيث تطور الحوادث لكنه كان يكون معناه أن تضعف المحالفة الثلاثية كثيراً خيال الوفاق الثلاثى الذى كان يتوثق على الأيام ويقوى ، وأن يعجل بانحلال النمسا فى الداخل ما يجده الرعايا السلافيون الدائبو الحركة من تشجيع ، ثم لكانت هية النمسا المتلاشية فى البلقان قد زالت تماماً ولسادت روسيا البلقان بسكانها المتكاثرين وأطاعها المتزايدة وعجلت باليوم الذى تسيطر فيه على الآستانة والمضايق .

وقد استخلص ييتمان وباجو أنه كلما أيدوا النمسا بهمة كلما كان نجاحهم فى حصر النزاع ومنع روسيا والدول الأخرى من التدخل أضمن . لذلك لما أبلغت النمسا الدول الأوربية فى صباح ٢٤ يوليه نص المذكرة الموجهة الى صربيا فى الليلة السابقة تبعها ألمانيا فى الحال بتصريحات أيدت فيها النمسا فى

التهم التي وجهتها الى صربيا ونوهت بأهمية حصر النزاع . وأدلى ياجو بالتأكيدات التي أوردناها آنفا عن أن ألمانيا لم تكن لها سابقة معرفة بمحتويات البلاغ النهائي . بيد أن وزارة الخارجية الألمانية بادعائها أنها تجهل كل الجمل إجراء النمسا وموافقها في الوقت نفسه على هذا الإجراء عندما اتخذ ، وضعت نفسها في مركز مصطنع متناقض لم يكن من غير الطبيعي معه أن تشبه دول الوفاق في أنها سيئة النية . فقد اشتبهت هذه الدول في أن السلطات الألمانية مسئولة أكثر عما هي عن النمسا ، وأنها تدبر خططا أبعث على الأسف مما كانت في الواقع . ولم تكن هذه الريب غير طبيعية في تلك الظروف ؛ ومع أنها كانت بعيدة عن الحقيقة فقد أذيعت بهمة وخاصة بواسطة ممثلي فرنسا ، وساعدت كثيرا على أن تجرى الحوادث فيما بعد مجرى مشثوما . ذلك أنه لما أدركت ألمانيا مؤخرا أنه قد لا يكون في الأماكن حصر الحرب بين النمسا والمجر بعد كل هذا وبذلت مجهودا صادقا في ضبط النمسا وتجنب حرب أوربية عامة ، لم تلق أقوالها تصديقا كثيرا من جراء هذه الشبه التي أثارها تأكيد ياجو أن ألمانيا كانت تجهل البلاغ النهائي . وإذا تززع الاعتقاد بحسن النية مرة أصبح من الصعب تثبيته . وقد كان من الخطورة بمكان ارتكابها ، الى الغلطة التي ارتكبتها بأطلاق يد برشتولد في ٥ يولييه ، غلطة ثانية هي قولها غير الصدق فيما يتعلق بسابق علمها بالبلاغ النهائي .

البلاغ النهائي

فيما يلي نص المذكرة التي وجهتها النمسا الى صربيا في ٢٣ يولييه في الساعة السادسة مساء وأبلغت الدول عنها في صباح اليوم التالي .

« في ٣١ مارس ١٩٠٩ أبدى وزير صربيا المقوض في فينا بناء على تعليمات الحكومة الصربية التصريح الآتي للحكومة الإمبراطورية الملكية :

« تعترف صربيا بأن الأمر الواقع الخاص بالبوسنة لم يؤثر في حقوقها

وعلى ذلك ستوافق على القرارات التي يمكن أن تتخذها الدول طبقا للمادة ٢٥ من معاهدة برلين ، واحتراماً لنصيحة الدول العظمى تتعهد صربيا من الآن فصاعداً بالعدول عن موقف الاحتجاج والمعارضة الذي اتخذته حيال الضم منذ الخريف الفائت . كما تتعهد بتعديل اتجاه سياستها حيال النمسا والمجر وبأن تعيش في المستقبل مع هذه الدولة عيشة حسنة تقتضيها الجوار .

« وقد دل تاريخ السنوات الأخيرة وخاصة الحوادث الآلية التي وقعت في ٢٨ يونيه الماضي على وجود حركة ضارة غرضها انتزاع جزء من أراضي النمسا والمجر من المملكة . وهذه الحركة التي ولدت تحت أعين الحكومة الصربية قد تفاقمت حتى باتت ظاهرة على جانبي الحدود الصربية في صورة من أعمال الإرهاب والاعتداءات وجرائم القتل .

« فالحكومة الصربية الملكية بدلا من أن تقوم بتعهداتها الرسمية التي تضمنها تصريح ٣١ مارس ١٩٠٩ لم تعمل شيئا لقمع هذه الحركات . وسمحت بالأعمال الإجرامية التي وجهتها عدة جمعيات الى الملكية ، وتركت للصحف الحبل على الغارب في لهجتها ، وأغضت عن تمجيد المعتدين واشتراك الضباط والموظفين في حملة التهيبج المؤذية . ولقد سمحت بدعاية بشعة في المعارف العامة وبالجملة سمحت بكل المظاهر التي تدفع السكان الصربيين الى بغض المملكة واحتقار سنتها .

« فهذا التهاون الجدير باللام من جانب الحكومة الصربية الملكية لم ينقطع في اللحظة التي أثبتت فيها حوادث ٢٨ يونيه أخيرا عواقبها الوخيمة للعالم بأسره . وقد ثبت من شهادة مرتكبي جريمة ٢٨ يونيه واعترافاتهم أن اغتيالات سيرا جيفو قد دبرت في بلغراد وأن الأسلحة والمفرقات التي زود بها القتلة قد أعطاهم إياها ضباط وموظفون صربيون يشمون الى جمعية نارودنا أودبرانا ، وأخيرا أن مرور القتلة وأسلحتهم في البوسنة قد دبره ونفذه رؤساء مصلحة الحدود الصربية .

« وهذه النتائج الآتية الذكر التي توصل اليها التحقيق لا تسمح للحكومة النمساوية المجرية بعد الآن بالوقوف موقف من يضبط النفس انتظاراً لما يكون. وهو الموقف الذي وقفته عدة سنوات حيال الأعمال التي كانت تدبر في بلغراد وتذاع من هناك في أراضي المملكة. وهذه النتائج على النقيض من ذلك تحتم عليها وضع حد للدسائس التي تهدد على الدوام أمن المملكة .

« فلكي تصل الحكومة الامبراطورية الملكية الى هذه الغاية ترى نفسها مضطرة الى أن تطلب من الحكومة الصربية الملكية تأكيداً رسمياً بأنها تستنكر هذه الدعاية الخطرة ضد المملكة ، وبعبارة أخرى ، كافة الميول والنزعات التي ترمى في النهاية الى فصل أراض من المملكة تابعة لها ، وتتعهد بأن تقمع بكل الوسائل هذه الدعاية المجرمة المنطوية على الارهاب .

« ولكي يكتسب هذا التعهد صفة رسمية تنشر الحكومة الصربية الملكية على الصفحة الأولى من الجريدة الرسمية المؤرخة في ٢٦/١٣ يولييه التصريح الآتي :

« تستنكر حكومة صربيا الملكية الدعاية الموجهة ضد النمسا والمجر وبعبارة أخرى النزعة العامة التي ترمى الى غاية هي فصل أراض تابعة لمملكة النمسا والمجر . وتأسف من قلبها للعواقب الوخيمة المترتبة على هذه الاعمال المجرمة .، « تأسف الحكومة الملكية لاشتراك ضباط وموظفين صربيين في الدعاية الآتية الذكر واساءتهم بذلك الى علاقات الجوار الحسنة التي تعهدت بها الحكومة الملكية بتصريحها المؤرخ في ٣١ مارس سنة ١٩٠٩ ،

« الحكومة الملكية التي تستهجن وترفض كل فكرة للتدخل أو الشروع في التدخل في مصائر سكان أية جهة من جهات النمسا والمجر — ترى من واجبها أن تنذر رسمياً الضباط والموظفين وكافة أهالي المملكة بأنها من الآن فصاعداً ستتخذ أحزم الاجراءات ضد الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا مدانين بأعمال كهذه — وهي أعمال ستفرغ الحكومة قصاراها في كشفها وقمعها . »

« يذيع جلالة الملك في نفس الوقت منشوراً بهذا التصريح على الجيش
الملكي ويعلن المنشور في « النشرة الرسمية » المتعلقة بالجيش .
» تتعهد الحكومة المصرية الملكية عدا ذلك بما يلي .

١ - أن تعطل كل نشرة تحرض على كراهية مملكة النمسا والمجر
واحتقارها وتكون نزعتها العامة موجهة ضد سلامة أراضيها .

٢ - أن تحل في الحال الجمعية المسماة نارودنا أودبرانا وتصادر جميع
الوسائل التي تستخدمها في الدعاية وتسلك نفس هذا المسلك مع ما يشتغل
بالدعاية الموجهة ضد مملكة النمسا والمجر من الجمعيات الأخرى وفروعها .
وتتخذ الحكومة المصرية الملكية الاجراءات اللازمة لمنع الجمعيات المحلولة
من متابعة أعمالها تحت اسم آخر أو بصورة أخرى .

٣ - أن تسأصل دون ابطال من المعارف العامة في صربيا كل شيء
يعين أو يمكن أن يعين على ايجاد دعاية ضد النمسا والمجر وذلك سواء فيما
يتعلق بهيئة التدريس أو وسائل التعليم .

٤ - أن تبعد من الخدمة العسكرية ومن السلك الإداري على وجه العموم
جميع الضباط والموظفين المدانين بالدعاية ضد مملكة النمسا والمجر والذين تحتفظ
الحكومة النمساوية المجرية بحق تقديم اسمائهم وإبادة أعمالهم للحكومة الملكية .
٥ - أن تقبل في صربيا معاونة ممثلي الحكومة النمساوية المجرية على قمع
الحركة المؤذية الموجهة ضد سلامة أراضي المملكة .

٦ - أن تتخذ الاجراءات القضائية مع من لهم ضلع في الأراضى
الصربية في مؤامرة ٢٨ يونيه . وتشرك مندوبين من قبل الحكومة
النمساوية المجرية في التحقيق المتعلق بذلك .

٧ - أن تلقى القبض بلا إبطاء على المايجور فوجاتانكوستش وعلى المدعو
ميلان سيجانوفتش من موظفى الحكومة الصربية وهما اللذان أسفر تحقيق
سيرا جيفو عن اشتراكهما .

٨ — أن تمنع باجراءات فعالة تعاون السلطات المصرية على النقل المحظور للأسلحة والمفرقات عبر الحدود، وأن ترفق وتعاقب بشدة موظفي الحدود المدانين في شابات ولوزنيكا بأنهم ساعدوا مرتكبي جريمة سيرا جيفو بتسهيل مرورهم عبر الحدود.

٩ — أن تقدم الى الحكومة الامبراطورية الملكية ايضاحات عن تصريحات لا مبرر لها صدرت عن بعض كبار الموظفين المصريين في صربيا والخارج إذ لم يترددوا منذ وقعت جريمة ٢٨ يونيه وعلى الرغم من مراكزهم الرسمية في الاعراب عن عدائهم للحكومة النمسية المجرية في احاديث لهم.

١٠ -- أن تبلغ الحكومة الامبراطورية الملكية دون إبطاء تنفيذ الاجراءات التي تشتمل عليها البنود السابقة.

« وتنتظر الحكومة النمسية المجرية رد الحكومة الملكية في الساعة السادسة من مساء السبت ٢٥ يوليه على الأكثر. »

ولا يسع من ينظر الى هذه المطالب في ضوء ما أسلفناه في الفصول السابقة عن اغتيال سيرا جيفو وعن الظروف المؤدية اليه وعدم مبادرة صربيا الى اتخاذ اجراءات للاهتمام الى الشركاء والقبض عليهم واقتناع النمسا بأن كيانها في خطر — نقول إنه لا يسع من ينظر الى هذه المطالب في ضوء هذا كله أن يقول انها على رغم قسوتها المتناهية قد تجاوزت الحد من وجهة نظر النمسا. فلو أنه كان قد أريد بها فقط معاقبة أولئك الذين كانت لهم علاقة باغتيال سيرا جيفو والحصول على ضمانات لصيانة الأمن في المستقبل لكان ثمة ما يبررها. أما وهي قد صيغت وفي النية أن ترفض وأن يؤول رفضها الى حرب محلية مع صربيا فيجب أن يكون نصيبها الاستهجان من الوجهتين الأدبية والعملية والانحاء عليها كسبب رئيسي من أسباب الحرب العالمية. وألمانيا برضاها إياها وتصديقها عليها يجب أن تتحمل نصيبها من هذا الاستنكار.

الفصل السادس

الخطر الروسى

كان للأنباء الأولى التى وصلت عن اغتيال الغراندوق فرانتس فرديناند وقع أليم فى روسيا وفى كل مكان من العالم المتمددين على السواء ، بيد أن شعور الكراهية الذى كان يسود روسيا من ناحية النمسا والمجر والذى كان يزداد باطراد منذ كانت أزمتات البلقان ، سرعان ما غمر جميع آيات العطف على العاهل النمساوى المسن فى أخرى محنه الأليمة الكثيرة . فكان السفير الألمانى لا يسمع فى الصحف وفى المجتمع على السواء الا تعليقات غيرودية عن الغراندوق النمساوى القليل كقولهم إن روسيا بموته قد تخلصت من عدو لدود وفى أواسط يولييه كان سازونوف (وزير الخارجية الروسية) يقضى عدة أيام فى ضيعته بالريف على مقربة من جرودنو طلباً للراحة واستجماماً لقواه قبل زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس وزارتها ، وكانت قرية يقدر أن تضنيه واجباتها . وقد كانت غيبته هذه عن سان بطرسبورغ لاضير فيها ؛ لكنه لما رجع الى وزارة الخارجية الروسية فى ١٨ يولييه أخذ القلق يساوره ويشد على أعصابه موقف ولاية الأمور فى فينا — ذلك الموقف المنطوى على صمت لا يبشر بخير ، ثم تلك المجادلات الحامية التى كانت قائمة بين الصحف النمساوية والصربية والتهم التى كان كل فريق يكيلها للآخر . وكان السفير الايطالى قد أبلغ السكرتير البارون شيلنج ما كان يساوره من أن النمسا على وشك أن تلجأ مع صربيا الى اجراء لا يمكن إصلاحه . ومن ثم ردد سازونوف لسفيرى النمسا وألمانيا ما كان يراه من أنه من الظلم أن يؤخذ الشعب الصربى بأسره بجريرة فرد كما تفعل الصحف النمساوية . وقد قال

للسفير النمساوى « إن روسيا لن تقابل بعدم الاكثر اى سعى لاذلال صربيا ؛ والروسيا لن تسمح للنمسا بأن تستعمل مع صربيا لهجة التهديد أو أن تتخذ حيالها اجراءات عسكرية . وبالجملة إن سياسة روسيا هي سياسة سلمية لكنها ليست سلمية » . فأبان له السفير بعبارات تنطوى على محبة السلام أن النمسا لا تنوى أقل نية أن تزداد علاقاتها بصربيا حدة . فبدأ هذا البيان روع سازونوف كل التهدة حتى قال لشيلنج إنه لا حاجة الى الالتجاء الى التهديدات بعد إذ أكد له السفير حب حكومته للسلام . « فقد كان وديعاً كالحمل » .

زيارة بوانكاريه للروسيا

في يناير ١٩١٤ سأل الفرنسيون سازونوف متى يكون من المناسب للرئيس بوانكاريه أن يكرر زيارته الصيفية للروسيا وهي التي قام بها في أغسطس ١٩١٢ قبل نشوب الحرب البلقانية بأمد وجيز . فتم الاتفاق نهائياً على أن يصل الرئيس الى كرونشتات في الساعة الثانية بعد ظهر ٢٠ يوايه ويسافر في الساعة الحادية عشرة في مساء ٢٣ يوليه . فلما وقع الاغتيال في سيرا جيفوتيا تحت الوزارة الفرنسية في هل يكون من المرغوب فيه أن يبارح الرئيس فرنسا تم لم تلبث أن قررت أن الغاء ترتيبات مهمة سبق أن أعلنت مما يزعج الرأي العام على الحالة في أوروبا بخاصة والامبراطور (غليوم) قد تحاشى ذلك بالمضى في نزهته الشمالية . لكن جان جوريه مع ذلك ، وهو الاشتراكي والمؤرخ الفرنسي المحرب الذي كان يوجس شرا من سياسة ايزفولسكى وبوانكاريه ، رفض أن يجيز اعتمادات الرحلة معلنا أن من الخطر على فرنسا أن تزداد تورطا في مشاكل الشرق الأدنى المنطوية على المغامرات وفي تدابير معاهدة لا يعرف الجمهور الفرنسي لا نصها ولا عواقبها . بيد أن رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس وزارته أبحرا من دنكر ك على ظهر الطرادة فرنسا في ١٥ يوليه . وبعد خمسة أيام كان في استقبالها بعيداً عن

يترهوف كل من سازونوف وباليوج وايزفولسكى فالقيصر بعد ذلك .
لقد كان من بين أغراض بوانكاريه تلطيف الانقسام الذى كان قائماً بين
بين انجلترا والروسيا على فارس ليتسنى له الوصول الى تعاون أوثق بين حليفة
فرنسا وصديقتها فيمهد بذلك الطريق لتجديد المفاوضات لعقد اتفاق بحرى
بين انجلترا والروسيا . وكانت هذه المفاوضات قد قطعت من جراء الاشاعات
التي تسربت عنها وكراهية السير ادوارد غراى أن يمضى فى مفاوضات سبق
أن نفي وجودها علانية فى البرلمان . لكنه كان بالتأكيد من بين الموضوعات
الرئيسية التي تناولها بحثهم تقوية أواصر المحالفة الفرنسية الروسية ، والوفاق
الثلاثى ، وخاصة الاجراءات التي تتخذ حيال الدلائل التي كانت تتزايد عن
تبليت النمسا توجيه بلاغ نهائى جاف الى صربيا .

وفى كل الاحاديث التي دارت فى غضون الثلاثة الايام التالية كان بوانكاريه
كما ينتظر من شخصيته المؤثرة الوثابة ، هو الذى يقود زمام المناقشة « وينغم
الالات » وقد لاحظ باليوج من المبدأ ، والضيفان يغادران الطرادة فرنسا
فى زورق بخارى « أن القيصر والرئيس ، وكانا جالسين فى المؤخرة ، أخذوا
بأطراف حديث كان بوانكاريه هو الذى يديره حتى بات هو المتكلم وحده
أما القيصر فكان يوافق فقط » . وفى الوليمة الرسمية ، التي أولمت فى المساء فى
يترهوف أعرب القيصر وهو يرحب بضيفه عن أمله فى أن يستمر البلدان
يتمتعان بمزايا السلام الذى تضمنه كامل قوتها ، بزيادة الروابط التي تربطهما
إحكاماً على الدوام . فرد بوانكاريه رداً مسهباً رأى باليوج فيه قوة السلطة
ولهجتها ذات المغزى ، فذكر بأنه قد مضى على المحالفة الروسية خمس
وعشرون سنة ثم أضاف الى ذلك قوله :

« ان المحالفة القائمة على اشتراك المصالح المقدسة بما يحدو الحكومتين من
الرغبة فى السلام ، المؤيدة بالقوى المسلحة برأ وبحراً — تلك القوى التي
تعرف بعضها بعضاً وتقدر بعضها بعضاً ويعمل بعضها مع بعض كأخوة —

المعززة بالتجارب الطويلة والمتعمة بالصدقة القيمة ، هذه المحالفة التي بدأها القيصر العظيم اسكندر الثالث والمأسوف عليه الرئيس كارنو قد اثبتت على الدوام الى الآن نفعها وبرهنت على قوتها التي لا تنزعزع . فتأكدوا جلالكم أن فرنسا ستواصل في المستقبل ما أدته في الماضي من أعمال السلم والمدنية — تلك الأعمال التي لم تن الحكومتان ولا الشعبان عن القيام بها .

وفي صباح اليوم التالي ٢١ يولييه تحدث بوانكاريه والقيصر عن الحالة الأوربية العامة وخاصة عن المسألة الفارسية . فأكد له القيصر أنه لن يسمح بأن تحدث فارس انقساماً بين انجليزها والروسيا . وفي عصر ذاك اليوم توجه الضيفان الى سان بطرسبورغ لاستقبال الجالية الفرنسية والهيئة الدبلوماسية وما كان أشد دهشتها حينما لم يرافقهما القيصر . والراجح أن سبب ذلك يرجع الى الاعتصابات الشديدة التي نشبت هناك حيث كان العمال أكثر اهتماماً بشكاواهم منهم بممثلي الرأسمالية الفرنسية . وقد قدم باليلوج في الاستقبال الذي جرى في قصر الشتاء زملاءه أعضاء الهيئة السياسية الى رئيس الجمهورية الفرنسية فتلطف مع الجميع في الحديث فيما عدا السفير النمساوي ، وحدث بورتاليس عن أسلافه الفرنسيين لكنه لم يخاطبه بكلمة عن السياسة ، وأبدى لموتونو موافقته الفعلية على اشتراك اليابان مع الوفاق الثلاثي في العمل ، وكرر لبوكانان تأكيدات القيصر عن فارس ثم تناول بهذه المناسبة الكلام في الراجح عن اقتراح السير ادوارد غراي الأول الذي ارتأى فيه الالتجاء في حل المشكلات الأوربية التي قد تنشأ عن المسألة النمساوية الصربية الى « محادثات مباشرة » بين روسيا والنمسا ، فرفض هذا الاقتراح رفضاً باتاً وان كان باليلوج لم يذكر لا هو ولا بوانكاريه شيئاً عن ذلك في مذكراتهما . ولما جاء دور تساباري السفير النمساوي اتهم بوانكاريه الفرصة لجس نبضه فيما يتعلق بنيات برشتولد وتحذيره بلهجة تقرب أن تكون تهديداً من اعتبار صربيا مسئولة :

« لقد سأل الرئيس تسابارى بعد أن عزاه يوضع كلمات عن مقتل
الغرانديوك فرانتس فرديناند فقال :
« أعندك أبناء عن صربيا ؟ » .

« فأجابه تسابارى فى برود « إن التحقيق القضائى يتقدم » .
« فعقب بوانكاريه على ذلك بقوله :

« ان نتائج هذا التحقيق تثير قلقى يا حضرة السفير . فأنى لأذكر تحقيقين
سابقين لم يحسنا علاقاتكم بصربيا فهل تذكر قضية فريد يونج وقضية
بروشاسكا ؟ » .

« فأجابه تسابارى فى جفاء :

« إتنا يا حضرة الرئيس لا نطبق من أية حكومة أجنبية أن تسمح
بأن تدبر فى أرضها جرائم القتل لمناهضة سيادتنا .

« فحاول بوانكاريه أن يريه فى لهجة هى غاية فى المسألة أنه يجدر بجميع
الحكومات أن تسلك سبيل الحكمة فى مثل الحالة النفسية التى تملك أوروبا
فى الوقت الحاضر . قال « إن قليلا من حسن الإرادة خلى أن يسهل تسوية
المسألة الصربية . ومن السهل كذلك أن تستفحل . فلصربيا فى الشعب
الروسي أصدقاء حميمون . وللروسيا حليفة هى فرنسا . فما أكثر ما يخشى
هنا من ارتباكات » . هذا الوصف من باليلوج لمحادثة بوانكاريه مع السفير
النموى قد أيدته فى جوهره تسابارى نفسه الذى ختم تقريره الطويل عنها
بهذه الملاحظة الأريية :

هذا المسلك من الرئيس ، الخلو من الكياسة والصادر عن رئيس دولة
أجنبية يقوم هنا بزيارة — المسلك المنطوى على التهديد والمختلف
اختلافاً بيناً عن موقف سازونوف المنطوى على التحفظ والحذر يثبت ما
توقعنا من انه لن يكون من بوانكاريه الا كل ما يثير الحالة .»

ولما انحنى تسابارى وانصرف أبدى بوانكاريه لباليوج أن الحديث لم

يترك في نفسه أثراً طيباً : « فالظاهر ان النمسا تبت ضربة مباغتة يتكتمها تسابارى . فيجب أن يثبت سازونوف ، وعلينا نحن أن تؤيده ، وهذه العبارة خير ما يفصح عن مغزى زيارة بوانكاريه للروسيا . فقد كان يعلم عن سازونوف مزاجه الزئبقى السريع التحول ووطنيته الروسية الحارة التى تنقلب مع ذلك الى رغبة سلمية صادقة ، وتهيبا بعينه جعله يحجم فى أوقات عصية عن تأييد الصريين الى درجة الحرب ، فأراد بوانكاريه أن يشد أزر سازونوف حيال النمسا ، وأراده على أن يحذرها من إرهاب صربيا بمطالب لا تقبل ، كما أراد أن يمنعه عند اللزوم من قبول أى تراض يمكن أن يعتبر هزيمة سياسية للوفاق الثلاثى على يد ألمانيا والنمسا .

وقد قوت زيارة بوانكاريه أيضاً من ساعد الحزب العسكرى الروسى كثيراً وكان يرأسه الغراندوق ويريد أن يتخذ سازونوف موقفاً أكثر نزوعاً الى العدوان ويحتهد خلال ذلك فى الضغط على القيصر المحب للسلام . وقد أجاد باليلوج فى وصف روح الحرب « وحالة الشمبانيا » — وهو ما أثاره وجود الزائرين الفرنسيين — فى تقريره عن المأدبة التى أقامها الغراندوق تكريماً لبوانكاريه فى مساء ٢٢ يولييه عقب استعراض عسكرى فى كراسنوسيلو فقد وصل باليلوج قبل الميعاد يضع دقائق فوجد أميرتى الجبل الأسود اناستاسيا وميلتسا زوجتى الغراندوق نيقولا والغراندوق بطرس على التعاقب تتمقان المائدة فأخذتا معا فى محادثته فى لهجة تدل على الانفعال :

« أتعلم انتا تم تاريخية ، أيام مباركة ! فغداً لن تعزف الجوقات فى الاستعراض سوى مارش اللورين والسومبر والموز . وقد تلقيت اليوم برقية من والدى يبلغنى فيها أن الحرب ستقع قبل أن ينتهى الشهر . فياله من بطل ، والدى ! انه جدير بالآليازه . انظر هنا الى هذا الصندوق — انها لا تفارقنى ففيها تراب اللورين ، أجل ، تراب اللورين الذى جمعته وراء الحدود عند ما كنت مع زوجى فى فرنسا من سنتين والآن انظر الى مائدة الشرف !

إنها مزدانة كلها بالعوسج ! وما كنت لأرضى بأن تزينها أزهار أخرى !
والآن ! انه عوسج من اللورين . وقد انتزعت بضعة عيدان من الأرض
المضمومة وأحضرتها معي وبذرت حبها في حديقتي . ميلتسا ، حدثني السفير
أيضاً وقولي له ما يعنى هذا اليوم لنا بينما أذهب وأستقبل القصر ،
« وفي أثناء تناول الطعام كنت جالساً فيما يلي الغراندوقة أناستاسيا
فاستأنفت هذه الأناشيد ممزوجة بالتنبئات فقالت « ان الحرب ستنتشب ولن
يبقى شيء من النمسا قائماً . سنسترد الألزاس واللورين وستتلاقى جيوشنا في
برلين . وسنقضى على ألمانيا . »

« ثم قالت فجأة — « يجب أن أضبط نفسي فإن القصر ينظر الى . »
وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة نفسها أى في الساعة الرابعة صباحاً بعث
سازونوف الى القائم بالأعمال الروسى فى فينا بالبرقية المندرة التى قال لشلنج
قبل زيارة بوانكاريه أنها لا لزوم لها وهى :
« أرجو أن تبين بصورة ودية لكن فى حزم ، العواقب الخطرة التى تترتب
على أى عمل تقوم به النمسا ويكون ماساً بكرامة صربيا . وقد كلف السفير ان
الفرنسى والانجليزى بأن يدعوا الى الاعتدال . »

وقد صادق بوانكاريه على هذا تمام المصادقة وأرسلت التعليمات التى
تتفق مع ذلك الى السفير الفرنسى فى فينا . بيد أن وزارة الخارجية البريطانية
أدركت الخطر الذى ينطوى عليه تهديد مقنع كهذا ، فقد لاحظ السير أيركرو
« أن مثل هذا التبليغ لفينا خلى أن يحدث تهيجا شديدا دون أى نفع يرجى . »
وكان السير ارثر نيكولسن يخشى « أن لا تنطوى هذه الحركة على الفطنة ،
وقرر السير ادوارد غراى أن يرجى . أى اجراء الى اليوم التالى . »

ان هذه الحركة التى حاولت بها فرنسا والروسيا صرف النمسا عن مطالبة
صربيا بتيء لم تفد مع ذلك شيئا ، لأن القائم بالأعمال الروسى فى فينا لم يتلق
تعليماته إلا فى الساعة الثالثة بعد ظهر ٢٣ يولييه . وقد ذهب من فوره الى وزارة

الخارجية لكنه أبلغ أن برشتولد مشغول جداً ولا يستطيع مقابلته الا في صباح اليوم التالي . وفي تلك الاثناء قدم البلاغ النهائي في بلغراد في الساعة السادسة من مساء ٢٣ يولييه . وحتى لو كانت هذه التعليمات وصلت قبل ذلك لما منعت برشتولد بالتأكيد من تنفيذ ما أراد بخاصة لموقف انجلترا وتحايشها القيام بشيء ولتصميم الوزارة النمسية الثابت .

لقد حققت زيارة بوانكاريه كما أبلغ سazonوف وباليوج السفير الانجليزى في صباح اليوم التالي بصفة سرية ، النقاط الآتية :

١ — الاشتراك التام في الآراء في مختلف الوسائل التي تواجه الدول فيما يتعلق بالمحافظة على السلام العام والتوازن الدولي في أوروبا وخاصة في الشرق .

٢ — قرارا بالسعى لدى فينا للحيلولة دون مطالبة صربيا بايضاحات أو مطالب أخرى تعتبر بمثابة تدخل في شئونها الداخلية وتبرر أن تعتبرها هذه اعتداء على سيادتها واستقلالها .

٣ — تأكيداً رسمياً للواجبات التي تفرضها محالفة البلادين . وقد أفسدت النمسا ثانية هذه النقاط كما رأينا بمبادرتها الى العمل في بلغراد قبل أن يستطيع السفيران الروسى والفرنسى تنفيذ تعليماتهما . أما النقطتان الأولى والثالثة فتفسرهما الحوادث التي تلت . فقد استخدمهما السفير الفرنسى في سان بطرسبورغ بمثابة « تحويل على يياض » وعدت به فرنسا بتأييد روسيا تأييداً تاماً في كل ما يمكن أن تتخذه لمنع النمسا من تنفيذ خططها التي قرر برشتولد تنفيذها ، والتي لم تكن معروفة بعد لبقية أوروبا . وهذا ظاهر من التأكيدات التي لم ين باليلوج عن إعطائها لسazonوف عند ما أقدم الأخير على اتخاذ اجراءات عسكرية سرية في روسيا تمهيداً للتعبئة والحرب أوربية عامة .

خطة سازونوف الخاصة « بالتعبئة الجزئية »

في ٢٤ يولييه

في صباح يوم الجمعة ٢٤ يولييه أحاط سفراء النمسا في كل الجهات حكومات تلك البلاد بالبلاغ النهائي الذي كان قد قدم في بلغراد في مساء اليوم السابق . فكان لمطالبه الصارمة ولهفته العنيدة وقع أليم في كل مكان ما عدا برلين وهجست بالخواطر من أجله شر الهواجس .

وقد وصفه السيرادوارد غراي بأنه « أهول وثيقة رأى أن دولة وجهتها الى دولة أخرى مستقلة » . لكنه لم يعن بالبحث في ماهية الخلاف بين النمسا وصرية لأن الأمر لم يكن من شأن إنجلترا . فهو ان أهتم بالموضوع فأنما يهتم به من وجهة السلام الأوربي ولذا سيتنظر حتى يسمع آراء الدول الأخرى . وبعد أن حادث السفيرين الفرنسي والألماني أخذ يرتئى طائفة من الاقتراحات للمحافظة على سلام أوروبا سنعرض لها فيما بعد .

وفي باريس ارتبك يانفني - مارتان وزير الحقانية الذي كان وزيرا للخارجية بالنيابة في غيبة بوانكاريه وفيفياني ارتباكا لا مزيد عليه . فلم يعرف ما يفعل سوى إبلاغ الرئيس والوزير الغائبين ما جد من تطور وتقديم بعض النصيح الى صرية مقرونا بالحنذر . لكنه سرعان ما تلقى باللاسلكي تعليمات من الطرادة فرنسا حيث كان بوانكاريه وفيفياني قد علما بجوهر البلاغ النهائي من برقية لاسلكية تلقياها من روسيا . فقد أرسل فيفياني على الأثر رسائل لاسلكية الى سان بطرسبورغ ولندن وباريس « بأن من رأيه (١) أن تقدم صرية في الحال كل الترضية التي تتناسب مع شرفها واستقلالها (٢) أن تطلب مد مهلة الأربع والعشرين الساعة [هكذا] التي تطلب النمسا الرد في خلالها (٣) أن تؤيد إنجلترا وروسيا وفرنسا هذا الطلب .

(٤) أن تنظر دول الوفاق الثلاثي في هل من الممكن أن يستبدل تحقيق دولي بالتحقيق النمسي . .

أما في سان بطرسبورغ فقد أحدث البلاغ النهائي أعظم انفعال وانزعاج . فلم يأو الوزراء الروسيون وسفيرا الوفاق الثلاثي الى فراشهم الا بعد منتصف الليل بزمان طويل وبعد أن كانت الطرادة فرنسا قد ابتعدت تمخر عباب البحر الى خليج فنلندة وتحمل بوانكاريه تحت نجوم السماء . وقد بلغ من هؤلاء التعب والمجهود الفكري في خلال الأسبوعين التاليين اللذين واصلوا فيهما الليل بالنهار فلم تكذ تغمض لهم عين — نقول بلغ منهم التعب والمجهود الفكري في تلك الأيام مبلغاً لا يقاس به ما أضناهم من زيارة بوانكاريه .

وقد وصل سازونوف في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة الى وزارة الخارجية الروسية قادماً من تسارسكوسيلو فكان أول ما حيا البارون شيلنج به هو « انها للحرب الأوربية ! » ثم أبلغ القيصر الخبر تليفونيا فصاح هذا قائلاً : « ان هذا لمقلق » وأصدر أوامره بأن يحاط بكل ما يجد .

ووصل تساباري بعد بضع دقائق ليتلنص البلاغ النهائي ويوضح مسلك النمسا ويبرره فقابلته سازونوف — وكان لم يجد بعد متسعاً من الوقت لمشاورة غيره من الوزراء الروسيين وليعلم مبلغ استعداد إنجلترا لمظاهرتة — بقوله انه يعلم ما هو آت به لكنه لا يستطيع أن يبين الموقف الذي ستخذه روسيا . وتلا تساباري البلاغ النهائي بعد ذلك بصوت عال لكن سازونوف كان يقاطعه كثيراً بأسئلته واعتراضاته . وعند ما جاء ذكر الملف الذي كان يراء به عرض جميع الأدلة التي تسوقها النمسا ضد صربيا على الدول ، سأله سازونوف لماذا تضايق النمسا نفسها به بعد أن قدمت البلاغ النهائي ودلت به على أنها تريد الحرب لا التحقيق النزيه . ثم قال انه ليس بحال ما تواقا الى معرفة ما بالملف بعد الذي وصلت اليه الأمور بالبلاغ النهائي « فالحقيقة هي انكم تريدون الحرب وقد حرقتم سفنكم » . فلما احتج تساباري بأن النمسا

محب السلام وانها انما تريد أن تؤمن أراضيها من حملة أجنبية تنطوى على التهييج والثورة وتدفع عن أسرتها المالكة القنابل ، أبدى سازونوف متهمًا «اتنا لنرى مبلغ حبكم للسلام وأتم تضرمون النار في أوروبا» . ودارت بينهما على أثر ذلك مناقشة استغرقت ساعة ونصف ساعة فكان سازونوف يدفع عن صربيا التهم التي وجهتها روسيا وينقد صيغة المطالب وصرامتها وخاصة قصر المهلة المعطاة . كان يقول الفينة بعد الفينة : « أنا أعرف خبيثة الأمر . إنكم تريدون أن تحاربوا صربيا . انى أرى ما يحدث فالصحف الألمانية تحرضكم . فأنتم تشعلون النار في أوروبا . انها لمسئولية عظيمة تلك التي تضطلعون بها وسترون ما يكون لهذا من وقع هنا وفي لندن وباريس وربما في غيرها فهم سيرون هذا اعتداء لا مبرر له » . وقد وقع من نفس تسابارى أن الوزير الروسى إنما كان مكتئباً أكثر مما كان منفعلًا ، وانه كان حريصاً على ألا يقول شيئاً يؤثر على موقف روسيا في المستقبل . وبالجملة فقد كان رأى تسابارى أن سازونوف « كان هادئاً نسياً » .

ومع ذلك فقد كان سازونوف أكثر إنفعالا وقلقاً بما ظنه تسابارى فقد كان مضطرب المزاج . أسخطته بصفة خاصة طرق برشتولد إذ كان من الخداع البين أن النمسا ظلت ثلاثة أسابيع تزعم أن المطالب ستكون معتدلة بحيث تستطيع صربيا قبولها بالتأكيد وبعد ذلك تواجه تلك المملكة الصغيرة بأنذار نهائى بدا منه أن النمسا تريد الحرب وانها لا بد مجتازة الحدود الصربية في القريب . هذا الى أن بوانكاريه ورئيس الوزارة الفرنسية كانا قد بارحا روسيا قبل ذلك بيضع ساعات فكان من المتعذر عليه أن يتصل بهما . وفوق ذلك فقد كان يرتاب في صحة كل ما قاله تسابارى ، واذن فيجب أن تستعد روسيا للحرب أو على الأقل للعبة دبلوماسية كبيرة ويجب أن تستوثق من تأييد إنجلترا ورومانيا . وعلى هذا كلف البارون شلنج — بينما كان يتحدث مع تسابارى — أن يحيط وزراء الحرية والبحرية والمالية علماً بمجرى الحوادث

وأن يدعوهم الى مجلس وزراء يتعقد في الساعة الثالثة بعد الظهر . وقد أخطر شلنج ايزفولسكى وشييكو بالعودة الى مقر وظيفتهما في باريس وفيينا . واستدعى نيراتوف والبرنس تروبتسكى وغيرهما من مستشارى وزارة الخارجية من أجازاتهم . كذلك أبان لوزير المالية الضرورة الماسة الى أن يسحب بأقرب فرصة ممكنة جميع ودائع الدولة الموجودة في ألمانيا .

وشاور سazonوف نفسه الجنرال إيانو شيكفتش رئيس هيئة أركان الحرب في الأمر ، واقترح عليه أن يتخذ الاستعدادات اللازمة لتعبئة الجيش الروسى تعبئة جزئية توجه ضد النمسا فقط ويكون إعلانها بمثابة انذار لألمانيا وخدعة فعالة لمنع النمسا من مهاجمة صربيا . وهذا على كل حال هو ما يستتج من القصة التالية التى رواها الجنرال دوبرورلسكى . ودوبرورلسكى كان رئيس قسم التعبئة في هيئة أركان الحرب في سنة ١٩١٤ ، فهو لذلك قادر على أن يعرف معرفة وثيقة جميع التفاصيل والاستعدادات الفنية الخاصة بأجراءات التعبئة الروسية . وقد دفعت به الثورة البلشفية الى المنفى فكتب حكايته سنة ١٩٢١ فى بلغراد دون أن تكون تحت يده مذكراته وأوراقه فخاته الذاكرة فى بضع مسائل خيانة لا تذكر . بيد أن صراحته البينة ومعلوماته الوثيقة ودقته العامة قد أثبتتها جميع الوثائق التى ظهرت من ذلك الحين والأحاديث التى اختص بها كاتب هذه السطور فى سنة ١٩٢٣ . قال دوبرورلسكى :

فى ١١ يوليه بين الساعة الحادية عشرة والظهر استدعانى الجنرال إيانو شيكفتش رئيس هيئة أركان الحرب الى التليفون وطلب الى أن ألحق به فى مكتبه فى الحال .

فلما دخلت عليه قال لى : « ان الحالة خطيرة جداً . فقد وجهت النمسا الى الحكومة الصربية بلاغاً نهائياً لا يمكن قبوله بتاتاً . وليس يسعنا أن لا نكثرث للأمر ولذا تقرر أن يعلن ذلك بصورة حاسمة . فعداً ينشر فى « روسكى انفاليد » انذار رسمى وجيز فخواه أن الروسيا بأسرها تتبع بانتباه شديد مجرى المفاوضات بين حكومة النمسا والمجر والحكومة

الصرية وانها لن تظل ساكنة اذا تهددت الاخطار كرامة الشعب الصربي وسلامته اذ هم اخواتنا الادنون . فهل أعددت كل شيء لمنشور تعبئة جيشنا ؟

فلما أجبته بالإيجاب قال لي : احضر لي بعد ساعة جميع الأوراق المتعلقة بأعداد جيوشنا للحرب والتي تنص عند اللزوم على إعلان التعبئة الجزئية ضد النمسا والمجر وحدها . ويجب أن لا تخلق هذه التعبئة لألمانيا مناسبة لأن تجد فيها عملاً عدائياً نحوها .

فأبنت له أن التعبئة الجزئية أمر غير ممكن . لكنه أمرني من جديد أن أكتب له بعد ساعة تقريراً مفصلاً يتفق وقراره الذي اتخذته . . . والاستحالة المطلقة لتعبئة الجيش تعبئة جزئية كانت ظاهرة . واني لا تساءل أية بواعث هي التي كانت ستكون رائد خططنا الحربية ؟ بواعث سياسية . (وهنا أوضح دوبرورلسكى انه بالنظر الى نظام التحالف كانت روسيا مقتنعة بأن حرباً تقع بين النمسا والروسيا لابد أن تجر ألمانيا وعلى ذلك لم توضع خطة تعبئة تتناول النمسا وحدها) . فما الغرض اذن من تعبئة جزئية ضد النمسا وحدها ؟ ان التهديد الذي لا يسنده دليل مقنع على قوة المرء قد يحمل على الشروع في ازدراء هذا التهديد . وتعبئة جزء من قوانا كان يصبح لها من العواقب نقيض ما كنا نتوقعه .

فالتعبئة الجزئية من الوجهة الاستراتيجية جهالة بلا ريب . وقد كانت النية ان تعبأ أربعة أقاليم عسكرية هي كيف وأودساوموسكو وقزان . وفي الأراضى التي تضم هذه الأقاليم العسكرية ثلاثة عشر فيلقاً لها ثكناتها الثابتة في وقت السلم .

ومضى دوبرورلسكى يوضح كل الاخطار والمصاعب الفنية التي تعترض التعبئة الجزئية بالصورة التي اقترحت . فقال انه قد يرى من الضروري بعد التعبئة أن تتقدم جنود هذه الأقاليم الأربعة الى الحدود . ولكي يؤثر الضرب في النمسا من الشرق والشمال يجب أن يزحف بعض هؤلاء الجنود في إقليم فارصوفيا . لكنه يراد أن لا يمس إقليم فارصوفيا حتى لا تنزعج ألمانيا . فاذا

لم تتخذ استعدادات في إقليم فارصوفيا بات الجزء المتاخم للنمسا منه مكشوفاً غير محمي . فضلاً عن انه إذا اقتضى الأمر أن تتلو التعبئة الجزئية تعبئة عامة ضربت الفوضى أطنابها لأن احتياطي إقليم فارصوفيا يسحب جزء منه من إقليم موسكو وقزان حيث تكون التعبئة الجزئية قد وقعت . وهذه الأخطار والصعوبات لم يدركها سازونوف في أول الأمر تمام الإدراك كما يظهر . كذلك كان حال أيانوشكيفتش الذي لم يكن قضى في منصبه سوى بضعة أشهر وقد شرع في تنفيذ خطة التعبئة الجزئية كما سرى والفنيون العسكريون أمثال دوبرورلسكي والجنرال دانيلوف في فرع تام من جراء ذلك .

لقد سارع سازونوف الى السفارة الفرنسية عقب حديثه مع تساباري وتديره مع أيانوشكيفتش فتناول طعام الغداء مع باليلوج وبوكانان . وقد دعى دياماندي وزير رومانيا المفوض أيضاً لانه من النفع العظيم لنا أن نجذب رومانيا الى صفنا بينما يكون اشتراك رومانيا مع الدول العظمى فيما يتخذنه من اجراءات ديبلوماسية كندهن بمثابة مجاملة ظاهرة لها ، وقد قال سازونوف « ان الاجراء الذي اتخذته النمسا معناه الحرب وأمل أن تعلن انجلترا تضامنها مع فرنسا والروسيا » . قال ان سلوك النمسا سلوك « معيب ومثير » وان بعض مطالبها لا يمكن بحال قبوله ، وانها ما كانت لتقدم على ما أقدمت عليه دون استشارة المانيا أولاً . وأخير بوكانان ان فرنسا والروسيا اتفقت آراؤهما أثناء زيارة بوانكاريه اتفاقاً تاماً . وزاد باليلوج على ذلك « ان فرنسا لن تقدم الى روسيا يد المعونة السياسية فقط بل هي اذا لزم الأمر ستؤدى جميع الواجبات المفروضة عليها بواسطة المحالفة » وأجاب بوكانان بأنه لا يستطيع ان يتكلم عن انجلترا ولكنه سيبلغ غراي تلغرافيا كل ما قالاه . وهو شخصياً لا يستطيع أن يعلل بالأمل في أن تعلن انجلترا أى تضامن يمكن أن يستلزم تأييد فرنسا والروسيا بالسلاح . فانجلترا ليست لها مصلحة مباشرة في صربيا والرأى العام في انجلترا لن يوافق أبداً على حرب من أجلها . فرد سازونوف

بأن المسألة الصربية ليست سوى جزء من المسألة الأوربية العامة وأن انجلترا لا تستطيع أن تنكر نفسها ، وأنه شخصياً يرى أن تعبد روسيا جيشها لكنه لن يتخذ قرار قبل أن يجتمع مجلس الوزراء .

فارتأى بوكانان عندئذ التأثير على النمسا لمدة المهلة ، بيد أن باليلوج أجاب بأن الوقت لا يسمح بهذا فالنمسا إما أنها تخدع وإما أنها قد عقدت النية على العمل في الحال . وفي كلتا الحالتين ليس سوى الموقف الثابت المتحد فرصة للتفادي من الحرب

ولما مضى سazonوف وباليلوج يضغطان على بوكانان للحصول على تصريح بالتضامن التام قال انه سيعت بالبرق تقريراً كاملاً الى السير ادوارد غراي . بل لقد ذهب الى جد الاعراب عن رأيه الشخصي في «أن غراي قد يكون مستعداً لأن يبين بقوة لقينا وبرلين الخطر الذي تتعرض له السلم في اوربا من اعتداء النمسا على صربيا» وأنه اذا امست الحرب عامة فقد يصبح من المتعذر على انجلترا ان تبقى على الحياد .» ولاحظ سazonوف انه اذا نشبت الحرب فستجر اليها انجلترا ان عاجلاً وان آجلاً وانها اذا لم تشترك مع فرنسا وروسيا في العمل جعلت الحرب اكثر احتمالاً ولم تلعب في ذلك «دوراً جميلاً ،

واستخلص بوكانان من أقوال باليلوج «انه كان يلوح تقريباً كما لو كانت فرنسا وروسيا مصممتين على المقاومة حتى لو أيننا الانضمام اليهما ،

ونخاب أمل سazonوف من عجزه عن حمل انجلترا على اعلان تضامنها مع الوفاق الثلاثي في الحال اعلانا أمل ان ينفع في التأثير على النمسا فتحاشى مقابلة السفير الألماني . ذلك انه لم يكن قد استعد بعد ليعين له السياسة التي تتخذها روسيا . هذا الى أنه كان يرغب في مشاورة زملائه الوزراء أولاً . ولذا فانه ما كاد يغادر السفارة الفرنسية في الساعة الثالثة بعد اجتماع الغداء حتى توجه الى اجتماع مجلس الوزراء حيث استقر الرأي على أن يسعى في حمل الدول العظمى على النظر في المسألة النمساوية الصربية فتصبح مسألة أوربية

بدل أن يعمل على ابقائها محلية . فاذا لم ينجح هذا المسعى عمل على أن يقيد أكبر جانب ممكن من الجيش النمساوى فى صربيا فى اللحظة التى تكون الروسية فيها قد لجأت فى النهاية الى سلاحها . ولذا أبرق سازونوف الى بلغراد بأنه اذا كان مركز صربيا فى الواقع من العجز بحيث لا يترك مجالا للشك فى نتيجة حرب تنشب بينها وبين الروسية فيخلق بصربيا أن لا تقاوم بل تتراجع وتترك النمسا تحتل أراضىها دون قتال وتناشد هى الدول أن تتدخل . كذلك أرسل الى الدول برقية يحضها على طلب مد أجل المهلة المعطاة فى البلاغ النهائى كى يستطيعوا النصح لصربيا بما يلزم اذا ما مكنت النمسا الدول من الاطلاع على نتائج تحقيق سيرا جيفو .

ولما كان فى حيز الامكان أن لا تثمر هذه المساعي فقد أقر مجلس الوزراء «مبدئياً» خطة «التعبئة الجزئية» التى ارتأها سازونوف ، أى تجنيد ١٠٠,٠٠٠ جندي هم مجموع الفيالق الثلاثة عشر الموجودة فى الأقاليم الاربعة الجنوبية الواقعة ، على مقربة من النمسا . وقد تقرر أن لا يعان ذلك الا اذا قرر سازونوف ضرورته . ولم يكن قرار مجلس الوزراء هذا نهائياً قبل أن يصدق عليه القيصر فى اليوم التالى .

وهكذا لم يستقبل سازونوف بورتاليس الا حوالى الساعة السابعة مساءً . فلما حاول هذا ، وفاقاً للتعليمات المعطاة له ولبقية السفراء الألمان ، أن يبرر عمل النمسا ويبحث على حصر النزاع بين النمسا وصربيا أبان له سازونوف ، « وكان شديد الانفعال لا يقف عند حد فى توجيه اللوم الى النمسا والمجر » ، فى صورة تدل على أعظم تصميم « ان من المستحيل على الروسية أن تسلم بأن يسوى النزاع النمساوى الصربى بين الطرفين ذى الشأن » ثم أبدى فى فطنة أن الوعود التى قطعتها صربيا وأشار اليها البلاغ النهائى لم تعط للنمسا وحدها بل للدول . لذلك كانت مسألة البت فى أن صربيا أنجزت هذه الوعود أو لم تنجزها مسألة أوربية . فعلى أوروبا أن تطلع على الملف وترى هل تقوم

التهم الموجهة من النمسا على أساس صحيح . هذا فضلاً عن أن النمسا لا يصح أن تكون مدعية وحكما في وقت واحد .

فأجابه بورتاليس بأنه ليس عملياً أن تعرض المسألة على الدول الست للفصل فيها لأن الموقف السياسى العام الذى تتخذه الدول وحلفاؤها يصبح العامل الفاصل فى حكمهم على هذه المسألة . وما الفائدة العملية من اتخاذ « اجراءات قضائية » اذا وقف أصدقاء النمسا السياسيون فى جانب ووقف خصومهم فى جانب آخر ؟ من الذى يفصل فى هذه الحالة ؟ ثم وعدم ذلك أن يبلغ برلين فكرة سازونوف لكنه أبدى « شكه فى أن تتوقع ألمانيا من حليفها أن تعرض نتائج تحقيقها على محكمة أوربية . فالنمسا كآية دولة عظمى سوف ترفض أن تعرض للتحكيم مسألة تتعرض فيها مصالحها الحيوية للخطر . » ونقل سازونوف الحديث الى الكلام عن أنه لا سبيل الى أخذ حكومة وأمة بأسرها ، بجريرة فرد ، وأن التهم التى توجهها النمسا ليست مقنعة بحال من الأحوال ؛ ثم جعل يكيل التهم للنمسا جزافاً حتى أبدى بورتاليس خشيته من أن يكون حقه على النمسا قد أعماه . فأجابه سازونوف « إن الحق قد ليس من طبيعتى . فانى لا أحقد على النمسا ولكن أحقرها » . واخيراً صاح قائلاً : « ان النمسا تتليس حجة لآلتها صرياً وفى هذه الحالة لا مناص للروسيا من محاربة النمسا » .

فى الوقت الذى غادر فيه بورتاليس مكتب سازونوف كان باليلوج ينتظر بدخول عليه ليعلم قرارات مجلس الوزراء ونتيجة حديثه مع بورتاليس . اليد أن مارواه هذا عن حديثه مع وزير الخارجية الروسية مما نشر لم يعط صورة مرضية من هذا الحديث .

التكهن بالحرب في كراسنوسيلو في ٢٥ يوليه

في يوم السبت ٢٥ يوليه كانت موجة الحر التي ظلت عالقة فوق سان بطرسبورغ في أواسط الصيف شهرا من الزمان قد بلغت منتهاها ، وكانت القطر مكتظة بأناس يحبون السلام قد استقلوها الى حيث يقضون عطلتهم الصيفية ، وفي سهل كراسنوسيلو الذي تلفحه الشمس قد اجتمع القيصرو ومجتمع بطرسبورغ الراقى بأسره لمشاهدة الاستعراض الصيفي للجنود الروس . ففي ساعة متأخرة قبل ظهر ذلك اليوم عقد الوزراء مجلساً هاماً تحت رئاسة القيصرو . وطال اجتماع الوزراء الى حد أن أجلت المناورات ساعة . ولم تكد هذه المناورات تجري حتى وقفت واستولى على الضباط جميعاً إنفعال عسكري غير عادي حتى لقد وقع من أنفس الملحقين العسكريين الأجانب أن مجلس الوزراء قد نظر في تعبئة الجيش الروسي وربما قد أمر بها في الأربعة الأقاليم الجنوبية المواجهة للنمسا على الأقل . وقد تحدث الجنرال أولربرج حاكم سان بطرسبورغ مع الجنرال الألماني شيليوس فزل لسانه أثناء الحديث بالكلام عن إجراءات تتعلق بالتعبئة . وكان البارون جرينفالد كبير نظار اسطبلات القيصرو جالسا في مأدبة ذلك المساء فيما يلي شيليوس فقال له : إن الحالة خطيرة جداً . وليس يجوز لي أن أخبرك بما تقرر ظهر اليوم فانك ستعلمه بنفسك قريباً . لكن صدقني إذا قلت لك ان الحالة تبدو خطيرة جداً ، وقرع كأسه بكأس شيليوس وشرب نخبه قائلاً : نأمل أن يرى أحدنا الآخر ثانية في خير من هذه الأوقات .

بعد أن جرت المناورات باختصار غير مألوف أعلن أنها ستفض في كراسنوسيلو وبقية أنحاء الإمبراطورية وأن الجنود ستعود في الحال الى معسكراتها الدائمة كما لو كانوا في حالة حرب .

وقد قوى فكرة التعبئة والحرب وأنها وشيكتان ما حدث في نفس المساء من ترقية طلبة الأكاديمية الحربية في سان بطرسبورغ الى ضباط نظاميين في الجيش بدل ترقيةهم في وقت آخر من أوقات الستة كما كانت العادة . وقد قال الملحق العسكرى الألمانى إنه في المأدبة التى تلت خطاب القيصر لهؤلاء المعينين ، أعرب الى بعض صغار الضباط عن سرورهم بأنه قد آن لهم أخيراً أن يبدأوا عملاً ضد النمسا . وغير هؤلاء فريق كان يطلق لغضبه العنان ضد الادعاء النمساوى . حتى البرنس بطرس أمير الجبل الأسود الذى كان موجوداً في ذلك الحين رأى أن يخبرنى بأن بلاده يسودها التحمس للحرب بشكل بين وأن التعبئة على قدم وساق . وكأنى بهم جميعاً لم يذكروا أننا (الألمان) حلفاء للنمسا ! .

وأعقب المأدبة حفلة تمثيلية ساهرة تحت رعاية الغراندوق يقولوا كانت مناسبة لمظاهرة عظيمة في مصلحة الحرب ، وقد أزعجت بطرسبورغ في نفس هذا المساء من هدوئها أصوات أبواق الحرس الإمبراطورى وهو يعود على جناح السرعة الى العاصمة وسط الضباب مع أنه كان مقدراً أن يقيم رجاله في كراسنو سيلو شهراً آخر . وكتب باليلوج يقول : « ذهبت في الساعة السابعة الى المحطة لأودع ايزفولسكى الذى كان عائداً الى مقر وظيفته على عجل فأنفيت على الأرصفة حركة نشيطة : قطراً مكتظة بالضباط والجنود كما لو كانت هنالك تعبئة فتبادلت وإياه آراءنا سراعاً وانتهى كلانا الى أن الحرب واقعة هذه المرة » وفي اليوم التالى بعثت البرنسيس بالى وكانت وتيقة الصلة بالغراندوقات برقية مستعجلة الى أمها وابنتها اللتين كانت في حمام كيسنجن بألمانيا تحتهما على السفر في الحال الى سويسره أو إيطاليا . وأبرق الجنرال دانيلوف الذى استدعى على عجل من رحلة في القوقاز إلى أسرته في بودوليا على مقربة من الحدود النمساوية يرجوها العودة حالاً الى سان بطرسبورغ

« الفترة السابقة للحرب في روسيا »

فما الذي حدث في يوم ٢٥ يولييه في ذلك المجلس الوزاري الهام (الذي سمي خطأ مجلس التاج) في حضرة القيصر حتى يقع في النفس كل هذا منبثا بوقوع الحرب ؟ إتنا لا نملك نصاً مضبوطاً لما قاله كل من كان حاضراً ، لكننا نعلم القرارات النهائية التي اتخذت . ولنا أن نفرض أن نزاعاً وقع بين سازونوف الذي كان يستمسك بخطة التعبئة الجزئية وزعماء العسكرية بقيادة الغراندوق نيقولا وكانوا يخشون أن تفضي الصعوبات الفنية والسياسية التي تعترض التعبئة الجزئية الى كارثة ...

وعلى كل فقد فاز سازونوف بخطة التعبئة الجزئية برغم ما دار في المجلس وما أدلى من حجج . بيد أنه قد تسوّل للعسكريين في اتخاذ طائفة من الاجراءات العسكرية التمهيدية التي أريد بها أن تسهل التعبئة العامة اذا أقنع القيصر أخيراً بالموافقة عليها . وقد كانت جملة القرارات التي اتخذها مجلس الوزراء خمسة أقيمت تفاصيل خامسها وأهمها طي الكتمان الشديد . أما البقية فسرعان ما أذيعت أو أبلغت الى باليلوج وبوكانان في الحال ، ثم الى بورتاليس بعد ذلك بقليل .

فماذا كانت هذه القرارات الخمسة ؟

١ — موافقة القيصر « مبدئياً ، على القرار الخاص بالتعبئة الجزئية في حينها ضد النمسا . وهو القرار الذي كان مجلس الوزراء قد أصدره في عصر اليوم السابق . وقد أبلغ الى الحكومة الفرنسية في باريس فاستطاعت أن تبلغه في يوم ٢٦ يولييه الى بوانكاريه أثناء عودته الى الوطن واليك القرار : « ان مجلس الوزراء المنعقد في ٢٥ الجاري في حضرة القيصر قد نظر في تعبئة ثلاثة عشر فيلقاً لتوجيهها عند اللزوم ضد النمسا . وهذه التعبئة لن يترتب عليها أثر الا اذا استخدمت النمسا الضغط المسلح ضد صربيا ، وإلا بعد أن

يأذن بذلك وزير الخارجية الذي يقع على عاتقه واجب تحديد اليوم . فقد تركت له الحرية في المضي في المفاوضات حتى ولو احتلت صربيا . والآراء في روسيا تجعل من الجلي أن من المستحيل على روسيا سياسياً وأدياً أن تسمح بسحق صربيا .»

فهذا القرار الذي اتخذ في مصلحة التعبئة الجزئية وقت اللزوم للتمويه على النمسا تؤكد شهادة ايانوشكيفتش أثناء محاكمة سخوملينوف في سنة ١٩١٧ قال : « لقد تقرر أولاً إعلان التعبئة الجزئية في الأقاليم الأربعة لتخويف النمسا والمجر ، وكان سازونوف يرحب بها لأنه كان يؤمل أن تجدى في صد النمسا وتوجيه المفاوضات الدبلوماسية وجهة تفضي الى تسوية قبلها صربيا وروسيا . وقد تحوشى بهذا القرار خطر التعبئة العامة التي كان الزعماء العسكريون يطلبونها والتي كانت خليقة ان تحمل ألمانيا على مقابلتها بالمثل فيترتب على ذلك حرب اوربية عامة . كذلك كان هذا مما يتيح الوقت للمفاوضات الدبلوماسية التي كان يمكن ان تتخذ في خلالها اجراءات واسعة النطاق على سبيل الاستعداد للحرب وفاقاً للأنحة سرية » عن الفترة الممهدة للحرب ، سنذكرها بعد .

فانه في سنة ١٩١٢ والحروب البلقانية على أشدها وهنالك ازمة سياسية مع النمسا تشبه في اعتبارات كثيرة أزمة ١٩١٤ تناولت لجنة روسية عسكرية سرية الأمر القاضي بأن اعلان التعبئة هو بمثابة اعلان الحرب فقالت وهو قول ذو مغزى :

« إن من المنفعة إتمام التعبئة دون البدء بالقتال حتى لا يقضى قضاءً مبرماً على أمل العدو في أنه لا يزال في استطاعته تجنب الحرب ويجب أن تستر اجراءاتنا الخاصة بذلك بستر من المفاوضات الدبلوماسية الماهرة كيما يخدع العدو بقدر الامكان في مخاوفه .»

بهذا كان إعلان التعبئة اذا لم ينجح في صد النمسا فلا أقل من أن

يستخدم في صورة ملائمة في تنفيذ اجراءات « الفترة المعدة للحرب »، وسترها . وهو ما تقرر أن يقع في كافة أنحاء الامبراطورية فيسهل بذلك التعبئة العامة ضد ألمانيا والنمسا على السواء تسهيلا عظيما اذا لزم الأمر . وقد ابتهج سازونوف بتديره ابتهاجاً لا مزيد عليه . كذلك كان من المفاجآت السارة له أن يجد أن النمسا لم تهاجم صربيا بمجرد انتهاء المهلة المحدودة وعقب انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين النمسا وصربيا بعد ظهر يوم السبت نفسه . وفي خلال الأيام الثلاثة التي تلت ودارت فيها « محادثات مباشرة » مع فينا لاح عليه انه أكثر تفاؤلا وميلا الى المسالمة ، حتى لاحظ عليه ذلك في الواقع عدة أشخاص . على أن السلطات العسكرية الروسية لم تشاطره هذا التفاؤل وقد كانت خاتمة ورود الأنباء بأعلان النمسا الحرب على صربيا في ٢٨ يولييه .

٢ — وثاني القرارات التي أصدرها مجلس الوزراء في ٢٥ يولييه كان دعوة الجنود الى معسكراتهم الدائمة . فانه في اللحظة التي وقعت فيها جريمة القتل في سيرا جيفو وفي خلال الأسابيع التي تلت كانت الجنود الروسية في كافة نواحي الامبراطورية موزعة على معسكرات للناورات والتمرينات الصيفية بعيدة في الغالب كثيراً عن معسكراتها النظامية الدائمة . ففي هذه المعسكرات الدائمة كان يحتفظ بكامل المعدات اللازمة للحرب ، والتي يجب أن تكون بأيدي الجنود قبل أن يتوجهوا الى الميدان . لذلك كان من الضروري أن يستدعوا بأسرع ما يمكن الى النقطة التي يزودوا منها بكامل معداتهم ويكونوا فيها على قدم الاستعداد للرحيل الى الجهة المعينة للاحتشاد على الحدود . ومن ثم فض معسكر كراسنو سيلو عند ختام المناورات التي جرت عصر يوم السبت كما أسلفنا البيان . ولم يأل إيانو شكيفتش جهداً في تنفيذ هذا القرار أيضاً فيما يتعلق ببقية جنود الامبراطورية .

على أن فض المناورات على هذا المنوال وعودة الجنود الى معسكراتهم

الدائمة لا يعادل التعبه بحال من الأحوال . لقد كان بالتأكيد خطوة ممهيدية لازمة للتعبه لكنه لم يكن بحال عملا ينطوى على التهديد أو العداء . ومع ذلك فان تنفيذ هذا الأمر الغير المنتظر الذى ابتداء فى يوم الأحد ٢٦ يوليه قد انطوى على تحرك أكثر من مليون جندى فى جميع نواحي الامبراطورية وأثار انفعالا عسكرياً بين الضباط الروسين فى كل مكان يشبه ذلك الانفعال الذى ساد كراسنوسيلو فى المساء السابق . فمن الطبيعى أن ترسل من جرائه تقارير مقلقة الى برلين وفينا من معتمديهما فى روسيا .

٣ — ترقية الطلبة الى ضباط .

٤ — اعلان حالة الحرب ، فى المدن المشتملة على حصون وفى مناطق الحدود المواجهة لألمانيا والنمسا .

وقد ترتب على هذا الأمر حادث يدل على الرغبة فى السلام وفى قيام العلاقات الحية بين روسيا وألمانيا ، وهى رغبة كانت تحدى القيصر وبورتاليس سفير ألمانيا بأخلاص . وذلك أن السفينة التجارية الألمانية « برنس ايتل فريدريك » كانت راسية فى الميناء القريب من قلعة كرونشتات فأثار وجودها رية قومندان القلعة لأنه كان بها جهاز لاسلكى وكان يلاحظ أنها ترسل برقيات لاسلكية . ولما كانت « حالة الحرب » معلنة فى منطقة القلعة وكان يمكن أن يستخدم الجهاز اللاسلكى فى التجسس فقد رفع قومندان القلعة هذا الأمر الى الغراندوق نيقولا الذى كان يتولى قيادة إقليم بطرسبورغ العسكرى كله وفى جملة كرونشتات . فأمر الغراندوق فى الحال باعتقال القبطان الألمانى وبمصادرة الجهاز اللاسلكى وحجز السفينة فى الميناء . وكانت ألمانيا وروسيا لا تزالان فى حالة سلم فأفضى هذا العمل التعسفى الى احتجاج بورتاليس لدى نيراتوف فى وزارة الخارجية احتجاجاً قوياً ، فبعث القيصر فى نفس اليوم كتاباً بخطه الى الغراندوق يأمره باطلاق سراح القبطان وعدم حجز السفينة وينهى باللائمة على الاجراءات التى اتخذت حيال سفينة تابعة

لدولة صديقة . وتكلم أيضاً سazonوف تليفونيا بصورة ودية واعتذر من عمل الغراندوق وعندئذ قال بورتاليس انه يعتبر الحادث منتهياً وانه لن يبلغ حكومة برلين شيئاً عنه .

٥ — الأوامر السرية الخاصة « بالفترة المعدة للحرب »

لم يكن العسكريون وهيئة أركان الحرب العامة يرون ما يراه سazonوف والقيصر بجدي في القرار الخاص بالتعبئة الجزئية المتخذ احتياطاً للطوارئ من انه اجراء عسكري مرض عند الضرورة . فكانت هيئة أركان الحرب الروسية للعامة تعتبر التعبئة الجزئية مشروعاً على أعظم جانب من الجهالة . ومع ذلك فقد بادروا — مادام مجلس الوزراء والقيصر قد قررا التعبئة — الى وضع خطط لها آملين سراً أن لا تنفذ هذه الخطط . بيد أنهم في نفس الوقت أقنعوا القيصر بالمصادقة على تنفيذ اجراءات واسعة النطاق على سبيل الاستعداد للتعبئة العامة وهي الاجراءات الخاصة بالفترة الممهدة للحرب باعتبار أن هذا أعظم أهمية وأسلم عاقبة . وكان مقرراً أن يؤخذ في تنفيذ تلك الاجراءات في ٢٦ يوليه فعكف أيانوشكيفتش على تنفيذها كما ظهر من برقيتين شفريتين سريتين مرقومتين ١٥٦٦ ، ١٥٧٥ بعثت بهما هيئة أركان الحرب العامة قبيل فجر يوم الأحد ٢٦ يوليه الى قواد الجنود في إقليم فارصوفيا العسكري .

فما هو المعنى الخفي « للفترة الممهدة للحرب » ؟

لقد كان من أعظم العوائق التي كانت الى الآن تعترض روسيا وتحول دون بدئها حروبها بداية ناجحة بطورها النسبي في التعبئة . فانه نظراً لمساحاتها الشاسعة ونظم سككها الحديدية غير الوافية ، والى قلة كفاية السلطات العسكرية المحلية لم تكن أداة التعبئة الروسية في الماضي قادرة على السير بمثل سرعة الاداة العسكرية الألمانية بله النمساوية . فكان استعمال هذا النقص على قدر الامكان غرضاً سعى اليه سوخوملينوف باصلاحاته . وقد جرى البحث في هذا الصدد في ربيع ١٩١٢ وحلت المسألة أخيراً في مؤتمر سري عقد في

فبراير ١٩١٣ تحت رئاسة الجنرال لوكومسكى وحضره مندوبون عن البحرية والادارات الداخلية والحرية . وقد وضع هذا المؤتمر مشروعا أقره القيصر في ٢ مارس ١٩١٣ وهو لأئحة سرية جداً تتعلق بالفترة المعدة للحرب . وتنص هذه اللائحة على أن :

« الفترة المعدة للحرب ، هي فترة التعقدات الدبلوماسية السابقة للبدء في القتال وهي التي يجب في خلالها ان تتخذ كل المصالح الاجراءات التحضيرية اللازمة لضمان الامن والنجاح أثناء تعبئة الجيش والاسطول والحصون وكذلك لزحف الجيش على الحدود المهددة . وهذه الاجراءات التحضيرية تقع تحت عنوانين معروفين بالقائمة الاولى والقائمة الثانية .

فالتنظيمات المفصلة الخاصة بالقائمة الاولى تنص على أن تجعل مخافر الحدود على قدم الاستعداد للتعبئة وان تسليح تسليحاً كاملاً لحرب الميدان وأن يعهد اليها في حراسة الحدود ، وجميع الأوامر الخاصة بالتعبئة والمتعلقة بالتقدم نحو منطقة الاحتشاد ، كذلك الأوامر المتعلقة بحماية هذا التقدم يجب أن تفحص بدقة . . . وكل من يشتبه في أنه يتجسس يقبض عليه . ويجب أن تتخذ الاجراءات لمنع تصدير الخيول والمواشي والحبوب ، وأن تسحب الى الداخل الأموال والسندات القيمة المودعة في بنوك قرية من الحدود ، وأن تعود السفن الحربية الى موانئها وتزود بالميرة والذخيرة الحربية الكاملة وتدل القائمة الثانية على مرحلة أخرى في الاجراءات التحضيرية فتص على أنه بناء على أمر وزير الحرية تكون دعوة الاحتياطى بحيث تتجاوز نفقاتها اعتمادات السنة الجارية المخصصة للتدريب والتعبئة التجريبية وأن تتضمن أيضاً فيما يتعلق بأقاليم الحدود شراء الخيول والعربات لقطر البضاعة ونقل الأمتعة الى مقرها ؛ وتنقل أسر الضباط مجاناً من الحدود الى حيث تكون في الداخل بئامن ، ولا يسمح لعربات العفش التي لها مقياس

السكك الحديدية الأوربية (وهو أربعة أقدام وثمانى بوصات ونصف بوصة بدل المقياس الروسى وهو ٥ أقدام) بمغادرة روسيا بعد الآن ، وأن توصل الموانى بوضع الألغام فيها وتحجز السفن التجارية الروسية التى يراد استخدامها فى الأغراض الحربية والبحرية فى الموانى .

وهناك بند مرن هام فى اللائحة ينص أيضاً على أن مجلس الوزراء يقرر بعد ذلك ما اذا كانت هنالك اجراءات أخرى غير التى ورد ذكرها فى القائمتين يخلق اتخاذها فى خلال « الفترة المعدة للحرب . »

وبذا فإنه يصبح فى مكنة وزير الحربية أن يأمر تحت ستار التعبئة التجريبية « والفترة المعدة للحرب » باجراءات عسكرية لا تتطلب تصديق القيصر أو إعلان التعبئة جهاراً ولكنها مع ذلك تعادل التعبئة فى أقاليم الحدود . ومثل هذه « التعبئة الجزئية » كان قد شرع فيه على مقربة من الحدود الألمانية فى أزمة ١٩١٢ وفى نطاق واسع فأثار احتجاجاً قوياً من جانب مولتكة رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية العامة . وقد بدا على سازونوف فى ذلك الجين انه يسلم بوجاهته .

وبما له مغزى كبير ما سلم به دوبرورلسكى من أن العسكريين وهيئة أركان الحرب كانوا فى ٢٥ يولييه على الأقل يعتبرون الحرب أمراً لا مفر منه ، وأن السلطات المحلية على الحدود ربما كانت فى حميتها وحالتها العصبية قد تجاوزت ما تسمح به اللائحة فى الواقع .

ومن ثم كان الخطر قائماً من أن تتخذ السلطات العسكرية الروسية من « الاجراءات التحضيرية » الواسعة النطاق ما يزعج ألمانيا ويجعلها تلجأ الى اجراءات تقابلها تفضى بدورها الى حرب أوربية عامة . وقد تلقت وزارة الخارجية الألمانية فى الواقع ، كما تدل « وثائق كاوتسكى » ، ثمانية وعشرين تقريراً عن الاستعدادات العسكرية الروسية ومنها ما لا يقل عن ستة عشر تقريراً تتعلق بالحدود الروسية المتاخمة لألمانيا ، وذلك بين ٢٦ يولييه صباحاً

و ٣٠ يولييه مساء . هذا فوق ما تلقت هيته أركان الحرب الألمانية العامة والبحرية . لكن ألمانيا برغم ذلك تجنبت أن تقابل هذه الاجراءات التحضيرية بمثلها الى أن تلقت في ٣١ يولييه نبأ رسمياً بأن روسيا قد اتخذت آخر اجراء عسكري بأعلانها تعبئة الجيش والاسطول بأسرهما تعبئة عامة ألصقت بها إعلانات . فهذه « الاجراءات التحضيرية » السرية التي تقررت في مجلس الوزراء في عصر يوم ٢٥ يولييه وأمر بها قبل فجر ٢٦ يولييه مكنت روسيا عند نشوب الحرب من مفاجئة العالم بالسرعة التي تدفقت بها جيوشها الى بروسيا الشرقية وغاليسيا .

المفاوضات الدبلوماسية والاستعدادات العسكرية

لقد وجدت السلطات العسكرية مع معارضتها الشديدة في « التعبئة الجزئية التي تتناول فقط الأقاليم الجنوبية الأربعة المواجهة للنمسا ان هذه التعبئة ضرب من التمويه ملائم جداً تمكن به محاولة خديعة الألمان عن « الاجراءات التحضيرية » السرية التي كان الجنرال إيانوشكيفتش قد أمر باتخاذها في كافة أراضي روسيا الأوروبية في ٢٦ يولييه في الساعة الثالثة والدقيقة ٢٦ والتي كانت تقع بينما سازونوف يقوم بمفاوضاته الدبلوماسية . وليس من الضروري أن يعنى هذا كما يعتقد الكثيرون من الألمان أن التعبئة الجزئية قد اتفق عليها قصداً ومن بادى الأمر لتكون حيلة لخدع الألمان أو أن مفاوضات سازونوف الدبلوماسية في سبيل الوصول الى حل سلمى كانت محض رياء لأن الحرب كما قال دوبرورلسكى كانت أمراً مقررأ . فانه يكاد لا يكون ثمة شك كما أبنا آنفاً في أن سازونوف والقيصر كانا جادين في اعتبار خطة التعبئة الجزئية وسيلة طيبة لصد النمسا دون استثارة ألمانيا . أجل كان هذا رأى سازونوف والقيصر وان لم يكن رأى هيته أركان الحرب العامة ؛ كما أن الرأى كان أن تنتظر روسيا ألمانيا حتى تشرع عليها الحرب أو تبدأها بالاعتداء فيما

لو أثارها التعبئة كما توصم أمام العالم بأنها المعتدية . كذلك لاشك في ان سازونوف بين ٢٦ و ٢٨ يولييه كان مخلصاً في مفاوضاته الدبلوماسية يحدوه أمل المتفائل بالوصول الى حل سلمى مرض للروسيا وان كانت السلطات العسكرية الروسية لم تشاطره هذا الرجاء . وقد كان بورتاليس كبوكانان كثير الخشية من خطر التعبئة الجزئية ضد النمسا ، وكان ثاقب الفكر الى درجة أنه أدرك أن التعبئة الجزئية وسيلة من أخطر الوسائل للضغط الدبلوماسي ، وانه اذا لجأت روسيا الى خدعة من هذا القبيل فانه يخشى أن يقوى نفوذ العسكريين في كل مكان فتخرج المسألة من أيدي المتفاوضين الدبلوماسيين بحجج فنية واستراتيجية محضة يعرف العسكريون جيداً كيف يدلون بها . وقد تلقى من ييتمان هولفيج البرقية الآتية :

« انه بعد أن أعلن الكونت برشتولد الى روسيا أن النمسا لا ترمى الى الحصول على شيء من أراضي صربيا ولكنها ترغب فقط في الوصول الى الهدوء والسكينة أصبحت المحافظة على السلام الأوربي تتوقف على روسيا وحدها . وانا لنثق بحب روسيا للسلام وتؤمن بالعلاقات الودية التقليدية التي تربطنا بها ثقة تجعلها لا تقدم على شيء يمكن أن يعرض سلم أوربا تعريضاً جدياً للخطر ، لذلك رأى بورتاليس من الحكمة وقد سمع إشاعات كثيرة عن الاجراءات التحضيرية التي اتخذتها روسيا للتعبئة أن ينسدر في مساء الأحد ٢٦ يولييه سازونوف انذاراً ودياً لكنه حازم ، « فيما يتعلق بالنبا المستفيض بين الملحقين العسكريين الأجانب بما يحمل على اقراض ان أوامر بالتعبئة قد صدرت الى عدة فيالق روسية على الحدود الغربية ، إذ « لفت نظره الى الخطر العظيم الذي يترتب على مثل هذه الاجراءات التي يمكن بسهولة أن تؤدي الى اجراءات مقابلة » . فرد سازونوف « بأنه يستطيع أن يؤكد أنه لم يصدر بالتعبئة أمر من هذا القبيل وأنه على النقيض من ذلك قد تقرر في مجلس الوزراء أن يرجأ كل أمر من هذا النوع إلى أن تتخذ النمسا والمجر موقفاً

عدائياً ضد روسيا . وقد سلم المسيو سازونوف بأنه قد اتخذت اجراءات عسكرية معينة كي لا يؤخذ على غرة » .

وقد شعر سازونوف أنه نزع الى الغموض في تأكيده بأن أمر التعبئة قد أرجىء الى أن تتخذ النمسا والمجر موقفاً عدائياً ضد روسيا ، فقرر أنه من الخير أن يكلف من يدلي ببيان أوضح فخاطب وزير الحرية تليفونياً ورجاه أن يوضح للحق العسكري الألماني ، باعتبار كونه عسكرياً يخاطب عسكرياً مثله ، أنه ليس في النية سوى اجراءات تمهيدية لتعبئة جزئية يمكن أن تقتضيها الظروف ضد النمسا . وعليه دعى ايجلنج لمقابلة سوخوملينوف في ساعة متأخرة من مساء الأحد . وروى ايجلنج ما دار مستخلصاً منه بدهائه ما يلي قال :

لقد طلب سازونوف الى وزير الحرية أن ينورني عن الحالة العسكرية فأقسم لي هذا بشرفه أنه لم يصدر بعد أمر ما بالتعبئة كائناً ما كان نوعه . وكل ما اتخذ في الوقت الحاضر هو اجراءات تمهيدية ، فلم يجمع حسان ولم يستدع من الاحتياطي جندي واحد فاذا اجتازت النمسا الحدود الصربية فإن التعبئة تقع في الأقاليم العسكرية التي تكون مواجهة للنمسا مثل كييف واودسا وموسكو وقزان . أما الجبهة الألمانية وفيها فارصوفيا وفلنا وسان بطرسبورغ فلن يقع فيها شيء بحال من الأحوال فأن العيش بسلام مع ألمانيا هو ما يرغب فيه رغبة جديده .

ولما استفسرت عن الغرض من التعبئة ضد النمسا هز كتفيه ... وقد وقع في نفسي أن ثمة اضطراباً عصياً وقلقاً شديداً . وفي ظني أن الرغبة في السلام ، حقيقية وأن البيانات العسكرية صحيحة الى هذا الحد ، وأن التعبئة الكاملة لم يصدر بها أمر في الراجح . لكن الاجراءات التحضيرية واسعة النطاق . فهم يسعون كما يبدو لكسب الوقت لمفاوضات جديدة وليمضوا في تسليحهم . والشعور العام هو : الأمل في ألمانيا وفي توسط جلالته (الأمبراطور) .

خلاصة الخطر الروسى

كان الخطر الروسى كائناً فى أر سازونوف كان يشعر ، وهذا منه طبعى ، بأنه ملزم بحماية صربيا التى شجعت روسيا آمالها وآمانها فى الماضى والتى لم يكن يسعها أن تهجرها دون أن تتأثر هيبتها لديها ولدى دول الوفاق . وفوق ذلك فقد كان مصمماً على منع النمسا من انتزاع شىء من أراضى صربيا وقلب الحالة الراهنة فى البلقان . وقد أدرك أن هذا ما تعنيه النمسا يلاغها النهائى وأن غزو هذه لصربيا سيبدأ بمجرد انتهاء مهلة الثمانى والأربعين الساعة . وقد شجعه السفير الفرنسى كثيراً على الثبات فى موقفه نحو حماية صربيا وصد النمسا . ولذا فإنه فى ١٤ يوليه ، حتى قبل أن يسمع أقوال السفير الألمانى فى تبرير عمل النمسا وتسويغ حصر الحرب ، قرر أن يقف الى جانب صربيا اذا لزم الأمر ولو جر هذا الى الحرب . واتخذ خطة التعبئة الجزئية . تلك الخطة التى كانت وسيلة خطيرة للضغط الدبلوماسي . ولا ريب أنه كان يرغب فى النفادى من الحرب ، فقد اقترح عدة مقترحات كأن يأمل أن تؤدي الى عدم وقوعها . فرجا بوكانان أن تعلن انجلترا تضامنها مع دول الوفاق وهو ما شعر بوكانان أنه لا يستطيعه وارتأى مد أجل المهلة واثاحة الفرصة للدول الأوروبية لأن تتناول المشكلة النمساوية الصربية وهو اقتراح راغت منه برلين ورفضته فينا .

وفى ٢٥ يوليه حتى قبل أن تقطع النمسا العلاقات السياسية بصربيا تساهل سازونوف والقيصر مع العسكريين الروسين باتخاذ اجراءات عسكرية مختلفة فى جملتها الاجراءات الخاصة بالفترة المعدة للحرب ، وهى التى جعلت الضباط الروسين يتوقعون الحرب وأوقعت فى النفس ما قاله دوبرورلسكى من أن الحرب باتت مقررة . ومن ذلك الحين جعل قادة

الجيش وهم الذين أدركوا أن التعبئة الجزئية جهالة لما تنطوى عليه من الصعوبات الفنية والسياسية ، يضغطون ضغطاً متواصلاً لتقرير التعبئة العامة . وكان الخطر كل الخطر أن يقبل سازونوف آراءهم ويضم صوته الى أصوات هيئة أركان الحرب العامة لاقناع القيصر بالمصادقة على الاجراء العسكرى الحتامى الذى لا شك فى أنه يجعل الحرب العامة أمراً محققاً . وحتى فى مساء السبت ٢٥ يوليه كان يلوح على سازونوف نفسه بالرغم من آماله فى أن لا يقع هذا ، انه يرى الحرب محتملة وأنه مستعد لأن يلجأ اليها اذا لم تثمر خدعة التعبئة الجزئية . وقد قابل باليلوج وبوكانان مرة أخرى فأخبرهم بخطة التعبئة الجزئية وتلقى من باليلوج تشجيعاً ايجابياً كما سئى الآن من فقرات هامة من رسالة بوكانان التى منع نشرها أو غيرت لما نشرت فى سنة ١٩١٤ :

« قال السفير الفرنسى إنه تلقى عدة برقيات من الوزير القائم بأعمال وزارة الخارجية لا تدل واحدة منها على أقل تردد وأنه يستطيع أن يعطى سعادته [سازونوف] تأكيداً رسمياً بأن فرنسا تعف بلا تحفظ الى جانب روسيا . [وبعد أن شكر سازونوف باليلوج التفت الى السفير الانجليزى وسأله « وحكومتمكم ؟ ، فأجابه بوكانان أن السير ادوارد غراى لم ييأس بعد من الحالة وأن أعظم شيء هو كسب الوقت . وكرر] أن انجلترا تستطيع أن تقوم بالتوسط لدى برلين وفيينا باعتبارها صديقة يمكن أن تتحول يوماً ما الى حليفة اذا لم يلتفت الى نصائحها بالاعتدال ؛ وهذا انفع من أن تعلن فى الحال أنها حليفة للروسيا . فقال سازونوف إن ألمانيا لسوء الحظ مقتنعة بأنها لا تستطيع أن تعتمد على حيادنا (انجلترا) . وهو لا يعتقد أن ألمانيا تريد الحرب حقيقة لكن موقفها قد يقرره موقفنا . فاذا نحن ثبتنا الى جانب فرنسا والروسيا فلن تكون حرب أما اذا نحن خذلناهما فستجرى فى رأيه أنهار من الدماء ثم نحن فى النهاية سنساق الى الحرب .

« وقد لاحظ السفير الفرنسى أن الحكومة الفرنسية تريد أن تعرف فى

الحال ما اذا كان أسطولنا مستعداً للقيام بالدور المخصص له في الاتفاقية الانجليزية الفرنسية البحرية ، وأبدى أنه لا يعتقد أن انجلترا لن تقف الى جانب صديقتها اللتين تعملان يداً واحدة في هذا الأمر .

د [وحض بركان سازونوف على التزام جانب الحكمة وحذره من أنه اذا عبات روسيا جيشها فلن تقنع ألمانيا بالتعبئة فقط أو تدع للروسيا الوقت الكافي للقيام بتعبئتها . بل الأرجح أنها تعلن الحرب في الحال . فكرر سازونوف] أنه لا يريد أن يعجل بالحرب لكنه ما لم تكبح ألمانيا جماح النمسا فلن يرى الحالة إلا موئسه ولن يسع روسيا أن تسمح للنمسا بسحق صربيا وان تصبح بذلك الدولة السائدة في البلقان . وهي ستواجه كل اخطار الحرب واثقة من تأييد فرنسا . ،

وفي ختام هذا الاجتماع بين ممثلي الوفاق الثلاثي هدد سازونوف انجلترا بنقطة تقع عند السير ادوارد غراي ومستشاريه على وتر حساس جداً . وقد روى بوكانان : د ان المركز بالنسبة لنا ينطوي على اعظم جانب من المخاطر وعلينا ان نختار بين تأييد روسيا ايجابياً او الاستغناء عن صداقتها . واذا نحن خذلناها الآن فلن نستطيع ان نأمل في المحافظة على التعاون الودي معها في آسيا ولهذا اهمية حيوية لنا . ،

وقد كانت بعض مخاوف سازونوف في نيات النمسا ترجع الى ان تساباري لم يعلن في الحال ما وعد تنزاه به وهو أن النمسا لا تسعى الى اي مغنم ارضي على حساب صربيا . ولم يهدأ روع سازونوف هدوءاً ظاهراً ويعاوده تفاؤله إلا بعد أ كد له بورتاليس وتساباري بعده أن النمسا لا تطمح في أرض ما وإلا بعد أن بوغت مباغته سارة بعدم قيام النمسا بهجوم على أثر انتهاء مهلة البلاغ النهائي . وعلى ذلك مضى من ٢٦ يوليه الى ٢٨ يفاوض مفاوضات ديبلوماسيكية تنطوي على المسالة بينما كانت السلطات العسكرية الروسية تستعد سراً استعدادات عسكرية واسعة النطاق تسهل عند اللزوم .

التعبئة العامة ، أو الجزئية ، على السواء . وقد أحدث مراجع عن هذه
الاستعدادات من الاشاعات انزعاجا في المانيا ، واستمرت هذه الحال الى
ان أعلنت النمسا الحرب على صربيا في ٢٨ يولييه فقتضى نبأ هذا الاعلان
دفعة واحدة على تفاؤل سازونوف ، ووجه الخطر الروسى وجهة جديدة
مشثومة . لكننا قبل أن نعالج ذلك يجب ان ننظر فى رد صربيا على البلاغ
النمساوى النهائى وفى عدة اقترحات مختلفة ارتأتها الدول لحل المسألة
حلا سلميا .

البفصل السابع

الرد الصربي

كان للأنباء التي وصلت إلى بلغراد بادىء الأمر عن اغتيال سيرا جيفو أكبر فزع بين موظفي الحكومة فقد ذهب المسيو باشتش رئيس الوزارة إلى فراشه ليخلو بنفسه في التفكير في هذه المشكلة . وقد أبدى لأول زائر زاره قوله : « إن هذا شنيع جداً . فإن معناه الحرب ، واستولى القلق الشديد على المسيو ليجوبا جوفانوفتش وزير المعارف فلم يشك لحظة في أن النمسا والمجر ستتذرع بهذا الحادث لمحاربة صربيا . ويقال إن هارتفيج وزير روسيا المفوض في بلغراد صاح قائلاً : يا لله ! لعله ليس صربياً » .

ولقد أدركت الحكومة الصربية في الحال أن الحكومة النمسية نظراً إلى كل ما روج من دعاية في الماضي ضد النمسا وإلى حقيقة واقعة هي أن المؤامرة أعدت في بلغراد - نقول أدركت الحكومة الصربية نظراً لذلك أن المنتظر أن تعتبر الحكومة النمسية حملة التهييج الصربية ، إن لم تكن الحكومة الصربية ، مسؤولة عن الحادث ، وأن تتذرع بذلك لإعلان الحرب . لهذا اجتمعت الحكومة الصربية أن تتخذ بقدر الامكان موقفاً لا غبار عليه . فألغت الاحتفالات التي كانت قائمة بمناسبة عيد فيدوف دان وأنحت في الصحيفة الرسمية انحاءاً قاسياً على الجريمة وأعربت عن التعازي الواجبة ، ثم أبدت استعدادها لأن تسلم إلى العدالة كل من يظهر أن له ضلعاً في الجريمة . لكنها مع ذلك لم تتخذ أيًا من الاجراءات الواجبة لاجراء تحقيق من ناحيتها عن أصول المؤامرة في بلغراد . فان الدكتور جرووتش السكرتير العام في وزارة الخارجية الصربية على النقيض من ذلك أبلغ القائم بالأعمال النمسي في أول يولييه انه « إلى الآن لم يعمل شيء ، وإن المسألة ليست من شأن الحكومة

الصرية ، ذلك أنها كانت تنتظر لترى مبلغ ما تستطيع النمسا اكتشافه وأى التهم توجه .

كذلك لم تتخذ الحكومة الصربية أى اجراء فعال لتلطيف الحملات العنيفة التى كانت الصحف فى بلغراد توجهها الى النمسا . وقد روى السفير البريطانى فى فينا ان تعليقات تلك الصحف على حادث الاغتيال اشتملت « عبارات تكاد أن تكون بمثابة تسويغ للجريمة الشنعاء وموافقة عليها » . ووقف المسير باشتش حيال هذا موقف العاجز عن كبح هذه المجادلات المثيرة لأنه يرى أن الدستور الصربى قد ضمن للصحافة الحرية المطلقة وحظر كل رقابة أو مصادرة للصحف . وليس شك فى أن حملات الصحف الصربية يرجع جانب منها الى حملات الصحف النموية المجرية التى كانت تشبهها مرارة وإهانة والتى أخذت بعد ذلك تعنى عناية زائدة بنشر مقتطفات من الصحف الصربية لتذاع فى اوربا وتحول رأى العام ضد حكومة بلغراد . وهكذا كانت الثلاثة الأسابيع التى تلت مقتل الغراندوق حافلة بحملة صحفية مرة قاسية قوامها المثالب تبادلها النمسا وصرىيا ، وتشير روح الحرب بين الجماهير فى كلا البلدين . وهى حملة كانت بمثابة الاستعداد النفسى للحرب .

وقد كانت دعاية الصحف النموية التى كانت أوسع انتشاراً ، أكثر توفيقاً على العموم من الدعاية الصربية فى بادىء الأمر وأبلغ فى التأثير على رأى العام الأوروبى وخاصة فى انجلترا . فقد أنحت التيمس اللندنية فى ١٦ يوليه « على اللهجة المستهتره المثيرة التى ينسب استعمالها إلى عدد كبير من الصحف الصربية قبل وقوع الجريمة التى أزعجت أوربا وبعدها ، ثم أذرت بأنه ينبغى على صرىيا أن تجرى من تلقاء نفسها تحقيقاً لديها هى ما يحملها على اقتراض أن النمسا ستطالبها به ثم ترفع إلى الدول تقريراً وافياً عن اجراءاته . وكتبت صحيفة الوستمنستر غازيت الناقله الكلمة تبرر رغبة النمسا فى تسوية علاقاتها مع صرىيا عقب جريمة يعتقد أن جذورها فى بلغراد وانها جزء من محاولة

متعمدة لاتزاع الأقاليم الصرية من المملكة الثائية . قالت « فالنسا لا ينتظر منها أن تبقى مكتوفة اليدين ، وانه ليخلص لصريا من يمحضها النصع ، لتدرك أن جارتها العظيمة محقة في قلقها فتعمل كل ما في وسعها على إزالته دون أن تنتظر ضغطاً في هذا السيل » . فهذا الموقف من جانب بعض الصحف الانجليزية ذات النفوذ قد شجع آمال النسا كثيراً في أن انجلترا ستظل ساكنة حيال حرب « محلية » ، تنشب بين النسا وصريا . بيد أن هذا الموقف أحدث من ناحية صريا قلقاً عظيماً واضطربت له أعصابها اضطراباً شديداً حتى كان سبباً لاحتجاج دبلوماسيتكى ولتعليقات كثيرة .

وقد أنزعج باشتش أخيراً انزعاجاً جدياً من موقف الصحف الألمانية والنسوية والانجليزية ومن صمت فينا الذي لم يكن يبشر بخير ، وربما أيضاً من الأنباء التي تسربت الى السلطات البريطانية في ١٦ يوليه بواسطة الكونت لوتزوف عن نيات برشتولد . وقد حولت هذه الاخبار الى المعتمد البريطاني في بلغراد ، ولا يبعد أن يكون لمح بها لوزير صريا المفوض في لندن فقد بعث هذا الى باشتش في ١٧ يوليه يقول : « إن السفارة النمسوية هنا تبذل مجهودات عظيمة لا كتساب الصحف الانجليزية ضدنا وحملها على تأييد الفكرة القائلة بأن النمسا يجب أن تعطى صريا درسا قاسياً . . . ويجب ان لا يوثق بأقوال الدوائر الرسمية النمسوية المجرية السلمية في الظاهر لان الطريق يمهّد لضغط دبلوماسيتكى على صريا قد يتطور الى اعتداء مسلح » .

وفي ١٨ يوليه لما أشار القائم بالأعمال البريطاني في بلغراد الى مقال التيمس وارتياها أن أحكم طريق تسلكه صريا هو أن تجرى بنفسها تحقيقاً عن المؤامرة في الأراضي الصرية أجابه الدكتور جرووتش الموظف بوزارة الخارجية الصرية بقوله إنه عندما ينتهى تحقيق سيراجيفو ستكون صريا مستعدة للرضوخ لاية مطالب تتفق والعرف الدولي ويكون من ورائها اجراء تحقيق آخر ، وقبل أن يقع هذا لن تستطيع عمل شيء . ثم حاول أن يخدع

القائم بالأعمال البريطاني فيما يتعلق بمعرفة الحكومة المصرية بالقتلة فقال إن الحكومة المصرية لا تعرف شيئاً عن برنسيب . وهو قول ظاهر البطلان بالنظر الى ما سلم به وزير المعارف المصرية وهو أنه كان يعرف برنسيب شخصياً وأنه امتحنه مرتين ، وأيضاً بالنظر الى ما ذكر آنفاً في الفصلين الخاصين بمؤامرة القتل والمسئولية عنها . ثم أضاف جرووتش الى ذلك قوله إنه اذا ساءت الأمور وأعلنت النمسا الحرب فلن تقف صربيا وحدها ، ولن تبقى الروسيةا هادئة اذا اعتدى على صربيا بلا مبرر ، وبلغاريا ستمنعها رومانيا عن الحركة وفي اليوم التالي بعث باشتش برقية مستفيضة الى وزراء صربيا المفوضين في الخارج يضرب فيها على هذه النعمة ويستنكر أعمال الصحف النمسية المسئولة — في قوله — عن إفراط الصحف المصرية . وقد كلف ممثليه السياسيين ان يقنعوا الحكومات المعتمدين لديها برعية صربيا ، في المحافظة على العلاقات الودية بالنمسا والمجر واستعدادها اذا طلب اليها ذلك « لأن تقدم للحاكمية في محاكمة المستقلة كل شريك في الجريمة يكون في صربيا ، اذا وجد فيها شركاء . » لكنه أضاف الى ذلك قوله « اننا لا نستطيع بحال من الأحوال الاذعان لمطالب يكون من شأنها أن لا تمتثل لها أمة تحترم استقلالها وتحافظ عليه . » وقد غادر باشتش بلغراد عقب ذلك بقليل ليقوم بحملة انتخابية اقتضاها حل مجلس السكوبشتينا . فهو لذلك كان غائبا عن العاصمة في اللحظة التي قدم فيها وزير النمسا المفوض البارون جيزل بلاغ النمسا النهائي بعد ظهر ٢٣ يولييه .

صوغ الرد الصربي

لقد غنى برشتولد بأن لا تروغ صربيا من تقديم ردها في الميعاد في خلال ٤٨ ساعة . فلا غياب باشتش ولا إمكان استقالة وزارته كان يسمح بأن يكون عذراً من التأخير لأن الوزارة المستقيلة تعتبر مسئولة عن موالاة

العمل الى أن يؤلف غيرها . ولكي يستوثق من أنه سيكون هنالك من يتلقى البلاغ النهائي حين يقدم وليستطاع استدعاء باشتش على جناح السرعة أشعر جيزل وزارة الخارجية المصرية في صباح يوم ٢٣ يولييه بأنه سيقدم تبليغاً هاماً بين الساعة الرابعة والخامسة مساءً . وفي الساعة الموعدة اجتمع الدكتور جرووتش والثلاثة وزراء الذين اتفق وجودهم في بلغراد بوزارة الخارجية يساورهم القلق . وكانوا قد بعثوا الى باشتش برسالة تليفونية ورتبوا له قطاراً خاصاً يعود به إلى العاصمة . لكن جيزل لم يحضر وأرسل سكرتيراً يقول انه سيحضر في الساعة السادسة وقد كان السبب في تأخيرهِ ورود تعليمات في الساعة الأخيرة من فينا . ذلك ان برشتولد أراد ، بعد أن تلقى معلومات جديدة من برلين عن تنقلات بوانكاريه ، أن يستوثق جيداً من أن رئيس الجمهورية الفرنسية سيكون في بحر البلطيق قبل أن يصل نبأ البلاغ النهائي إلى روسيا ، وعلى ذلك أجل جيزل تسليمه ساعة .

وأخيراً وصل جيزل في الساعة السادسة وسلم المذكرة ثم شفعها بقوله انه « إذا لم أعط جواباً مرضياً عن جميع النقاط الى الساعة السادسة من مساء يوم السبت بعد غد فساغادر بلغراد مع جميع موطني مفوضيتي » . فأخبر أن الاجابة على بلاغ هام كهذا في هذا الأمد الوجيز أمر صعب وخاصة في غيبة عديد من وزراء الوزارة . فأجاب بأن الأمر لا يستغرق بضع ساعات في بلد صغير كصربيا وفي عصر السكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات ، وانه سبق أن أبدى في صباح اليوم ان من المرغوب فيه عودة باشتش ، وخرج جيزل دون أن يدخل في مناقشة أخرى تاركاً وراءه الوزراء الفرعين يدرسون المذكرة التي كانت لا تزال على المنضدة ولم تكن قرئت بعد .

وأخذ الوزراء الصربيون يطلعون على الوثيقة المشؤمة فلما انجلي لهم مضمونها واستوعبوا أغراضها ازداد تأثرهم ووجعوا حتى لم يعن منهم أحد بأن يكون البادئ بالكلام . وأخيراً نهض لجوبا جوفانوفتش وقال : حسناً ،

انه ليس أمامنا الا أن نموت ونحن نقاتل ، . وغنى عن البيان أن أول ما عمل هو ابلاغ وزراء صربيا المفوضين في البلاد الأجنبية خبر ما فعل جيزل . وقد شفع هذا التبليغ ببيان أن المطالب بحيث لا يسع أية حكومة صربية أن تقبلها على علاقتها ، . كذلك أشعر ممثلو الدول بالامر في الحال ، وأرسل على الفور نداء خاص الى روسيا تنشد فيه صربيا المساعدة ، وشفع هذا النداء بمناشدة مؤثرة وجهها الأمير الوصى على عرش صربيا الى القيصر إذ يقول . « إتنا عاجزون عن الدفاع عن أنفسنا وتناشد جلالتم أن تبادروا الى مساعدتنا بأسرع ما يمكن . ان ارادة جلالتم الحسنة التي تقدرها قدرها والتي طالما أظهرتموها جلالتم نحونا تلهمنا اليقين بأن مناشدتنا سيستجيب لها مرة أخرى قلبكم السلافي النبل ، . كذلك تضرعت صربيا الى ملك ايطاليا بأن يستخدم نفوذه لحل حليفه النمساوى على مد أجل المهلة وتخفيف المطالب .

واستدعى في تلك الأثناء الوزراء الذين كانوا غائبين يشتركون في الحملة الانتخابية حيث طلبت اليهم العودة الى العاصمة على جناح السرعة . فوصل باشتش في بضع ساعات في الساعة الخامسة من صباح يوم الجمعة ٢٤ يولييه . وفي الساعة العاشرة عقدت الوزارة جلسة طويلة مظلمة دون أن تصل فيها الى قرار بالرد . واستأنف الوزراء الجلسة في المساء ثم في صباح السبت عالمن انه لا بد من الاجابة بأى شكل من الأشكال قبل الساعة السادسة مساء . وقد قابل باشتش وزيرى الجبل الأسود واليونان المفوضين فأكد له أولهما أن الجبل الأسود سيسير مع صربيا جنبا الى جنب . أما وزير اليونان فلم يكن متأكداً من الموقف الذى ستتخذه حكومته . وقد كان المسيو فينزيلوس رئيس الوزارة غائبا عن أثينا لكنه خاطب برلين تليفونيا من مونيخ في صباح اليوم التالى قائلا انه اذا انتهزت بلغاريا فرصة النزاع بين النمسا والمجر لمهاجمة صربيا فان اليونان ستعارض مثل هذا التدخل من جانب بلغاريا . وأهم من هذا بكثير ماتتخذه دول الوفاق الثلاثى من موقف .

وقد اتفق لسوء حظ صربيا أن الدول الثلاث العظمى لم يكن يمثلها في ذلك الحين في بلغراد وزراء مفوضون بالصورة المألوفة . فوزير روسيا المفوض هارتفيج ذلك السياسي النشيط والمؤيد القوي لصربيا سقط ميتا قبل ذاك بيضة أيام وهو يحادث جيزل ولم يكن خلفه قد وصل . وانجلترا لم يكن لها وزير مفوض في بلغراد حينذاك وان يكن المستر دى جراتز كان في طريقه الى هناك من لندن . ووزير فرنسا المفوض كان يعاني انحلالا عصبيا ولا يراه أحد وكان خلفه المسيو بوب قد وصل من الآستانة ولما يكد ، ولم يألف بعد منصبه الجديد . وهكذا كان القائمون بالأعمال في مفوضيات دول الوفاق عاجزين عن أن يفعلوا شيئا لصربيا سوى إبلاغ حكوماتهم بآ مطالب النمسا غير المقبولة وانتظار تعليمات تلك الحكومات . وهي تعليمات كانت تصل بطيئة وكانت في الواقع من البطء بحيث لم تأت في أوانها لكي تؤثر تأثيراً حاسماً في قرار صربيا .

وقد حدث سازونوف وزير صربيا المفوض في الساعة السابعة من مساء الجمعة ويقال إنه « نصح بالتزام منتهى الاعتدال في الرد الصربي » . لكن نصيحة كهذه لم ترد في رواية الوزير الصربي لهذا الحديث . فأن هذا الوزير على النقيض من ذلك قابل سفير ألمانيا عند خروجه من عند سازونوف وقال له : « إنه سيرى قريباً أن هذه ليست مسألة تتعلق بصربيا والنمسا وحدهما بل مسألة أوربية » . وبعد ذلك في نفس المساء أ برق سازونوف الى القائم بالأعمال الروسي في بلغراد يقول له إنه خير للصربيين اذا أحسوا أنهم لا حول لهم ولا قوة بأزاء غزوة تقوم بها النمسا أن لا يقاوموا بل يتراجعوا دون قتال ويطلبوا حماية الدول . بيد أنه يقال إن أية نصيحة صدرت عن سازونوف لم تصل الى بلغراد إلا بعد أن سلم الرد الصربي الى جيزل في الساعة السادسة من يوم ٢٥ يولييه .

وقد أ برق السيرادوارد غراي في منتصف الساعة العاشرة من مساء الجمعة

ينصح « بأنه ينبغي بالتأكيد أن تعرب صربيا عن اهتمامها وأسفها لأن يكون لأي موظف مهما كان مرؤوساً ، ضلع في مقتل الغراندوق ، وأن تعد اذا ثبت هذا الاشتراك بأن تقدم أعظم ترضية ، وعن الباقي « أن ترد وفاقاً لما ترى أن مصالح صربيا تتطلبه ، ولكي تحول دون التجاء النمسا الى أي عمل عسكري « أن ترد رداً موقفاً على أكثر عدد ممكن من النقاط في خلال المهلة المعطاة فلا تقابل النمسا بالرفض البات ، ثم أضاف الى ذلك قوله وهو يضع نصب عينه المحافظة على تضامن دول الوفاق : « شاور زميليك الروسي والفرنسي في تبليغ هذا للحكومة الصربية . وقد توسل اليها الوزير الصربي هنا أن نبدي شيئاً من آرائنا لكنني لا أستطيع أن أتحمل تبعة النصيح بأكثر مما نصحت به آنفاً . ولست أحب أن أفعل ذلك دون أن أعرف ما تقوله الحكومتان الروسية والفرنسية في بلغراد . ، وهذه النصيحة أيضاً وصلت متأخرة عن أن تؤثر تأثيراً مادياً في وزارة بلغراد . وقد رد كرا كاثورب في منتصف الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي يقول إن زميله لا يزالان بلا تعليمات وأنه نظراً لذلك وللهجة المسالمة التي ارتثى أن يكتب بها الرد الصربي وهو ما أبلغه الدكتور جرووتش خلاصته مقدماً ، قد أمتنع عن تقديم نصيحة غراي الى الحكومة الصربية .

ونصح المسيو برتيلو مدير الإدارة السياسية بوزارة الخارجية الفرنسية للوزير الصربي في باريس بتاريخ ٢٤ يولييه بأنه يجب أن « تحاول صربيا أن تكسب وقتاً بتقديم الترضية عن جميع النقاط التي لا تتعارض مع كرامتها وسيادتها وبطلب معلومات جديدة عن النقاط الأخرى . وفوق هذا يجب أن تحاول صربيا الأفلات من قبضة النمسا مباشرة بأعلان استعدادها للرضوخ لتحكيم أوربا . ، وليس أكيداً ما اذا كانت هذه النصيحة قد بلغت بلغراد في وقت يسمح بالتأثير على الرد الصربي بيد أن كون الرد الصربي قد جاء في جوهره مطابقاً لما رسمه برتيلو يجعل هذا محتملاً .


وعلى كل فإنه يجب مع ذلك أن يعود باشتش وزملاؤه أكثر من غيرهم من ساسة الدول العظمى بأكبر قسط من الفضل للبهارة التي عاجل بها موقفاً صعباً . فأنهم قد صاغوا رداً لم يصادف فقط قبول الدول جميعاً وعطفها فيما عدا النمسا ، بل قد نال أيضاً إعجاب الرجل الذي صاغ البلاغ النمسي النهائي نفسه فوصفه بأنه «أروع مثال للبهارة السياسية عرفته في حياتي» . فلقد قرروا في الحال أنه « ما من حكومة صرية تستطيع أن تقبل المطالب النمسية بحذاقيرها . »

وما دام هذا هكذا فقد استنتجوا أن النمسا ستعتبر أي رد يردون به غير غير مرض وتعلن الحرب . لذلك فهم « سيناشدون حكومات الدول الصديقة أن تحمي استقلال صربيا . وإذا كان لا مفر من الحرب فستخوض صربيا غمارها ، وما دامت النمسا سترفض كما يلوح كل رد لا يسلم بكل النقط فباستطاعتهم أن يصوغوا الرد في قالب مسالم جداً ويسلموا بشكل ظاهر بكثير من النقط بل أيضا يرتأوا عرض المسألة على محكمة لاهاي ، فإن هذا النوع من المسألة في الرد مما يساعد على كسب عطف الدول وحمايتها والزام النمسا الحجة اذا هي رفضته . على أن الرد كان أكثر تساهلاً في الشكل منه في الموضوع . وبما له مغزى أنهم قبل تسليم الرد الى جيزل عند انتهاء المهلة المحددة بوضع ساعات أمروا بتعبئة الجيش الصربي بأسره تعبئة عامة . وفي الواقع لقد أخذوا من فورهم في الاستعداد للدفاع استعداداً عسكرياً حماسياً يتناول نقل محفوظات الحكومة وخزائنها وموظفيها من بلغراد المعرضة للخطر الى داخل البلاد ، حتى لقد ضلل وزير ألمانيا المفوض فبعث الى حكومته في منتصف الساعة الثانية عشرة من مساء يوم الجمعة برقية يقول فيها : « إن التعبئة على قدم وساق . »

فهذا الأمر بالتعبئة الصربية قبل تسليم الرد المسالم الذي كان يعتبر مظهراً سياسياً أكثر منه مجهوداً جدياً لترضية النمسا ، له مزية أخرى . فقد كانت

الحملة الصحفية قد استثارت احقاد صربيا ضد النمسا وكان الضباط العسكريون الصربيون التابعون لجمعية « اليد السوداء » تواقين الى الحرب ومستعدين لأسقاط باشتش لدرجة أنه لو كان ضمن رده المسالم شيئاً من التساهل المذل لكان ثمة خطر من انتفاض عسكري ضد الحكومة المدنية . وحتى قبل تقديم البلاغ النهائي كان بعض الموظفين الصربيين قد أشار الى خطر الشعور الوطني المحتاج في البلاد . وقد كتب وزير ألمانيا المفوض يقول إن موقف باشتش « صعب جداً نظراً للانتخابات المقبلة وحملة التهيج القائمة في طول البلاد وعرضها . فكل تساهل حيال المملكة المجاورة ستعتبره المعارضة المتحدة ضعفاً منه . هذا فضلاً عن أن الدوائر العسكرية التي أعماها حب العظمة والتعصب القومي ترغمه على الخشونة التي ليست من طبعه المسالم . » وقد تجلى صدق هذا بعد أن بات البلاغ النهائي معروفاً . « فالعسكريون يطلبون الحرب ورفض المذكرة بتاتاً ، » ويخشى أن تحدث فتنة عسكرية اذا أعلن المنشور الذي تطلب النمسا إذاعته في نشرة الجيش الرسمية . « يد أن الاستعداد للحرب واعلان التعبئة قبل أن يذاع أن الحكومة أذعنت لبعض المطالب النمساوية أرضى الضباط العسكريين وحول الخطر .

وقد صيغت النقط الأساسية للرد الصربي في الاجتماع الوزاري الطويل الذي عقد في صباح السبت . وأعطى ممثلو الدول الصديقة مقدماً خلاصة بالرد وأبلغوا انه سيصاغ بعبارات غاية في المسالمة وأنه سيجيب النمسا الى مطالبها على قدر الامكان . « وقد وضع النص الفعلي وزير الداخلية ستوجان بروتش لكن كل جملة فيه قد قتلها بقية الوزراء بحثاً ، فكانوا يتناولونه بالتبديل حتى آخر لحظة وحتى أصبح النص الأخير للرد الصربي كما سلم لجرووتش لترجمته الى الفرنسية وكتابته على الآلة الكاتبة — حافلاً بالشطب والتصحيح الى درجة انه لم يكن يسع غير المشتركين فيه أن يستجلوا معناه . وبينما كان يملئ النص على الكاتب والوقت ينقضي سراعاً كسرت الآلة الكاتبة

الباقية واضطر سكرتير الى أن ينقل النص في نهايته يد قلقة . وقد أعطى  ذلك الى باشتش فحمله قبل السادسة بقليل ليسله بشخصه الى وزير النمسا المفوض .

موضوع الرد الصربي

كان الرد الصربي أكثر انطواء على المسألة من حيث الشكل منه من حيث الموضوع . والذي يبين هذا هو أن السلطات النمسوية أخرت إذاعته الى أن يتسع لها الوقت للتعليق عليه وقد نشرت التعليق الى جانب الرد الصربي لتدل على أن التساهل في كثير من النقاط كان محاطا بتحديدات وشروط تسلبه قيمته وتجعله غير صالح لأن يكون ضمانا للأمن في المستقبل فوق أنه لم يكن بالموافقة التامة التي طلبوها . بيد أنهم لم يستطيعوا نشر الرد الصربي بالتعليق الموازي له الا في ٢٨ يوليه . وعند ما نشر كان قد فات أو ان تأثيره في أوروبا التأثير الذي كان مأمولا . أما صربيا فانها كانت في تلك الاثناء قد أذاعت ردها وخلاصته قبله ، فأحدثت بذلك الاثر الطيب الذي كانت ترجوه .

والى القارى خلاصة الرد الصربي .

« إن الحكومة الصربية » المقتنعة بأن ردها سيزيل أى سوء فهم يمكن أن يهدد بفصم علاقات الجوار الحسنة ، بين البلدين تحتج بأنها لا هى ولا رجالها حاولوا فى أى وقت منذ الوعود التى قطعتها فى سنة ١٩٠٩ أن يغيروا الحالة التى أوجدت فى البوسنة والهرسك سواء من الوجهة السياسية أو الشرعية . والحكومة الصربية لا يمكن أن تعد مسئولة عن مظاهرات ذات صبغة فردية كمقالات الصحف أو عمل الجمعيات السلمى .. وهى مستعدة لأن تحيل الى المحاكمة كل صربي من رعايا الحكومة كائنا ما كان مركزه أو درجته إذا قام الدليل على اشتراكه فى جريمة سيرا جيفو . كذلك توافق الحكومة على أن تنشر فى الصفحة الأولى من الجريدة الرسمية تصريحاً تستنكر فيه كل

دعاية ، يمكن أن توجه ضد النمسا والمجر وتأسف لأن بعض الضباط والموظفين الصريين ، وهو ما يقول به تبليغ الحكومة الامبراطورية الملكية ، اشتركوا في الدعاية الآتفة الذكر .

وقد تعهدت الحكومة الصرية فيما يتعلق بالمطالب النمسية العشرة بمايلي :

١ — أن تدخل في أول اجتماع عادي لمجلس السكوبشتينانصا على قانون الصحافة يقضى بأقصى عقاب للتحريض على كراهة المملكة النمسية المجرية وازدراءها وترثي أيضا ادخال تعديل على الدستور يسمح بمصادرة الصحف

٢ — أن تحل نارودنا أودبرانا وكل جمعية أخرى يمكن أن تكون موجهة مساعيها ضد النمسا والمجر . وان كانت الحكومة الصرية لا تملك دليلا ولا النمسا قدمت دليلا على أن أعضاء هذه الجمعيات ارتكبوا أعمالا إجرامية .

٣ — أن تستأصل بلا ابطال من المعارف العمومية في صربيا كل ما من شأنه أن يساعد على اختمار الدعاية ضد النمسا والمجر كلها دلت الوقائع وقامت الأدلة على ذلك .

٤ — أن تبعد من السلك العسكري جميع الأشخاص الذين يثبت التحقيق القضائي ادانتهم بأعمال موجهة ضد النمسا والمجر بعد أن تقدم الأخيرة المعلومات اللازمة .

٥ — أما ما يتعلق بما طلب من قبول تعاون مثلي النمسا في صربيا على إخماد الدعاية الضارة بالحكومة الصرية ، لا تفهم جليا معنى هذا الطلب ومرماه ... لكنها ستسمح بالتعاون الذي يتفق ومبادئ القانون الدولي والاجراءات الجنائية وعلاقات الجوار الحسنة .

٦ — ترى الحكومة الصرية من واجبهـا أن تجري تحقيقا مع كل الأشخاص الذين لهم أو يظهر فيما بعد أن لهم ضلعا في المؤامرة ، لكنها ، فيما يتعلق باشتراك مندوبين عن النمسا والمجر في هذا التحقيق لا يمكن ان تقبل تدويراً كهذا لأنه يكون خرقا للدستور ولقانون التحقيقات الجنائية .

٧ — قد قبضت الحكومة المصرية على تانكوشتش في نفس المساء الذي سلم فيه البلاغ النهائي لكنها لم تستطع القبض على سيجانوفتشش [وقد دبر حكمدار بوليس بلغراد رحيل سيجانوفتشش ثم أعلن أنه لا يوجد في بلغراد رجل بهذا الاسم .]

٨ — ستتخذ الحكومة المصرية الاجراءات اللازمة لمنع تهريب السلاح والمفرقات عبر الحدود وستعاقب بشدة موظفي الحدود الذين سمحوا لقتلة سيرا جيفو باجتيازها .

٩ — ستقدم الحكومة المصرية بكل ارتياح الايضاحات اللازمة فيما يتعلق بالملاحظات التي أبديت في أحاديث موظفيها في صربيا أو في الخارج وقيل إنها عدائية للنمسا وذلك بمجرد تعيين مواضع هذه الملاحظات وظهور أنها أبديت فعلا .

١٠ — ستبلغ الحكومة المصرية النمسا عن تنفيذ الاجراءات الآتية الذكر بمجرد تنفيذها .

فاذا لم يرض النمسا هذا الرد فالحكومة المصرية « مستعدة كما كانت دائماً لقبول اتفاق سلمي بعرض المسألة إما على محكمة العدل الدواية بلاهاى وإما على الدول العظمى التي اشتركت في وضع التصريح الذي أعلنته الحكومة المصرية في ٣١ مارس ١٩٠٩ لاصدار قرار فيها . »

كما تقدم يتضح أن المطالب الأول والثاني والثالث قبلت الى حد معقول جداً وأن المطالبين الثامن والعاشر قبلوا بحذاقيرهما . أما المطالب الرابع والخامس والتاسع فقد راوغت الحكومة المصرية في الإجابة عنها أو أجابت عنها بتحفظات خطيرة . والمطلب السابع يتضمن شيئاً عن سيجانوفتشش لم يكن صحيحاً . والمطلب السادس يتعلق بتعاون موظفين نمسويين في صربيا على البحث عن الشركاء الصريين في مؤامرة الاغتيال (لا محاكمتهم والحكم عليهم) وقد رفض هذا المطلب على كونه على أعظم جانب من الاهمية إما

لأن باشتش وزملاءه أساءوا فهمه قصداً أو عفواً وإما لأنه لاح أن به مساساً بالسيادة الصرية، أو لأنهم خشوا أن يؤدي إلى اكتشافات غير سارة فيما يتعلق باشتراك جمعية اليد السوداء وموظفين صريين آخرين وكذلك فيما يتعلق بعلم الحكومة الصرية بمؤامرة لم يمنعوها.

على أن الرد الصربي كان له على العموم لدى المعاصرين وقع حسن . وقد أبدى السير أيركرو بوزارة الخارجية البريطانية ، أن الجواب معقول . فإذا كانت النمسا تطلب الأذعان التام للبلاغ النهائي فمعنى هذا أنها تريد الحرب . . ولاحظ الإمبراطور غليوم بعد تلاوته في صباح يوم ٢٨ يولييه ودون في نهايته ، أنه مشهد باهر لآندار محدود بثمان وأربعين ساعة . وهذا يفوق ما كان يمكن أن ينتظر ! فإنه لنجاح أدبي عظيم لفينا وبه ينتفى كل سبب للحرب . وقد كان ينبغي أن لا يغادر جيزل بلغراد بحال ! وما كنت أنا لآمر بالتعبئة بعد مثل هذا ! — غ . .

ومع ذلك فقد كانت التعليمات تقضى على جيزل برفض الرد باعتباره غير مرض . وليس يسع أحداً أن يقبل الحجج التي يسوقها النمسيون أحيانا على أن رفض الرد الصربي كان يسوغه أنه لم يكن يحتوى الضمانات الكافية لطمأنينة النمسا . ذلك بأن الضمانات لم تكن هي التي قصدت إليها النمسا بادئ الرأي يلاغها النهائي وإنما الذي قصدت إليه والتمسته هو الذريعة لاضعاف صربيا ووضع حد للخطر الذي كانت تخشاه من طلب صربيا للتوسع ، باعلان الحرب عليها .

انقطاع العلاقات السياسية بين النمسا وصرىا

كانت الساعة السادسة من مساء يوم السبت ٢٥ يوليه هى الوقت المحدد لانتهاؤ المهلة . فقبل أن تكتمل السادسة يضع دقائق وصل باشتش الى المفوضية النمسوية وسلم الرد الصربى . فقال جيزل إن عليه أن يقارن بينه وبين التعليمات التى يده وأنه سيرد عليه حالا . ولما كان يعلم أن صرىا قد أمرت فعلا بالتعبئة فإنه لم يكن يتوقع كثيراً أن يكون الرد مرضياً من كل الوجوه ؛ والمرجح أنه كتب رده قبل أن يطلع عليه . ثم ألقى عليه نظرة عجلى ليستوثق من ان صرىا لم تسلّم تمام التسليم بكل نقطه وأنه يسعه كربة برشتولد ان يرفضه باعتباره غير مرض ويقطع العلاقات السياسية . ولذا فأن باشتش لم يكده يعود الى مكتبه بوزارة الخارجية حتى تلقى مذكرة من جيزل يقول فيها إنه بما أن المهلة قد انتهت الآن ولم أتلّق جواباً مرضياً فأنى أتشرف بأن ابلغ سعادتكم أنى سأغادر بلغراد الليلة مع موظفى المفوضية الامبراطورية الملكية . . . وأنه منذ اللحظة التى يصل فيها هذا الكتاب الى سعادتكم يكون انقطاع العلاقات السياسية بين صرىا والنمسا والمجر قد بات أمراً واقعاً . ولقد كانت سرعة جيزل بالغة الى حد أنه وجميع موظفيه أمكنهم ان يلحقوا قطار السادسة والنصف المسافر من بلغراد وليس من شك انه احرز قياساً فى سرعة قطع العلاقات العسكرية .

وكان برشتولد قد اتخذ التدابير المحكّمة لتلقى الأنباء من جيزل بأقصى سرعة حتى يمكن أن تتلو التعبئة الجزئية النمسوية انقطاع العلاقات السياسية بأسرع ما استطاع . فبعد أن يغادر بلغراد فى منتصف الساعة مساء يصل الى محطة سيملين عبر الحدود فى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين وهناك يستعمل تليفون السكة الحديدية التى يترك مفتوحاً له لتبليغ تيزا فى بودابست وهذا بدوره يبلغ الرسالة فى الحال الى فينا . أما برشتولد فكان قد توجه الى

إيشل ليحضر وليلة أقامها الأمبراطور فرانسوا جوزيف للدوق اوف كبرلند والدوقة قرينته . وكان عند الظهر قد تلقى برقية مستعجلة من القائم بالأعمال الروسى يرجوه فيها مد أجل المهلة بدعوى أن الدول قد بوغخت وانها لم تتح لها الفرصة بعد للأطلاع على ملف قضية سيرا جيفو الذى وعدتها النمسا به . لكن برشتولد رد عليه بقوله انه لا يستطيع ان يمد أجل المهلة ، وزاد على هذا قوله انه يمكن مع ذلك الوصول الى تسوية سلمية حتى بعد ان تكون العلاقات السياسية مع صربيا قد قطعت . وذلك بقبول صربيا مطالب النمسا بحذافيرها . بيد ان النمسا فى مثل هذه الحالة تنتظر ان تعوضها صربيا من النفقات التى تكون الاستعدادات العسكرية قد اقتضتها . واذن فقد كان واضحا انه كان واثقا يتوقع ان تتخذ اجراءات عسكرية ضد صربيا على اثر انقطاع العلاقات السياسية معها .

كان برشتولد جالسا مساء فى غرفة الأمبراطور فى إيشل معيل الصبر ينتظر وصول الرسالة الموعودة وأخيراً خرج يحول جولة فى الهواء فلما كانت الثامنة الا ربعا دق التليفون وكان الكونت كيتسكى قد تلقى الرسالة فى فينا فجاء يبلغها الى إيشل :

« أبلغ الوزير جيزل بودابست من سيملين أن الرد سلم قبل السادسة مساء بدقيقتين ولما كان غير مرض فى عدة نقط فقد قطع البارون جيزل العلاقات السياسية وسافر . وكانت صربيا قد أمرت بالتعبئة العامة فى الساعة الثالثة بعد الظهر وانتقلت الحكومة والهيئة السياسية الى كراجوففاتش . »

فتلقى البارون مارجوتى الرسالة على قطعة من الورق وأسرع بها الى فرنسوا جوزيف فتناولها الشيخ بين يديه المرتجفتين وتداعى فى مقعده وهو يتم بصوت أجش غير مألوف « لقد حدث إذن ! » كما لو كان قد أمل واعتقد إلى النهاية أن فى الامكان تجنب قطع العلاقات . وبعد أن حلق هنيهة فى الورقة استغرقته

أفكاره وقال كمن يخاطب نفسه مع الناس : « ومع ذلك فانقطاع العلاقات السياسية لا يعنى الحرب » .

ودعى برشتولد فى تلك الأثناء لمقابلة الإمبراطور وخلوا بنفسيهما وكان قد حثه تيزا وكونراد والسفير النمساوى فى برلين على وجوب الأمر بالتعبئة فى النمسا فى الحال لأن أى إبطاء أو تردد سيعتبر دلالة على الضعف ويزيد فى احتمال تدخل روسيا فلم يلق كبير عناء وهو يورد هذه الآراء فى اقتناع الإمبراطور الشيخ بضرورة الأمر فى الحال بالتعبئة الجزئية المنوية فى حالة الحرب مع صربيا والجبل الأسود . وبلغت موافقة الإمبراطور هيئة أركان الحرب فى الساعة التاسعة والدقيقة الثالثة والخمسين مساء فنفذت على الأثر وكان يوم ٢٧ يولييه هو يوم «الاستنفار» و ٢٨ يولييه أول أيام التعبئة الفعلية ولم يكن كونراد وبرشتولد واثقين بما اذا كانت روسيا ستتدخل أو لا . وقد أملا طبعاً ان لا تتدخل وان تحصر الحرب مع صربيا وثمة دلائل كثيرة على ان هذا هو ما كانا يتوقعانه على الرغم من استعدادهما لمواجهة خطر تحرك روسيا .

ولما كانت النمسا وصربيا قد قطعتا العلاقات السياسية الآن وكاتتا تعبئان جيشهما فقد اخذت الدول العظمى ترتئى عدة اقتراحات للمحافظة على السلام

الفصل الثامن

اقتراحات للحفاظة على السلام

كان يتوقع في كل مكان أن يفضى حادث اغتيال سيرا جيفو الى استحكام التوتر الذى كان يلم من زمن طويل بالعلاقات النموية الصرية استحكاماً خطراً. لذلك تقدمت كل الدول العظمى بعدة اقتراحات للحيلولة دون تطور هذا التوتر الى حرب بين البلادين المحتاجين ، فاذا قدر لها أن تنشب فليمنعوا تورط الدول الأخرى فى حرب أوربية عامة . وقد قدم بعض هذه الاقتراحات قبل نشر مطالب برشتولد فى صربيا كاقترح « المحادثات المباشرة » الذى ارتأى السير ادوارد غراى أن تدور بين النمسا والروسيا ، والخطوة التى وضعتها ألمانيا لجعل الحرب « محلية » ، وكسعى بوانكاريه وسازونوف لصرف النمسا عن تقديم انذارها النهائى . فلما بات البلاغ النهائى الجاف معروفا وخاصة عقب انقطاع العلاقات السياسية والشروع فى التعبئة فى صربيا والنمسا تكاثرت المقترحات للحفاظة على السلام . فكان بعضها يتجه موازيا بعضه ، وبعضها يتعارض أحيانا مع بعض . وكثيراً ما كانت هذه المقترحات تأتى مضطربة غامضة فلم تكن دائماً جلية واضحة كل الجلاء والوضوح حتى فى أذهان أصحابها . مثال ذلك أن السير ادوارد غراى أثناء أن كتب مذكراته وفى يولييه ١٩١٤ لم يدرك تماماً أهمية التفريق بين التوسط بين النمسا والروسيا والتوسط بين النمسا وصربيا .

ولقد وضع سازونوف أيضا أثناء إضطراب أعصابه اقتراحات كثيرة يترى بعضها إثر بعض فى صورة مربكة . فمنها اقتراح للتفادى من البلاغ النموى النهائى ، وآخر لمد المهلة ، وثالث لحل صربيا على الاستغاثة بالدول العظمى ، ورابع

لحمل انجلترا وايطاليا على معاونة النمسا على تفريج الحالة، وخامس لحمل النمسا على تعديل إنذارها النهائي حتى بعد أن قدم وأجيب عليه، وسادس ليجعل الدول العظمى تقيم على صريا نوعا من الاشراف الدولي غير الرسمي لمنع كل مؤامرة ضد النمسا في المستقبل، وسابع في مقدمة الجميع هو حمل انجلترا على صد النمسا وألمانيا بأعلان تضامنها صراحة مع فرنسا والروسيا. ولا عجب أن يشكو بعد ذلك السير أرثر نيكولسن بوزارة الخارجية البريطانية في ٢٧ يولييه فيقول: «إن هذا مريبك ففى ثلاثة أيام متعاقبة ارتأى الميسوسازونوف رأيا وقدم اقتراحين كل منهما يختلف عن الآخر... والحقيقة أن المرء لا يعرف أين هو مع الميسوسازونوف. وقد أخبرت الكونت بنكندورف بذلك بعد ظهر اليوم.»

وكان أهم حل ارتأته ألمانيا حصر النزاع حصراً ظلت تحض عليه أسبوعاً حتى قرأت الرد الصربى المنطوى على المسالمة فأخذت تدرك بصفة جدية أن روسيا لن تظل ساكنة. بيد أن هذا الحصر لم تكن لترضاه روسيا وفرنسا بتاتاً كما لم ترضه انجلترا تبعاً لها. وقد كتب السير أرثر نيكولسن إلى بوكانان يقول: «إن القول بحصر الحرب معناه الوحيد هو أن تقف جميع الدول تتفرج على النمسا بينما هى تردى صريا. وهذا فى رأى لا يقبله العقل إن لم أقل انه جائر.»

وايطاليا التى كانت واجباتها نحو العصبتين المتحالفتين من الدول تحيرها وتجعلها من أجل ذلك ترغب فى منع الحرب الأوربية أملت أن تعمل مع انجلترا لهذه الغاية. فى ٢٧ و ٢٨ يولييه اقترحت اقتراحاً بديعاً هو انه اذا نصحت الدول لصريا حتى بعد أن قطعت العلاقات السياسية فى ٢٥ يولييه بقبول المطالب النمساوية بحذافيرها فقد تحملها هذه النصيحة على القبول فترضى النمسا وتكون صريفاً قد سترت وجهها بالأذعان للدول لا للنمسا وحدها. وعندئذ يسع الدول أن تضع التفاصيل التى تنفذ صريا مطالب

النمسا بموجبها . وقد بدا أن وزير صربيا المفوض في روما لا يمانع في جوهر هذا الاقتراح ، لكنه في النهاية لم يشر شيئاً لأن دول الوفاق في الغالب لم تقابله بمجد ولأن اقتراحاتها هي غطت عليه ، ثم لأن النمسا سرعان ما عقدت الموقف بإعلان الحرب على صربيا .

ومحاولة سرد جميع هذه المقترحات العديدة التي أراد بها أصحابها في يولييه ١٩١٤ المحافظة على السلام محاولة كريهة غير مجدية ، لكنه قد يفيد أن نستعرض في إيجاز بعض الاقتراحات التي قدمت قبل ٢٨ يولييه والتي كانت ذات مغزى خاص أو كان يلوح الأمل في نجاحها عظيمًا جدًا ، أو التي كانت غالباً غير مفهومة جيداً . وهذه المقترحات هي التي أبدأها السير ادوارد غراي وهو ما يقال له « محادثات مباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ .

مركز انجلترا المسيطر

في كثير من المقترحات السلمية كان يرى على وجه العموم أن انجلترا هي التي تقبض على مفتاح الموقف لعدة أسباب . فمصلحتها المباشرة في البلقان كانت دون مصالح الدول العظمى الأخرى ، والخلاف النمساوي الصربي كما كرر غراي لم يكن يهمه . فاهتمامه بالأمر إنما جاء فقط من ناحية السلام الأوروبي وهذا السلام كانت تساوره المخاوف عليه . وبذا كان ينظر إليه كما نظر إليه في خلال حرب البلقان باعتباره أنزه وأقدر رجل على اتخاذ إجراءات تكون غايتها عقد مؤتمر دولي أو ابتكار الوسيلة التي تحول دون تطاحن فريق الدول العظمى . وفوق ذلك فإن انجلترا لم تكن مرتبطة نحو أي من الفريقين بأية مخالفة رسمية . وقد أدرك أخيراً أن انجلترا بقوتها البحرية العظيمة يرجح أن تكون قادرة على الضغط بصورة حاسمة على فرنسا والروسيا والنمسا والمانيا وإيطاليا والتأثير في سياسة هذه الدول بأي موقف تقفه . لذلك ناشدت روسيا وفرنسا غراي أن يحفظ السلام بأن يبين لأمانيا بحزم انه اذا وقعت

الحرب فسيؤيدهما كما ناشدته ألمانيا أن يضغط على روسيا لتلتزم الهدوء .
محافظة على السلام .

يبد أن غراي لم يكن راغباً في بدء الأزيمة في تحذير ألمانيا بصفة حازمة ذلك أن وزارته كانت منقسمة على مسألة تدخل انجلترا عند اللزوم فلم يكن يستطيع أن يهدد خشية أن لا يستطيع التنفيذ . فضلاً عن أنه كان يكره أن يقول شيئاً يمكن أن يشجع فرنسا وروسيا على الاقدام على الحرب معتمدين على تأييد قد لا تكون الوزارة الانجليزية والبرلمان مستعدين له اذا وقعت الواقعة . ولذا فانه لم يلن لالتحاح روسيا وفرنسا الا تدريجاً وشجعه على ذلك ، سكرتيراه كرو ونيكولسن قلع لآلمانيا محذراً في صورة تصريحات تتعلق بالاسطول البريطاني ، ثم استخدم بعد ذلك لهجة أصرح مع السفير الألماني . ومن جهة أخرى فإنه لم يكن يرغب في التضييق على روسيا خشية ان يقضى هذا التضييق على تضامن الوفاق الثلاثي ويحدث سوء فهم ، وخوفاً من أن يذهب الوفاق الانجليزي الروسي فيما يتعلق بالشرق الأوسط ضحيته .

وقد كان السير ادوارد غراي بغض النظر عن أن وقته وانتباهه كانا الى حد كبير تستغرقهما في ذلك الحين مشاغل البرلمان وحالة إيرلنده الحرجة ، يجد أسباباً كثيرة جعلته في بادئ الامر لا ينزعج انزعاجاً جدياً على السلم في أوربا ، ذلك بأنه على الرغم من تيار الخلاف الحفي الجوهري الحاد الذي أحدثته سياسة ألمانيا البحرية كانت علاقاته بألمانيا على العموم خيراً مما ظلت عليه عدة أشهر ، فقد كانت المعاهدتان الخاصتان بسكة بغداد الحديدية والمستعمرات البورتغالية تامتين موقعتين بالأحرف الأولى لا ينقصهما إلا التوقيع النهائي الذي تأخر لأنه كان على ألمانيا ان تتم بعض التدابير المتعلقة بالسكة الحديدية مع تركيا ، ولأن السير ادوارد غراي كان يحب أن ينشر التصريح الانجليزي البورتغالي السري المؤرخ في ١٨٩٩ مع المعاهدة الألمانية في وقت واحد بينما كانت ألمانيا ترغب في تأخير النشر . وقد أمل السير ادوارد غراي ان

يؤدي امضاء المعاهدتين اللتين كانتا تسويان مشكلتين ظلتا طويلا سبياً
للافعال إلى تحسين الجو السياسي بين ألمانيا وانجلترا .

وقد كانت زيارة الأسطول البريطاني لكيال فألا حسناً آخر لأنها
وإن كان قد قطعها نبأ سيرا جيفو المحزن ، كانت في رأي الملحق البريطاني
البحري توفيقاً كبيراً يزيد من قيمته أنه لم تكن لها صبغة سياسية . وقد سر
الألمان حقاً أن يروا ضيوفهم وكانوا يتطلعون بشغف إلى رد الزيارة لميناء
انجليزى بعد أن باتوا يتبرمون كثيراً برؤية هيلجولند وهي التي كان عملهم
البحري المضجر لا يعدو محيطها . وقد كان روح الزمالة الحسنة سائداً بين
الفريقين ، ضباطاً وبحارة وتعليقات الصحف أخف حدة وأقل انفعالا
من المؤلف .

كذلك الانزعاج والريبة اللذان أثارهما في ألمانيا « تسرب » خبر
المفاوضات السرية لعقد اتفاق بحري بين انجلترا والروسيا يقوى تضامن
الوفاق الثلاثى ويرضى الروسيا وفرنسا كمقابل للاتفاقيين الخاصين بسكة بغداد
الحديدية والمستعمرات البورتغالية والمعقودين مع ألمانيا — نقول ان هذا
الانزعاج وتلك الريبة خفا فيما يلوح بتكذبات غراى في البرلمان ان لم يكونا
بدداً تماماً . وقد كان غراى يعتقد انه يستطيع أن يمضى موقفاً في متابعة
الأغراض الرئيسية لسياسته الخارجية وهي إيجاد علاقات حميمة مع فرنسا
والروسيا ليدفع بذلك شر ألمانيا ، وتلطف الخلاف مع ألمانيا والمحافظة على
السلام الأوروبى في نفس الوقت بالحيولة دون تطاحن المحالفتين .

ولقد قيل كثيراً إن الحرب كانت خليقة أن لا تقع في سنة ١٩١٤ لو
أن الدول عقدت مؤتمراً وبحث فيه النزاع النمساوى الصربى . وهذا قول
راجع كل الرجحان لأنه لما لم يكن بين الساسة المسئولين من يرغب في حرب
أوربية فقد كان ممكناً بل مرجحاً أن يتهدى مثل هذا المؤتمر إلى مخرج من

هذه المشكلة البلقانية البالغة التعقيد كما وجد المخرج من الأزمة التي أثارها حروب البلقان .

وقد أكد كتاب « الوفاق » على وجه عام أن السير ادوارد غراي قد أفرغ قصارى جهده لعقد مؤتمر لكن ألمانيا عارضت فيه ، وأن هذه المعارضة توقرت عاتقها بقسط آخر من مسئولية الحرب العالمية . وهذا هو الأثر الذي تتركه مذكرات الفيكونت غراي في النفس . فقد أفرد ما يقرب من فصل لمسألة هذا « المؤتمر » فقال « إن سازونوف كان مستعداً لترك المؤتمر انعقد اذا كفت النمسا يدها ؛ وفرنسا وإيطاليا كانتا مستعدتين للتعاون ؛ ولم تبد ألمانيا المعارضة التي كنت أخشاها لكنها بينا هي قد وافقت مبدئياً عطلت المؤتمر . . . فهما (بيتمان وياجو) عطلا الوسيلة الأكيدة الوحيدة لتحقيق التسوية السلمية دون أن يلجأ حتى الى عرضها على النمسا فيما أعلم . . . ولاني لأذكر اني كنت أحس الدافع لأن أقول انه ما دامت ألمانيا قد عطلت المؤتمر فلن أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت وانه على ألمانيا سوف تقع تبعه الحرب اذا هي نشبت . » غير أن هذا القول أبسط مما يجب وهو بعيد عن أن يكون صحيحاً كله . فإن الفيكونت غراي لم يبين بياناً كافياً لجميع الأدوار التي تقلبت فيها فكرته الخاصة بالمؤتمر . وهي تقلبات نشأت من أعمال أخرى مختلفة صدرت عنه ومن المعارضة والتردد الذي قابلت به روسيا وفرنسا وألمانيا والنمسا فكرته على السواء . فهو في الواقع لم يلتزم أي اقتراح جلي محدود فيما يتعلق بالمؤتمر بل ساقته الرغبة الأكيدة في عمل أي شيء وكل شيء لمنع وقوع الحرب الى ارتياح طائفة مختلفة من الآراء يمكن تلخيص بعضها فيما يلي قبل أن نبحثها بالتفصيل :

(١) ارتأى أولاً إجراء « محادثات مباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ فعارض الرئيس بوانكاريه هذا الرأي . أما « المحادثات المباشرة » التي دارت بالفعل بين النمسا وروسيا من ٢٦ الى ٢٨ يولييه وعدها غراي ونيكولسن

« خير وسيلة » والتي آثرتها الحكومتان الروسية والألمانية على المؤتمر فلم تكن من إرتياء غراى بل كانت من إرتياء السفير الألماني في سان بطرسبورغ .
(٢) اقترح التوسط بين النمسا والروسيا على يد الدول الأربع التي هي اقل من غيرها مصلحة مباشرة ، فقبلت ألمانيا الاقتراح مبدئياً لكن روسيا وفرنسا كرهتا .

(٣) اقترح التوسط بين النمسا وصرىا في مؤتمر للسفراء وكان اقتراحه تحت تأثير روسيا والمسيو بول كامبون . فرفضته ألمانيا والنمسا في مبدأ الأمر ثم عادت ألمانيا لقبلة مخلصه في صيغة معدلة ولم تقبله النمسا .

اقتراح غراى الخاص بالمحادثات المباشرة

بين فينا وسان بطرسبورغ

في ٩ و ١٥ و ٢٠ يوليه جرى للسير ادوارد غراى في الفترات التي تخللت الاضطراب الايرلندي أحاديث مع البرنس ليشنوفسكى السفير الألماني وكان يحض انجلترا على صد روسيا . لكن السير ادوارد غراى كان قد بات اكثر محاذرة والتفاتاً لوجهة نظر روسيا ، فقال ليشنوفسكى ان كل شيء يتوقف على نوع ما يمكن ان تتخذه النمسا من اجراءات « فاذا أهاجت النمسا شعور روسيا بما قد تتخذه من اجراءات عسكرية إهاجة شديدة فلن يكون في مركز يسمح له بمعارضة السياسة الروسية . وسيكون عليه ان يهتم بأحاساسات روسيا نظراً لتغيظها من انجلترا في الآونة الراهنة . » ثم لمح بلطف الى انه « كلما امكن للنمسا ان لا تشتط في طلباتها وان تبرر هذه الطلبات كلما قوى الأمل في تفريج الضائقة . » وزاد على ذلك قوله إنه « يكره فكرة الحرب بين أى من الدول العظمى وانه بما يملكه ان تجر صرىا إحداهن الى الحرب . » اما ليشنوفسكى فقد ظل متطيراً من ناحية نيات حكومته متفائلاً من نحو مجهودات غراى في سبيل السلم واعتقاده « بأنه سوف يهتدى الى

حل سلمي . ولما أعرب عن أمله في أن تتمكن روسيا وانجلترا بنفوذها من اقناع صربيا بالموافقة على مطالب يكون هناك ما يبررها أجابه غراي « إن كل شيء يتوقف على شكل الترضية المطلوبة . » ورجا (غراي) أن يسوى النزاع ويحصر لأن فكرة الحرب بين دول أوروبا العظمى يجب أن تقاوم مهما كانت الظروف .

في تلك الأثناء كانت مطاعن الصحف الصربية مع ذلك قد ازدادت حدة وخطراً والتقارير الواردة من البلقان أدعى الى الانزعاج . وقد وصلت الى السير ادوارد غراي من فينا تقارير رسمية مبنية على معلومات وثيقة من الكونت ليتزو السفير النمساوي السابق في روما وصديق الكونت برشتولد الحميم إذ ذاك معلومات تنبئ بـ « بلاغ نهائي في منتهى الجفاء . » وتلقى غراي من باريس قصاصات من الماتان والطان ذات نزعة عسكرية وكانت أخراهما تنشر سلسلة من المقالات لمكاتبها في الروسية تنطق بالتعصب الشديد وتسرد ما عليه روسيا من تزايد كبير في القوى العسكرية واستعداد لمحاربة ألمانيا . وروى بوكانان من سان بطرسبورغ في عبارة أكيدة ما قاله سazonوف من « أن الروسية لن تقف مكتوفة اليدين بأزاي أي شيء يمكن أن يتخذ شكل بلاغ نمساوي نهائي يقدم الى بلغراد . وقد تضطر الى أن تتخذ بعض الاجراءات العسكرية على سبيل الاحتياط . »

فلما لاحظ السير ادوارد غراي دلائل الاضطراب تزايد في البارومتر السياسي الهابط رأى أن من الملائم أن يطرح اقتراحاً سلبياً ينطوي على الحذر . ولما كان لا يريد إجابة ليشنوفسكي الى رغبته في الضغط على روسيا وتقييدها وهو يعرف ان مثل هذا الضغط يغضب عضوى الوفاق الثلاثي ، أو إجابة روسيا الى رغبته من الضغط على النمسا وتقييد حركتها وهو يخشى أن يكون نصيب ذلك السخط أيضاً في فينا وبرلين ، فقد اختار طريقاً وسطاً وأكثر حذراً . فأسر الى السير جورج بوكانان في الروسية بالرأي الذي أطلق

عليه فيما بعد اسم « المحادثات المباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ قائلاً :
« من الممكن أن تكون الحكومة الصربية أهملت وأن تظهر المحاكمة
الجارية في سيرا جيفو أن مقتل الغراندوق دبر في أرض صربية . فاذا التزمت
النمسا في مطالبتها جادة العقل وأمكنها أن تقيم الدليل على أن هنالك ما يبررها
فاني آمل أن كل مجهود سييذل للحيلولة دون تكدير السلم . ومن المرغوب
فيه جداً اذا تعقدت الأمور أن تبحثها النمسا والروسيا معاً . وفي استطاعتك
أن تتكلم بهذا المعنى اذا عرضت مناسبة . »

وبعد يومين عرض السير ادوارد غراي فكرته عن « المحادثات المباشرة »
بتوسع على السفير الروسي في لندن الذي ظهر انها لم ترقه كما عرضها على بوكانان .
وكان هذا من السير ادوارد غراي رأياً أسديداً لكن الرئيس بوانكاريه استنكرها
في الحال وبقوة لما عرضها عليه بوكانان أثناء زيارته لسان بطرسبورغ قال :
« فقد أبدى فخامته (الرئيس بوانكاريه) أن حديثاً يدور بين النمسا
والروسيا وحدهما ليكون خطراً جداً في الوقت الحاضر . ويلوح أنه يجبذ
أن تنصح فرنسا وانجلترا فينا بالاعتدال . »

« أخطر جداً » أن تتباحث النمسا والروسيا بقصد الوصول الى حل
ودي سلبى للخلاف النمسي الصربي ؟ ان المرء ليدعك عينه ليتبين هل
ما قرأه صحيح . وخطر جداً على أي شيء ؟ ليس على سلام أوروبا بالتأكيد .
لكنه قد يكون الخطر منه على سياسة المسيو بوانكاريه الذي كان يرمى الى
ان تقف دول الوفاق الثلاثي كتلة صامدة في وجه ألمانيا والنمسا ، رافضاً كل
تدبير مع أي منهما ينطوي على المساواة ومعداً ما يرغمهما على قبول الهزيمة
السياسية أو القتال ضد قوى متفوقة . ولقد لبث يسعى سنتين لتوثيق عرى
الوفاق الثلاثي بكل طريقة ممكنة وليمنع كل تفاهم على إنفراد بين أي من دول
الوفاق وألمانيا أو النمسا . . . وقد روى ايزفولسكي أن المسيو بوانكاريه زعم
أنه حال دون نجاح بعثة هولدين والمفاوضات الانجليزية الألمانية في سبيل

التفاهم البحرى وفى خلال الحروب البلقانية لم يرد ان يدخل سازونوف فى مفاوضات على انفراد قبل ان يتفق على سياسة مع العضوين الآخرين فى الوفاق الثلاثى .

وتلغرافات بوانكاريه فى ذلك العصر ومذكراته التى نشرها بعد ذلك تردد رغبته فى أن يرسم الوفاق الثلاثى دائماً خطة العمل قبل أن تفتح أية من دوله ألمانيا أو النمسا فى شىء . وهكذا رأى فى أزمة يولييه سنة ١٩١٤ التى كانت أشد خطورة من غيرها أن « حديثاً يجرى على انفراد بين النمسا والروسيا ليكون خطراً جدياً ، تشبهاً منه بسياسته التى أتبعها منذ أصبح وزيراً للخارجية فى يناير سنة ١٩١٢ .

ومن المشكوك فيه بعد رفض بوانكاريه الحاسم « للحادثات المباشرة » أن يكون بوكانان ذكر حتى الفكرة لسازونوف إذ أن برقيته التى بعث بها الى غراى وأوردناها آنفاً لم تشر بكلمة الى ذلك فقد مضى يقول فى برقيته : « وقد تحدثت الى وزير الخارجية الذى قابلته بعد ذلك فقال لى سعادته انه اذا أثبتت النمسا أن المؤامرة دبّت فى صربيا فليس من يعارض فى مطالبة الحكومة الصربية بأجراء تحقيق قضائى . وصربيا مستعدة لقبول هذا فيما يعتقد . ومع ذلك فإنه يرى أن الأصوب أن تنصح ثلاث دول (روسيا وفرنسا وانجلترا) فىنا بالاعتدال . وهذا ينبغى أن يحدث فى صورة ودية جداً فلا يتخذ شكل العمل الاجماعى . وقد رجائى أن أبرق اليكم بهذا المعنى قائلاً انه سيتحدث اليوم الى رئيس الجمهورية فى الموضوع . »

فهذه البرقية من السير جورج بوكانان تدل على أن كلا بوانكاريه وسازونوف أرادا أن تضغط روسيا وفرنسا وانجلترا على النمسا ضغطاً يرغمها على العدول عن تدابيرها نزولاً على إرادة الوفاق الثلاثى . وفى الواقع لقد أخبر سازونوف بوكانان قبل سفر الرئيس بوانكاريه بأن السفير الروسى فى فينا قد اعطى التعليمات بأن يتفق مع زميله الفرنسى والبريطانى « على النصح

بصفة ودية بالتزام جانب الاعتدال، وأمل أن يعطى غراى مثل هذه التعليمات . بيد أن سكرتيرى وزارة الخارجية البريطانية لم يستحسنوا هذا الرأى وقرر غراى أن لا يعمل به الى اليوم التالى . وفى صباح اليوم التالى أبلغ نص البلاغ النهائى الذى كان قد قدم فعلا الى بلنراد فى الليلة السابقة . ولما كانت انجلترا لم تنضم الى خطة بوانكاريه سازونوف وكان البلاغ النهائى قد قدم فأن سفيرى فرنسا والروسيا فى فينا لم ينفذا تعليماتهما فى أن الوفاق الثلاثى ينذر النمسا الانذار الذى كان منوياً .

وبذا فشل اقتراح السير إدوارد غراى السلى الاول وهو أن تجرى « محادثات مباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ نظراً لرفض بوانكاريه البات ورغبته فى الاستعاضة من هذا الاقتراح بضغط الوفاق الثلاثى على فينا . أما المحادثات المباشرة التى رضى سازونوف بأجرائها عقب ذلك من ٢٦ — ٢٨ يوليه بعد أن بارح بوانكاريه الروسية ولم يعد له ذلك التأثير المباشر على وزير خارجية روسيا فلا ترجع الى رأى السير إدوارد غراى بل الى رأى سفير ألمانيا فى بطرسبورغ .

اقتراح غراى التوسط

بين النمسا والروسيا

فى صباح يوم الجمعة ٢٤ يوليه زار الكونت منسدورف دوتنج ستريت لتبايخ المذكرة النمسية الموجهة الى صربيا والأسباب التى حدثت اليها . وقد دون السير إدوارد غراى هذا الحديث فجاء ناطقاً بانزعاجه على السلام فى أوروبا قال :

قلت . . . إنى أرى أن من المؤلم حقاً أن يقدم هذا الانذار الممهل والوجيز الأمد فى هذه المرحلة . فقد بدا من أمر المذكرة أنها أصرم وثيقة رأيت دولة تقدمها الى دولة أخرى مستقلة .

ولم أكن مع ذلك أبدى هذه التعليقات بحثاً منى فى ماهية الخلاف بين النمسا والمجر وصرىا فأن هذا لم يكن من شأننا . إنما كان ما أبديت من الاهتمام بالمسألة من وجهة نظر السلام الأوروبى ، وقد شعرت بمخاوف عظيمة .

وعلى أن أنتظر حتى أسمع آراء الدول الأخرى . ولا شك أنه ينبغى علينا أن نشاورها لنرى ماذا نستطيع أن نفعل لتذليل الصعوبات .

وكان هذا اليوم لغراى كثير المشاغل والارتباك فقد كان المؤتمر الذى انعقد فى سراى بكنجهام قد انقضى ولما يكد بعد أن أخفق فى إيجاد حل للمشكلة الايرلندية . وكان قد تقرر أن تعقد الوزارة اجتماعا بعد الظهر فلما حمل منسدورف نبأ البلاغ النمساوى النهائى المشؤوم زاد المتاعب الناشئة عن هذه المشكلة . وقد كان على غراى أن يحادث المسيو كامبون والبرنس ليشنوفسكى فبدأ بطبيعة الحال بالسفير الفرنسى واقترح عليه أن تتوسط بين النمسا والروسيا الدول الأربع التى هى أقل من سواها مصلحة مباشرة ، فتمثل ألمانيا وإيطاليا المحالفة الثلاثية وتمثل انجلترا وفرنسا الوفاق الثلاثى . ولما كان هذا يمكن أن يعنى أن ينتظر من فرنسا التأثير على حليفها بالتزام الاعتدال لم ترق كامبون هذه الفكرة وآثر عليها التوسط بين النمسا وصرىا وهو ما يعنى فى الراجح أن تتساهل النمسا فى بعض مطالبها وترضى بهزيمة سياسية . . كان غراى يقول بالتوسط بين فينا وسان بطرسبورغ ولكن فقط بعد أن يتضح أن هنالك متاعب بين النمسا والروسيا ، وكان كامبون يقول بالتدخل والتوسط لدى فينا بين النمسا وصرىا وحمل ألمانيا على اقتراح ذلك .

واستقبل السير ادوارد غراى البرنس ليشنوفسكى بعد ظهر يوم الجمعة عقب حديثه مع كامبون وبعد اجتماع الوزارة من أجل المشكلة الايرلندية ذلك الاجتماع الطويل المرهق . فبعد أن قدم الأخير البيان الألمانى الذى يبرر عمل النمسا ويحرض على حصر النزاع أجاب السير ادوارد غراى بقوله

إنه اذا لم يؤد البلاغ النهائى الى متاعب بين النمسا والروسيا « فلا شأن له به »
يبد أنه يخشى ما يمكن أن تتخذه روسيا من رأى . ثم تناول الأمل الذى
أعرب عنه ليشنوفسكى وهو أن يؤثر (غراى) فى سان بطرسبورغ ليلطف
من حديثها فأبدى أنه بالنظر الى صبغة المذكرة النموية المتناهية فى الجفوة
« يشعر الآن بعجزه التام عن أن يعمل شيئاً فيما يتعلق بالروسيا . » ثم عرض
اقتراحه الخاص بالتوسط وأضاف اليه خطة كامبون فى الضغط على النمسا .
ولما سمع السير ادوارد غراى فى اليوم التالى من بوكانان أن المسير
سازونوف « يرى أن روسيا سيكون عليها أن تعي جيشها على كل حال »
عرض على روسيا اقتراحه القاضى بأن تتوسط الدول الأربع التى هى أقل
مصلحة مباشرة بينها وبين النمسا . ومن المهم ، بالنظر الى الأقوال الشائعة
التى طالما رددت عن أن ألمانيا عارضت جميع المقترحات التى عرضها السير
ادوارد غراى فى مصلحة السلم ، أن نبين موقف ألمانيا وتقابل بينه وبين
موقف روسيا وفرنسا .

لقد أبدت ألمانيا فى الحال موافقتها على هذا الاقتراح . فى صباح السبت ٢٥
يوليه عند ما قدمه القائم بأعمال السفارة الانجليزية فى برلين كانت وزارة
الخارجية الألمانية لاتزال متفائلة بإمكان حصر النزاع ، إذ بلغها أن برشتولد
أخبر السفير الروسى فى فينا أن النمسا والمجر لا تنوى اغتصاب شىء من
الأراضى المصرية فظنت أن هذا التأكيد قد يفضى الى تهدئة الأفكار فى
سان بطرسبورغ . فأن لم يصر هذا حظه وباتت العلاقات بين النمسا والروسيا
تهدد بالخطر « فأن ألمانيا مستعدة كل الاستعداد لتأييد اقتراحكم (اقتراح غراى)
القاضى بأن تعمل الدول الأربع على حمل فينا وسان بطرسبورغ على الاعتدال ،
فى تلك الأثناء كان السير ادوارد غراى والسفير الألمانى يتباحثان قبل وصول
هذا الى لندن ، فى اقتراح التوسط بين النمسا والروسيا . فقال البرنس
ليشنوفسكى أنه يظن أن النمسا قد لا تجد فيه ما يمس كرامتها فتقبله . وأعرب

عن موافقته شخصياً عليه . فصدق غراى على هذا وقال ، إني أشعر بأنه لا حق لى فى التدخل بين صربيا والنمسا ولكن المسألة اذا أصبحت بين النمسا والروسيا باتت مسألة تتعلق بسلام أوروبا ويجب علينا جميعاً أن نتعاون فيها ... فاشترك ألمانيا ضرورى لآى عمل دبلوماسيكي من أجل السلام ، فلما نقل ليشنوفسكى هذا الحديث الى وزارة الخارجية الألمانية ونصح بقوة بالتعاون مع انجلترا ردت عليه هذه الوزارة فى الحال مؤكدة من جديد موافقتها على التوسط بين النمسا والروسيا اذا بات من المحال حصر النزاع . قالت :

« إن تفريق السير ادوارد غراى بين نزاع نمسوى صربى وآخر نمسوى روسى فى محله تماماً . فى النزاع الأول لا نريد أن نتدخل أكثر من تدخل انجلترا ، لأننا الى اليوم نرى أن المسألة ينبغى أن تبقى محصورة بعدم تدخل الدول جميعاً ... فاذا نشبت الحرب بين النمسا وصربيا فانا مستعدون للتوسط بين النمسا والروسيا .

فلما تلقى ليشنوفسكى هذا أبلغ غراى الذى لم يكن فى لندن كتابة « أن حكومتى توافق على ما ارتأىتموه من توسط الدول الأربع . »
فماذا كان موقف روسيا وفرنسا حيال المقترح البريطانى الخاص بالتوسط لقد عارض فيه السفير الروسى كما نرى من رسالة لغراى بعث بها الى بوكانان وحذفت من الكتاب البريطانى الأزرق سنة ١٩١٤ :

« لقد أخبرت الكونت بنكندورف اليوم بما قلته للسفير الألمانى فى صباح اليوم عن امكان تعاون ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإيانا لدى فينا وسان بطرسبورغ على المحافظة على السلام بعد أن عبأت النمسا والروسيا .

فأبدى الكونت بنكندورف أنه يخشى جداً أن يقع فى نفس ألمانيا بما قلته أن فرنسا وانجلترا انفصلتا عن روسيا .

كذلك سلكت فرنسا مسلك روسيا فاتخذت حيال السير ادوارد غراى واقتراحه القاضى بالتوسط بين النمسا والروسيا موقف الرفض . فقد

عرض هذا الاقتراح على كامبون كما أشرنا آنفا حوالى ظهر يوم الجمعة ٢٤ يوليه فلم يؤثر فيه قليلا وربما كان ذلك لانه كان جد تواق الى اقناع غراى بخطته هو القاضية بالتوسط بين النمسا وصرىيا الامر الذى كان قد اتفق عليه هو وينكندورف. وعبثا طل السير ادوارد يتربح الجواب من الفرنسيين حتى اضطر فى اليوم التالى الى أن يقول للشينوفسكى «إنه لم يعلم بعد ما اذا كانت فرنسا ستشارك فقد حدث كامبون لكنه لم يتلق الى الآن ردا منه. وهو يعتمد على موافقة فرنسا كل الاعتماد وان كان لا يعلم مدى تضامنها مع روسيا.»

واذن فلم تكن ألمانيا بل روسيا وفرنسا هما اللتان لم يوافقا على اقتراح السير ادوارد غراى توسط الدول الأربع اذا عبأت كل من النمسا والروسيا جيوشهما.

اقتراح غراى عقد مؤتمر للسفراء

فى ٢٦ يوليه

فى مساء السبت ٢٥ يوليه ازدادت الحالة الأوربية حرجا بشكل حاسم. فالنمسا كانت قد قطعت علاقاتها السياسية مع بلغراد، والنمسا وصرىيا أمرت كلاهما بالتعبئة ضد الأخرى. أما روسيا فكانت هائجة والحزب العسكرى فيها فى صعود، فقد صادق القيصر مؤقتاً على تعبئة ١,١٠٠,٠٠٠ وكانت اجراءات «الفترة المعدة للحرب» على وشك التنفيذ. يد ان أنباء هذه الحوادث المشثومة لم تكن قد وصلت الى لندن بعد حيث كانت فى اليوم السابق أكثر رجاء لما أن بلغت أولى أنباء البلاغ النمساوى النهائى... ولما لاح على الحالة عندئذ من الرجاء غادر بعض أعضاء الوزارة البريطانية لندن لقضاء يوم الأحد فى الريف... لكنه فى صباح الأحد أخذ الوزراء الذين بقوا فى لندن يدركون أن الخطر بات أعظم عما كان فاستدعت الأميرالية

ونستون تشرشل عند الظهر فقرر العودة الى لندن في المساء . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر أصدرت الاميرالية دون أن تنتظره ولكن بموافقة أمراً سرياً ذا معنى هو أن لا يتفرق الاسطول للمناورات كما كان متفقاً عليه من قبل بل أن يبقى محتشداً في بورتلند . وفي وزارة الخارجية وجد السير آرثر نيكولسن (الذى كان ينوب عن السير ادوارد غراى أثناء غيبته) أنباء سيئة وصلت ليلاً . وكانت النمسا وصربيا قد قطعتا العلاقات السياسية وأمرت صربيا بالتعبئة وانتقلت حكومتها من بلغراد الى نيش . وروى بنسن فى فينا أنه « يظن أن الحرب واقعة » كما روى أن الاسطول الالماني قد تلقى الأوامر بالاحتشاد بعيداً من شاطئ النرويج ، وأن الامبراطور عدل عن رحلته التمايلية وشرع فى العودة رأساً الى كيال . وهو عمل أسفت له وزارة الخارجية الالمانية باعتبار أنه خلى أن يثير الأفكار ويحمل على التكهن . وبعث بوكانان بريقة مستفيضة من سان بطرسبورغ يقول :

« يرى (سازونوف) ان الحكومة الصربية ستهجر بلغراد فى حالة حدوث هجوم من جانب النمسا وتسحب جنودها الى الداخل بينا تدعو الدول فى الوقت نفسه الى مزيد المساعدة اليها . وسعادته يحبذ هذه الدعوة . . . فاذا كانت صربيا ستناشد الدول هذه المساعدة فسوف تكون الروسيا على استعداد للوقوف بمنأى وترك المسألة فى أيدي انجلترا وفرنسا وايطاليا و ألمانيا » .

(وبعد أن أورد بوكانان أن القيصر صادق على تعبئة ١٠٠,٠٠٠) استعداداً للطوارئ . وأن باليلوج أكد رسمياً « أن فرنسا ستقف الى جانب الروسيا دون تحفظ » وأنه استفسر عما « اذا كان الاسطول البريطانى مستعداً لأن يقوم بالدور المخصص له فى الاتفاق البحرى الانجليزى الفرنسى » مضى يقول : لقد أكدلى سعادته (سازونوف) مرة أخرى انه لا يرغب فى التعجيل بالتطاحن لكنه اذا لم تكبح ألمانيا جماح النمسا فى امكانى أن اعتبر الحالة مؤسفة . فالروسيا لا يمكن أن تسمح للنمسا بسحق صربيا وأن تصبح الدولة السائدة فى البلقان . فهى

ستواجه كل مخاطر الحرب واثقة من تأييد فرنسا . والموقف بالنسبة لنا محفوف بالمكاره وهو أخطر ما يكون . وعلينا أن نختار إما تأييد روسيا بالفعل وإما الاستغناء عن صداقتها . فإذا نحن خذلناها الآن تعذر علينا أن نأمل المحافظة على ذلك التعاون الودى معها فى آسيا وهو التعاون الذى له هذه الأهمية الحيوية بالنسبة لنا .

فهذه البرقية الدالة على « أن روسيا ستواجه كل مخاطر الحرب واثقة من تأييد فرنسا » لا يبعد أنها حفزت السير ادوارد غراى الى الاعتقاد بأن الوقت قد أزف للشروع فى التأثير على سان بطرسبورغ بالتزام الاعتدال إذا هو أثر أن يقدم المحافظة على سلام أوروبا على الوفاق الثلاثى . لكنه لم يفعل ومع أن بوكانان شرع فى سان بطرسبورغ فى أولى مراحل الأزمة فى الضغط على روسيا فأن مثل هذا المجهود لم تبذله لندن . فقد اتخذت وزارة الخارجية البريطانية الموقف الذى شرحه السير ا . كرو فى ٢٥ يولى فى مذكرة وجيزة قال :

لقد فات الوقت الذى كان يمكن فيه أن نضمن تأييد فرنسا لمسعى يقصد به ضبط روسيا .

فمن الجلى أن فرنسا وروسيا مصممتان على الرد على التحدى الذى وجه اليهما . وكائنا ما كان رأينا فى ماهية التهم التى توجهها النمسا الى صربيا فأن فرنسا وروسيا تعتبرانها ذرائع ، وتريان أن ما هو أهم منها وهو قضية المحالفة الثلاثية ضد الوفاق الثلاثى هو محور الأمر .

وأظن أنه ليس من السياسة . ان لم يكن من الخطر ، أن تحاول انجلترا مجادلة هذا رأى أو تجتهد فى جعل الأمر الواضح غامضاً بأى مسعى لدى سان بطرسبورغ وباريس .

ان مصالحنا مرتبطة بمصالح فرنسا وروسيا فى هذا العراك الذى لم يقم لامتلاك صربيا وانما هو قائم بين ألمانيا الرامية الى بسط : يكتاتوريتها السياسية على أوروبا والدول التى ترغب فى الاحتفاظ بحريتها الفردية .

كانت انجلترا تنتظر من ألمانيا أن تصد النمسا عن صربيا فإذا لم تفعل ألمانيا ذلك فانجلترا لن تضغط بحال على صديقتى « الوفاق » . وهنا مضار

نظام المحالفات . لم تكن أية دولة من هذا الجانب أو ذاك ترغب في الضغط على حليفها أو صديقها خشية أن تقضى على المحالفة أو الصداقة . وبذا لم تفعل انجلترا إذ ذاك شيئاً سوى أن تقرر عرض اقتراح سلمى جديد بدلاً من إرسال برقية الى بطرسبورغ تحض فيها على الاعتدال . وقد لاحظ السير آرثر نيكولسن ما ارتآه سازونوف لبوكانان وأسلمنا بيانه فكتب الى السير ادوارد غراى فى اتشن أباس يقول :

أظن أن الأمل الوحيد فى تجنب الحرب العامة هو . . . أن تبرق الى برلين وباريس ورومه تطلب أن تخول سفراءها هنا الانضمام اليك لعقد مؤتمر يتلّس المخرج تفادياً من التعقيدات ويطلب من فينا وصرىا وسان بطرسبورغ الامتناع عن الأعمال الحربية الى أن تظهر نتيجة المؤتمر .

فوافق غراى فى الحال . وفى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ٢٦ يوليه أرسل الى باريس وبرلين ورومه ذلك الاقتراح الخاص بعقد مؤتمر من سفراء الدول الأربع . وقد كرره على ممثلى بريطانيا فى سان بطرسبورغ ونيش وفيينا ومعه تعليمات بأن يجتهدوا بمجرد ما يتلقون مثل هذه التعليمات من زملائهم ممثلى ايطاليا وفرنسا وألمانيا فى منع الالتجاء الى عمليات حرية انتظاراً لنتيجة المؤتمر .

وهذا الاقتراح الخاص بمؤتمر للسفراء يعقد فى لندن لاح لأول وهلة اقتراحاً حسناً وقد عرض بالتأكيد بأخلاص . ومؤتمر للسفراء كهذا انعقد فى لندن برياسة السير ادوارد غراى فى خلال حروب البلقان ووفق الى منع هذا الاضطراب السرطانى من السريان الى بقية أوربا . ومع ذلك فقد اتفق أن ضايقت قراراته ولالة الأمور فى فينا وبغضت لديهم كلمة « المؤتمر » ، غير أن مؤتمر السفراء الذى انعقد فى خلال الحرب البلقانية لم يكن بالضبط كالذى يرثيه غراى الآن . فقد كان مؤتمر لندن لسنة ١٩١٢ — ١٩١٣ مؤلفاً من سفراء جميع دول أوربا العظمى ممن كانوا يمثلون الفريقين المتعارضين

الذين انقسمت اليهما أوروبا لا من ممثلي أربع دول فقط كما يقترح غراي .
وجميع أعضاء مؤتمر لندن مع إمكان استثناء النمسا كانوا في ذلك الحين
يرغبون رغبة أكيدة في المحافظة على سلام أوروبا . ففي سنة ١٩١٢ — ١٩١٣
لم تكن روسيا مستعدة للحرب ولم ترد فرنسا حرباً من جراء مسائل البلقان .
وألمانيا لم تكن ترغب في أن تجر الى حرب من أجل متاعب النمسا . لكن هذه
الدول كانت في سنة ١٩١٤ أقل زهداً في الحرب منها في سنة ١٩١٢ المتداخلة
في ١٩١٣ وذلك لأسباب مختلفة . هذا الى أن مؤتمر لندن في سنة ١٩١٢ —
١٩١٣ كان قد دعى الى الانعقاد ليسوى خلافاً بين تركيا ودول البلقان وآخر
بين دول البلقان ذاتها . ومع أن التنافس بين النمسا والروسيا كان شديداً فإن
مؤتمر لندن لم يكن مرغماً على أن يقرر مسائل حيوية قائمة بين هاتين الدولتين
العظيمةتين .

أما الآن في سنة ١٩١٤ فقد كان غراي يقترح مهمة أدق من تلك بكثير
وهي الشروع في تقرير مسألة تتناول مكانة المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثي .
كان في الحقيقة يقترح محكمة ظاهر أنها منصفة وعادلة ، مؤلفة من حليفين
لنمسا هما ألمانيا وإيطاليا وصديقتين للروسيا هما إنجلترا وفرنسا . لكنه بالنظر
الى عداوة إيطاليا القومية للنمسا ولما تبغيه في البلقان من أطماع تتعارض مع
أطماع النمسا ونظراً لاتفاقاتها السرية مع فرنسا في سنة ١٩٠٠ و ١٩٠٢ ومع
الروسيا في راكونيغي سنة ١٩٠٩ كان من المحتمل أن تكون إيطاليا أميل
الى مظاهره الوفاق الثلاثي منها الى تأييد حليفها . وعلى ذلك كان المنتظر
من المؤتمر المقترح أن تقف « الدول الأقل من غيرها مصلحة مباشرة »
« بنسبة ثلاث الى واحدة بدلا من أن تتكافأ : اثنتان قبالة اثنتين . وهذه
الحقيقة تفسر في الراجح والى حد كبير رفض ألمانيا النهائي لهذه المحكمة »
الأوربية . فهذا الاقتراح كانت ألمانيا تعارض فيه فوق معارضتها إياه لسبب
آخر هو أنه وان كانت « العمليات الحربية » ستقف الى أن تعرف نتيجة

المؤتمر فيكون في استطاعة روسيا أن تمضى في «إجراءاتها التحضيرية» وبذا تحرم ألمانيا من مزية القدرة على التجنيد بأسرع من روسيا بكثير .
ولقد تجنب نيكولصن عند وضع مشروعه ، متعمداً أو غير متعمد ، أن يبين ما اذا كان ينوى أن يتوسط مؤتمر السفراء الأربعة بين النمسا وصرىا وهو ما لا تسيغه برلين وفينا أو بين النمسا والروسيا وهو ما لا تسيغه باريس وسان بطرسبورغ . ومع ذلك فقد كان في جوهره يعنى التدخل بين النمسا وصرىا لمنع النمسا من غزو الأراضى الصربية . وقد كان هذا واضحاً من الطريقة التى فسر بها للسفير الألمانى فى لندن . واليك ما قال :

لقد فرغت الساعة من التحدث الى السير نيكولصن والسير تييرل... وكلاهما يعتبر اقتراح السير ادوارد غراى القاضى بعقد مؤتمر من أربعة الوسيلة الوحيدة لتجنب الحرب العامة . وهما يأملان أن يحصل المؤتمر للنمسا على الترضية التامة إذ تكون صرىا أكثر استعداداً للاذعان للدول والرضوخ لرغباتها المشتركة منها لتهديدات النمسا . غير أن الشرط الذى لا يحصى عنه لنجاح المؤتمر والمحافظة على السلام هو أن لا تقع حركات عسكرية . فاذا اجتيزت الحدود الصربية ضاع كل شئ . لأن الحكومة الروسية لن تطيق هذا... وما ترجوه برلين من حصر الحرب يريانه مستحيلاً كل الاستحالة وليس من السياسة العملية .

وبعبارة أخرى فأن اقتراح غراى الجديد كان هو التوسط الذى أراده بول كامبون من مبدء الأمر — أى التوسط بين النمسا وصرىا . ومع أن الاقتراح قد ارتئى بأخلاص فأن نيكولصن كان عديم الرجاء حينما كتب الى غراى بعد ظهر يوم الأحد يقول : «إنه يلوح لى أنه الفرصة الوحيدة لتجنب الحرب — وهى فرصة أسلم بأنها ضئيلة . ولكننا على كل حال نكون قد افرغنا قصارى جهدنا . إن برلين تلعب بنا... فأنا منقطع الرجاء . ومع ذلك فلا ينبغى أن نهمل فرصة ما .»

فإذا كان موقف كل دولة حيال الاقتراح الجديد الذى تقدم به السير

ادوارد غراى لعقد مؤتمر السفراء فى لندن ؟ لقد رحبت ايطاليا بالاقترح على الفور كما رحبت من قبل باقترح التوسط بين النمسا والروسيا .
وليشنوفسكى فى لندن كان من رأيه قبول مقترح غراى لأنه كان يعتقد أن « الحصر ، الذى كانت تأمله ألمانيا لم يعد أمراً عملياً وأن الاخلاق إغفاله .
فإذا كانت ألمانيا مع ذلك تتعاون مع غراى على حفظ السلام ، فإن هذا خليف أن يقيم علاقات ألمانيا وانجلترا على أساس ثابت الى الأبد ، أو فكل شيء يصبح بحيث تكتشفه الشكوك ومن الضروري أن « تكفى الأمة الألمانية مؤونة عراق لا تجنى منه شيئاً بل تخسر فيه كل شيء . » بيد أنه لما عرض الاقتراح على برلين أبرق بيتمان الى ليشنوفسكى يقول :

نحن لا يسعنا أن نشترك فى مؤتمر كهذا لأننا لا نستطيع أن ندعو النمسا الى المشول أمام محكمة عدالة أوربية فى قضيتها مع صربيا . والسير ادوارد غراى يفرق تفريقاً بيناً ، كما أكدتم سعادتكم ، بين النزاع النمساوى الصربى والنزاع النمساوى الروسى وكلانا لا يهمه النزاع الأول فمساعينا فى التوسط يجب أن توقف على التصادم النمساوى الروسى إن وجد . أما ما يتعلق بالنزاع النمساوى الصربى فإن طريقة التفاهم المباشر بين سان بطرسبورغ وفيينا . . . تلوح لى عملية . . . لذلك أرجوكم رجاء حاراً أن تدافع فى لندن عن ضرورة حصر النزاع وإمكانه .

وقد كتب السير ادوارد جروشن السفير البريطانى فى ألمانيا ، وكان قد عاد الى مقر وظيفته ولما يكذب وتحدث مع ياجو ، فأورد مثل ذلك فى تقرير بعث به الى غراى . . .

فألمانيا برفضها مقترح غراى الخاص بالمؤتمر قد فعلت ذلك لعدة أسباب فلم تكن قد قطعت الرجاء بعد فى إمكان حصر النزاع النمساوى الصربى بين الدولتين وان كانت قد اضطرت الى قطع هذا الرجاء بعد بضع ساعات ؛ ثم كانت تأمل كما أبلغ ياجو جروشن أن تصبح « المحادثات المباشرة » التى

كانت بدأت بين سان بطرسبورغ وفيينا خيرا من غيرها أداة وطريقة لتسوية الأمور بين هاتين الدولتين ؛ وكانت تعلم أن مؤتمراً كالذى كان يقترح مما لا تسيفه حليفها . وكان يتهمان يخشى بطبيعة الحال أن تصبح ألمانيا في مؤتمر كالذى يقترحه السير ادوارد غراى أقلية بنسبة ١ الى ٣ إذ من المقرر أن إيطاليا كانت تقف في صف الوفاق الثلاثى أكثر من وقوفها الى جانب حليفها الاسميتين وبذا تقف ألمانيا في المؤتمر وحدها تمثل وجهة نظر النمسا حيال انجلترا وفرنسا وإيطاليا . فضلا عن أن مؤتمر السفراء كان يمكن ألا يكون مصلحة ألمانيا من الوجهة العسكرية وقرارته كان ينتظر أن تستغرق أياماً بل أسابيع في حين أن روسيا في تلك الأثناء كانت تقوم باستعدادات عسكرية فعالة . فاذا حدث أن فشل المؤتمر ووقعت الحرب أصبحت ألمانيا محرومة من كثير من المزايا العسكرية التي تبقى متمتعة بها اذا استطاعت أن تكون أسرع من روسيا في تعبئة جيشها . وهذه ميزة كانت ألمانيا تعتمد عليها بعض الاعتماد في التغلب على الزيادة في عدد جيوش فرنسا وروسيا . وسبب أخير ربما كان حاسماً في رفض اقتراح غراى الخاص بالمؤتمر هو أن وزارة الخارجية الألمانية كانت قد تلقت في نفس الوقت مذكرة شديدة اللهجة من الامبراطور غليوم يرفض فيها بقوة اقتراح غراى السابق المتعلق بالتوسط بين النمسا وصرىيا .

وعلى أن هنالك تلك الاسباب الكثيرة التي حملت ألمانيا بطبيعة الحال على رفض اقتراح غراى الخاص بالمؤتمر ، ومع أن ألمانيا نفسها صرفت بعد بضع ساعات نظراً عن خطة حصر النزاع بين النمسا وصرىيا ، فقبلت فكرة التوسط وأخذت تضغط على النمسا لقبولها ، فأن رفض المؤتمر كان منها غلطة سياسية خطيرة . كان خطأ آخر من تلك الأخطار المنطوية على الغباء المماثلة لإطلاق يد النمسا في العمل في بوتسدام بتاريخ ٥ يوليه وللتصديق على البلاغ النمساوى النهائي وتبريره بالحث في ٢٤ يوليه على حصر الحرب بين النمسا

وصرياً . . . وقد قوى هذا الخطأ رية دول الوفاق في أن المانيا لم تكن مخرصة في الاحتجاج بأنها راغبة في الاحتفاظ بسلام أوروبا ، وجعل هذه الدول تشك في اخلاصها عند ما سعت بعد ذلك بقليل سعيّاً صادقا في كف النمسا وحملها على قبول التوسط .

لقد كانت فرنسا في الواقع راغبة عن الضغط على حليفها روسيا لمصلحة السلام رغبة المانيا عن ذلك فيما يتعلق بحليفها النمسية . فأن مثل هذا الضغط كان يمكن ان يثير سوء الظن بين الحليفتين في نفس اللحظة التي هما أحوج ما تكونان فيها الى سند احدهما الاخرى كما كان خليقاً أن لا يقابل بالترحاب في العاصمة التي يستخدم فيها . وهذا فيما يتعلق بفرنسا والروسيا ظاهر من فقرات في رسائل ايزفولسكى وسازونوف حذفت من الكتاب البورتقالى الروسى إذ أبرق ايزفولسكى في ٢٧ يولييه عقب عودته من سان بطرسبورغ الى سازونوف يقول :

« لقد باحثت يانفنى مارتان في الحالة عقب عودتى الى باريس مباشرة وكان برتيلو وآبل فيرى حاضرين . فأكدوا تفاصيل ما جرى من السفير الالماني مما أبلغكم اياه سيفاستوبولو في تلغرافيه الرقيمين ١٨٧ و ١٨٨ . إذ نوه « شون » (سفير ألمانيا في باريس) تنويهاً خاصاً بضرورة الأعراب عن تضامن ألمانيا وفرنسا . ويعتقد وزير الحقانية (يانفنى — مارتان) ان هذه الخطرات من جانب ألمانيا ترمى الى غرض واضح هو التفريق بين روسيا وفرنسا وحمل الحكومة الفرنسية على الاعتراض على سان بطرسبورغ واحراج حليفنا بذلك حيالنا ، فاذا نشبت الحرب أخيراً لم تلق المسئولية على ألمانيا التي تبذل كل مجهود للمحافظة على السلام في الظاهر بل تلقى على روسيا وفرنسا واني ليدعشنى مبلغ استيعاب وزير الحقانية وزميليه للحالة وفهمهم إياها هذا الفهم الصحيح ، أعجب لتصميمهم الثابت الهادىء على تأييدنا كل التأييد وتجنب أقل مظهر للخلاف بيننا . »

من حسن حظ وجهة النظر الفرنسية أن اقترح السير ادوارد غراي كان قابلاً لأن يفسر بأنه توسط بين النمسا وصرىا وبين النمسا والروسىا على السواء، لأنه تناول « فينا وبلغراد وسان بطرسبورغ ». وقد تبين فيفيانى هذا فأبلغ يانفنى مارتان من ظهر الطراة فرنسا « أن عمل الدول الأربع التى هى دون غيرها « صالحة لا يمكن ... أن يودى فى فينا وسان بطرسبورغ فقط. فالسير إدوارد غراي بارتياته القيام به أيضاً فى بلغراد — ومعنى هذا فى الواقع أن يكون بين فينا وبلغراد — قد أدرك منطق الحالة . وهو بعدم إخراجها سان بطرسبورغ يتيح من جهة أخرى لألمانيا طريقة للانسحاب موفورة الكرامة والكف عن المسلك الذى أدخلت به الحكومة الألمانية فى روع باريس ولندن انها ترى فى الأمر مسألة نمسوية صرىة ليست لهاصفة عامة . » وقد قبلت وزارة الخارجية الفرنسية أخيراً اقترح غراي فى ٢٧ يولى دون أن تنظر رد فيفيانى، وبناء على الحاج لندن لكنها لم ترد أن يعمل بالاقترح قبل أن تضغط ألمانيا على النمسا إذ أن « وزارة الخارجية ترى أن من الخطر أن يخاطب سفراء الوفاق فينا قبل أن يعرف أن الألمان قد فعلوا هذا ولقوا فى سبيله شيئاً من النجاح . » ومن ثم كان من الصعب تصديق ما قاله الأستاذ أومان من أن « باريس ردت فى الحال رداً فى مصلحة الاقتراح من كل الوجوه . »

ولما قدم اقترح غراي الى سان بطرسبورغ لم توافق عليه ، لأن سازونوف كان قد دخل مع فينا فى محادثات « مباشرة » أملاً فى أن يحمل النمسا على تعديل مطالبها من صرىا فأن سازونوف لو تمكن من اتمام ذلك بمفاوضات ودية فى وقت كانت الاستعدادات العسكرية تجرى فيه على سبيل الاحتياط للفشل ، لأحرز بمساعيه رأساً انتصاراً دبلوماسياً عظيماً للروسىا دون أن يكون مكلفاً بقبول حل للأزمة يأتى به مؤتمر الدول أو توجده فرنسا بنصحها للروسىا بالاعتدال . ولذا أثر أولاً أن يتابع « المحادثات المباشرة »

على ان يجعل السير ادوارد غراى يتقدم بدعوة مؤتمر للسفراء . وبهذه الطريقة يضمن اذا هو فشل فى الاولى أن يلجأ الى الثانية . واليك ما بعث به الى ايزفولسكى مما يفسر رفضه لاقتراح السير ادوارد غراى :

لقد سألنى السفير البريطانى على أثر تعليمات تلقاها من حكومته أتوافق روسيا على أن تتقدم انجلترا الى دعوة مؤتمر فى لندن من ممثلى انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ليبحث رابعتهم فى إمكان الاهتداء الى مخرج من الحالة الحاضرة .

فأجبت السفير بأنى بدأت فعلا محادثات مباشرة مع سفير النمسا والمجر بما يبشر بالخير وأنى لم أتلق بعد رداً على ما اقترحت من تعديل كلتا الوزارتين لمذكرتيهما . فاذا لم تسفر محادثاتنا المباشرة مع وزارة فيينا عن نتيجة كنت مستعداً لقبول اقتراح انجلترا أو أى اقتراح آخر يمكن أن يؤدي الى حل النزاع حلاً سلبياً .

ومع ذلك فأنى أريد من الآن أن أضع حداً لما بدر من سوء الفهم . فإنه اذا كان الغرض التأثير فى سان بطرسبورغ باعتدال فأتنا نرفض ذلك مقدماً لأننا قد وقفنا من مبدأ الأمر موقفاً لا قبل لنا بالحيد عنه إذ نحن قد أجبنا النمسا والمجر الى كل ما يمكن قبوله من مطالبها .

فرد ايزفولسكى مطمئناً يقول :

انه بناء على ما جرى لى أمس من حديث فى وزارة الخارجية الفرنسية فإن وزير الخارجية بالنيابة لا يسلم لحظة بإمكان التأثير فى سان بطرسبورغ بالاعتدال لكنه أجاب السفير الألمانى بأن النمسا هى التى تهدد سلام أوربا لا روسيا ، وانه على أية حال اذا كان لا بد من التأثير بالاعتدال فليكن فى فيينا قبل أن يكون فى سان بطرسبورغ . وقد كان نتيجة حديث الوزير مع البارون شون (سفير ألمانيا) انه — أى الوزير — رفض اقتراح ألمانيا .

والفقرة الأخيرة من برقية سازونوف ورد ايزفولسكى كله ، وكلاهما قد حذف من الكتاب البورتقالى الروسى مع عبارات أخرى لا تتفق وزعم

الروسيا بأن ألمانيا هي الملوثة وأن روسيا قد فعلت كل شيء يمكن لمنع الحرب ، يلقي كله ضوءاً جديداً على الدبلوماسية الروسية في أزمة يولييه . فالروسيا وحليفاتها فرنسا كاتتا تصران على أن تؤثر ألمانيا في فيينا لتحملها على الاعتدال بينا روسيا نفسها ترفض من المبدأ مثل هذا التأثير بالنسبة لها تؤيدها فرنسا . ولما لم تكن واحدة من الدول ، فيما عدا إيطاليا ، قد قبلت اقتراح المؤتمر قبولاً عاجلاً بلا قيد ولا شرط ، ولما كانت روسيا وألمانيا قد صممتا على انتظار نتيجة المحادثات المباشرة أولاً مؤثرين ذلك على الاقتراح فقد رضى غراي بأهمال اقتراحه إذ ذاك .

ونحن نتساءل ماذا كانت تلك ، المحادثات المباشرة ، التي نشأت بين سازونوف وتساباري في سان بطرسبورغ في وقت واحد مع اقتراح غراي الخاص بالمؤتمر ودارت محاذية له ، ثم كانت الى حد ما سبباً لأهماله ؟ .

المحادثات المباشرة

بين فيينا وسان بطرسبورغ في ٢٦ - ٢٨ يولييه

في صباح الأحد ٢٦ يولييه بعد فض مناورات كراسنوسيلو واتخاذ قرارات عسكرية في مساء اليوم السابق ، تقابل الكونت بورتاليس والمسieur سازونوف اتفاقاً على إفريز محطة كراسنوسيلو فاستقلا عربة واحدة وسافرا معا الى سان بطرسبورغ .

ورأى بورتاليس أن سازونوف كان قد هدأ انفعاله كثيراً عما كان عليه في اليوم السابق فاتتهز هذه الفرصة غير الرسمية وأبان لهم أن النمسا لا تحدها نيات عدائية نحو روسيا وأنها إنما تطلب اجراءات تضمن سلامتها وتحميها من الخطر الصربي الجاثم فوق حدودها . فرد سازونوف بأن روسيا كذلك لا تحدها أية رغبة في الحرب وانه لا بد من إيجاد حل يرضى من جهة مطالب النمسا التي يسلم بأنها مشروعة فيما يتعلق بالمخرضين على ارتكاب

الجريمة ، ويجعل من جهة أخرى قبول هذه المطالب ممكناً لصربيا إذ بعض هذه المطالب يجب أن تخف غلواؤه . ثم حض على أن تقوم الدول جميعاً بعمل مشترك للوصول الى ذلك . فأشار عليه بورتاليس عندئذ بأن يحدث تسابارى السفير النمسوى فى سان بطرسبورغ حديثاً صريحاً ودياً وكان سازونوف لم يتبادل وإياه كلمة بعد حديث يوم الجمعة العنيف يوم ووجهه بالبلاغ النمسوى النهائى أول مرة . ولما وصل بورتاليس الى سان بطرسبورغ ذهب لزيارة تسابارى وأخبره بما وجد عليه سازونوف من هدوء النفس والمسألة ثم أشار عليه بالسعى الى التحدث الى الوزير الروسى رأساً حديثاً صريحاً ودياً .

وقد عمل تسابارى بمشورة السفير الألمانى وتوجه على الفور لزيارة سازونوف وجرى له معه حديث ودى مهد له بورتاليس الطريق . (ونحن نورد طرفاً من هذا الحديث) لأن أهم نقطه حذفت من الكتاب البورنقالى الروسى الصادر فى سنة ١٩١٥ ولأنه يلقي ضوءاً شيقاً جداً على سازونوف .

« لقد بالغ سازونوف فى الحفاوة بى بخلاف موقفه معى فى يوم الجمعة ذلك الموقف الجارح ، وذكر لى حديثه مع الكونت بورتاليس ثم قال لو أنى لم أقصد اليه من تلقاء نفسى لكان رجائى أن أزوره ليتمكن من محادثتى بصراحة . فقد بوغت يوم الجمعة الفائت بعض الشئ . فلم يضبط نفسه كثيراً كما كان يحب فضلاً عن أن حديثنا إذ ذاك كان حديثاً رسمياً محضاً .

وقد أجبتة بأنى أيضاً كنت أرغب فى أن تتاح لى فرصة محادثته بصراحة لأنه قد وقع فى نفسى أن أراء خاطئة عن طبيعة عملنا تسود روسيا . . . فالغرض الذى نسعى اليه من وراء هذا العمل هو المحافظة على النفس والدفاع عنها من دعاية عدائية بالقول والكتابة والفعل . وهى دعاية تهدد كياننا . ولن يخطر ببال أحد من النمسا والمجر أن يهدد مصالح روسيا أو يلجأ الى محاربتها . لكننا مصممون كل التصميم على

تحقيق الغرض الذى وضعناه نصب أعيننا ونرى أن الطريق الذى سلكناه هو خير الطرق من الوجهة العملية . ولما كان العمل الذى يتناوله البحث هو من قبيل الدفاع عن النفس فأنى لا أخفى عنه أننا حسبنا حساب كل ما يمكن أن يترتب عليه ومع ذلك فأنى موقن تماماً أنه اذا نشبت حرب بين الدول العظمى فإن العواقب ستكون أوخم ما تكون ويصبح النظام الدينى والأدنى والاجتماعى فى العالم فى خطر . ثم أبنت بصريح العبارة ما يمكن أن يقع اذا نشبت حرب أوربية وهو ما أرجح أن السير ادوارد غراى فعله هنا .

وقد وافقنى سازونوف كل الموافقة وبدأ منه ما يدل على ارتياحه الى يساناتى ثم أخذ يطمئنى على روسيا فليس هو فقط بل الوزارة بأسرها بل مليكه — وهو ما له أعظم أهمية — يحدوهم جميعاً مثل هذا الشعور نحو النمسا والمجر . قال إن المذكرة التى قدمناها ليست موفقة فى صيغتها وقد كان يدرسها فى تلك الاثناء ويحب أن يمررها معى مرة أخرى اذا اتسع وقى لذلك . فأبدت أنى تحت تصرفه غير أنى غير مفوض لافى البحث فى نص المذكرة معه ولا فى تفسيرها . لكن ما يديه عليها من ملاحظات ستقابل بالاهتمام طبعاً . وهنا تناول الوزير المذكرة نقطة نقطة وهو يحدد اليوم أن سبعا منها يمكن قبولها دون كبير عناء وأن ليس سوى النقطتين (٦ و ٥) اللتين تتعلقان باشتراك الموظفين النمسيين والمجريين والنقطة (٤) المتعلقة بأبعاد بعض من الضباط والموظفين المدنيين نعين نحن أسماءهم ، ما يراه هو غير مقبول فى صيغته الراهنة . فأما عن النقطة الخامسة فكان فى إمكانى أن أفسرها تفسيراً صحيحاً يطابق ما جاء ببرقية سعادتك الرقيمة ١٧٢ والمؤرخة فى ٢٥ يوليه لكن عن النقطتين الآخرين قلت إنى لا أعرف كيف تفسرهما حكومتى بيد أن كليهما مطلبان ضروريان . . .

وصفوة القول أن الوزير أعلن أن المسألة فيما يتعلق بالمذكرة (البلاغ النهائى) هى فى الحقيقة مسألة صيغة فقط وأنه قد يكون فى الامكان ايجاد طريقة تقبلها تدلل بها هذه المصاعب وقد سألتى أنقبل توسط حليفنا ملك ايطاليا أو ملك انجلترا ؟ فأجبت أنه لا أستطيع أن

أبدى في هذا رأياً وأنى لا أعلم ما يمكن أن تكون حكومتى قائمة به الآن وأن الأمور أخذت تجري بالفعل وأن بعض الأشياء لا قبل بوقفها اذا هى بدأت تتحرك . هذا الى أن الصريين قد عبأوا جيشهم أمس (يوم السبت ٢٥ يوليه) وما يمكن أن يكون وقع من ذلك الحين لا أعلمه . وفي ختام الحديث أعرب المسير سازه نوف ثانية عن سروره بالايضاحات التى أبديتها وهدأت على التحقيق من روعه وأفصح عن ذلك بلهجة حارة . ثم قال انه سيرفع هذا الحديث الى القيصر نيقولا عندما يراه بعد غد (فى يوم الثلاثاء ٢٨ يوليه) وهو اليوم الذى يحظى فيه برؤيته .

لقد تطورت السياسة الروسية فى يومين اثنين تطوراً كبيراً . فمن الرفض الخشن لمسلكتنا ومن اقتراح اجراء تحقيق قضائى فى « ملفنا » لجعلوا من الأمر كله مسألة أوربية ، من هذا تحولت السياسة الروسية الى التسليم بشرعية مطالبنا والى طلب التوسط . ومع ذلك فيجب أن لا نغفل عن الواقع وهو أنه الى جانب سياسة التقهقر التى يجرى عليها السياسة نشاط كبير من جانب العسكريين . ونتيجة هذا أن مركز روسيا العسكرى والسياسى تبعاً له يهدد كل يوم بأن يصبح أقل موافقة لنا .

لقد كانت النصيحة التى أسداها بورتاليس يوم الأحد الى سازونوف وتسابارى تبشر بأنها ستؤتى ثمارها بفتح الطريق لمحادثات مباشرة « بصورة تدعو الى الاعجاب ولأن كلا الرجلين شكراه من قلوبهما لما رأياه بعد ذلك فى نفس اليوم . وقد كتب فى المساء تقريراً بعد أن حدث كليهما مرة أخرى فقال :

لقد جرى للكونت تساباى حديث مستفيض مع سازونوف مساء اليوم . وكان لهذا الحديث وقع حسن فى نفس الرجلين اللذين حادثتهما على أثره . . . وقد رجاني الوزير باهتمام أن أبدى اقتراحاً ما اذا وسعنى ذلك فأجبت بآنى غير مأذون فى ابداء اقتراحات ما وإذن فأنى أعرب فقط عن آرائى الشخصية . قلت لكن الطريقة الآتية تلوح لى عملية . وهى أنه اذا رضيت الوزارة النمساوية بتحويل صيغة مطالبها بعض الشيء وهو

ما تدل عبارات الكونت تسابارى على أنه ليس مستحيلا ، فقد استطاع الشروع ، وهذا نصب العين ، فى الاتصال بالنمسا رأساً . فاذا أسفر هذا عن اتفاق فعندئذ ... [هنا الشفرة ناقصة] يمكن أن تنصح الروسيا صربيا بقبول مطالب النمسا وإبلاغ الحكومة النمسية ذلك على يد دولة ثالثة . وقد صرح سazonوف الذى جعلته يعتقد بأنى لا أتكلم باسم حكومتى بأنه سيرق فى الحال الى السفير الروسى فى فينا بمعنى اقتراحى .

وهكذا أبرق سazonوف فى مساء الأحد الى السفير الروسى فى فينا يبلغه حديثه مع تسابارى ، ويكلفه أن يرجو برشتولد الأذن لتسابارى بالبحث فى سان بطرسبورغ فى صوغ بعض نقط البلاغ النهائى من جديد صيغة ترضى مطالب النمسا الرئيسية وتكون مع ذلك مقبولة من صربيا . وبهذا فتح الطريق « للحداثات المباشرة » التى آثرتها برلين على اقتراح غراى الخاص بالمؤتمر ووافقت عليها وزارة الخارجية الانجليزية والتى اعتقد باليلوج أيضاً « أنها تفضل كل إجراء آخر وينتظر أن تنجح » . خلاصه ما اقترحه سazonوف كما أوردها هو : « اسحبوا بلاغكم النهائى ، حوروا صيغته ، وأنا أضمن لكم النتيجة . » لكن هذه الآمال كلها كانت لسوء الحظ فى غير موضعها نظراً لعناد برشتولد وتصميمه على المضى فى خطته القاضية بمحاربة صربيا . فهو بدلا من أن يقبل الاقتراحات التى عرضت للحفاظ على السلام قرر أن يحبطها بمواجهة أوروبا بالأمر الواقع وهو إعلان الحرب على صربيا .

الفصل التاسع

مساعى المانيا المتأخرة فى سبيل السلام

كان ييتمان وزملاؤه فى برلين الى يوم الاثنين ٢٧ يوليه لا يزالون مستمسكين بسياستهم التى كانوا يأملون من ورائها ويصرون على أن النزاع النمساوى الصربى يمكن وينبغى ان يحصر بينهما . ففى ساعة مبكرة بعد ظهر الأحد ٢٦ يوليه شرح ييتمان موقف ألمانيا مرة أخرى بعد إذ سمع ببعض القرارات العسكرية التى اتخذتها روسيا فى كراسنو سيلو ، وبأن كافة الاستعدادات تجري لتعبئة الجيش ضد النمسا ، وسعى فى صرف روسيا عن اتخاذ اجراءات يمكن أن تعرض سلام أوروبا للخطر . كذلك كان ييتمان فى نفس الوقت يحض انجلترا وفرنسا على استخدام نفوذهما لدى سان بطرسبورغ لحملها على الاعتدال . لكن هذه المساعى لم تثمر النتيجة المرغوب فيها . . . وفى صباح الاثنين ٢٧ يوليه بعث ييتمان ، بعد أن رفض اقتراح غراى الخاص بالمؤتمر مؤثراً عليه ، المحادثات المباشرة ، ، تقول بعث ييتمان الى باريس برقية يقول فيها : « اتنا لا نستطيع التوسط فى النزاع القائم بين النمسا وصرىا ولكن قد نستطيعه فيما بعد بين النمسا والروسيا ، فكان هذا رأى الخاص بالتوسط بين النمسا والروسيا دلالة على بدء التحول فى موقف ييتمان ودلالة أولى على إمكان العدول عن فكرة حصر الخلاف (بين الدولتين المتنازعتين) وامكان القيام بشئ من الوساطة للوصول الى اتفاق بين فينا وسان بطرسبورغ . وقد أرسلت برقيات بورتاليس المتضمنة نبأ ، المحادثات المباشرة ، الى تشيرشكى فى فينا فى الحال ، وأخبر ياجو القائم بأعمال السفارة الروسية بأنه « لا يستطيع أن ينصح للنمسا بالتساهل لكن

تحويل برقية بورتاليس الى فينا أقرب الى أن يفيد بأنه يوصى بذلك للتخلص من الحالة الراهنة . ، وفي مساء الاثنين كانت هنالك دلائل أخرى على أن يتيان أخذ يسائل نفسه عن حكمة سياسة حصر الخلاف في دائرته .

شكوك ألمانيا في مسألة الحصر

من العوامل المهمة في اتخاذ ألمانيا قرارات عاجلة عودة الامبراطور على جناح السرعة الى بوتسدام في مساء يوم ٢٧ يوليه . فانه يروى عن ياجو أنه قال : إن وزارة الخارجية لتأسف لهذا العمل الذي قام به جلالاته من تلقاء نفسه . فهم يخشون أن تكون عودة جلالاته سيئاً للتكهن وثورة الخواطر ، وقد كان الامبراطور أثناء رحلته الشمالية يتلقى من يتيان تقارير وجيزة غير وافية لكنها تحمل على التفاؤل . وكان غرض يتيان منها أن يظل الامبراطور هادئاً وأن يمنع من اعطاء أوامر الى الاسطول الألماني يمكن أن تحدث انزعاجاً ، لكن يتيان لم يوفق . فقد علم من إمارة البحر أن الامبراطور بناء على برقية لشركة وولف أمر الاسطول بالاستعداد للعودة الى الوطن فتجراً بخضوع على أن ينصح له بأن « لا تأمروا جلالتكم بعودة الاسطول قبل الاوان » فترتب على هذا أن أشر الامبراطور تأشيرة تتفق وما هو مأثور عنه .

ان هذه لدعوة غريبة لم أسمع بمثلها ! ولم أكن لاسيغها يوماً ! لقد حدث هذا بناء على ما اتصل بي من وزيرى عن التعبئة فى بلغراد ! وهذا قد يسبب التعبئة فى روسيا وسيسبب التعبئة فى النمسا . وفى هذه الحالة يجب أن أبقى قوى قتالى فى البر والبحر مجتمعة . فإنه ليس فى البلطيق سفينة واحدة ! ! فضلاً عن انى لم أعتد أن أتخذ اجراءات عسكرية لمجرد برقية من وولف ولكن لما تقتضيه الحالة العامة . وهذه الحالة لا يدركها الى الآن المستشار « المدنى » ...

وعاد أيضاً القادة العسكريون والبحريون الى برلين فى مساء ٢٧ يوليه .

وكان مولتكه قبل أن تنشأ الأزمة قد قدر أن يعود من مستشفى في كارلسباد في ٢٥ يولييه لكنه تأخر يوماً . وعند وصوله تحدث مع يتيان وأقره على أن موقف الهدوء هو الذي ينبغي أن يسود . لكنه أرسل من قبيل الاحتياط الى وزارة الخارجية مشروعاً وضعه بيده للبلاغ النهائي الذي يرسل الى بلجيكا في حالة الحرب . وبعد أن حدث يتيان مرة أخرى في صباح اليوم التالي ٢٧ يولييه كتب الى زوجته : ان الموقف لا يزال غامضاً بشكل بين . ولن تنجلي الحالة سريعاً فإنه لا بد من انقضاء أربعة عشر يوماً قبل أن يستطاع الامام بشيء أو قول شيء معين .

ورجا يتيان الاميرال تربتس في ٢٤ يولييه أن لا يعود من مصيفه في سويسره حتى لا تثير عودته تعليقاً مزعجاً قد يربك وزارة الخارجية فيما تجرى عليه من سياسة « الحصر » ومع ذلك فقد رجع أيضاً الاميرال الأكبر في ٢٧ يولييه الى برلين على مسئوليته معتقداً أن يتيان يسلك طريقاً محفوفة بالمكاره بسماحه لهذا التوتر أن يتطور مع الروسيا ، مؤملاً أملاً أخرق في أن من الممكن حصر النزاع النمساوي الصربي وأن انجلائه تقف على الحياد حتى في حرب تقع في القارة ...

لقد غاظ الامبراطور وموظفيه الذين عادوا الآن الى برلين أن المستشار أبقاهم بعيدين عن العاصمة ولم يحطهم بالحالة إحاطة كافية . وقد أزعجهم بصفة جدية أن يتيان سمح لبرشتولد بأن يذهب الى هذا المدى البعيد في استخدام الحرية المطلقة التي خولت له في ٥ يولييه . وقد قيل لهم إنه لا بد من الهدوء للنجاح في حصر النزاع النمساوي الصربي . لكنهم بلا ريب كانوا من رأى الامبراطور الذي أشرو هو لا يزال في البحر على إحدى نصائح يتيان بالتزام الهدوء على الرغم من اشاعات التعبئة الروسية فقال متهمكاً : « ان التزام الهدوء هو أول واجب على المواطنين !! فتعلقوا بأهداب السكينة !! تعلقوا دائماً بها !! الا ان التعبئة الهادئة شيء بالتأكيد جديد »

لقد رأوا أن أزمة خطيرة تتطور بسرعة عظيمة دون أن تتخذ من أجلها استعدادات عسكرية خاصة وهي التي أخذ وجه الحالة السياسية يتجه من جرائها ، فالروسيا التي تستمد التشجيع من فرنسا وإنجلترا ترفع صوتها بالاعتراض وتتخذ من الاستعدادات العسكرية الواسعة النطاق ما لم يكن في الحسبان . وتقارير ليشنوفسكى الواردة من لندن تنطوى على التطير... وقد أعلن وزير خارجية إيطاليا سان جوليانو أنه ما دامت النمسا لم تستشر حليفها « قبل القيام بحركة عدوانية تنذر الى هذا الحد بالشر... فايطاليا لا يسعها أن تعتبر نفسها ملزمة فيما يتعلق بما يلي من العواقب... » وهكذا أخذ يبدو أن تفاؤل بيتمان وسياسة « الحصر » التي يجرى عليها مما يمكن أن يثبت في شأنه أنه كان خطأ مرعباً .

وقد عقد في ساعة متأخرة من بعد ظهر الاثنين ٢٧ يولييه اجتماع في بوتسدام من الأمبراطور وبيتمان وياجو ومولتك وبعض الموظفين الآخرين فظهر على الرغم من الانفعال من المستشار انه لا يزال هنالك تضامن جوهرى في رأى على أن المستشار محق فيما يرتثيه من إمكان حل الأزمة حلاً سلبياً فلم يتخذوا قرارات عسكرية مهمة . وهكذا ظلت سياسة « الحصر » فيما بدا البرنامج الذى تجرى عليه ألمانيا .

نصيحة ألمانيا للنمسا

يد أنه عند عودة بيتمان وياجو من بوتسدام الى برلين وجدوا طائفة من البرقيات الجديدة تدل على أن الحالة تزداد خطورة وتظهر أن المضى في الاستمسك بسياسة « الحصر » الدقيق لا يخلو من مطعن . وإذن فيجب أن تعباً ألمانيا أكثر من ذى قبل باقتراحات التوسط وأن تنصح لبرشتولد بالأكثر لها . يجب أن تشرع ، دون أن تمس احساسات النمسا أو تجعلها ترتاب في مضيقها في تعضيدها ، في استرداد حرية العمل في المسألة الصربية .

وهو ما سبق لها دون حكمة أن نزلت عنها في ه يوليه . وبدلاً من أن تقول ألمانيا لفينا كما فعلت من ثلاثة أسابيع مضت ، ان الامبراطور لا يسعه بطبيعة الحال أن يتخذ موقفاً حيال المسائل القائمة بين النمسا و صربيا لانها دون اختصاصه ، — نقول بدلاً من أن تقول ألمانيا هذا فأنها يجب أن تقوم بدور الوسيط وتنصح للنمسا بالنظر بعين الاعتبار الى مقترحات انجلترا وروسيا في شأن السلام ، أو فأن ما ينشره سفراء فرنسا من الرية والشبه في أن ألمانيا تعرض النمسا وانها تعرف نص البلاغ النهائي من مبدأ الأمر وانها تريد الحرب وانها سيئة النية في دعواها حب السلام ، — هذه الشبه خليقة أن تزداد فضلاً عن التعرض للخطر لخصومة انجلترا التي قد لا تحافظ على موقف الحياد اذا نشبت الحرب في القارة . وهو حياد كانت ألمانيا تأمله وكانت تعتقد أن الملك جورج وعد به البرنس هنري أوف بروسيا ولما يكد .

كان من بين ما وجده يتمان وياجو من البرقيات برقية بالنص الكامل للرد الصربي سلمته المفوضية الصربية الى وزارة الخارجية في ساعة مبكرة بعد الظهر . ومع أن يتمان قد أفهم أن الرد موافق لكل النقط تقريباً ، فأن قراءة النص أرتته بصورة بينة أنه ينطوى على المسألة وأن صربيا ذهبت الى مدى بعيد في التسليم بالمطالب . وربما كان قد غاظه من برشتولد أنه لم يكن قد أرسل الى برلين نسخة منه بعد .

وكانت هناك أربع برقيات جديدة تنبئ بالاستعدادات العسكرية التي قامت بها روسيا على امتداد الحدود الألمانية . فكوفتو ضربت عليها حالة الحرب ومصب الدويناسد بالألغام والجنود يتنقلون في عدة مواضع .

وجاء في برقية من فينا أن النمسا قررت بغته أن تعلن الحرب رسمياً غداً أو بعد غد على الأكثر ليقطع الطريق أولاً على كل محاولة للتدخل ، وذلك بدلاً من أن تلتزم الخطة التي سبق أن أبلغتها برلين إياها وهي الانتظار الى ١٢ أغسطس وعندئذ يفكر في حشد الجنود .

ووجدنا بريقة من ليشنوفسكى تدل على حقيقة مقلقة هي أن السير ادوارد غراى أخذ ينقد صبره من ناحية ألمانيا . وكان غراى قد فرغ توة من قراءة الرد الصربى ووجد أن « صربيا قد وافقت على مطالب النمسا الى درجة لم يكن ليعتقد مطلقاً بإمكانها » ، فإذا رفضت النمسا قبوله أساساً للمفاوضات أو احتلت بلغراد « فلن تستطيع روسيا أن تقف رابطة الجأش حيال عمل كهذا وسوف تعتبره تحدياً مباشراً لها . ونتيجة ذلك أن تقع أشد الحروب التي عرفتها أوروبا رعباً . وحرب كهذه لن يستطيع أحد أن يقول الى أين تسوق » ، لذلك رجا غراى ألمانيا أن تستخدم نفوذها لحل فينا على قبول الرد الصربى إما باعتباره مرضياً وأما كقاعدة لمفاوضات . وهو يعتقد أن في إمكان ألمانيا أن تسوى المسألة باعتراضها الاعتراض المناسب قال ليشنوفسكى : « وقد رأيت الوزير لأول مرة محققاً . وكان يتكلم في جد بالغ ويلوح انه يتوة على كل حال أن نستخدم نفوذنا بنجاح لتسوية المسألة واني أعتقد أنه اذا وقعت الحرب بعد هذا كله فلن يكون في استطاعتنا الاعتماد على عطف بريطانيا أو تأييدها إذ كل دليل على سوء النية سوف يرى في مسلك النمسا » .

بالنظر الى كل هذه الأنباء الخطرة قرر بيتمان أن الوقت قد حان لاجابة غراى الى ما طلبه من التوسط فأبرق الى تشيرشكى في فينا بنص بريقة ليشنوفسكى بما احتوته من إنذار واقتراح من غراى بقبول المذكرة الصربية قاعدة لتسوية . ثم أضاف الى ذلك قوله :

ما دمنا قد رفضنا اقتراحاً انجليزياً بعقد مؤتمر فمحال علينا أن نرفض هذا الرأي الانجليزى أيضاً . فأتينا برفض كل اقتراح للتوسط نعرض أنفسنا لأن يعتبرنا العالم بأسره مسئولين عن الحرب ، ويقدمنا على أننا المحرضون الاصيلون عليها . وهذا أيضاً مما يجعل مركزنا في بلادنا مستحيلاً حيث يجب أن نظهر بأننا أرغمنا على الحرب ارغاماً . وكلما ظهر أن صربيا قد سلبت الى درجة كبيرة جداً كلها ازداد مركزنا صعوبة

لذلك لا يسعنا أن نرفض دور الوسيط ويجب أن نعرض المقترح الانجليزي على وزارة فينا لتتظر فيه بخاصة ولندن وباريس ماضيتان في جعل سان بطرسبورغ تشعر بنفوذهما . انى أرجو أن يبدى الكونت برشتولد رأيه فى المقترح الانجليزي وكذلك ما يراه فى رغبة المسير سازونوف المفاوضة رأساً مع فينا .

فى الوقت الذى كان تشيرشكى يقدم فيه هذا التبليغ الى برشتولد اجابه الوزير النمساوى : إنه مذ بدأت صربيا بالقتال وأعلنت النمسا الحرب عليها أصبحت خطوة انجلترا هذه متأخرة . ، وهكذا واجه برشتولد حليفته كما واجه أوروبا بالأمر الواقع وهو محاربة صربيا وبذا قطع الطريق على أية محاولة للتدخل . ،

وقد دار بحث كثير حول عمل يتمان فى هذا الشأن وهل كان فيه مخلصاً وقد أبرق فى المساء عينه سفير النمسا فى برلين سيجينى الى برشتولد فى التاسعة والربع يقول :

(١) لقد أبلغنى وزير الخارجية (ياجو) فى صورة حاسمة وبصفة سرنة جداً أن الحكومة الألمانية ستحيط سعادتك قريباً بمقترحات يمكن أن يقدمها الانجليز بقصد التوسط .

(٢) والحكومة الألمانية تؤكد انها لا دخل لها البتة بهذه المقترحات بل هى تمنع كل الممانعة فى بحثها وهى انما تبلغها إجابة لرجاء الانجليز .

(٣) انها حين تفعل ذلك تضع نصب عينها أن من الأهمية بأعظم مكان أن لا تتضامن انجلترا مع روسيا وفرنسا فى الوقت الحاضر . ولذا فإنه يجب أن يتجنب كل ما من شأنه أن يقطع الصلة التى بين ألمانيا وانجلترا والتى كانت الى الآن ذات فائدة تذكر . والا فلو قالت ألمانيا للسير ادوارد غراى فى صراحة انها لن تبلغ رجاءه الى النمسا والمجر وهو الرجاء الذى ترى انجلترا أن من المتظران ينظر اليه بعين الاعتبار اذا قدم بواسطة ألمانيا ، لكان هذا خليقاً بأن يودى الى حالة تجنبها جوهرى جداً .

(٤) هذا الى أن الحكومة الألمانية في كل طلب منفرد من هذا القليل تقدمه انجلترا لفينا تقول لها بأوكد عبارة انها لن توافق للنمسا والمجر على محاولات كهذه للتدخل وانما تبلغها عملاً برغبة انجلترا .

(٥) لقد قامت الحكومة الانجليزية يا جو أمس كما قال لي ، على يد السفير الألماني في لندن وبواسطة ممثلها هنا رأساً لتقنعه بتأييد طلب انجلترا القاضي بتعديل المذكرة (البلاغ النهائي) المقدمة الى صربيا . وقد رد يا جو انه سيعمل بالتأكيـد برغبة السير ادوارد غراي فيبلغ طلب انجلترا الى سعادتكـم لكنه نفسه لا يوافق عليه لأن النزاع الصربي مسألة تناول هيئة النمسا والمجر وهو ما تهتم له ألمانيا أيضاً .

(٦) وعلى ذلك أبلغ الوزير مذكرة السير ادوارد غراي الى المرفون تشيرشكي ولكن دون أن يكلفه بعرضها على سعادتكـم . وعلى ذلك أمكنه أن يبلغ الوزارة الانجليزية انه لم يرد رغبة انجلترا مباشرة بل لقد حولها الى فينا .

(٧) لقد كرر الوزير موقفه في الحتام ورجاني ، تفادياً من حدوث أي سوء فهم ، أن أؤكد لسعادتكـم أن قيامه في هذه الحالة بدور الوسيط لا يعني مطلقاً انه يحبذ قبول المقترح الانجليزي .

ولدينا عدة ملاحظات تبديها على تلغراف سيجيني ، ذلك التلغراف الذي لا يخلو من الاضطراب وعدم الصحة والتكرار .

(١) انه ليس واضحاً كل الوضوح في الفقرة الرابعة ما اذا كانت كلمة لها تعني انجلترا أو فينا . فأقدر الاخصائيين الفرنسيين والألمان وهما ريتوفان ومونجلاس يفسرانها بأنها تعني انجلترا . فاذا كان هذا هكذا فأن سيجيني يكون مناقضاً نفسه في الرأي الجوهرى الذى أعرب عنه في الفقرات الثلاث الاولى . أما اذا كان المعنى بها فينا فأن قول سيجيني ينقضه أن الحكومة الألمانية لم تصرح أبداً في فينا بأنها لن توافق للنمسا بحال من الأحوال على مثل هذه المحاولات للتدخل . ،

(٢) ليس واضحاً من الفقرة الخامسة ما يشير اليه سيجيني . فأن انجلترا

لم تبد في ٢٦ يوليه (أمس) رغبة في تعديل المذكرة (البلاغ النهائي) المقدمة الى صربيا. وقد يكون الأمر قد التبس على سيجيني فأراد طلب غراي الذي يرجع تاريخه الى ٢٥ يوليه (لا أمس) والذي وصل برلين في نفس اليوم. وكان مؤداه أن ألمانيا قد تشعر بأنها قادرة على التأثير على الحكومة النمسية فترضى عنه (عن الرد الصربي). وهذا الطلب كما ذكر سيجيني في الفقرة السادسة أرسل على الفور فعلا الى تشيرشكي في فينا وأبلغت انجلترا ذلك. ويصعب أن سيجيني كان إذ ذاك يفكر في اقتراح انجلترا الخاص بمؤتمر السفراء والذي قدم في لندن الى تشيرشكي في ٢٦ يوليه وقدمه جوشن في ٢٧ يوليه الى برلين (وكلا التاريخين لا يمكن أن يطلق عليهما «أمس») — وهو اقتراح رفضته ألمانيا في الحال صراحة — لأنه بعث عنه تقريراً فيما بعد (٣) ليس من دليل على أن ياجو قال لانجلترا أن النزاع الصربي مسألة تتعلق بهيبة النمسا والمجر، وهو ما تهتم له ألمانيا أيضاً، كما زعم سيجيني في ختام الفقرة الخامسة.

(٤) كان سيجيني في ذلك الحين قد بلغ من السن ما تقر به معه استدعاؤه واختيار خلف له. وسنه واجهاد تلك الأيام لأعصابه يفسران الخلط وعدم الدقة في برقيته ثم هما يجعلان الثقة التامة في هذه البرقية موضعاً للشك بخاصة وهذه المرة ليست الوحيدة التي ثبت فيها عدم دقته في هذه الأزمة وأنه لا يمكن التعويل على كلامه.

(٥) والملاحظة الأخيرة والأهم هي أن سيجيني وهو يقول في الفقرة الأولى: إن الحكومة الألمانية ستحيط سعادتك قريباً بما يمكن أن يقدمه الانجليز من مقترحات للتوسط. ، كان مفروضاً أنه يشير الى برقية ليشنوفسكي التي يقترح فيها التوسط على أساس الرد الصربي والتي أبلغت مع تعليق يتمان وأسلفنا نحن بيانها. فإذا كان هذا هو الواقع وكانت برقية سيجيني جدية بالثقة (وهو ما يشك فيه) لشاب ذلك إخلاص يتمان في عمله ووصمه وصمة

شنيعة . لكنه من المحتمل كل الاحتمال أن الذي فهم سيجيني من ياجو أنه سيبلغ فينا قريباً لم يكن برقية ليشنوفسكى وإنما الاقتراح الانجليزى الخاص بعقد مؤتمر من الدول الأربع . وقد رفض ياجو الاقتراح صراحة بتاتاً ولم يكن هنالك خداع أو غش في قوله لسيجينى أن الحكومة الألمانية تعارض مطلقاً في النظر فيه ، وانها إنما تبلغه عملاً برغبة انجلترا . وقد يعترض بأن ياجو لا يلوح انه أبلغ اقتراح المؤتمر الى فينا . وهذا سهل تفسيره . فأنه في صباح ٢٧ يوليه لم تكن برلين تعلم باقتراح المؤتمر الذى تضمنه البرقية التى أرسلها ليشنوفسكى في مساء الأحد الا بصورة غير نهائية وصفة غير رسمية . وليس بعيد أن يكون قيل لسيجينى أن ألمانيا لا توافق عليه وانها اذا أبلغته لفينا فلن يكون معنى ذلك انها تقره بحال من الأحوال .

بعد ذلك تقدم جوشن بطلب المؤتمر رسمياً فرفض الطلب ، لكن ياجو وبيتان في مجلتهما الى بوتسدام اهملا ابلاغه الى فينا ، فلما عادا من بوتسدام وتلوا نص الرد الصربى ثم وجدا برقية ليشنوفسكى تشتمل اقتراحاً حسناً بالتوسط أبلغا هذا الاقتراح الأخير بدلاً من اقتراح المؤتمر . واعتراض آخر يمكن أن يعترض به على أن سيجينى كان يفكر في اقتراح بمؤتمر قد يبلغ فينا قريباً هو الحقيقة الواقعة في أن برقيته أرسلت في الساعة التاسعة والرابع مساءً ولا يمكن أن تكون هذه البرقية متعلقة بحديث جرى عند الظهر ويرد على هذا الاعتراض بأن سيجينى كثيراً ما تأخر عدة ساعات في الحصول على أخبار من وزارة الخارجية الألمانية وفي إبلاغها الى فينا . فهذا التأخير الذى يتناول تسع ساعات ليس من غير المألوف منه . مثال ذلك أن ألمانيا طلبت من فينا نص الرد الصربى في منتصف الثانية عشرة صباحاً فلم يبلغ سيجينى الطلب الا في الساعة السادسة الا عشر دقائق مساءً ، وان جوشن أبلغ رفض اقتراح المؤتمر في الساعة السادسة والدقيقة ١٧ من مساء الاثنين أما سيجينى فلم يبلغه الا بعداً أكثر من أربع وعشرين ساعة أى في يوم

الثلاثاء في الساعة الثامنة الا ثلثا مساء . هذا الى أنه من المشكوك فيه أن يكون
بيتمان وياجوا عادا من بوتسدام مبكرين بزمان يكفي لقراءة برقية ليشنوفسكى
وابلاغ سيجينى انهما لا يوافقان عليها وانهما يوصلانها ارضاء لانجلترا
ثم يكون بعد ذلك ما يكفي سيجينى لأن يضع كل ما وضع بالشفرة ويرسله
في الساعة التاسعة والرابع .

لذلك يلوح أنه هنالك كل ما يحمل على الاعتقاد بأن برقية سيجينى كانت
تشير الى اقتراح المؤتمر الذى رفض صراحة لا الى الاقتراح الذى قدم بعد
ذلك بالتوسط وأبلغه بيتان حوالى منتصف الليل .

ومن ثم يصح أن نستخلص أن بيتان كان مخلصاً في مساء ٢٧ يولييه في
اتخاذ دور الوسيط الى درجة أنه دعا برشتولد الى النظر في مقترحات السير
ادوارد غراى والمسيو سازونوف للوصول الى تسوية تقبل بها النمسا رد
صريا كقاعدة مرضية ارضاء كافياً للقيام بمباحثات أخرى . وليس شك في أن
بيتمان كان متأثراً الى حد كبير برغبته عن مخاصمة انجلترا لكنه لو كان هذا
هو باعته الوحيد على تبليغ الاقتراح الانجليزى كما تعتقد طائفة من مفسرى
برقية سيجينى لما كانت به حاجة الى إدخال « محادثات سازونوف المباشرة »
ضمن المقترحات التى طلب الى برشتولد أن ينظر فيها . كذلك لا ريب في أنه
كان أخلق بيتان أن يكون أقوى نصحاً بما كان اذا كان أراد أن يستوثق من
اعتدال النمسا . لكنه لم يشأ أن يمس إحساسها أو يثير شكوكها حول ولاء
المانيا كخليفة . ومع ذلك فلو أنه خاطبها بأحزم مما خاطبها به لكان حال دون
إعلان النمسا الحرب على صربيا لأن برشتولد كان قد قرر الالتجاء الى ذلك
« ليقطع الطريق على أية محاولة للتدخل . » فلما قدم تشيرشكى رسالة بيتان
قال له انه ما دامت النمسا وصربيا في حالة حرب بالفعل « فحركة انجلترا قد
جاءت متأخرة » .

اعلان النمسا الحرب على صربيا

في ٢٨ يولييه

كان الخوف عاماً في أوروبا من أن تتبع النمسا قطع العلاقات السياسية مع صربيا بإعلان الحرب أو البدء بالعداء . وهذا أيضاً ما كانت ألمانيا تنتظره وتنصح به قبلاً لضمان « حصر » النزاع وتقليل احتمال تدخل روسيا بالسرعة في العمل . فلما لم يقع هذا تنفسوا الصعداء وقوى الأمل في نجاح « المحادثات المباشرة » لكن السبب الذي من أجله لم تأت الأعمال العسكرية على أثر قطع العلاقات السياسية هو أن أول يوم من أيام التعبئة الجزئية النمسية لم يكن ليقع قبل ٢٨ يولييه ولم يكن ليتمكن احتشاد الجيوش قبل مضي أسبوعين من ذلك اليوم . ولم يكن كونراد يريد الحرب قبل أن يتم احتشاد جيوشه . وقد أبلغ تشيرشكي ذلك عند ظهر يوم ٢٦ يولييه وعلمت به برلين في صباح ٢٧ يولييه ولذا لم تكن تتوقع إعلان الحرب أو بدء العداء قبل ١٢ أغسطس ... لكنه في ٢٧ يولييه عندما اتصل بالنمسا نبأ الاستعدادات والمظاهرات العسكرية (الروسية) في كراسنو سيلو قررت « اعلان الحرب غداً أو بعد غد على الأكثر ، لتقطع الطريق على أية محاولة للتدخل . »

ومثل هذا التدخل كان يلوح أكثر احتمالاً في غضون المساء عندما وصلت رسالة تساباري التي يقترح فيها اجراء « محادثات مباشرة » وجاء نبأ اقتراح غراي الخاص بعقد مؤتمر . لذا كلف برشتولد تساباري أن في إمكانه أن يحدث سازونوف ولكن دون أن يرتبط بشيء . وفي نفس الوقت كانت صيغة اعلان الحرب على صربيا توضع ومعها مذكرة لأقناع الأمبراطور فرنسوا جوزيف بأن يأذن بأرسالها في ساعة مبكرة من صباح الغد ... وهكذا أحبطت النمسا بمبادرتها الى إعلان الحرب مقترحات انجلترا والروسيا باتخاذ الرد الصربي قاعدة لمفاوضات ، وخلقت حالة جديدة . ولمعالجة هذه الحالة الجديدة بادرت ألمانيا وانجلترا الى تقديم عدة مقترحات

للمحافظة على سلام أوروبا ولأرضاء النمسا وصرىا فى الوقت نفسه (أما الروسىا فلم تعد تقدم شيئاً) ومن بين هذه المقترحات ما وضعه الإمبراطور الألمانى قبل أن يعلم بأن النمسا أعلنت الحرب بعدة ساعات ، من خطة كانت تعرف على العموم « بخطة الرهينة ، أو « قفوا فى بلغراد ،

« خطة رهينة الإمبراطور »

كان الإمبراطور قد وقع الرد الصربى من نفسه موقعاً حسناً لما انطوى عليه من روح المسالمة والأذعان واعتبر أن النمسا قد أحرزت به نجاحاً سياسياً كما يبدو من تعليقه عليه :

« هذه نتيجة باهرة لأنذار محدد بثمان وأربعين ساعة . وهذا أكثر مما كان فى الأمكان توقعه ! انه نجاح معنوى عظيم لفينا ينتقى معه كل داع للحرب . وقد كان خليقاً بجيزل أن يبقى هادئاً فى بلغراد ! وما كنت أنا لأمر بتعبئة بعد شيء كهذا . »

وقد كتب فى الحال الى ياجو يقول : «... انى اقترح أن نقول للنمسا إن صربىا قد أرغمت على التقهقر بصورة مذلة جداً ونحن نقدم تهانينا . ونتيجة ذلك بطبيعة الحال انه لم يعد هنالك داع للحرب . لكنه من المرجح أن يكون الحصول على ضمانة ، بأن الوعود التى أعطيت ستنفذ ، ضرورياً . وهذه يمكن الحصول عليها باحتلال عسكري مؤقت لجزء من صربىا شبيه بالطريقة التى خلفنا بها جانباً من جيشنا فى فرنسا سنة ١٨٧١ الى أن دفعت البلانيين . على هذه القاعدة أنا مستعد للتوسط فى السلم لدى النمسا ... فقدم لى اقتراحاً بهذا ليرسل الى فينا . »

لكنه قبل أن يضمن اقتراح الإمبراطور فى رسالة تبلغ الى النمسا كانت الأخيرة كما قدمنا قد أعلنت الحرب على صربىا . وقد بقى أن نرى هل أظهرت النمسا وخاصة الروسىا استعداداً لقبول اقتراح الإمبراطور الخاص بالتوسط وهو ما قدر بأخلاص أن يحول دون وقوع حرب أوربية .

قبل أن يحمل كتاب القيصر الى ياجو من بوتسدام الى برلين ويوضع في صيغة اقتراح بين لفينا كان يتمان قد تلقى أنباء مثيرة عن شروع برشتولد في التلويح بالحسام الألماني واهماله المتواصل لنصيحة ألمانيا القاضية بارضاء ايطاليا وتبنيته النية على تقسيم صربيا . وقد كان يتمان يفهم في ٥ يولييه انه يوافق على تأييد النمسا في مصالحها الحيوية بوضع حد لدعاية صربيا الكبرى ، الخطرة . فهذا الخطر قد غنى به الرد الصربي الآن اذا أنجزت الوعود التي تضمنها . لكن الذي لم يكن يفهمه أو يتوهمه هو أن ترغم ألمانيا على السير وراء برشتولد في خططه السرية التي كتمتها النمسا عن حليفها والتي قد تجر الى تفكك المحالفة الثلاثية بانسحاب ايطاليا منها ، بل ربما كدورت سلام أوروبا في صورة تظهر ألمانيا والنمسا بمظهر المسئولين ؛ وهو لم يكن يسمح بأن تظاهر روسيا والصحافة التي تدعو الى اجماعة السلافية صربيا في الماضي في دعاية التوسع لكنه من جهة أخرى كان يرى أن الأخلق بالنمسا أن ترضى رغبة روسيا في عدم تقسيم صربيا .

لذلك رفض يتمان أن يسمح لبرشتولد بالتلويح بالسيف الألماني . وكان برشتولد وكونراد قد طلبا الى تشيرشكي أن تنذر برلين سان بطرسبورغ بأن الاستعدادات العسكرية المتخذة ضد النمسا قد باتت من التهديد بحيث يتحتم اتخاذ اجراءات تقابلها . لكن يتمان بدلا من أن يجيب هذا الطلب اجتهد في تهدئة ولاية الأمور في فينا وكبحهم بقوله لهم : « ان التقارير العسكرية الواردة عن روسيا ليست ، على قدر ما هو معلوم هنا ، سوى اشاعات لم تثبت بعد . فأبداء تصریح بهذا المعنى لدى سان بطرسبورغ يلوح اليوم في رأى الجنرال مولتكه سابقاً لأوانه . » وقد رد في نفس الوقت على سازونوف الذي سلم « بأنه يجب أن توجد طريقة تعطى صربيا الدرس الذي تستحقه وتحفظ لها في الوقت عينه حقوق السيادة ، وكان رده أن كلف بورتاليس بأن يخبر سازونوف أنه شاكر له رسالته وروحها الودية مؤملاً أيضاً أن يكون اعلان

النمسا انها لا ترمى الى غرض بعملها مرضياً للروسيا وصالحاً لان يكون قاعدة لاتفاق تال

والذى أثار يتيان أكثر من غيره هو ما تلقاه من لندن عن أعمال النمسا .
فمح أن برشتولد كان قد تنقأ أية نية على ضم شيء من الأراضى الصربية وأعلن أنه لا مصلحة للنمسا فى الأراضى الصربية فقد أسر السفير النمساوى فى لندن الى ليشنوفسكى أن صربيا « ستمرغ فى التراب ، وإن النية معقودة على تقديم جهات من صربيا الى بلغاريا وربما أيضاً الى البانيا . » وهذه نيات خفية أبديت فى مجلس الوزراء النمساوى المنعقد فى ١٩ يولييه لكنها كانت على نقيض ما كان يتيان يتوقعه وعكس ما كان يقوله للدول بأخلاص . لذلك أثبت فى غضب أن هذا الخداع لا يحتمل من النمسا : « هم يرفضون أن يحيطوننا ببرامجهم ويعلنون صراحة أن أقوال الكونت هويوس التى اقترح فيها تقسيم صربيا لا تعبر الا عن شخصه . يتظاهرون لسان بطرسبورغ بأنهم حملان لا تنطوى ضلوعهم على نية سيئة ، وفى لندن تتحدث سفارتهم بأعطاء قطع من الأرض الصربية لبلغاريا والبانيا . »

وهكذا تناول يتيان اقتراح الأمبراطور الذى عرض فيه التوسط على قاعدة « خطة الرهينة » وضمنه البرقية الآتية الى فينا :

« . . . ان الحكومة النمساوية المجرية على الرغم من استفساراتنا المتكررة عن أغراضها قد تركتنا على غير هدى . والرد الذى بيدنا الآن من الحكومة الصربية على البلاغ النمساوى النهائى يظهر أن صربيا قد قبلت فى الواقع مطالب النمسا الى مدى بعيد جداً حتى انه لينتظر أن ينقلب الرأى العام الأوروبى على الحكومة النمساوية المجرية اذا هى اتخذت موقفاً لا هوادة فيه على الإطلاق) والمفروض أنه بما يدعو الى ارتياح الروسيا) أن تكرر وزارة فينا فى سان بطرسبورغ ما أعلنته بصورة بيئة من أنها لا ترمى الى الحصول على شيء من أراضى صربيا وأن تصرح بأنها لا تبغى باجراءاتها للعسكرية سوى الاحتلال المؤقت .

لبغراد ونقط أخرى معينة في الأرض الصربية كما تضطر الحكومة الصربية الى تنفيذ المطالب تنفيذاً تاماً ، وليكون من ذلك ضماناً لحسن سلوكها في المستقبل وهو ما لا ينازع حق النمسا فيه بعد الذي خبرته من صربيا . ويمكن اعتبار هذا الاحتلال من قبيل احتلال المانيا لفرنسا بعد صلح فرانكفورت ضماناً لأداء الغرامة الحرية . فإذا ما نفذت مطالب النمسا انسحب النمسيون . . . ان عليكم في الحال أن تبدوا ذلك للكونت برشتولد بهذا المعنى وبقوة ، وأن تحملوه على أن يخطو الخطوة المناسبة لدى سان بطرسبورغ . وعليكم أن تعنوا بأن تتجنبوا أن يقع في النفس اننا نقيد حركة النمسا . فالمسألة هي أننا نريد الاهتداء الى طريقة تحقق غرض النمسا وهو القضاء على دعاية صربيا الكبرى دون أن نسبب حرباً أوربية ، فإذا وقعت هذه الحرب في النهاية فأن نحسن على قدر المستطاع الأحوال التي نخوض فيها غمارها .

لقد كانت برقية بيتمان هذه خطوة في الطريق السوي . . . لكن لهجتها لم تكن من القوة بحيث تكفي لأرغام برشتولد على الموافقة في الحال . وهي لم تكن تتفق تماماً مع تعليمات الأمبراطور التي كانت أحسم منها إذ أمر بأن يقال لفينا « انه لم يعد ثمت ما يدعو الى الحرب » فيتمان كان يخشى أن يمس احساس النمسا أكثر مما يجب وكان معنياً أكثر مما يجب بمنع المسؤولية عن الحرب أن تقع على ألمانيا والنمسا منه بمنع هذه الحرب نفسها من الوقوع .

برقيات « ويللى ونيكى »

لقد أبلغ بيتمان سازونوف بالطرق الدبلوماسية المعتادة أن ألمانيا تتوسط لدى فينا لحل النمسا على الاتفاق رأساً مع روسيا اتفاقاً مرضياً لكنه الى جانب ذلك قرر في مساء ٢٨ يولييه نفسه أن يلتجئ الى وسيلة أخرى هي أن يتبادل الأمبراطور والقيصر البرقيات رأساً . وقد كانت المراسلات بين ويللى ونيكى فيما مضى مما أدى كثيراً الى توطيد الصداقة الموروثة والعلاقات الحسنة بين بروسيا والروسيا . فهي قد تنفع في الوقت

الحاضر في التخلص من المتاعب . وعلى ذلك وضعت وزارة الخارجية مشروع برقية رفعها الى الامبراطور فأدخل عليها عدة تغييرات ثم أرسلها من برلين في الساعة الثانية الا ربعا من صباح يوم ٢٩ يوليه :

« لقد أثار أشد الاهتمام في نفسى ما سمعته عن وقع الاجراء الذى اتخذته النمسا ضد صربيا في بلادكم . ولقد كانت تلك الجريمة الشنعاء التى ذهب ضحيتها الغراندوق فرديناند نتيجة لحملة التهييج المنطوية على الاستهتار القائمة في صربيا منذ عدة سنين ، فلا تزال الروح التى دفعت بالصريين الى قتل ملكهم وزوجته سائدة في البلاد . وليس شك في أنك توافقنى على أن لكينا ، أنت وأنا ، كما لكافة الملوك مصلحة مشتركة في الاصرار على أن الأشخاص المسئولين أدياً عن هذا القتل الخسيس ينبغى أن يقتص منهم الاقتصاص الذى يستحقونه . والسياسة لا شأن لها في هذا الصدد بحال من الأحوال .

على أنى من جهة أخرى أفهم تماماً أن من الصعب عليك وعلى حكومتك أن تواجهوا تيار رأيكم العام . لذلك وللصداقة القلبية الخالصة التى تربط كلينا بأوتق الروابط من زمن مديد ، فأنى استخدم أقصى نفوذى لحمل النمسيين على أن يصلوا رأساً الى اتفاق مرض معكم ولى ملء الثقة أنك ستعيننى على مجهودى لتذليل المصاعب التى لا يزال في الامكان أن تنشأ .

صديقك وأخوك المخلص جداً « ويللى »

وقد خطرت هذه الفكرة للقيصر ولقته الناصحين القليلة المحيطة به في وقت واحد تقريباً إذ كانت هذه الفئة تتوق مخلصاً الى الحيلولة دون تطور النزاع النمسى الصربى الى حرب بين روسيا وألمانيا . وقد أخبر البرنس تروبتسكوى شيلويس ممثل الامبراطور الشخصى لدى القيصر أن رد صربيا واستعدادها لعرض المسألة على التحكيم ينبغى أن يجعل في الامكان تجنب الحرب الاوربية . . . ثم أعرب عن رجائه في أن ينصح الامبراطور

لننمسا بأن لاتشد القوس أكثر مما يجب بل أن تسلم بوعود صربيا المنطوية على المسألة وتقبل التحكيم أمام محكمة لاهاى ، قال : « ولقد كانت عودة إمبراطوركم مما جعلنا كلنا أروح بالاً لأننا نثق بجلالته ولا نزيد حرباً وكذلك القيصر نيقولا . وأنه لمن الخير أن يصل الملكان بالبرق الى تفاهم ،

وفكرة عرض النزاع النمساوى الصربى على محكمة لاهاى كانت فكرة عزيزة على القيصر فالفضل فى هذه المحكمة يرجع اليه . وقد كتب الى سازونوف بذلك فى ٢٧ يولييه وكتابه فى هذا الشأن إحدى الدلائل على رغبته الأكيدة فى استخدام كل وسيلة للحفاظ على السلام .

لكن سازونوف لم يلتفت اليه بل كان يعتمد على خديعة النمسا وحملها على التقهقر سياسياً بما كان يهدد به من التعبئة الجزئية فى وقت كان يتخذ فيه تلك الاجراءات الواسعة التى تستلزمها « الفترة المعدة للحرب » ليسهل بذلك الاسراع فى التعبئة العامة . فبينما كان القيصر يقترح تحكيم محكمة لاهاى كان وزير خارجيته يرسل تعليماته الى رجاله فى الخارج بأن يبرقوا اليه بكل معلوماتهم عن حركات الجنود ، وكان يرفض مقدماً كل نصيحة لسان بطرسبورغ بالاعتدال ويطمئن الجبل الأسود بأن روسيا لن تقف ساكنة لما يصيب صربيا وأنه لذلك ينبغى أن يلائم الجبل الأسود بين سياسته وسياسة صربيا . على أنه لم يكن ثمة أى احتمال للنجاح لو أنه اتخذ الاجراء الذى طلبه القيصر فقد كان من المؤكد أن النمسا ترفضه وملاحظة الإمبراطور التى أبداهها فى تقرير شيلبوس على هذا الاجراء كانت كلمة « هراء ! » والحقيقة هى أن أحداً من كبار الساسة فى أوروبا لم ينظر من بدء الأزمه بعين الجدل الى ما اقترحه باشتش من عرض هذه المسألة السياسية المشثومة للتحكيم

لقد كان القيصر كالبرنس تروبتسكوى وبيتمان يعلق الأمال على تبادل البرقيات رأساً مع الإمبراطور (فكتب اليه :)

« إني مسرور بعودتك وأناشدك فى هذه اللحظة العصية أن تعيتنى .

فقد أعلنت حرب ذرية على دولة ضعيفة . والسخط الذي أشاطر روسيا إياه كل المشاطرة هائل . وأنى لأتنبأ أنه عما قريب سميغرنى الضغط الذي يستخدم معى فأضطر الى اتخاذ اجراءات متطرفة ستؤدى الى الحرب . فسعيأ وراء تجنب نكبة كالحرب الاوربية أرجوك باسم صداقتنا القديمة أن تفعل ما فى وسعك لوقف حلفائك عن المضى الى أبعد مما يجب .

وقد رد الامبراطور على ذلك فشاطر القيصر رغبته فى المحافظة على السلام ثم أبدى أن الاجراءات العسكرية التى تتخذها روسيا والتى سترها النمسا مهددة لها ستعجل بالنكبة التى يرغب كلانا فى تجنبها وستخرج مركزى كوسيط وهو ما قبلت بارتياح أن أكونه بعد الذى كان من مناشدتك صداقتى ومعوتى وقد أثر هذا المجهود فى سبيل السلام تأثيراً عميقاً فى القيصر ونجح هذا المسعى ، كما سيظهر بعد ، الى حد أن حمل القيصر على وقف أمر التعبئة العامة فى روسيا وكان رئيس هيئة أركان الحرب قد اترعه منه وأوشكت أن تهتز الأسلاك به . وقوي أمل القيصر فأبرق الى الامبراطور .

« أشكرك من قلبى على ردك السريع وسأرسل تاتيشيف فى مساء اليوم مزوداً بالتعليمات . وقد كانت الاجراءات العسكرية التى اتخذت الآن قد تقررّت من خمسة أيام مضت لداعى الدفاع بسبب استعدادات النمسا . فأمل من كل قلبى أن لا تعوقك هذه الاجراءات عن القيام بدور الوسيط — ذلك فى الدور الذى أقدره كثيراً . إننا بحاجة الى ضغطك القوى على النمسا لكى تفاهم معنا . »

يبد أن أنباء الاستعدادات العسكرية الواسعة النطاق التى اتخذتها روسيا مع التعبئة الجزئية ضد النمسا والتى سلم القيصر الآن بأنها كانت قد تقررّت من خمسة أيام مضت لداعى الدفاع بسبب استعدادات النمسا ، فى حين أن النمسا كانت قد عيّنت بأن تتجنب القيام باستعدادات ضد روسيا — نقول

إن نبأ تلك الاستعدادات أثار الإمبراطور وأسخطه ، إذ كان يجتهد مخلصاً في التوسط وحمل النمسا على قبول « خطة الرهينة » وإرضاء روسيا بالمفاوضات المباشرة ، لكن روسيا في تلك الأثناء سبقت في استعداداتها العسكرية بخمسة أيام ، فقال : « إني لا يسعني أن أوافق على أى توسط بعد الآن مادام أن القيصر الذى رجائي فيه كان في نفس الوقت يعيى الجيش سرّاً من ورأى . ان هذه مناورة يراد بها وقفنا والتقدم علينا أكثر مما تقدموا . لقد انتهت مهمتى »

لقد تبودلت بعد ذلك عدة برقيات بين « ويللى » و « نيكى » لكنها كانت دون أمل ما في النجاح لأن التعبئة الروسية العامة التى صدر الأمر بها في الساعة السادسة في مساء ٣٠ يوليه كانت قد جعلت الحرب الأوربية العامة أمراً لا مفر منه في الواقع .

ضغط بيتمان على فينا

أرسل بيتمان كما رأينا آنفاً « خطة الرهينة » إلى فينا في مساء ٢٨ يوليه ومعها تعليمات لتشيرشكى بمخاطبة برشتولد « بقوة » . وفي نفس الوقت أشعر انجلترا وروسيا بأنه يفرغ قصاراه لاقتناع فينا بالتقدم الى مباحثة سان بطرسبورغ مباحثة صريحة ودية وانه يرغب في التعاون على المحافظة على السلام العام . وقد قال للسفير البريطانى انه « يجب تجنب الحرب بين الدول العظمى » ، لكنه أخذ الآن يتولاه الارتباك في صورة جدية لأنه لم يتلق من برشتولد جواباً عن « خطة الرهينة » ، وقد ظل طول اليوم التالى ينتظر الرد عبثاً مع أن البرقيات كانت تنقل عادة بين برلين وفينا في ثلاث أو أربع ساعات حتى في ذلك الوقت الذى كانت الأسلاك البرقية فيه مثقلة . ولقد أربكه صمت برشتولد لعدة أسباب ، أربكه : لأن السلطات العسكرية الألمانية كانت قد أخذت تبحث على وجوب اتخاذ ألمانيا بعض الاجراءات العسكرية على سبيل الاحتياط للأبناء التى كانت

ترد من روسيا ، كما ستبينه بعد ، ولأنه لم يكن يسعه أن يرد على لندن وسان بطرسبورغ عن مبلغ نجاح مساعي التوسط لدى فينا ، ولأن اعلان النمسا الحرب كان قد ترك في تلك الاثناء أثراً سيئاً ، ثم لأنه تلقى من العواصم الأخرى أخباراً لاح انها تدل على سوء نية حليفته أو غباوتها . لذلك أرسل في مساء ٢٩ يوليه الى تشيرشكي ثلاث برقيات مستعجلة أحاطه في بعضها بالتقارير المتعلقة بأعمال النمسا وطلب في البعض الآخر أن يرد عليه عاجلاً فيما يتعلق « بخطة الرهينة » . وقد بعث اليه في البرقية الأولى برسالة ليشنوفسكي المتعلقة بما أبداه السفير النمسوى في لندن وزاد عليها استهجاناً شديداً لعمل النمسا في قوله : « ... انى أنظر الى موقف الحكومة النمسوية ومسلكها الذى لا مثيل له نحو الحكومات المختلفة فى دهشة متزايدة ... وانى لأستخلص انها تبنت النية على تدابير ترى من المناسب إخفاءها عنا لتضمن لنفسها فى كل الأحوال تأييد ألمانيا ولتجنب الرفض الذى يملن أن ينتج عن البيان الصريح . »

وكان تشيرشكى فى صباح ٢٩ يوليه قد نفذ فى الحال التعليمات الأصلية المتعلقة « بخطة الرهينة » لكنه لم يلق الا رداً ينطوى على المماطلة والروغان : فبرشتولد كان مستعداً لأن يكرر تصريحه الخاص بتجرد النمسا عن أية مصلحة فى أراضى صربيا ، لكنه « فيما يتعلق بالتصريح الآخر عن الاجراءات العسكرية يرى الكونت برشتولد أنه لا يستطيع أن يرد فى الحال . وعلى الرغم من اعتراضى بأن المسألة لا تحتل الامهال فأنى لم أتلق الى مساء اليوم تبليغاً جديداً . »

وفى نفس اليوم ، يوم الأربعاء ٢٩ يوليه تلقى بيتمان بينما كان يترقب عبثاً رد برشتولد على « خطة الرهينة » مقترحين آخرين ارتثيا محافظة على السلام وأيديهما لدى فينا بحزم . وكان أحدهما ما اقترحه سازونوف من « المحادثات المباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ ... فلما علم بيتمان من

سازونوف أن برشتولد رفض بتاتاً أن يدير أية محادثات مباشرة وكان يخشى أن يكون هنالك شيء من سوء الفهم أ برق الى فينا بعد ذلك بساعتين يقول بأشد لهجة من ذي قبل :

« ان رفض كل تبادل للرأى مع سان بطرسبورغ ليكون غلطة خطيرة لأنه يدفع بالروسيا الى التدخل المسلح بعينه وهو ما تدعو مصلحة النمسا أولاً الى تجنبه . ولا مراء فى إننا مستعدون للقيام بواجباتنا كخلف لكنتنا يجب أن نرفض أن تجربنا فينا بطيشها وعدم اكترائها لنصائحنا الى حرب عالمية . أرجوك أن تبلغ ذلك الى الكونت برشتولد فى الحال بكل قوة وفى صورة جدية جداً . »

والتدبير الآخر الذى تلقاه يتمان بكل ارتياح فى ساعة متأخرة من ليل الأربعاء كان اقتراح غراى المتعلق بالتوسط بين النمسا والروسيا اما على يد الدول الأربع واما بواسطة ألمانيا وحدها على قاعدة الرد الصربى . وكانت الانباء قد وردت من روما بأن صربيا مستعدة الآن لأن تسيع المادتين ٦، ٥ وبعبارة أخرى كل البلاغ النمساوى النهائى على شريطة أن تفسر تفسيرات بعينها . وقد رحب يتمان باقتراح غراى هذا وتلقاه بلهفة باعتباره حلاً سعيداً وعند ما أرسله الى فينا « ضغط الزر » مرة أخرى ضغطاً شديداً بقوله .

« أرجوك أن تطلع برشتولد عليه فى الحال وأن تضيف اليه أننا نعتبر مثل هذا الاذعان من جانب صربيا قاعدة ملائمة للمفاوضات مع احتلال جزء من الاراضى الصربية كرهينة . »

لكن برشتولد كان لا يزال على صممه لا يسمع النداء وكل ما فعله انه أجاب اجابة تدل عليه وهى « ان قبول مذكرة النمسا بخذافيرها كان يكون مرضياً قبل بدء الأعمال العدائية . أما الآن وقد أعلنت حالة الحرب فشرط النمسا يجب بطبيعة الحال أن تتخذ لهجة أخرى . »

وقد بعث يتمان على الأخص على الترحيب باقتراح غراى والتلهف عليه ان غراى سرعان ما ألحق به النقطتين اللتين كانت ألمانيا نفسها قد حثت

فينا وسان بطرسبورغ عليهما في «خطة الرهينة»، وهما أن تدلي النمسا من جديد ببيان عن نياتها نحو صربيا يرضى الروسيا، وأن تكون هنالك رهينة في صورة الاحتلال العسكري المؤقت لبلغراد إرضاء للنمسا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى انه كان قد انزعج لأول «انذار» من ناحية غراي وهو أنه لا يمكن أن يعتمد على بقاء انجلترا على الحياد اذا نشبت حرب عامة. فغراي كما يروى عنه ليشنوفسكى :

يلوح له شخصياً أن القاعدة المناسبة لمثل هذا التوسط هو أن تعلن النمسا شروطها بعد احتلال بلغراد أو غيرها من الأماكن. فاذا قبلتم سعادتكم التوسط مع ذلك كما ارتأيت له في الصباح الباكر انه في حيز الامكان، فان هذا سيوافقه... وقد قال لي انه يجب أن يدلي إلى بيان ودى خاص... إنه قد يكون في وسع انجلترا أن تقف بعيدة طالما كان النزاع محصوراً بين النمسا والروسيا، لكنه إذا دخلنا نحن وفرنسا فيه فان الحالة تصبح في الحال غير ما كانت وعندئذ قد ترغب الحكومة البريطانية على اتخاذ قرارات سريعة حسب مقتضيه الظروف. وفي هذه الحالة لن يكن في الامكان الوقوف بعيداً والانتظار «والحرب اذا نشبت فسوف تكون أعظم كارثة شهدتها العالم». انه لم يكن يقصد أن يبدى أى نوع من التهديد وكل الذى أرادته هو أن يمنعني من أن أفهم غير الحقيقة وان يدفع عن نفسه تهمة عدم الاخلاص ولذا اختار صيغة الايضاح الخاص.

فلما سمع بيتان بهذا الاحتمال المزعج الذى لم يكن في حسابه ولا في مرجوه وهو أن انجلترا قد لا تلتزم الحياد بادر الى نقل حديث غراي ولىشنوفسكى بأكمله الى فينا ومضى «يضغط على الزر» بكل قوة :

إننا اذا رفضت النمسا كل مفاوضة نصبح وجهاً لوجه أمام حرب تكون فيها انجلترا ضدنا ولا تقف فيها رومانيا وإيطاليا الى جانبنا كما تدل كل الدلائل. وبذا نقف اثنتين قبالة أربع دول. وسيكون من جراء معارضة

انجلترا أن تنزل بألمانيا أكبر ضربة . انه يمكن الاحتفاظ بهيبة النمسا السياسية وشرف جيشها العسكى واجابة مطالبا العادلة من صربيا بما فيه الكفاية ، باحتلال بلغراد وغيرها من المواضع ؛ وباذلالها صربيا استعداد الى مركزها في البلقان والى علاقاتها بالروسيا سابق قوتها . فهذه الظروف توجب علينا أن نحض وزارة فينا بصفة مستعجلة ونلح عليها في قبول التوسط وفاقا للشروط الشريفة الآتية . فاذا لم تفعل فستكون تبعة العواقب التي تترتب على عملها ثقيلة على النمسا وعلينا بشكل غير مألوف .

هذا الرجاء الحار الذي وجهته ألمانيا الى النمسا كيما تقبل حلا كان يمكن حتى حينئذ أن يحول دون التهاب أوروبا لم يلق من برشتولد رداً معيناً صريحاً . وقد سلمت برقية يتمان المتضمنة حديث ليشنوفسكى مع غراى بعد حل رموزها الى تشيرشكى في يوم الخميس ٣٠ يوليه بينما كان يتناول طعام الغذاء مع برشتولد « وقد أصغى برشتولد بمتعة اللون صامتاً الى البرقية وهي تتلى مرتين . وكان الكونت فورجاخ يدون ملاحظاته وأخيراً قال برشتولد إنه سيعرض المسألة في الحال على الامبراطور ، ... وقد لبث تشيرشكى عصر ذلك اليوم زمناً طويلاً يشرح لفورجاخ وهو يوس كل آراء يتمان شرحاً مستفيضاً جدياً . ولكن دون فائدة . ذلك أن هذين المستشارين الحميمين لبرشتولد أبلغاه في استخفاف : « ان وقف العمليات العسكرية الجارية مستحيل بالنظر الى شعور الشعب والجيش وان كونراد فون هوتسندورف [رئيس هيئة أركان الحرب] سيعرض مساء اليوم أمر التعبئة العامة على الامبراطور كرد على الاجراءات التي اتخذت . ، ثم أخبر أخيراً أن برشتولد لا يمكنه أن يرد قبل صباح اليوم التالى لأنه يجب أن يستشير تيزا الذى لن يتيسر وجوده في فينا قبل ذلك .

في ذلك الحين ، أى في مساء ٣٠ يوليه ، كانت الروسيا قد أمرت بالتعبئة العامة وان كانت الأنباء الرسمية عن هذه التعبئة لم تكن قد عرفت في برلين

وفينا إلا في اليوم التالي. وكانت ألمانيا قد أفهمت روسيا مراراً وتكراراً أن مثل هذا الاجراء الذي يوجه الى ألمانيا كما يوجه الى النمسا والذي تفهم السلطات العسكرية كافة أن معناه تقرير الحرب سيؤدي بلا ريب الى التعبئة الألمانية فالحرب . وهكذا فشلت مساعي بيتان للتوسط وكانت قد أتت متأخرة ولم تكن من الشدة بحيث ترغب حليفته على التفاهم مع روسيا في حينه. ثم هي لم تكن مما تنظر اليه دول الوفاق بعين الجد وهي التي كانت قد تزعزع ايمانها برغبة ألمانيا الخالصة في السلام من جراء تأييدها الظاهر للسياسة النمساوية قبل ذلك ولل فشل الذي لقيه ضغطها المتأخر على فينا وإخفاقها في الوصول الى نتائج محسوسة.

الفصل العاشر

التعبئة الروسية

في مجلس الوزراء الذي عقد في كراسنوسيلو بعد ظهر يوم ٢٥ يولييه كما أسلفنا في الفصل الخاص «بالخطر الروسي» قرر وزراء القيصر عدة إجراءات عسكرية تمهيدية تضمنت الاستعدادات الواسعة النطاق الخاصة «بالفترة المعدة للحرب» وهي التي كان الغرض منها تسهيل التعبئة العامة ضد ألمانيا والنمسا على السواء. وكان الأمر قد صدر بها قبل فجر ٢٦ يولييه فقامت الاستعدادات على قدم وساق من ذلك الحين وأحدثت انزعاجاً في برلين على الرغم من التأكيدات المخدرة للأعصاب التي كان سازونوف وسوخوملينوف يؤكدان بها أن ليس في النية اتخاذ إجراءات للتعبئة ضد ألمانيا. وقد كانت قرارات ٢٥ يولييه تتضمن التعبئة الجزئية عند الطوارئ على أن تتخذ ضد النمسا في الوقت الذي يرى سازونوف أن الحالة السياسية تقتضيها... وبينما كانت هذه الاستعدادات العسكرية قائمة لتمكين روسيا من التغلب على بطئها النسبي في التعبئة إذا أصبحت الحرب أمراً لا مفر منه كان سازونوف في تلك الأثناء وبين ٢٥ و ٢٨ يولييه يبدو متفائلاً ومستعداً للقيام بدوره في سبيل «مخادثات مباشرة» مع فينا بقصد الوصول إلى تسوية توفق بين مطالب النمسا ورد صرياً...

غير أنه بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٨ يولييه وفي ساعة مبكرة منه زار السير جورج بوكانان وزارة الخارجية الروسية فوجد سازونوف قد تلقى أنباء مقلقة من فينا غير إعلان النمسا الحرب على صربيا وهو ما لم يكن قد تلقاه بعد — وأنه ينظر إلى الحالة بعين التشاؤم. فسأله بوكانان ألا يرضيه أن

تطمته النمسا على استقلال صربيا وسلامة أراضيها ثم قال ان انجلترا ترحب بكل تدبير يحول دون وقوع الحرب الاوربية . ولكنه من المهم أن نعرف نيات الحكومة الامبراطورية (القيصرية) الحقيقية ، — كلمة تدل على أن بوكانان لم يكن يرى أن سazonوف كان صريحاً كل الصراحة معه فرد عليه سazonوف بقوله « ان أى تعهد يمكن أن تتعهد به النمسا فيما يتعلق بهاتين النقطتين [استقلال صربيا وسلامة أراضيها] لن يرضى الروسيا وأنه في اليوم الذي تجتاز النمسا فيه حدود صربيا سيصدر الأمر بالتعبئة ضد النمسا . » ثم زاد على ذلك قوله أن ليس ثمة ما يدعو الى الخوف من حدوث قلاقل داخلية في الروسيا وأنه « في حالة الحرب ستظاهر الامة الحكومة عن بكرة أبيها . » فارتأى بوكانان أن يناشد القيصر فرانسوا جوزيف شخصياً أن يلزم النمسا دائرة تقبلها الروسيا باعتبار ذلك آخر ما يلجأ اليه . بيد أن سazonوف عاد فأصر على أن الطريقة الوحيدة لمنع الحرب هي أن تعلن انجلترا بصورة واضحة أنها ستتنضم الى فرنسا والروسيا وقد وقع في نفس بوكانان أن الروسيا « جادة كل الجدة » وأنها ستحارب اذا هاجمت النمسا صربيا .

واستقبل سazonوف بورتاليس بعد محادثته لبوكانان واجتهد في إقناعه بأن رد صربيا مرض وأنه لذلك ينبغي أن تنضم ألمانيا في الحوض على التوسط لدى فينا بيد أن بورتاليس قابله بالشكوى من اللهجة العدائية التي تستعملها الصحف الروسية ومن أنه قد ظهر جلياً لألمانيا من تقارير يعتمد عليها أن استعدادات الروسيا العسكرية تتجاوز ما أبانه سوخوملينوف للمحقق العسكري الألماني في مساء ٢٦ يولييه الى مدى بعيد ثم حذر سazonوف من الخطر البالغ الحد الذي قد ينجم في الحالة الراهنة العصبية عن استعدادات الروسيا العسكرية الواسعة النطاق .

واستقبل سazonوف سفير النمسا بعد ذلك لكنه خيب أمله أن تسابري لم بتلق رداً على ما كان قد اقترحه من « تومين من » المحادثات المباشرة « ثم

جعل هو وتسابارى يرددان حججهما القديمة عن البلاغ النمسوى النهائى والرد
الصرى فى صورة هادئة ودية ولكن دون أن يصلأ الى نتيجة مرضية .
واستأذن تسابارى فى الانصراف « لأن الوزير كان على موعد مع القيصر
فى يترهوف . »

على أن الظاهر مع ذلك ان سازونوف لم يتوجه الى يترهوف فى الحال
فقد تحدث الى باليوج اولا وخاطب رئيس هيئة اركان الحرب فى الامر
بالتعبئة فى روسيا نظراً لنبا اعلان النمسا الحرب على صربيا وهو النبا الذى
كان قد وصل ولما يكذ .

إعلان باليوج تأييد فرنسا

اختلى باليوج الذى يقول إنه انتظر قصداً حتى انتهى سازونوف من
أحاديثه مع غيره من السفراء بوزير خارجية روسيا بعد ذلك ودار بينهما
حديث لدينا عنه روايتان تختلف احدهما عن الاخرى اختلافاً بيناً . فالبارون
شيلنج الذى اعتاد أن يدون بدقة كل مساء زبدة أهم الاحاديث التى تكون
قد جرت لسازونوف يقول :

« لقد أبلغ السفير الفرنسى وزير الخارجية بناء على تعليمات من
حكومته أن فرنسا مستعدة كل الاستعداد للقيام بارتباطاتها عند الحاجة
بصفة كونها حليفة . »

فهذا التصريح لباليوج كان فى هذا الظرف بعينه من الأهمية العظيمة
لروسيا بحيث غطى على كل ما عداه فى ذهن شيلنج فى يوم ٢٨ يولييه ، لأنه
كان كل ما دونه فى مفكرته فى ذلك اليوم فيما خلا الخلاصة التى كان يكتبها
للبرقيات . وكون باليوج قد أدلى بهذا التصريح وأن هذا التصريح شجع
سازونوف من جديد على الثبات والمصادقة على التعبئة الروسية يؤيده ما
حدث فى اليوم التالى من سازونوف وهو يحيط ايزفولسكى بقراره القاضى

بالتعجيل بالتسلح واقتراض أن الحرب لا مفر من وقوعها إذ زاد على ذلك قوله .

أرجوك أن تعرب للحكومة الفرنسية عن امتناننا الخالص من التصريح الذى أدلى لى به السفير الفرنسى باسمها وهو أن نعتمد كل الاعتماد على مساعدة حليفنا فرنسا . فأن هذا التصريح فى الظروف الراهنة له قيمة خاصة لنا .

ومع ذلك فأن باليلوج يأتى فى مذكراته برواية مختلفة كل الاختلاف . فهو لا يذكر كلمة واحدة عن هذا التصريح الهام بل يسهب بدلا من ذلك فى الكلام عن أهميته هو كممثل لبلاد تركها غياب بوانكاريه واتصالها به اتصالا متقطعاً بلا رأس ، وذلك بعد حكاية لعلها روائية أكثر منها حكاية دقيقة . عن اضطراب أعصاب بورتاليس وهدوء سازونوف . فهو يزعم أنه بالنظر الى المسؤولية العظيمة التى القيت على عاتقه من جراء ذلك باعتباره سفيراً لفرنسا قد رجا سازونوف أن يكون حذراً فى اتخاذ أية اجراءات عسكرية قد تبعد تأييد انجلترا ، وان سازونوف قال له انه يجد صعوبة كبيرة مع هيئة أركان الحرب الروسية وانه — باليلوج — حمله عندئذ على أن يعد بقبول كل الاجراءات التى ترتبها فرنسا وانجلترا للمحافظة على السلام ، وأن يأذن له فى إبراق وعده هذا الى باريس . ومع ذلك فمن المشكوك فيه جداً أن يكون سازونوف قد رغب فى إعطاء وعد كهذا واذا كان أعطاه فهو لم يف به لأنه سرعان ما صادق على الأقل على التعبئة الجزئية وهو ما يصعب أن يعتبر اجراء ارتأته فرنسا وانجلترا للمحافظة على السلام . فالمحتمل هو أن رواية البارون شيلنج لحديث باليلوج مع سازونوف هى الصحيحة ؛ وأن باليلوج كان فى الراجح مطلقاً لخياله فيما قبل الحرب العنان .

ولا يزال غير مؤكد ، الى أن ينشر الفرنسيون كامل الوثائق المتعلقة بهذه الفترة ، ما اذا كان باليلوج باعلانه تضامن فرنسا والروسيا لسازونوف

كان يعمل حقيقة « وفقاً لتعليمات من حكومته كما يقول شيلنج أو كان يقول غير الحقيقة أو أن شيلنج وسازونوف نسبا إليه خطأ ما لم يقله . وقد يكون تصريحه هذا هو ما رأى أنه يتفق والبرقية التي أرسلها إليه فيفياني في ٢٧ يولييه إذ قال له : « أرجوك أن تقول للسيد سازونوف أن فرنسا ، وهي تقدر كالروسيا الأهمية العظيمة التي تعلقها الدولتان على تأكيد تفاهمهما التام فيما يتعلق بالدول الأخرى ، وعلى عدم إهمال أى مسعى لحل النزاع ، أن فرنسا هذه مستعدة لأن تؤيد كل التأيد في مصلحة السلام العام عمل الحكومة الإمبراطورية . » وعلى كل فأن تصريح باليلوج كان متفقاً والتأكيدات التي أعطاها الرئيس بوانكاريه نفسه قبل ذلك بأسبوع على أثر زيارته للروسيا كما يتفق وبرقية ايزفولسكى التي بعث بها من باريس في ٢٧ يولييه إذ يقول : لقد أدهشنى أن يفهم وزير الخارجية بالنيابة وزملاؤه الحالة هذا الفهم التام . وأن يكون قرارهم القاضى بموازرتنا أتم موازنة مع تجنب أدنى شيء يمكن أن يثير الاشتباه في أنهم غير متفقون معنا ، أقول ان يكون قرارهم هذا بهذا الثبات والهدوء . »

نبأ إعلان النمسا الحرب على صربيا

وصلت الأنباء الى روسيا بعد ظهر يوم ٢٨ يولييه بأن النمسا أعلنت الحرب على صربيا . وقد تكون وصلت وسازونوف يحادث باليلوج وبذا تكون بعض السبب في اعلان الأخير تأييد فرنسا . واذا كان سازونوف على شيء من التفاؤل حينذاك فقد قضى عليه هذا النبأ وجعله يخشى أن تغزو النمسا صربيا عاجلاً وأكده لديه الاعتقاد المتزايد بأن المانيا من وراء النمسا تظاهرها وانها ماضية في مناصرتها ، الا اذا أوضح جلياً أن روسيا مصممة على تهديد النمسا بالقوة كما تحمى صربيا . وقد انتهى من ذلك الى أن الوقت قد حان لأن يأمر بالتعبئة الجزئية ، وهو ما كان قد صادق عليه « مبدئياً » في

٢٥ يولييه ولذا أعلن في مختلف العواصم الأوروبية انه بالنظر الى إعلان النمسا الحرب على صربيا « قد باتت محادثات المباشرة مع سفير النمسا دون فائدة ظاهرة » .

وبعبارة أخرى لقد عدل عن « المحادثات المباشرة » باعتبارها حلا سلبياً قبل أن يتلقى رفض النمسا البات بعدة ساعات وهو الرفض الذي لم يعلم به الا بعد ظهر اليوم التالي . كذلك كلف سفراءه في الخارج أن يبلغوا الحكومات أن روسيا قد قررت نتيجة لإعلان النمسا الحرب على صربيا أن تأمر في اليوم التالي بالتعبئة الجزئية في الأقاليم العسكرية الجنوبية الأربعة وهي أودسا وكيف وموسكو وقزان . لكنه أضاف الى ذلك « أن روسيا لا تحذوها أية نية عدوانية حيال ألمانيا » .

ويلوح ان هذه البرقيات لا تترك ظلاماً من الشك في أن سazonوف رغب في أن يقع من نفس أوربا انه الآن ينفذ وسائل الضغط التي كانت قد تقرر في كراسنو سيلو في ٢٥ يولييه وأيمنت للدول عدة مرات وأن السبب في ذلك هو إعلان النمسا الحرب على صربيا . ومن رأى بورتاليس أيضاً أن تغير موقف سazonوف « لم يحدث الا في ٢٨ يولييه عندما علم أن الموقف المهدد الذي وقفته روسيا لم يكف في منع النمسا عن إعلان الحرب على صربيا . والذي لا ريب فيه هو أن تبدل شعور سazonوف يرجع أولاً الى تلك الخطوة التي خطتها وزارة فينا . »

بعد أن تحدث سazonوف الى السفراء واتخذ قراره القاضي بالتعبئة الجزئية على أية حال توجه الى بيترهوف ورفع الى القيصر نبأ إعلان النمسا الحرب وما يراه في الحالة العامة . وليس أكيداً ما اذا كان قد جذب رأى أيانوشكيفتش وهو أن الوقت قد حان للتعبئة العامة أو أنه كان لا يزال ينصح للقيصر بخطته السابقة القاضية بالتعبئة الجزئية . فانه ليس لدينا ما يثبت ما قاله للقيصر . وأكبر الظن أنه صور الحالة بصورة مظللة فان النتيجة

الواضحة الوحيدة التي ترتبت على زيارته كانت تلك البرقية التي بعث بها القيصر الى الامبراطور في ساعة متأخرة من تلك الليلة نفسها وهي التي يقول فيها : « ان حربا دينية قد أعلنت على دولة ضعيفة ، وأن السخط الذي أشاطر روسيا اياه هائل ... واني أتنبأ بأنه عما قريب سيغمرني الضغط الذي يستخدم معي فاضطر الى اتخاذ اجراءات متطرفة تؤدي الى الحرب ... » فهل « الضغط » الذي كان القيصر يخشى أن يدهمه كان آتيا من الزعماء العسكريين وخدمه او من حاشيته او ربما من سازونوف نفسه ؟

رضاء القيصر بالتعبئة الروسية العامة

ان آراء دوبرورلسكى والزعماء العسكريين عن التعبئة الجزئية ونعتهم إياها بأنها جهالة قد قوتها عودة الجنرال دانيلوف . فقد كان يقوم بالتفتيش في القوقاز ثم استدعى على جناح السرعة الى سان بطرسبورغ في ٢٦ يولييه فأخذ يستخدم الآن كل نفوذه ليصدر الأمر بالتعبئة العامة بدلا من التعبئة الجزئية . وقد أورد في مذكراته جميع المصاعب الفنية والسياسية التي ترتب على التعبئة الجزئية في صورة مستفيضة مقنعة كالصورة التي أوردتها بها دوبرورلسكى ...

فهذه الأسباب الفنية وغيرها جعلت دانيلوف يصر على عقد مجلس عسكري بحث فيه الآراء والحجج الموجهة ضد خطة التعبئة الجزئية التي يرجع تاريخها الى ٢٤ و ٢٥ يولييه . والراجح أن هذا المجلس انعقد بعد ظهر ٢٨ يولييه أو في مساءه وحضره أيانوشكيفتش ودوبرورلسكى ودانيلوف ورونزين رئيس مصلحة التشييلات العسكرية . وقد كان من جراء هذا المجلس أن اقتنع أيانوشكيفتش بأن كل مجهود يجب أن يبذل لاقتناع القيصر بالمصادقة على التعبئة العامة . ولما سمع من سازونوف انه ينبغي ألا تبطل التعبئة أكثر مما أبطأت أعد مرسومين امبراطوريين أحدهما بالتعبئة الجزئية

والآخر بالتعبئة العامة على أن يستعمل الأول إذا أصر القيصر على الاستمساك بخطة ٢٥ يولييه ، أما موافقته على الثاني فيعمل للحصول عليها ان أمكن . وقد ذهب ايانوشكيفتش وفي حافظته مشروعا الأمرين الى يترهوف في صباح ٢٩ يولييه وحصل على توقيع القيصر بالتأكيد على الأمر القاضي بالتعبئة العامة دون كبير عناء كما يظهر ، والراجع انه حصل ايضاً على قرار التعبئة الجزئية على ان ينفذ اذا طرأ شيء من التحسن على الحالة السياسية ...

وعاد ايانوشكيفتش من يترهوف وفي جيبه الأمر القاضي بالتعبئة العامة موقفاً عليه من القيصر فاستدعى ايجلنج الملحق العسكري الألماني ، واخبره انه آت لساعته من عند القيصر لكن كل شيء باق تماماً كما شرحه سوخوملينوف من يومين . قال ايجلنج « وقد اقسم لي بشرفه بكيفية متناهية في الجد وقدم لي تأكيداً كتابياً بانه الى تلك اللحظة : الساعة الثالثة بعد الظهر لم تقم تعبئة في أي مكان أي لم يدع رجل او يجمع حصان واحد . قال وهو لا يستطيع أن يضمن المستقبل لكنه يطمئني بأوكد عبارة على أن جلالته لا يزال الآن كما كان من قبل غير راغب في التعبئة على الميادين المواجهة لحدودنا . » قال لكن هذا البيان أشكل عليه الأمر بالنظر الى التقارير الكثيرة الخاصة بدعوة الاحتياطي وفي جملة احتياطي اقليمي فارصوفيا وقلنا المقابلين لألمانيا . « فرد ايانوشكيفتش بأنه يقسم بشرفه كضابط أن هذه التقارير خطأ وأن المسألة لا تعدو شيئاً من الانزعاج الكاذب هنا وهناك . » وقد اضطر ايجلنج الى أن يستخلص من ذلك أن ايانوشكيفتش حاول تضليله . والمؤرخ يكاد لا يسعه غير هذا الحكم . فانه بينا ايانوشكيفتش يلتزم حرفية الصدق بقوله ان القيصر لم يرغب في التعبئة على الجبهة الألمانية ، فقد كان يعرف أن بجيبه أمر القيصر بتعبئة من هذا النوع وانه سيشرع في تنفيذه بمجرد حصوله على توقعات الوزراء الثلاثة الآخرين الذين لا بد من توقيعهم ...

وقد حدث في آخر لحظة ما غير القرار القاضي بالتعبئة العامة فجأة ،

لكنه قبل أن نوضح ذلك يجب أن نرجع الطرف لحظة الى ما كان يجرى بين سازونوف والسفراء بينما كان ايانوشكيفتش في بيترهوف ودوبرورلسكى يجمع التوقيعات اللازمة لأمر التعبئة العامة .

حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٩ يوليه زار بورتاليس سازونوف ليحمل اليه « تبليغاً طيباً » وهو أن النمسا قد جددت تصريحها بأنها لا تنوى الاستيلاء على شىء من الاراضى الصربية وأن ألمانيا تتجاهد فى حملها على مباحثة الروسيا بمباحثة صريحة وارضائها فيما يتعلق بالغرض الذى تسعى اليه من وراء مسلكها مع صربيا والمدى الذى تذهب اليه . لكن سازونوف رد بقوله انه ما دام لم يتلق رداً على اقتراحه القاضى « بالمحادثات المباشرة » وما دامت النمسا أعلنت الحرب على صربيا فصدق النمسا قد بات عرضة للشكوك ولذا فقد قررت الروسيا تعبئة الأقاليم العسكرية الكاثنة على الحدود النمسوبة وسيصدر الأمر فى نفس هذا اليوم ، وهذا لا يعنى الحرب . « فأن الجيش الروسى سيعمل تحت السلاح أسابيع بلا ريب قبل أن يحتاز الحدود . » فأشار بورتاليس الى الخطر الذى ينجم من أن هيئات أركان حرب الدول المجاورة للروسيا قد تلح فى اتخاذ اجراءات مقابلة .

وليس من الضرورى أن يكون سازونوف حين أشعر بورتاليس بأن الروسيا على وشك أن تأمر بالتعبئة الجزئية ضد النمسا وحدها غير مخلص فى قوله لأنه لم يكن قد عرف بعد ما اذا كان ايانوشكيفتش قد أقنع القيصر بأمضاء التعبئة العامة والجزئية على السواء . لكنه بعد الغداء ساعة أن حادث السفير البريطانى يصعب أن يقال عنه انه كان صريحاً كل الصراحة حين أفهم بوكانان ان « أمر التعبئة الجزئية قد أمضى اليوم » ، وانه « تقرر أن لا يصدر أمر بالتعبئة العامة التى كانت السلطات العسكرية توصى بها بقوة » فهو على كل قد أعطى بوكانان فكرة معينة عن القرارات الروسية العسكرية لا تتفق والواقع . وغرضه بلا ريب واضح : فقد كان يرغب فى تجنب إزعاج

الرأى البريطانى العام وقد عطفه ولذلك قرن تبليغه الخاص بالتعبئة الجزئية بقوله إن التعبئة ستستغرق أسبوعاً أو أكثر وأن روسيا لن تستعجل الحرب باجتيازها الحدود عاجلاً ثم أعرب عن أمله فى أن تستطيع انجلترا فى تلك الأثناء الاهتداء الى حل سلمى مرض .

وقد قابل بورتاليس سازونوف فى عصر ذلك اليوم مرة أخرى وكان سازونوف قد أرسل فى طلبه ليقص عليه النبأ الذى تلقاه من السفير الروسى فى فينا بأن برشتولد قد رد على ما طلبه من « محادثات مباشرة » ، بالرفض البات . . ولذا فقد رغب سازونوف الذى كان « يتعلق بكل قشة » فى العودة الى مقترح غراى الخاص بمؤتمر السفراء . وقد قال له بورتاليس مع ذلك انه لا يعرف رأى حكومته فى هذا لكنه « لا يسعه الا أن يشعر بأن أمر التعبئة الروسية ، إذا كانت حقيقة وشيكة الوقوع ، غلطة كبيرة . . . ولم ينكر سازونوف قرب وقوع التعبئة لكنه قال ان النمسا هى التى أرغمت روسيا على اتخاذ هذا الاجراء . ومع ذلك فالتعبئة ليس معناها الحرب . »

واستقبل سازونوف بعد ذلك السفير النمساوى الذى جاء « ليزيل سوء فهم واضح » فقد كان تلقى ساعتئذ برقية برشتولد التى يرفض فيها البحث فى نص البلاغ النمساوى النهائى فكان عليه أن يبلغ أن النمسا تكره أن تجرى محادثات مباشرة فى هذا الموضوع لكنها على تمام الاستعداد للتحدث على قاعدة أوسع فى شأن العلاقات النمساوية الروسية ، وأن يقول إن النمسا لا تحدها أية رغبة فى المساس بالمصالح الروسية وانها لا تطلب أرضاً ولا تنوى أن تتعرض لسيادة صربيا .

وقد رد سازونوف بقوله إنه وإن كانت النمسا قد لا تأخذ شيئاً من الأراضى الصربية الا انها مع هذا تعتدى على سيادة صربيا بتخفيضها فى الواقع من شأنها وجعلها بمثابة دولة تابعة . وهذا خلىق أن يقلب التوازن الدولى فى البلقان ويضر بالمصالح الروسية تبعاً لذلك . وتلت مناقشة طويلة

على غير جدوى فى حلقة مفرغة . وأخيراً قال سازونوف : « ان مرسوماً بالتعبئة فى نطاق واسع نوعاً ما سيمضى اليوم لكنه يستطيع أن يؤكد لى بأعظم صفة رسمية انهم لا يريدون أن تهاجنا جنودهم فهى ستقف فقط بسلحها على قدم الاستعداد للدفاع عن مصالح روسيا فى البلقان اذا تعرضت للخطر . وستؤكد ذلك مذكرة تفسيرية » (لم تصدر مع ذلك مذكرة من هذا القبيل .)

كان سازونوف يجتهد فى إلقاء مسؤولية هذا الأمر على السلطات العسكرية وحدها كما يقول تسابارى فى تقريره فإنه لما ذكر تسابارى انه سمع أن روسيا تولاهما الانزعاج من تعبئة النمسا لثمانية فيالق ضد صربيا أكد له سازونوف « انه لم يكن وهو يجهل هذا هو الذى أظهر هذا الانزعاج بل القيصر يقول ذلك بناء على ما تلقاه من رئيس هيئة أركان الحرب . » وعندئذ أبان تسابارى « انه حتى الأطفال فى الشئون العسكرية كان ينبغي أن يروا أن تعبئة النمسا صوب الجنوب لا يمكن أن تهدد روسيا . ثم حث على وجوب وضع حد سريع لأعمال السلطات العسكرية اذا كان لا بد من المحافظة على السلام . ذلك أن تلك السلطات تهدد بتولى الأمور بنفسها بناء على ما تلقاه من الأنباء الكاذبة . » وقد أبدى سازونوف فى صورة ذات دلالة انه يسعه أن يقول ذلك لرئيس هيئة أركان الحرب لأنه يرى جلالته كل يوم . أبما هو وقع هذا الظرف الحاضر لم يذهب لمقابلة القيصر الا يوم الثلاثاء كالمعتاد ، وعندئذ علم لأول مرة من جلالته ما يلح به العسكريون عليه .

ومضى تسابارى يقول : « وبينما نحن مشغولون بتبادل الرأى بهذه الصورة الخاصة تلقى سازونوف بالتليفون أننا ضربنا بلغراد بالقنابل فحال شخصاً آخر وعاد الى حججه السابقة يفيض بها فيضاً يتنافى مع المطلق ثم قال الآن قد رأى أن القيصر كان محقاً « فأنتم لا تبغون بالمفاوضات إلا كسب الوقت لكنكم تطلقون فتطلقون القنابل على مدينة عزلاء » ، ثم مضى ينحى باللائمة

على النمسا وهو أشد ما يكون انفعالا . وعندئذ استأذن تسابارى فى الانصراف وعقب هذه المقابلة بقليل بينا كان سازونوف لا يزال على انفعاله الشديد جاء بورتاليس بين السادسة والسابعة الى وزارة الخارجية الروسية لينفذ تعليمات تلقاها لساعته من برلين . فان يتبان كان قد أزعجته الاشاعات التى راجت بأن روسيا تتخذ استعدادات عسكرية واسعة النطاق — لاقرار التعبئة الروسية الجزئية الذى لم يعلم به إلا بعد ذلك بقليل — فأبرق الى بورتاليس بأن « الفت نظر المسير سازونوف بلطف الى أن مضى روسيا فى إجراءات التعبئة الى أبعد من ذلك يضطربا الى التعبئة وفى هذه الحالة يندر أن تمنع الحرب الأوربية . »

وقد قال بورتاليس حين افضائه بذلك الى سازونوف : « إن هذا لا ينطوى على التهديد وإنما هو رأى ودى فقط ، لكن سازونوف تلقى هذا البيان « وهو فى حالة انفعال شديد » وقال انه سيلغى الى القيصر . ومع ذلك فقد فسر سازونوف التبليغ فيما يظهر بأنه تهديد ورد بحدة قائلا : « الآن لم يعد يخامرنى شك فى السبب الحقيقى لعناد النمسا . » فوثب بورتاليس من مقعده محتجاً وافترق الاثنان على جفاء .

وأبلغ سازونوف القيصر على الأثر تليفونيا ما تلقاه من تبايخ بورتاليس فكلفه القيصر أن يبحث فى الحال مسألة التعبئة العامة مع ايانوشكيفتش وسوخوماينوف بينما بعث هو الى الأمبراطور بالبرق يقول : « أشكرك على برقيتك المنطوية على المسألة والود . أما الرسالة الرسمية التى بلغها سفيرك لوزيرى فقد نقلت بلهجة تختلف جداً (عن لهجة برقيتك) أرجوك أن توضح لى هذا التنافر . هذا وأنه ليكون من الصواب أن تحال المشكلة النمساوية الصربية على مؤتمر لاهاى . وانى واثق بحكمتك وصادقتك ،

لقد جاء نبأ ضرب بلغراد بالقنابل يتلوه انذار بورتاليس قاضياً على كل شك لدى سازونوف فى ضرورة التعبئة العامة عاجلاً . وقد وافق أثناء البحث

الذى دارينته وبين إيانوشكيفتش على أنه ما دامت الحرب مع ألمانيا أصبحت في. الراجح لا مفر منها فإنه ليكون من الخطأ تأجيل التعبئة العامة أكثر من ذلك أو التعرض لتنفيذها بنجاح بالأمر بالتعبئة الجزئية . وقد أبلغ هذا القرار « تليفونيا إلى القيصر الذى أذن باتخاذ الاجراءات المطابقة لذلك ، وقوبل أيضاً على قول البارون شيلنج « من الفئة القليلة التى كانت ملية بما كان يجرى بالتحمس . »

في تلك الأثناء كان دوبرورلسكى قد جمع الامضاءات الثلاث اللازمة وذهب إلى مصلحة التلغرافات لأذاعة أمر التعبئة العامة . وبعث سazonوف إلى سفيرى روسيا في باريس ولندن برقية ... جاء فيها [بعد الإشارة إلى انذار ألمانيا وموقف النمسا] « إننا ما دمنا لا نستطيع إجابة ألمانيا إلى رغباتها فليس أمامنا إلا أن نعجل بتسليحاتنا وأن نرى أن الحرب لا مفر منها في الراجح . . . »

ولقد كان ضغط العسكريين الروسين لا انذار بورتاليس هو السبب في الغالب في أذاعة أمر التعبئة العامة ، وإذ ذاك غير القيصر رأيه .

إلغاء القيصر لأمر التعبئة العامة

في الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين تلقى نيقولا الثانى في يترهوف برقية ثانية من الإمبراطور . وكان غليوم الثانى يصرف في هذه البرقية على أن « وعود صربيا ، المحبرة على الورق لا يعتمد عليها بتاتاً . وقد أندر القيصر باللهجة المؤثرة التى طالما كانت في الماضى وسيلة ناجحة مع القيصر فقال :

انه من الممكن كل الامكان للروسيا أن تقف موقف المتفرج بأزاء النزاع النمساوى الصربى دون أن تجر أوروبا إلى أبشع حرب شهدتها إلى الآن . وأظن أن التفاهم المباشر بين حكومتكم وفينا ممكن ومرغوب فيه وحكومتي كما أبرقت اليك جادة في التشجيع عليه ؛ ومن المعلوم أن

الاجراءات العسكرية التي تتخذها روسيا وتراها النمسا مهددة ستعجل بنكبة ، يرغب كلانا في تجنبها ، وتخرج مركزى كوسيط . وهو ما قبلت أن أكونه بارتياح بعد إذ ناشدتى الصداقة والمعونة .

والظاهر أن الامبراطور كان يقدر تقديراً صحيحاً تأثير هذه الالهجة في « نيكى » ، الضعيف السريع التأثير ، لأن القيصر بعد انعام النظر في الحالة أخذ يفكر في أنه أخطأ بامضائه مرسوم التعبئة العامة وهكذا قرر في الحال ومن تلقاء نفسه أن يلغى أمر التعبئة العامة وأن يستبدل بها التعبئة الجزئية التي هي في الظاهر أقل خطراً .

لذلك طلب القيصر ايانوشكيفتش ودارت محادثة تليفونية ثلاثية بين القيصر وسوخوملينوف وايانوشكيفتش حاول في أثناءها الرجلان العسكريان اقناع القيصر بأنه يرتكب غلطة فظيعة وأنه ليس ما يضمن نجاح توسط الامبراطور لدى فينا ، وأنه واضح من مسلك ألمانيا والنمسا أن لامفر من الحرب العامة ، وأن وقف التعبئة العامة يتيح للعدو فرصة لسبق روسيا في التعبئة . لكن القيصر ظل لهذه المرة ثابتاً ووجد ايانوشكيفتش نفسه مضطراً في يأسه الى استدعاء دوبرورلسكى من مصلحة التلغرافات حيث كان على وشك أن يذيع أمر التعبئة العامة . فأذيع بدلا منها في منتصف ليلة ٢٩ يوليه أمر التعبئة الجزئية .

ولقد أبلغ ايانوشكيفتش سازونوف على الاثر تغيير القيصر لرأيه وإحلال التعبئة الجزئية محل التعبئة العامة . وكان سازونوف قد بعث أحد سكرتيريه وهو المسيو باسيلي الى باليلوج يبلغه أنه تقرر إصدار الأوامر في نفس هذه الليلة بالتعبئة الجزئية على أن يبدأ سراً بالتعبئة العامة . ويقول باليلوج أنه علم بهذا الخبر وأنه قال: أليس ممكنا في اللحظة الراهنة الاكتفاء بالتعبئة الجزئية ؟ قال باسيلي « لا . فالمسألة قد فرغت الآن سلطاتنا العسكرية العليا من درسها درساً تاماً » .

وارتأى باسيلي بعدئذ انه خير أن يشعر باليلوج حكومته بهذا الخبر السرى جداً يبرقية ترسل بالشفرة الروسية عن طريق وزارة الخارجية الروسية الى ايزفولسكى حتى يتفادى من امكان حل الألمان للشفرة الفرنسية فى برقية فرنسية . فقبل باليلوج هذا رأى لكنه قبل أن توضع البرقية بالشفرة تلقى هو وباسيلي خبر تغيير القيصر لرأيه . وهكذا لم يحط باليلوج حكومته بالقرار الخطير الخاص بالتعبئة العامة والذي كانت روسيا على وشك أن تأمر به . وكل ما فعله هو أنه اعاد حكاية الانذار الآتى من بورتاليس وقال ان اللهجة التى بلغ بها حملت الحكومة الروسية فى الحال على الأمر بتعبئة ثلاثة عشر فيلقاً ينوى توجيهها ضد النمسا والمجر .

وقد جرى لسازونوف بعد منتصف الليل حديث طويل مع بورتاليس تجدد فى خلاله الخلاف بين وجهتى نظر روسيا وألمانيا بصورة أوضح من ذى قبل . فقد طلب سازونوف من ألمانيا أن تضغط على النمسا لتسقط من بلاغها النهائى المطالب الذى تنتهك سيادة صربيا قائلاً ان مصالح روسيا الحيوية لا يمكن أن تسمح بأن تخفض صربيا إلى مرتبة الدولة التابعة للنمسا وأن تصبح بخارى أخرى ، بقبولها المطالب الذى تنتهك حقوق سيادتها . وطلب بورتاليس من ناحيته أن ترضى روسيا تصريح النمسا بأنها مستعدة لاحترام سلامة أراضي صربيا . فلم يقبل كلاهما أن يدعنا للآخر . وقد نوه بورتاليس بأن ألمانيا ذهبت بعيداً فى الضغط على فينا ، وأن الحالة الآن قد باتت أكثر تعقداً من ذى قبل بكثير من جراء تقرير روسيا الأمر بالتعبئة بيد أن سازونوف أبى أن يرضى بمجرد تصريح النمسا بأنها لا مطمع لها فى أراضي صربيا . وقد اتخذ اصرار سازونوف على مسألة السيادة الصربية مظهراً أشد قبل ظهر يوم ٣٠ يوليه عند ما رجاه بورتاليس أخيراً أن يضع صيغة كتابية ترضى روسيا ويكون هنالك على الأقل أمل فى أن تصبح حلاً موقفاً فكتب سازونوف « الصيغة » الآتية :

إذا سلمت النمسا بأن المسألة النمسية الصربية قد اتخذت صيغة المسألة التي تهم أوروبا فأعلنت انها مستعدة لأن تستبعد من بلاغها النهائي النقط التي تنتهك حقوق السيادة الصربية فان النمسا تتعهد بوقف استعداداتها العسكرية .

هذه « الصيغة » لم تدل مع ذلك على أى تساهل من جانب سازونوف اللهم إلا كونها لم تطلب وقف الاجراءات النمسية المتخذة ضد صربيا عاجلا . كما أنه لم يكن ينتظر أن توافق عليها النمسا حتى بعد أن عدلت وفاقا لرأى السير ادوارد غراى كما تنص على احتلال النمسا لبلغراد وعلى تدخل الدول العظمى . لكنه لا الصيغة الأصلية ولا الصيغة المعدلة كان يرجى لها شيء من النجاح بصفة جدية ، فقد اكتسحها مجرى الحوادث الناشئة من ضغط العسكريين وخاصة لأنه بعد أن وضع سازونوف صيغته يضيع ساعات كان القيصر قد غير رأيه ووافق نهائياً على التعبئة العامة .

الامر بالتعبئة الروسية العامة

لقد كان الذعر واليأس قد توليا رئيس هيئة أركان الحرب الروسية ووزير الحرية لما أن أرغمهما القيصر على الغاء أمر التعبئة العامة في ليل ٢٩ يولييه . لكنهما صمما على ألا يهدما حتى بحمله على تغيير رأيه مرة أخرى والمواقفة من جديد على التعبئة العامة التي كانا يعتبرانها مما لا غنى عنه . ففي ٣٠ يولييه تباحثا مع سازونوف فألفياه متفقاً معهما كل الاتفاق . فطلبا القيصر إلى التليفون واجتمعا في اقناعه بالرجوع الى قراره الذي اتخذته في اليوم السابق وبالسماح بالبدء بالتعبئة العامة . فرفض القيصر طلبهما أولاً في عزم ثم أعان أخيراً في ايجاز أنه سيقطع الحديث . وكان أيانوشكيفتش ممسكاً بالساعة فلم يستطع إلا أن يخبره بأن سازونوف معهما أيضاً ورجا القيصر أن يسمح له بأن

يقول له كلمة . وتلا ذلك فترة صمت رضى القيصر بعدها بأن يصغى . فرجا سازونوف جلالته أن يأذن له بمقابلته في الحال ليرفع اليه شيئاً لا يحتمل التأخير . وبعد برهة أخرى ساد فيها الصمت سأله القيصر : « أترى بأساً في أن استقبلك في وقت واحد مع تاتيشيف في الساعة الثالثة لأنى لا أملك من وقى اليوم دقيقة فراغ واحدة . » فشكر سازونوف القيصر وقال انه سيصل في الموعد المضروب .

عندئذ ناشد ايانوشكيفتش سازونوف بأن يفرغ قصاراه في الحصول على موافقة القيصر من جديد على التعبئة العامة . وكرر عليه حججه الفنية ثم ارتأى كوسيلة أخرى للضغط على القيصر أن يستخدم سازونوف معه حجة سياسية هي : أن فرنسا حليفة روسيا ستستاء وتعتبر روسيا غير قائمة بواجباتها التي تفرضها عليها المحالفة ، وأن الأمبراطور قد يستدرج فرنسا الى الوعد بالوقوف على الحياد وعندئذ ينقض على روسيا بينما تكون هذه مرتبكة في تعبثها الجزئية . وأخيراً رجا سازونوف أن يبلغه النتيجة تليفونياً من يترهوف في اللحظة التي ينجح فيها في اقناع القيصر ليستطيع اتخاذ الاجراءات اللازمة على عجل وليحول التعبئة الجزئية إلى تعبئة عامة قبل أن يفوت الآوان . ثم زاد رئيس هيئة أركان الحرب : « بعد ذلك سأختفى عن الأنظار وأحطم آلة التليفون واتخذ كل الاجراءات على وجه العموم حتى لا يهتدى إلى أحد ليحملنى على اعطاء أوامر مناقضة تتأجل بها التعبئة العامة من جديد . »

وقد وافق سازونوف على ذلك كل الموافقة وخاطب ايانوشكيفتش دوبرورولسكى تليفونياً بقوله : « إن شمة املا في تحسن الحالة فكن على استعداد للهجوم إلى ومعك كل الوثائق بمجرد ما أدعوك تليفونياً بعد الظهر » وحادث سازونوف إذ ذاك بوكانان وباليولوج وحدثهما عن اجتماع له بيورتاليس « تولى الهم فيه السفير الألماني لما رأى ان الحرب واقعة

لا محالة ، وناشد سازونوف ان يفتح الباب لآخر أمل ويقترح شيئاً يمكن لبورتاليس ان يبرق به الى حكومته . ، على اثر ذلك وضع سازونوف « الصيغة » الآتية الذكر . وقال سازونوف عندئذ للسفيرين ما معناه انه اذا رفضت النمسا هذا الاقتراح ستجرى الاستعدادات للتعبئة العامة وتصبح الحرب الأوربية لامفر منها . والروسيا لدواع خطية يصعب أن تؤجل تحويل التعبئة الجزئية الى تعبئة عامة خاصة وهي تعلم ان ألمانيا تستعد والهيّاج في البلاد قد وصل الى حد لا نستطيع عنده روسيا أن تتراجع إذا لم تتساهل النمسا .

والواضح ان بوكانان لم يبذل أى مجهود لمنع سازونوف من تحقيق ما يرمى اليه من تحويل التعبئة الجزئية الى تعبئة عامة . وعدم قيامه بذلك لا بد ان يكون قد شجع الوزير الروسى .

وكان باليلوج وقت هذا الحديث قد تلقى من فيفيانى رسالة يعيد فيها ان فرنسا مستعدة لتأدية واجباتها التى تفرضها المحالفة لكنه يكلفه بأن ينصح لسازونوف بتجنب الاجراءات العسكرية التى يمكن أن تتيح لألمانيا حجة للتعبئة . وقد ابرق باليلوج يرد بأنه قام بما كلف به ...

وتوجه سازونوف الى يترهوف ومعه تاتيشيف فألقى القيصر بمتقع اللون عصي المزاج شاعراً كل الشعور بخطورة المسؤولية الملقاة على عاتقه وهى خطورة مخيفة . قال القيصر : « فكر فى التعبئة التى تنصح لى بتحملها ! فكر فى الآلاف المؤلفة من الرجال الذين سيوجهون الى حيث يلقون حتفهم » فرد سازونوف مجتهداً فى أن يثبت له انه لن يكون هنالك ما يؤنبه ضميره عليه اذا نشبت الحرب لأنها أصبحت لا مفر منها كما هو جلى واضح . أما السياسة فقد أدت مهمتها . والوقت الآن قد حان لأن يفكر جلالته فى سلامة أمبراطور يته فاذا لم يأمر بالتعبئة العامة تعطل نظام روسيا العسكرى بأسره واستاء حلفاء روسيا . قال « لم يبق الا أن نعمل كل ما هو ضرورى لمواجهة

الحرب تسمى العدة وفي أكثر الظروف صلاحية لنا . لذلك كان خيراً أن
تثير بلا خوف حرباً باستعداداتنا لها وبالمضى في هذه الاستعدادات بعناية ،
من أن نوجد سبباً للحرب بخوفنا فتأخذنا على غرة . » .

وقد ظل القيصر نحو ساعة ورغبته الأكيدة في تجنب الحرب مهما كلفه
ذلك تنزع به الى التردد في اتخاذ اجراءات مهما كانت لازمة من الوجهة
العسكرية فقد كان يراد بها كما تبين ذلك ، التعجيل بالكارثة . وقد دل على
شدة الحالة التي كانت ملية بشعوره في غضون تلك الفترة أشياء منها إنفعاله
الذي لم يعتده حين نهر الجنرال تاتشيف . فقد لاحظ هذا الأخير في فترة
سكوت وكان لم يأخذ في الحديث بنصيب أن : « أجل أن من الصعب اتخاذ
قرار . » فرد عليه القيصر بلهجة تدل على الحدة والاستياء « بلى ! سأقرر . »
وكان قراره بالتعبئة العامة في الحال . عندئذ هرول سazonوف الى التليفون
الكائن بالطابق الأرضي بالقصر وأبلغ إيانوشكيفتش ما جرى وكان ينتظر
بفارغ الصبر ثم قال له : « الآن حطم تليفونك ان شئت . اصدر أوامرك
يا جنرال ثم — توار بقية النهار عن الانظار . »

ودعا إيانوشكيفتش دوبرورولسكى على الأثر . وجمع هذا الامضاءات
الثلاث اللازمة من الوزراء الذين كانوا في تلك اللحظة مجتمعين في جلسة
فوق العادة . وقد رتب الأمر القاضي بالتعبئة بحيث يكون أول يوم في التعبئة
العامة هو ٣١ يولييه .

فماذا كانت الأسباب التي حملت على اتخاذ هذا القرار المشؤم بالتعبئة
العامة ؟ . لقد زعمت دول الوفاق سعيّاً وراء تسويغها والتماس العذر لها
أسباباً مختلفة ليست على شيء من الحقيقة .

ومن هذه الحكايات أن القرار الروسى بالتعبئة اتخذ على أثر برقية من
سفيريف السفير الروسى في برلين يقول فيها : « ان أمر تعبئة الجيش والاسطول
الألمانيين صدر ولما يكد . » وكان الذي حمله على هذا ما نشر في هذا المعنى
بعد الساعة الواحدة في « ملحق » صحيفة لوكال انتسايجر البرلينية . وقد قيل

إن الألمان قصدوا بهذا الى الخديعة ليعجلوا بالنعثة العامة في روسيا وبذا يظهرونها بمظهر المعتدى . بيد أن وزارة الخارجية الألمانية كذبت هذا الخبر على الفور وصادرت « الملحق » ومن ثم بعث السفير الروسى على جناح السرعة برقية ثانية غير رمزية يلغى بها البرقية الاولى ثم قفاها بثالثة بالشفرة أوضح فيها الظروف . وقد تقرر فى صورة جازمة أنه لم يصل من هذه البرقيات شىء الى بطرسبورغ الا بعد أن كان القيصر قد اتخذ قراره . وعلى ذلك لم يمكن أن يكون لها تأثير فى اتخاذه . وسازونوف أو أى من ولاية الأمور الروسين فى ذلك الحين من ، يولييه ١٩١٤ لم يزعم أن قصة لوكال انتسابها كانت عنراً من التعبة الروسية العامة . فقد أخلق هذا الزعم فيما بعد واذاعه السير ادوارد غراى فى سنة ١٩١٦ .

وسبب آخر زعمه السفير الفرنسى فى سان بطرسبورغ فى مذكراته التى لا يوثق بها بعض الشىء هو أن الفرار كان نتيجة برقية تهديدية من الأباطور الألمانى . وتروى هذه الأسطورة « أن سازونوف عند وصوله الى بيترهوف وجد أن القيصر كان قد تلقى برقية أرسلت اليه فى الليلة السابقة بنهجة تكاد تكون تهديداً فوقعت من نفسه وقعا سيئاً جداً . وكانت تفيد « أنه اذا عبات روسيا ضد النمسا فدور الوسيط الذى قبله بناء على توسلاتك يصبح فى خطر ان لم يقض عليه . فخطورة القرار تقع على عاتقك الآن وعليك أن تتحمل نبعة السلم أو الحرب » فلما فرأ سازونوف هذه البرقية غير مة ظهرت عليه امارات اليأس والقنوط ومضى يحض القيصر على التعبة العامة بدعوى أن الحرب باتت أمراً لا مفر منه وان ألمانيا انما تزعم أنها توسط لكسب الوقت حتى يتسنى لها اتمام استعداداتها فى السير للمجوم . قال باليلوج : وبعد تردد سلم القيصر كارها وأصدر قراره وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر . يد أن هذه البرقية لم يرسلها الأباطور الا فى منتصف الرابعة ولم تصل الى بيترهوف الا فى منتصف السابعة فكان وصولها بعد مضي أكثر من

ساعتين على قرار القيصر وبعد أن أخذ دوبرورولسكى فعلا في إرسال أمر التعبئة العامة بالبرق نصف ساعة فهي على ذلك لا يمكن أن تكون السبب في تعبئة روسيا العامة أكثر مما كان « ملحق » لوكال انتسايجر . فأما أن يكون سازونوف قد حكى لباليوج حكاية مقابلته للقيصر بما لا يطابق الواقع ، وإما ، وهو الأرجح ، أن يكون السفير الفرنسى قد استعان في ذلك بخياله المجنح .

وثمة سبب ثالث زعموه للتعبئة الروسية العامة وهو أن هذه التعبئة كانت من جراء التعبئة النمساوية العامة وبسبب اجراءات للتعبئة كانت ألمانيا قد اتخذتها ومضت في اتخاذها في خلال الستة الأيام الماضية . وقد ظلت هذه الخرافة ذائعة بالصيغة المزورة التي نشرت بها في الكتاب الأصفر الفرنسى البرقية المتأخرة التي أبلغ فيها باليلوج حكومته أخيراً ما اتخذته روسيا من قرارها المشؤم . وإلى القارىء الصيغتان الاصلية والمزورة جنباً الى جنب :

النص المزور

في الكتاب الفرنسى الأصفر

صفحة ١١٨

انه نتيجة للتعبئة النمساوية العامة
ولاجراءات التعبئة التي كانت ألمانيا
تمضى فيها سرّاً في خلال الستة الأيام
الآخيرة . قد صدر الأمر بالتعبئة العامة
للجيش الروسى لأنه لايسع الروسىادون
أن تتعرض لأعظم الأخطار ، أن تسمح
لنفسها بأن تسبق أكثر مما سبقت .
وفي الحق أنها تتخذ فقط الاجراءات

النص الاصلى

قد صدر الأمر بالتعبئة العامة
للجيش الروسى

العسكرية المطابقة للاجراءات التي
اتخذتها ألمانيا .

والحكومة الروسية لأسباب
خطئية قاهرة ولعلها أن ألمانيا
كانت تتسلح لم تستطع ان تؤخر
اكثر من ذلك تحويل تعبئتها الجزئية
الى تعبئة عامة .

وتكاد لا تكون هنالك ضرورة — بعد أن سلمت السلطات الفرنسية الآن
بأن الجانب الأكبر من هذه الوثيقة الواردة في الكتاب الفرنسي الأصفر
كان محض اختلاق — نقول تكاد أن لا تكون هنالك ضرورة بعد هذا لأن
نورد أن التعبئة النمساوية العامة لم يؤمر بها إلا بعد التعبئة الروسية العامة
بثمانى عشرة ساعة وأنه لاصحة للقول بأن ألمانيا كانت تتخذ الاجراءات للتعبئة
سراً فى خلال ستة أيام . وكون موظفى وزارة الخارجية الفرنسية الذين
أنشأوا الكتاب الأصفر فى سنة ١٩١٤ قد رأوا أن الضرورة تقضى بالالتجاء
الى مثل التشويه المتعمد للحقيقة ، يرى أنهم كانوا شاعرين بشئ ما أقدمت
عليه روسيا ويدل على مبلغ التبعة الكبيرة الملقاة على عاتق باليوج وفرنسا
عنه ولذا سعوا الى التماس العذر له وتبريره بتزوير الوثائق . والآن تتساءل :

هل قوى من تصميم سازونوف على اقناع القيصر بأصدار أمر التعبئة
العامة ما جرى له قبيل ذهابه الى يترهوف من حديث مع بوكانان وباليوج
وما تلقاه من برقية ايزفولسكى ؟ أو أن هذا الحديث وتلك البرقية كما يرى
المسيورينوفان فى حلق حملاه فقط عند عودته من يترهوف بعد حصوله
على أمر التعبئة العامة على إبلاغ باليوج وهو يقتضب الحقيقة اقتضابا يكاد
لا يتفق والمألوف من حليف حيال حليفه ، أن الحكومة الروسية مصممة
على البدء سراً بالاجراءات الأولية للتعبئة العامة . وليس يسع أحداً أن

يعلم من هذه الجملة الغامضة علم اليقين أن الحكومة الروسية أمرت فعلاً بالتعبئة الكاملة . وما يزعمه رينوفان وبوانكاريه هو أن الوزارة في باريس لم تكن تعلم بالتعبئة الروسية العامة على قدر ما اتصل بها من باليلوج إلا بعد مرور أكثر من يوم كامل على صدور الأمر بها . وبعبارة أخرى إلا بعد وصول البرقية التي بعث بها باليلوج في الساعة العاشرة والدقيقة ٤٣ من صباح ٣١ يوليه عن طريق برجن ووصلت في منتصف الساعة التاسعة مساء .

وإذا كان رينوفان وبوانكاريه على حق فأن برقية باليلوج تكون هي التي خدعت حكومته . فمن المستول عن هذه الخديعة ؟ هل ضلل سازونوف باليلوج فنقل هذا ذلك التضليل الى باريس في بساطة ؟ أو كان باليلوج يعلم الحقيقة من سازونوف أو غيره فأخفى عن باريس الواقعة الظاهرة في أن أمر التعبئة العامة أرسل بالبرق قبل أن يرسل هو رسالته الغامضة بثلاث ساعات ؟ إنه لا يسع أحداً أن يحزم في هذا الأمر بشيء ، فالمسيو رينوفان ينسب هذه الخديعة الى سازونوف . بيد أن إحدى برقيات بوكانان تحمل المرء على الظن بأن الذي خدع قد يكون باليلوج : أي أن السفير الفرنسي كان يلم بمعلومات هامة أخفها عن حكومته . فأن الظاهر أن بوكانان أبرق في الساعة السادسة والدقيقة ٤٠ من مساء يوم ٣٠ يوليه بما يطابق الواقع ولا يحتمل الاتهام يقول : « إنه تقرر إصدار الأوامر بالتعبئة العامة . » ولما كان بوكانان وباليلوج على اتصال وثيق دائم أحدهما بالآخر أفليس من المحتمل جداً أن باليلوج كان كبوكانان يعلم عقيب الساعة السادسة من مساء يوم ٣٠ يوليه أن التعبئة العامة تقررت ؟ وإذا كان هذا هكذا أفما كان ينبغي أن يبعث بهذا المعنى رسالة واضحة لا اتهام فيها بدلاً من رسالته التي ضللت حكومته في باريس . ان الدور الذي لعبه باليلوج خلال أزمة يوليه مسألة من المسائل التي هي أحوج ما تكون الى الجلاء بنشر الوثائق الفرنسية بشفرة كاملة يدعو الى الارتياح .

واذن فليس « ملحق » اللو كال اتسايجر ولا برقية الامبراطور ولا التعبئة
النسوية بالذى يمكن ان يفسر أو يسوغ التعبئة الروسية العامة . ومبلغ ما كان
لبوكانان وباليوج على سازونوف في يوم ٣٠ يوليه من تأثير ليس موقنا به . وقد
سبب التعبئة الروسية العامة ان سازونوف والضباط العسكريين كانوا في ٣٠
يوليه يرون نفس ما كانوا يرونه في مساء ٢٩ يوليه يوم كانوا سيذيعون أمر
التعبئة العامة لولم يغير القيصر رأيه . ولم تكن الحالة قد تغيرت تغيرا جوهريا
في تلك الاثناء خلا ان التعبئة الجزئية التي كانت قد سبق أن صدر الأمر بها في
ليل ٢٩ يوليه جعلت السلطات العسكرية تطالب بأشد من إلحاحها السابق
بالتعبئة العامة عاجلا لأن اعتبارات فنية عسكرية تقتضيها .

الفصل الحادى عشر

التعبئة وإعلان الحرب من نواح أخرى

لقد أغفلنا ذكر الحوادث التى وقعت فى عواصم أوربا الأخرى ونحن نتبع الاجراءات الدبلوماسية والعسكرية التى اتخذت فى روسيا الى حين صدور الأمر بالتعبئة العامة بعد ظهر يوم ٣٠ يوليه . فقد كان الأمل فى السلم والخوف من الحرب الوشيكه الوقوع قد وقفا السياسيين وولاة الأمور العسكريين فى باريس ولندن وبرلين أيضاً وجها لوجه : هؤلاء بنشاطهم يقفون من أولئك بضغطهم موقف المعارضة . الاولون دائبون على العمل لانقاذ الموقف او على الاقل ، اذا تعذر ذلك ، لأظهار أنفسهم وحلفائهم بمظهر الذين لا يحملون التعبئة عن الكارثة المنتظرة ، والآخرين يلحون فى المطالبة باجراءات عسكرية يرون ألا يحصى عنها للاستفادة من الوجهة الخطئية فى الحرب التى كانوا يزدادون على مر الأيام اقتناعاً بانها واقعة لا محالة .

فرنسا والأنسحاب عشرة كيلومترات

وصل الرئيس بوانكاريه والمسيو فيفيانى الى باريس عند الظهر بعد نزولهما فى دنكرك فى صباح ٢٩ يوليه . فأبلغا على عجل ما اتخذ من الاجراءات العسكرية على سبيل الاحتياط وتوقعاً للحرب وهى احتياطات كانت الوزارة والمسيو مسيمى وزير الحرية يتخذانها فى غيبتها منذ مساء ٢٥ يوليه . وكانت هذه الاجراءات تشتمل على عودة الجنود من تمريناتها الى معسكراتها الدائمة واستدعاء الضباط من اجازاتهم والعمل على نقل ما يمكن نقله من الجنود

الموجودة في مرا كش . فصادق الرئيس والمسئور فيفياني على كل هذه الاجراءات. وقد علما أيضاً باصرار النمسا على موقفها المنطوى على العناد وبأعلانها الحرب ، وما كان يبدو من تأييد ألمانيا للنمسا كل التأييد ، والزيارات المختلفة التي أداها السفير الألماني لوزارة الخارجية الفرنسية فلم تبعث على الثقة برغبة ألمانيا في السلام ؛ علماً بكرهه السير ادوارد غراي لأن يورط نفسه بصورة معينة فيما يتعلق بمسلك إنجلترا في المستقبل ، وباعلان سازونوف أن روسيا على وشك أن تأمر بالتعبئة الجزئية . ويقول بوانكاريه إنه في اجتماع للوزارة بعد الظهر ألقى الوزراء جميعاً متحدّين عاقدّين الخناصر على أن يفعلوا المستحيل لتجنب الحرب وألا يهملوا أيضاً أي استعداد للدفاع .

في ساعة متأخرة من الليل أو بالحرى بين الثانية والثالثة من صباح ٣٠ يوليه أبلغ ايزفولسكى وزير الخارجية الفرنسية ووزير الحرية برقية على أعظم جانب من الأهمية تدل على قرب وقوع الحرب وكان قد تلقاها من سان بطرسبورغ ولما يكّد . وفيها يقول سازونوف : « لما كنا لا يسعنا أن نجيب ألمانيا الى رغبتها (وهي أن تكف روسيا عن استعداداتها العسكرية) فليس أمامنا الا أن نعجل بتسلحنا وأن نعتبر الحرب وشيكة الوقوع ، وبعد ان أعرب عن امتنانه من تصريح باليلوج بتأييد فرنسا التام ، وهو الذى له قيمة خاصة لنا في الظروف الحاضرة » . قال : « ومن المرغوب فيه جداً أن تنضم إنجلترا أيضاً دون اضاءة الوقت الى فرنسا والروسيا لأنه بهذه الطريقة وحدها يسعها أن تحوّل دون اختلال التوازن الأوربي الأول بصورة خطيرة » .

وقد اجتمع فيفياني ومسيى على الأثر ببوانكاريه في قصر الأليزة وكان قد آوى الى فراشه . وهناك صادقوا على برقية من فيفياني الى باليلوج أباغت في الحال الى ايزفولسكى ووضعت بالرموز ثم أرسلت الى سان بطرسبورغ ولندن في الساعة السابعة من صباح ٣٠ يوليه ، . . . وقد جاء فيها بعد الإشارة الى برقية فيفياني التي أرسلها من الطراة فرنسا في ٢٧ يوليه :

ان فرنسا مصممة مع ذلك على القيام بواجبات المحالفة . لكنى أرى فى مصلحة السلام العام وللحادثات القائمة بين الدول التى هى أقل من غيرها مصلحة أن من المناسب فيما يتعلق بالاحتياطات والاجراءات الدفاعية التى تعتقد روسيا أن من الضرورى أن تتخذها ، أن لا تتخذ عاجلاى إجراء يمكن أن تتذرع به ألمانيا لتعبئة قواها تعبئة تامة أو جزئية.

أما ما كانت الحكومة الفرنسية تضره فكان أكثر وضوحا فى برقية أخرى بادر ايزفولسكى بأرسالها الى سازونوف :

لقد أخبرنى مارجرى الذى رأيت الساعة بأن الحكومة الفرنسية ، دون أن تكون لديها رغبة التدخل فى استعداداتنا العسكرية ترى أن من المرغوب فيه جداً بالنظر الى المفاوضات التى لا تزال قائمة من أجل السلام أن تجرى هذه الاستعدادات بأقل ما يمكن من العلانية والاستفزاز وقد أخبر وزير الحرية من جانبه ، وهو يعرب عن نفس الفكرة ، الكونت ايجناتيف [الملحق العسكرى الروسى فى باريس] ان فى استطاعتنا أن نعلن اننا فى مصلحة السلم العليا راغبون فى تخفيف اجراءاتنا المتعلقة بالتعبئة بصفة مؤقتة وهو ما لا يمنعنا من المضى فى استعداداتنا العسكرية بل وتقويتها أيضاً بينما تتحاشى على قدر الامكان نقل جنودنا جماعات كبيرة.

من هاتين البرقتين يلوح أن الحكومة الفرنسية كانت تتوق الى أن لا تعجل روسيا بالحرب الاوريسية بل أن تستمر على اتخاذ اجراءاتها استعداداً لها مادام قد بدا انه لا مفر منها . ولا بد أن بوانكاريه كان شاعراً بأن تجديده الوعد بالمساعدة التامة كان قيناً أن يشجع روسيا على تحدى ألمانيا وأن يودى هذا الى الحرب ... ولما كان كما يظهر يعتقد أن الحرب واقعة لا محالة ويذكر غلطة فرنسا فى أنها كانت المعتدية رسمياً فى حرب السبعين فلم يكن ينتوى أن ترتكب فرنسا نفس الغلطة فى سنة ١٩١٤ فعلى روسيا وفرنسا أن تنتظرا حتى تبدأ ألمانيا فتبوء على ذلك بعارالمستولية. وقد أثبتت الحوادث فطنته لأن يتهمان سرعان ما ارتكب باعلانه الحرب

الغلطة الرسمية التي ارتكبها أوليفيه في سنة ١٨٧٠ . لذلك ينبغي على روسيا في الوقت الحاضر حيث لا تزال المفاوضات الدبلوماسية قائمة أن تخفى على قدر الاستطاعة ، الاحتياطات والاجراءات الدفاعية التي ترى أن من الضروري اتخاذها .

ولو أن الرئيس بوانكاريه أبدى شيئاً من شدته المألوفة وجلالته المعهود - لو انه قال للروسيا بما لا سيل فيه الى لبس « لا تأمرى بالتعبئة العامة في الآونة الراهنة ما دامت المفاوضات الدبلوماسية جارية » - أجل لو أنه تكلم بمثل الشدة التي استعملها يتيان في مخاطبته لفينا ، لكان هنالك شيء من الاحتمال في أن لا تقع الحرب . إن التعبئة الروسية العامة لم يكن صدر الأمر بها وبرقية فيفياني وصلت الى باليلوج حوالى ظهر ٣٠ يولييه قبل أن يتوجه سازونوف الى يترهوف للحصول على مرافقة القيصر من جديد على التعبئة العامة . فلو أن بوانكاريه أندر (الروسية) بقوة وأعاد باليلوج هذا الانذار على مسمع سازونوف لكان لدى الوزير الروسى فسحة من الوقت للوصول الى تأجيل التعبئة الروسية العامة من جديد الى أن يكون اقتراح « الوقوف بيلغراد » أو أى نوع آخر من التوسط قد صد الدول عن الهاوية . لكن بوانكاريه كان اذ ذاك أكثر عناية بالحصول على معاونة انجلترا واتخاذ الاحتياطات العسكرية في فرنسا منه بكمج روسيا ... ففي ساعة مبكرة من صباح يوم ٣٠ يولييه أبلغ بول كمبون فى لندن برقية سازونوف الدالة على قرب وقوع الحرب كما أبلغ رد فرنسا عليها . وقد كلف كمبون بأن يخاطب غراى ويذكره بالرسائل التي تبودلت فى سنة ١٩١٢ واتفق الهريقان فيها على ان يباحث كل منهما الآخر فى الحال ، إذا تعرض السلم للخطر ، فى هل ينبغي ان تتعاون الحكومتان ، فاذا كان هذا هكذا فاية اجراءات يجب ان تعد لتتخذ معاً . وقد كلف كمبون ايضاً بأن يزود غراى بقائمة طويلة أثبتت فيها الاستعدادات العسكرية التي زعموا أن ألمانيا قد اتخذتها ، « ليدله على

أن ألمانيا باستعداداتها العسكرية قد تقدمت فرنسا في كل ما فعلته وأصبحت أسبق منها إلى الهجوم . » وحتى يرى غراي « ان فرنسا على رغم تصميمها ليست هي التي تتخذ اجراءات عدوانية »

على أنه لما ذكر المسيو كمبون السير ادوارد غراي بالرسائل المتبادلة في ١٩١٢ « وقال إن سلم أوروبا لم يهدد يوماً هذا التهديد الخطير الذي يتعرض له الآن ، لقي ما خيب ظنه فانه مع محاذرته الشديدة وترفعه المتناهي في أنه لم يسأل غراي أن يقول له رأساً إن انجلترا ستدخل بل سأله ماذا يفعل في ظروف بعينها كاعتداء ألمانيا على فرنسا ، كان كل ما قاله السير ادوارد غراي له انه سيراه في اليوم التالي بعد أن تكون الوزارة قد اجتمعت . وقد تحدث كمبون مع السير آرثر نيكولسن أيضاً لكنه لم يلق تشجيعاً كثيراً اذ قال له نيكولسن إن الرأي العام الانجليزي لا يكثر لتنافس النمسا والروسيا في البلقان وأن الوقت لم يحن بعد للنظر في تدخل بريطانيا فأن مصالح ألمانيا المالية ذات تأثير في « الستى » وعلى بعض أعضاء الوزارة . وأسكويث لم يكن يجرأ في تلك الآونة على اتخاذ موقف يدل على التصميم بيد أن نيكولسن نفسه كان « يوافق شخصياً على التدخل » .

وفي مساء ٣٠ يولييه خاطب بوانكاريه نفسه السير فرانسيس برقي سفير انجلترا في باريس بأهجة أكثر خشونة والخافا لجادله في الحاح شديد قائلاً إنه اذا بادرت انجلترا فأعلنت عزمها على تأييد فرنسا « فلن يكون ثمة حرب لأن ألمانيا تعدل في الحال موقفها . . . وحتى اذا لم تمتنع الحرب فأن مساعدة بريطانيا لفرنسا عند نشوب القتال مما يساعد على الاحتفاظ بالتوازن الدولي في أوروبا . أما المساعدة التي تأتي بعد ذلك فقد تأتي بعد فوات الأوان واذا لزمتم انجلترا الحياد وباتت ألمانيا في القارة هي كل شيء فركز انجلترا خليق أن يتحول لغير مصلحتها كدولة عظمى ، فرد برقي بقوله ان ما يحوط موقف مجلس العموم من الشكوك يجعل من المتعذر الاقضاء بتصريح كهذا وان الأوامر التي صدرت بأن لا يتفرق الأسطول البريطاني لا بد على كل حال

أن تدل ألمانيا دلالة بينة على موقف انجلترا . بيد أن برقي في تعليقه الخاص لغراي يقول : ان الفرنسيين بدلا من أن يضغطوا على الحكومة الروسية لتخفف من غلوائها ينتظرون منا أن نفهم الألمان أننا نريد القتال اذا نشبت الحرب . ونحن اذا أكدنا لفرنسا والروسيا الآن أننا سنساعدهما بالسلاح غلت روسيا في تطرفها وسارت فرنسا في أثرها .

ولما كانت برقية سازونوف قد أفادت أنه يبحث الاجراءات العسكرية الروسية ويرى أن الحرب واقعة فقد اتجهت رغبة بوانكاريه ووزير حرية فرنسا على الأخصر الى اتخاذ الاجراءات لزيادة عدد الجنود على الحدود واستكمالها بأسرع ما يستطيع على ان يتجنب مع ذلك الظهور بمظهر الذى يقوم باستعدادات عسكرية وهو ما قد يفضى الى مصادمات على الحدود او ما قد يقع فى انجلترا وقعا سيئا . فهذا التنازع بين ما يبذل من مجهودات تقتضيها الخطط الحربية واخرى تستلزمها المصالح الدبلوماسية هو أصل و انسحاب عشرة الكيلو مترات ، المشهور .

فانه فى اجتماع الوزارة الفرنسية فى صباح يوم ٣٠ يوايه عقب وصول برقية سازونوف حضر وزير الحرية الفرنسية على وجوب القيام ، بالتغطية ، فى الحال . ومعنى هذا أن تشغل الجنود مراكزها على الحدود وأن تعبأ خمسة فيالق ويعبأ كافة الفرسان الفرنسيين . فاعترض على هذا من الوجهة الدبلوماسية بأنه قد يظهر فرنسا بمظهر المعتدية ويقضى على الأمل فى مساعدة بريطانيا وحيدة ايطاليا . والتوفيق بين مصالح الاستراتيجية والدبلوماسية المتنافرة تقرر مبدئياً أن يتراضى على أمر وسط فتم التغطية ولكن مع بعض القيود ، إذ ينحرك الجنود الذين يتولونها نحو الحدود سيراً على الأقدام أو على ظهور الجياد على قدر المستطاع ، ولا يستدعى احتياطى وتشترى الخيول بدلا من الاستيلاء عليها ، وتربط الجنود على مسافة قصيرة من الحدود الفعلية . فأن هذا من شأنه أن يقلل خطر الحوادث السيئة التى قد

مبالغ في تأويلها في هذا الوقت البادى الانتفال والريية ففسر بأنها « اعتداءات ، ، وأعمال حرية ، كما قال فيفيانى فى مجلس النواب فى سنة ١٩١٩ رداً على متقديه الذين اتهموا بأن أمر « عشرة الكيلومترات ، مكن ألمانيا من السبق والاستيلاء على الأقاليم الفرنسية التى تخرج الحديد ، إذ أعلن : « لقد كنا ندرك ان كل شىء قد يقع من حادث تسوقه محض الصدفة . فقد يضل العسس الطريق فيصطدم بعسس العدو ؛ أو يأتى جاويز أو أومباشى عملاً أخرق ؛ أو يظن جندى نفسه فى خطر فيطلق بندقيته ،

وقد جاء فى الكتاب الفرنسى الأصفر أن فيفانى أبرق فى ٣٠ يوليه الى بول كيون يقول « اننا حجزنا جنودنا على بعد ١٠ كيلو مترات من الحدود ومنعناهم من التقدم نحوها . . . وبذا عرضنا خطأ من الأرض خلوا من الدفاع لاعتداء العدو المباغت فحكومة الجمهورية تأمل ان تقيم الدليل على انه لا فرنسا ولا روسيا تحمل مسؤولية الاعتداء . والواقع مع ذلك ان حداً مقداره عشرة كيلومترات بالضبط لم يعين بحال من الاحوال ، وانه لا البرقية التى أرسلها بول كيون حقيقة فى ٣٠ يوليه ولا الأمر الذى اصدره ميسيمى الى قواد الفيالق الخمسة فى الساعة ٤،٤٥ مساءً يذكر شيئاً عن « عشرة الكيلومترات ، وبرقية فيفيانى الى بول كيون تكلفه بتوجيه التفات السير ادوارد غراى الى الاستعدادات العسكرية الألمانية « لترى انجلترا منها ان فرنسا وان كانت مصممة ليست هى التى تتخذ الاجراءات العدوانية . . . فمع أن الباتيا قد غطت مراكزها على بعد بضع مئات أو آلاف الامتار من الحدود كلها ابتداء من لوكسمبرج الى الفوج ووضعت جنودها التى تقوم بهذه المهمة (مهمة تغطية الحدود او حراستها) فى المراكز التى تشغلها فى حالة الحرب ، فانا لم نفعل ذلك . . . وبذا تركنا خطأ من أراضينا دون دفاع وعرضة للاعتداء المباغت . ونحن لم نفعل هذا الا لترى الحكومة البريطانية والرأى العام ان فرنسا والروسيا لن تكون أول من يطلق النار ، وبلى ذلك

قائمة بالاستعدادات العسكرية الألمانية فيما يتعلق بالحدود وغيرها . وأمر
ميسمي الى قواد الفيالق يعيد تكليفهم بتنفيذ أمر سنة ١٩٠٩ المتعلق بتعبئة
جنود الحدود ... ومن ثم لم يكن هنالك خط مرسوم يحدد في كل مكان عن
الحدود عشرة كيلو مترات بالضبط ، فقد كان في عدة مواضع يبعد فقط اربعة
او خمسة كيلو مترات عن الحدود كما قال ميسمي امام لجنة بريبي سنة ١٩٢٠ ..
ومع هذا فإن كون الحكومة الفرنسية قد حجزت جنود التغطية على بعد
بضعة كيلو مترات من الحدود كان منها اجراء حكيم ، فقد كان من شأنه أن
يحول دون وقوع حوادث ، أسيفة كان يمكن أن تعجل بالحرب . لكننا
نختل " اذا عددناه دليلا على تعلق برانكاريه بالسلام . فأدنى من هذا الى
الواقع انه اجراء أريد به بادي الرأي الحصول على تصديق بريطانيا وتأيدها
العسكري واخفاء الحقيقة في أن فرنسا كانت تتخذ اجراء عسكرياً هاماً
تمهيداً للحرب .

الاسطول البريطاني وإنذار ألمانيا

لم تكن المسألة الاستراتيجية في انجلترا تشبه مثيلتها لدى السلطات
العسكرية في القارة ، فإن التدابير التي كانت انجلترا قد اتخذتها قبل ذلك الحين
بعده أسابيع كانت لحسن حظها سبباً لأن يقف أسطولها محتشداً في أعظم
قوة بحرية أتيح للعالم أن يشهدها . فلم يكن الأمر يستدعي إذن أن يعمل
على عجل وبأقصى سرعة ممكنة لأعداده لملاقاة العدو . وإنما كان كل ما هنالك
من مسألة هو أن تعطى الأوامر لابقائه محتشداً بدلا من السماح له بالتفرق
ثانية والعودة الى مراكزه المعتادة في وقت السلم .

ففي يوم السبت ٢٥ يولييه علم غراي ومستشاروه من بوكانان أن سازونوف
قد رأى أن لا بد للروسيا على كل حال من التعبئة " وان زيارة برانكاريه
قد أوجدت بين فرنسا والروسيا اشتراكا تاماً في الرأي وتأكيذاً خطيراً

للواجبات التي تفرضها المحالفة ، فعلق السير أريك كرو على ذلك بقوله « يجب أن نقرر الآن تعبئة الأسطول بمجرد ما تعي أية دولة عظمى أخرى ويجب أن نعلن هذا القرار دون ابطاء الى الحكومتين الفرنسية والروسية .. ثم أبدى أن تعبئة الأسطول قد تصلح أيضاً لأن تكون انذاراً لألمانيا . بيد أن السير ادوارد غراي الذي كان وزير البحرية ونستون تشرشل قد أخبره ولما يكذب بأنه يمكن تعبئة الأسطول في أربع وعشرين ساعة رأى أن ابداء أى تصريح يعد الى ذلك الحين سابقاً لأوانه . فقد كان لا يزال يؤثر أن لا يتخذ موقفاً مورطاً فلا يشجع الروسيين والفرنسيين ولا يهدد الألمان .

لكنه في اليوم التالي عقب وصول أنباء من النمسا وصرىا أبعث على القلق من غيرها قرر ونستون تشرشل والأميرال الأول عن نفسيهما أن لا يفرق الأسطول . وصادق غراي على قرارهما ، وظهر في الصحف الانجليزية في صباح يوم ٢٧ يولييه منشور يفيد أن الأسطول سيبقى محتشداً . وكان غراي يريد بهذا أن يكون بمثابة إنذار لتبديد ما هو ذائع في ألمانيا والنمسا من أن انجلترا ستقف على الحياد . بيد أن هذا المنشور ساعد على تبديد مخاوف السفير الروسي الكونت بنكندورف وقوبل من زميله بول كمبون « بارتياح عظيم » . أما في النمسا وألمانيا فلم يكن له التأثير الذي كانت وزارة الخارجية البريطانية تتوقعه فيما يلوح . وغراي حين ذكره للسفير النمساوى قلل نفسه من شأنه بقوله : « لقد أثبت أننا ما كنا لنفكر في دعوة الاحتياطي أو اتخاذ أى اجراء ذى صبغة تنطوي على التهديد لكتنا وقوتنا البحرية مجتمعة للمناورات لم يسعنا وهناك احتمال أن تنشب حرب أوربية أن نختار هذه اللحظة لتسريحها . » وفي ألمانيا لم يعلق على هذا المنشور بادىء الرأى من الأهمية ما علق على التأكيد الذى كان البرنس هنرى اوف بروسيا قد حصل عليه من الملك جورج وهو أن انجلترا ستلتزم الحياد .

وفي ٢٨ يولييه زاد الشعور بالتشاؤم في وزارة الخارجية البريطانية . وكان

قد أشكل على موظفيها تلك المقترحات الجديدة التي لبث سازونوف يقدمها كل يوم تقريباً . ومقترحات السير ادوارد غراي التي ارتأها هو للتوسط « وللمحادثات المباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ وهو ما قبل أن يكون بديلاً من التوسط — نقول ان هذه المقترحات كان يبدو أنها لا تلقى توفيقاً بالنظر إلى النظرية النموية الألمانية القائلة بجعل النزاع الصربي « محلياً » . وقد أجمل السير أرثر نيكولسن الحالة في خطاب إلى بوكانان قال فيه : « اني أفهم كل الفهم أن لا يسع روسيا السماح بسحق صربيا . وأرى أن الكلام عن جعل الحرب محلية معناه أن تقف جميع الدول موقف المتفرج بينما النمسا تورد صربيا مورد الهلاك . وهذا عما لا يقبله عقل ان لم أقل عنه أنه جائر . فلست أفهم بعد الكيفية المرضية جداً التي اجابت بها صربيا النمسا الى مطالبتها . بأي مبرر يمكن النمسا ان تأخذ في اجراءات عدائية نحوها . فاذا كانت تعتمد اثاره الحرب مع صربيا . . . فيجب ان تعلم جيداً أن عملاً كهذا من جانبها يرجح كل الرجحان ان يفضي الى حرب اوروبية عامة بكل ما يترتب عليها من عواقب غاية في الوخامة . ان المانيا لم تلعب في هذه المسألة دوراً مستقيماً جد الاستقامة وعلى الأقل فيما يتعلق بنا . » ثم أشار مع الارتياح الى الأوامر الصادرة بابقاء الأسطول البريطاني محتشداً وإلى تبدل لهجة الصحف الانجليزية التي كانت في مبدأ الأمر وعلى اثر حادثة سيرا جيفو تعطف على النمسا ، وأبدى أن هاتين الحقيقتين الواقعتين قد أبانتا لألمانيا والنمسا كل الإبانة أن لا تعتمدا في شيء من اليقين على وقوف انجلترا على الحياد .

وأخيراً في ٢٩ يولييه جعل الموظفون العليمون في انجلترا بحقائق الأمور يعتبرون الحرب الأوروبية لا مفر منها بعد أن جاءهم نبأ إعلان النمسا الحرب على صربيا — ذلك النبأ الذي جعل سازونوف يرى المحادثات لا طائل تحتها ويقول ان التعبئة الجزئية ستقع قريباً في روسيا . . . فقد صرح المستر اسكويث في مجلس العموم بأن الحالة « في نهاية الخطورة » .

وفي الواقع أنه في الساعة الخامسة من مساء اليوم السابق ٢٨ يوليه كان ونستون تشرشل قد أمر بأن يبرح الأسطول بورتلند ليلاً مطلقاً الأنوار وبأقصى سرعته إلى قاعدة قتاله في سكا بافلو محترقاً مضائق دوفر. ولم يعلم المستر تشرشل بذلك غير المستر اسكويث — الذي صادق عليه في الحال — خشية أن يعرض الأمر على الوزارة فيعتبر عملاً مثيراً خليقاً أن يقضى على كل أمل في السلام. وفي ٢٩ يوليه أرسلت إمارة البحر « برقية الانذار » الرسمية إذ كان الأسطول الآن مستعداً لملاقاة الحالة والسيطرة عليها مهما حدث.

وفي صباح ٢٩ يوليه قرر السير ادوارد غراي أخيراً أن يوجه إلى ألمانيا انذاراً أكثر وضوحاً وفاقاً لما كانت روسيا وفرنسا تلحان به على الدوام. ومن الغريب أنه أخبر كيون أولاً بما كان سيقوله ليشنوفسكي لكنه في نفس الوقت أعاد عليه أن انذاره لألمانيا لا يعني أن انجلترا قد صممت على ما تفعله في حالة دخول فرنسا وألمانيا الحرب، فأن انجلترا طليقة من كل ارتباط وسوف تقرر ما تقتضيه المصالح البريطانية. ثم كرر غراي ليشنوفسكي ما صرح به سازونوف من أن روسيا لن يسعها بعد إعلان النمسا الحرب على صربيا أن تتفاوض مع النمسا رأساً وأنها ترغب في العودة إلى الاقتراحات البريطانية الخاصة بالتوسط. ولذلك يرى غراي أنه « لتكون قاعدة ملائمة للتوسط أن تعلن النمسا شروطها بعد أن تحتل بلغراد مثلاً أو غيرها من الأماكن، ثم أبلغ غراي ليشنوفسكي في صورة ودية خاصة إنذاره الذي قال فيه أنه مادام النزاع محصوراً بين النمسا وروسيا ففي استطاعة انجلترا أن تقف على الحياد لكنه إذا دخلت فيه ألمانيا وفرنسا فأن الحالة تتغير على الأثر وتضطر الحكومة البريطانية عندئذ إلى اتخاذ قرارات سريعة. »

لكنه قبل أن تحل رموز الانذار الذي وجهه غراي ويعرف في برلين كان بيتمان قد أقدم على خطوة جعلت وزارة الخارجية البريطانية تعتقد أن ألمانيا صممت عملياً على الدخول في الحرب وعلى اختراق بلجيكا وسحق فرنسا

بيتان ومولتكه

كان المركز في يوم الاربعاء ٢٩ يوليه يعتبر في برلين ، كما كانت الحال في باريس ولندن ، حرجا جداً . وكان بيتان قد حث النمسا على قبول التوسط على قاعدة الوقوف يلفراد ، لكنه لم يكن تلقى رداً من فينا . . . أضف الى ذلك أن السلطات العسكرية الألمانية كهيئات الحرب في كل مكان ، كانت تلح بالمبادرة الى اتخاذ احراءات عسكرية تضمن سلامة بلادهم ونجاح خططهم الاستراتيجية في حالة عجز الساسة عن المحافظة على السلام ،

وكان هليموت فون مولتكه إذ ذاك رئيساً لهيئة أركان الحرب فكان يقول إن روسيا تقوم باستعدادات عسكرية على الحدود ضد ألمانيا وضد النمسا على السواء مما سيجعلها قادرة على تسير جيوشها في بضعة أيام قلائل اذا هي أصدرت أوامرها بالتعبئة فعلاً . وفرنسا أيضاً ، بناء على ما اتصل به ، يلوح عليها أنها تتخذ الاجراءات استعداداً للتعبئة العامة . فالمركز والحالة هذه يزداد كل يوم سوءاً بالنسبة لألمانيا وقد يفضى الى عواقب وخيمة اذا اضطرت ألمانيا بتصادم يقع بين النمسا والروسيا الى التعبئة والقتال في ميدانين . لذلك « من الأهمية بأعظم مكان أن يستوثق بأسرع ما يمكن بما اذا كانت روسيا وفرنسا تنويان أن تحدثا حرباً مع ألمانيا » فعارض بيتان بشدة في اتخاذ أية اجراءات عسكرية حاسمة يمكن أن تقضى على جهوده السياسية . . . وسرد اعتراضاته للأمبراطور في بوتسدام بعد ظهر يوم ٢٩ يوليه وفي ساعة مبكرة من مساء ذلك اليوم . وقد نجح بيتان في صد التيار العسكرى كما يرى من ملخص للحالة في مجلس الوزراء ظهر اليوم التالى : « لقد أعربت السلطات العسكرية عن الرغبة في إعلان « حالة الخطر من الحرب » لكنه دافع أمام جلالته عن الاعتراضات الموجهة الى ذلك بنجاح ، فأن مثل هذا الاعلان معناه التعبئة والتعبئة معناها الحرب . وقد اقترح على فينا التوسط في عدة

اقتراحات يجب انتظار الرد عليها قبل أن يقطع الأمل وتهمل المساعي من أجل السلام . فإنه لا قبل للبرء بأن يقوم في وقت واحد وفي صورة مرضية بأعمال عسكرية وأخرى سياسية . ومن ثم « وافق جلالته على أنه يجب الانتهاء أولا من المسعى لدى فينا قبل اتخاذ أية قرارات أخرى » . وقد كان كل ما اتخذ على سبيل الاحتياط من اجراءات عسكرية في مساء ٢٩ يوليه هو حماية السكك الحديدية والدور القيمة واستدعاء الضباط والجنود من اجازاتهم وإمداد القلاع القائمة على الحدود واجراءات أخرى ثانوية مماثلة لتلك الاجراءات التي كانت جارية في روسيا منذ ٢٦ يوليه والتي كانت قد أمر بها في فرنسا ولكنها كانت أضيق منها دائرة .

وبينا كان يتمان يوفق على هذا المنوال في صد السلطات العسكرية عن اتخاذ أى اجراء حاسم لا يمكن إصلاحه كان يقوم بعدة مساع دبلوماسية هامة في ٢٩ يوليه . . . سبق لنا تناول بعضها في الفصل السابق . . .

وقد بعث في طلب السفير الانجليزى ليستوثق من مسألة بحثت طويلا في بوتسدام وكانت أعظم ما يهم ألمانيا في حالة إمكان وقوع حرب أوربية وهى حياد انجلترا . وكانت الساعة منتصف العاشرة حين بعث يتمان في طلب جوشن وطلب اليه حياد انجلترا في حالة وقوع الحرب بتلك الصورة القوية التالية وهى : أن ألمانيا مستعدة في حالة التزام بريطانيا الحيدة لأن تعطى كل تأكيد بأنها لا ترمى الى الاستيلاء على أراض أوربية على حساب فرنسا وان كانت لا تستطيع أن تعطى تأكيداً كهذا فيما يتعلق بالمستعمرات الفرنسية . وستحترم ألمانيا حياد هولنده لكنه فيما يتعلق بلجيكا « لا يستطيع يتمان أن يقول أى العمليات العسكرية ستضطر فرنسا ألمانيا الى اتخاذها بما يصدر عنها لكنه في وسعه أن يصرح بأن سلامة أراضى بلجيكا ستحترم عند انتهاء الحرب على شريطة أن لا تنضم الى أعداء ألمانيا ، على أنه واثق بأن حياد انجلترا في حرب لا يبعد أن تنشب من النزاع الحالى يصح أن يكون قاعدة لاتفاق

حياد يعقد في المستقبل بين انجلترا وألمانيا وهو غرض يسعى إليه سياسته منذ أن تولى منصب المستشار ،

لقد كان طلب بيتان أن تقف انجلترا على الحياد غلطة تعسة تدل على الغباء . فقد ترك في لندن أسوء أثر ممكن ... وقد رد السير ادوارد غراي بموافقة المستر اسكويث ولكن دون أن ينتظر عرض هذا الرد على مجلس الوزراء — نقول رد على جوشن يقول ان مقترحات المستشار لا يمكن أن تحدونا لحظة واحدة . فان مصالح انجلترا المادية تجعل من المحال أن نسمح بسحق فرنسا الى درجة أن تفقد مركزها كدولة عظمى ، حتى ولو لم تأخذ ألمانيا شيئاً من أراضي فرنسا ، وكما هو ظاهر ، من مستعمراتها .. كذلك لا يسع انجلترا أن تساوم على واجباتها ومصالحها فيما يتعلق بحياد بلجيكا . فانجلترا يجب أن تحتفظ بكامل حريتها في العمل حسبما تقتضى الظروف ... وفي اليوم ذاته طلب من الحكومتين الفرنسية والألمانية أن تعطيا تأكيداً باحترام حياد بلجيكا مادام أن دولة أخرى لا تنتهكه . وقد أسف بيتان أسفاً عظيماً لما طلبه من حياد بريطانيا . وانه ما كان ليقول ما قاله لو أنه علم قبل ذلك بالندار غراي للشينوفسكي — ذلك الانذار الذي وصل إلى برلين في الساعة التاسعة والدقيقة ١٢ مساءً والذي لم تفك رموزه أو يسلم إلى المستشار قبل محادثته مع جوشن فيما يظهر

وإجراء آخر اتخذ في ٢٩ يولييه نتيجة لاجتماعات بوتسدام في الراجح ، هو إرسال ياجو رسالة إلى وزير ألمانيا المفوض في بروكسل داخل غلاف محتوم . وقد حملها رسول بدل أن يبرق بها بالرموز لأنه لم يكن ثمت ما يدعو إلى العجلة ولأنه لم يكن مرغوباً في أن يطلع الوزير المفوض نفسه على طلب موجه الى بلجيكا قد لا تكون هنالك ضرورة بعد كل شيء الى توجيهه . فلما فض الوزير الغلاف لم يجد سوى تعليمات بأن يبق في حزر أمين غلافاً محتوماً آخر موجوداً في طي الغلاف الأول على أن لا يفضه إلا إذا كلف

بذلك يرقية من برلين . وكان الغلاف الداخلى يشتمل على بلاغ نهائى ~~مؤرخ~~ الى بلجيكا ومكتوب بناء على مسودة كتبها مولتكه بخط يده فى ٢٦ يولييه . وفيه أن ألمانيا تنوى أن تزحف داخل بلجيكا بموافقتها الحية اذا أمكن . لكنه اذا عارضت بلجيكا ، فألمانيا تضطر على الرغم منها الى اعتبار المملكة (البلجيكية) عدوة لها .

هذان الاجراءان — طلب حياد بريطانيا وتقديم البلاغ النهائى المختوم الى بروكسل يدلان كيف كانت السلطات الألمانية تنظر بعين الجدل الى رجحان وقوع الحرب . . . لكنهما لا يدلان على أن يتيمان كان مسلماً بأن الحرب واقعة لا محالة او أن أى قرار اتخذ فى مصلحة الحرب . فان المستشار على النقيض من ذلك ضاعف جهوده للحفاظ على السلام بزيادة الضغط على فينا . . . فانه بعث اليها بزيادة تلغرافين (تلقاهما من ليشنوفسكى عن موافقة غراى على اقتراح لاطاليا بالتوسط ومن بورتاليس عن استياء سازونوف من رفض النمسا مفاوضة الروسية مباشرة) كما بعث اليها بالبرقيات التى تبودلت بين الامبراطور والقيصر وحشوا من جديد على قبول « خطة الرهينة » « بالوقوف فى بلغراد » وفتح باب المحادثات المباشرة والمضى فيها بين فينا وسان بطرسبورغ ارضاء لسازونوف .

وفى تلك الاثناء فكت رموز برقية ليشنوفسكى التى تنبئ بما يرتثيه غراى من التوسط على قاعدة احتلال بلغراد وبما ينذر به بصفة خاصة ودية من أن انجلترا قد يستحيل عليها الوقوف على الحياد . . فرحب يتيمان باقتراح غراى وبعث به الى فينا . وقد علق عليه فأشار بعبارة قوية الى الخطر الذى ينجم من رفض النمسا كل مفاوضة . ثم زاد على ذلك قوله : « إتنا فى هذه الظروف يجب أن نحث وزارة فينا ونلح عليها فى قبول التوسط وفاقاً للشروط الشريفة الآنف ذكرها »

وأخيراً قبل أن يهجع قليلاً أبرق الى سان بطرسبورغ ولندن بما أمل

«أن يساعد على درء الحرب وتحقيق التوسط . فأبرق الى بورتاليس يرجوه
« أن يبلغ سازوتوف أننا ماضون في التوسط لكن على شريطة أن تقف في
الآونة الراهنة كل الأعمال العدائية الموجهة ضد النمسا من جانب روسيا .»
«وأبرق الى ليشنوفسكى يكلفه بشكر السير ادوارد غراى على ايضاحه الصريح
وأن يخبره بأننا ماضون في التوسط لدى فينا وانا نلح عليها في قبول مقترحه»
وفي صباح ٣٠ يولييه تلقى يتيان أخيراً رداً من فينا على خطة التوسط القاضية
« بالوقوف ببلغراد ، لكنه كان رداً غير مرض على الاطلاق وينطوى على
التخلص في نقطة من نقطة الجوهرية . فقد أبدى برشتولد استعداداً لأن يعيد
تصريحه بأنه لا مصلحة للنمسا في أراض ما ، لكن الكونت برشتولد
يقول عما يتناول الاجراءات العسكرية من تصريحات أخرى انه لا يستطيع
أن يعطيني رداً في الحال . وقد لبثت إلى مساء اليوم دون أن ألقى تبليغاً
جديداً على الرغم مما أبديته من أن الأمر يتطلب السرعة .»

وقد أجمل يتيان الحالة لوزارة الخارجية البروسية حوالى الظهر فسرده
بناء على ذلك ما بذل من مجهود لايجاد تفاهم بين فينا وسان بطرسبورغ
مستمداً التأييد من الاقتراح الذى ارتآه غراى للتوسط على قاعدة احتلال
النمسا لبلغراد لكنه كان مضطراً لأن يسلم بأن نتيجة مساعيه لا تزال غير
مضمونة . وقد وافق الامبراطور مع ذلك على أن لا تتخذ اجراءات حاسمة
في سبيل التعبئة الا بعد أن ينتهى المسعى لدى فينا . فضلاً عن أنه نفسه ما كان
ليقطع الرجاء أو يعدل عن مساعيه لحفظ السلام ما دامت هذه المساعي لم ترد
وقد علم بعد الظهر أن برشتولد رفض ما ارتآته ايطاليا من أن صربيا
قد ترغب في آخر الأمر في قبول البندين الخامس والسادس من بنود البلاغ
النهائى ، مبدياً أن هذا القبول كان يمكن أن يكفى لو انها أبدت هذا الاستعداد
من قبل . أما الآن وقد قامت الحرب فأن شروط النمسا تختلف بطبيعة الحال
عن ذى قبل ، ، ،

ولكى تهتدى وزارة الخارجية في برلين الى ما عقدت فينا نيتها عليه لجأت الى التليفون لكنها علمت من إجابة تشيرشكى انه لا ينتظر أن يرضخ برشتولد لاقتراحات التوسط التى ما قىء ييتمان يحضه عليها ...

وعيل صبر الامبراطور أيضاً فى تلك الاثناء فخطب فرنسوا جوزيف شخصياً بالتليفون أخيراً قائلاً له « اتى لا كون شاكر آ حقيقة اذا تكلمت على بقرارك بأقرب فرصة ممكنة ،

على انه بينما كان ييتمان يحاول عبثاً على هذا المنوال أن يحمل فينا على الرد عليه كان مولتكه قد أخذ قلقه يزداد من ناحية الحالة . بعد أن كان فى صباح ٣٠ يوليه لا يزال راغباً فى التزام القرار الذى اتخذه ييتمان والامبراطور بأن التعبئة الروسية الجزئية لا تستلزم التعبئة من جانب ألمانيا

والظاهر أن مولتكه كان مقتنعاً بأن روسيا تدفع بأوروبا الى الحرب وكان يرى — ليظهر أن روسيا هى المعتدية — أن لا تكون النمسا أو ألمانيا بل روسيا هى البادئة باعلان الحرب وهو رأى يشبه وجهة نظر بوانكاريه وباليوج وجول كمبون كل الشبه إذ كانوا مقتنعين بأن ألمانيا تدفع بأوروبا الى الحرب وان وزر البدء بالاعتداء يجب أن يدخر لها .

لكنه بعد ظهر ذلك اليوم بعد أن سمع ان سazonوف قال إن من المحال أن يقف التعبئة الروسية ، وان القيصر سلم بأن الاستعدادات كانت جارية منذ خمسة أيام ازداد قلق مولتكه واعتقد أن الخطر على ألمانيا والنمسا شديد ، فتحدث الى يينرت الملقق العسكرى النمساوى بما أبرق به هذا الى كونراد :

« لقد قال مولتكه انه يعتبر الحالة عصبية اذا لم تعيى النمسا والمجر حالاً ضد روسيا . فان ما أعلنته روسيا عن التعبئة التى أمرت بها يستلزم أن تتخذ النمسا والمجر اجراءات مقابلة ويجب أن يشار اليه فى بيان على . وبذئ تنشأ بالنسبة لألمانيا Casus foederis . أعقدوا مع ايطاليا أى اتفاق شريف تعدونها فيه بتعويضات وذلك لكى تبقى عضواً

عاملا في المحالفة الثلاثية ، فلا تركوا في الواقع رجلا واحداً على الحدود الإيطالية . ارفضوا ما تقدم به انجلترا من آن لأن للمحافظة على السلام فالثبات الى النهاية في حرب أوربية هو آخر فرصة لانتقاذ النمسا والمجر . وستمضى معها ألمانيا بلا قيد ولا شرط . »

وقد تجاوز مولتكه بكلامه هذا حدود سلطته وأسدى في صورة غير مناسبة بنصيحة سياسية هي من اختصاص المستشار وحده . وقد كان بمسلكه هذا يعبر عن شر من شرور العسكرية الكبرى ويدل على خطر تدخل الموظفين العسكريين في الشؤون المدنية وقت الضائقة فلم يكن من سلطته أن يفسر المحالفة أو يقول إن التعبئة الروسية توجد *Casus foederis* بالنسبة لألمانيا إنما كان من اختصاص المستشار وحده أن يفسر الواجبات التي تفرضها المعاهدات على ألمانيا . ومع ذلك فإنه في نفس الليلة السابقة كان يتهمان قد أخبر مولتكه وفالكنهاين وزير حرية بروسيا أن التعبئة الروسية الجزئية لا توجد حالة التحالف وأن المناسبة لم تخلق بعد للتعبئة الألمانية . وقد عارض مولتكه في هذا معارضة ، فائرة جداً وقد كان ما اقترحه على النمسا من رفض المقترح البريطاني المتعلق بالسلام يناقض على خط مستقيم ما كان يتهمان يسعى اليه بالذات . ولعله من قبيل التماس العذر لمولتكه بما أبداه أنه كان يعرب للبلحق العسكري النمساوي عن آرائه الشخصية أكثر مما كان يقدم للنمسا النصح بطريقة رسمية لأنه لم يرد شيء عن *Casus foederis* أو رفض المقترح البريطاني في تقرير السفير النمساوي عن ملاحظات مولتكه وقد بعث المستشار ببرقية مستعجلة رقم ٢٠٠ الى تشيرشكي في فينا يذكره بمقترح غراي الذي نقل اليه أن النمسا ينتظر أن ترفضه ويحيطه بما وعد به غراي من العمل في سبيل السلام لدى باريس وسان بطرسبورغ ثم زاد على ذلك إنذاراً ونصيحة قوية قال :

أنه اذا نجحت مساعي انجلترا بيننا ترفض فينا كل شيء فان فينا تكون قد أقامت الدليل على أنها تريد على كل حال حرباً سنجر اليها بيننا تظل روسيا خلوا من المسئولية . وهذا يضعنا في أعين شعبنا في مركز سيء لذلك لا يسعنا إلا أن ننصح للنمسا بالحاح بأن تقبل اقتراح غراي ، الذي يحفظ لها مركزها على كل حال .

ثم اجتمع به مولتكه فلما سمع يتمان ما أدلى به هذا اليه أ برق ثانية الى تشيرشكي في الساعة ١١ والدقيقة ٢٠ مساء يقول له « أرجوك أن لا تنفذ التعليمات الواردة في البرقية رقم ٢٠٠ في الآونة الراهنة . » والسبب الذي من أجله فعل ذلك وارد في برقية كتب نصها لكنه لم يبعث بها الى تشيرشكي بل أرسل أخرى بدلا منها . وقد قال في البرقية التي لم ترسل : « لقد ألغيت التعليمات الواردة في رقم ٢٠٠ لأن هيئة أركان الحرب أبلغتني الساعة أن استعدادات جيراننا العسكرية وخاصة في الشرق سترغمنا على اتخاذ قرار سريع اذا كنا لا نرغب في أن نعرض أنفسنا لخطر المفاجأة . » وهذا يدل كما لو كان يتمان قد رضح أخيراً لمولتكه لكن هذه البرقية لم تكذ موضع حتى علم المستشار بالبرقية الآتية التي بعث بها ملك انجلترا الى البرنس هنري أوف بروسيا :

لقد سرنى ما سمعت عن مساعي غليوم في سبيل الاتفاق مع نيكي للحفاظ على السلام وحكومتى تفرغ قصاراها لحمل روسيا وفرنسا على وقف استعدادات عسكرية أخرى اذا قنعت النمسا باحتلال بلغراد والأرض الصربية المجاورة كرهينة لتسوية مطالبها تسوية مرضية وفي تلك الأثناء تقف دول أخرى إستعداداتها الحربية . إني واثق من أن غليوم سيستخدم نفوذه العظيم لحمل النمسا على قبول هذا الاقتراح فيثبت بذلك أن ألمانيا وانجلترا تعملان معاً لمنع ما يمكن أن يكون كارثة دولية . أرجو أن تؤكد لغليوم أنى أعمل وسأستمر على أن أعمل ما فى وسعى للحفاظ على سلام أوروبا . .

هذه البرقية أحييت في يتمان ميت الرجاء فبدلاً من أن يبعث بالبرقية التي وضع نصها وضمنها أخبار مولتك المزججة التي كانت خليقة أن تحمل النمسا على تقرير التعبئة العامة ، تقول بدلاً من أن يفعل ذلك بعث الى فينا برسالة الملك جورج الودية . . . فكلف تشيرشكي بأن يبلغ برشتولد برقية الملك جورج « دون إبطاء » وأضاف من جديد أن الرغبة ملحة في أن تتخذ فينا قراراً معيناً في أثناء النهار .

وظاهر ان هذه البرقيات تدل على ان يتمان تردد وقطع الأمل لحظة وجيزة لكنها لا تدل كما زعموا أحياناً ، على انه غير موقفه تغييراً تاماً نهائياً ولان لضغط مولتك وقرر ان يرسل بلاغا نهائياً الى الروسيا قبل ان يعلم بالتعبئة الروسية العامة بعدة ساعات . فأنه على النقيض من ذلك قدم ثانية الى فينا بعد إبطاء وجيز مقترح بريطانيا في صورة البرقية التي بعث بها الملك جورج وان لم يجدد انذاره القوى الوارد في البرقية الرقيمة ٢٠٠ . وقد كان تردده الذي لم يدم طويلاً راجعاً الى الخبر الذي نقله اليه مولتك عن استعدادات الروسيا العسكرية . لكنه لما لم يكن هذا معيناً ظل يرفض ان ترسل ألمانيا الى الروسيا بلاغا نهائياً او تأمر باعلان حالة « الخطر المهدد بالحرب » — ذلك الاعلان الذي يعد الخطوة المبدئية في التعبئة الألمانية : وقد كان مصصاً على ان ينتظر اطول من ذلك الى ان يتلقى من فيناردأ على اقتراح الوقوف في بلغراد والى ان يثبت لديه نبأ التعبئة الروسية العامة نهائياً كما ثبت في رسالة من بورتاليس وصلت في الساعة ١١ والدقيقة ٤٠ من صباح اليوم التالي . فقد كان يأمل ان يتأكد من هاتين النقطتين قريباً . ولما كان مولتك وقالكنهاين يلحان في وجوب اتخاذ قرار عاجل فقد وافق يتمان على ان يكون هذا القرار ظهر اليوم التالي ٣١ يولييه . ومن ثم لم يتخذ قرار ليل ٣٠ يولييه . وقد قال مولتك لهفتن بلهجة تدل على التشاؤم الشديد وعقب حديثه مع يتمان بأمد وجيز ، انه لا يعلم كيف تكون خاتمة هذا كله » وسيصدر ظهر

الغد قرار اما بالسلم أو بالحرب فسنقابل المستشار ووزير الحرية وأنا جلالة
الأمبراطور . ، وعلى أن مولتكه كان قد تلقى تقريرين يعتمد عليهما عن التعبئة
الروسية العامة فقد أضاف : « إتنى قبل أن أشير على جلالته بالتعبئة ، أحب أن
أنتظر نأ كيداً ثالثاً لنبا التعبئة الروسية . »

وفي الساعة السابعة من صباح ٣١ يولييه تلقى مولتكه رسالة تليفونية
من ضابط مقيم في ألنشتاين من أعمال بروسيا الشرقية ينتمى الى هيئة أركان
الحرب ، يقول فيها أن الروسيين أو صدوا الحدود تماماً وأن اعلانات حمراء
تتضمن أمر التعبئة قد ألصقت . فرد مولتكه يقول : « من الضروري أن
تحصل على إعلان من هذه الاعلانات الملصقة فأنى يجب أن أتأكد مما اذا
كانوا حقيقة يعثون ضدنا . وقبل أن أتأكد من ذلك لا أستطيع أن
أستصدر أمراً بالتعبئة ، وبعبارة أخرى فأن مولتكه نفسه يسلم بأن يتمان
كان يكره أن يوافق على قرار إلا اذا قام لدى ألمانيا الدليل النهائى المطلق
على التعبئة الروسية العامة التى كان يشتبه فيها والتي كان قد صدر الأمر بها فى
الواقع من اثنتى عشرة ساعة . وأخيراً جاء هذا الدليل فى برقية من بورتاليس
فى الساعة ١١ والدقيقة ٤٠ صباحاً فلو أن يتمان لم يتلق هذا الدليل — لو ان
القيصر لم يرضخ لسازونوف وللعسكريين الروسيين — لكان من الراجح أن
يظل يتمان صامداً لمولتكه وفالكنهاين

ومع ذلك فأن الذى حمل ألمانيا على اتخاذ قرار بأعلان حالة « الخطر
المهدد بالحرب » فأرسال بلاغاتها النهائية وتقرير التعبئة كان التعبئة الروسية
العامة المنظوية على الطيش لا « اتفاقاً عسكرياً » بين مولتكه وكونراد كما
خيل الى الدكتور كانر . وقد فعلت ألمانيا ما فعلت وهى ترى الحرب الأوربية
وشبكة وهى حرب تبين حتى ليتمان أنها باتت بما أقدمت عليه روسيا
لا مفر منها .

التعبئة النمساوية العامة في ٣١ يوليه

لم يكن برشتولد وكونراد في فينا يحدوها الخوف من الحرب مع روسيا بقدر ما كان التصميم على محاربة صربيا يحدوها . ومن ثم بلاغ النمسا النهائي والتعبئة الجزئية ضد صربيا وحدها مع العناية بتجنب الاجراءات المثيرة في غاليسيا ، ثم إعلان الحرب على صربيا وهو ما أتينا على وصفه كله .

وحتى بعد الزحف على صربيا وضرب بلغراد بالقنابل كان كونراد لا يزال يفرض أن روسيا لن تلجأ الى التدخل المسلح ولذا لم يرسل جنودا الى الميدان الغاليسي . لكنه لما أعلن سازونوف أن روسيا ستعيب جنودها في الأقاليم الجنوبية اذا اجتازت النمسا حدود صربيا أخذ كونراد يدرك أن ميدان غاليسيا في خطر واعتبر تأكيد سازونوف بأن الجنود الروسية اذا هي عبثت ستقف على الحدود بلا حراك وسلاحها بأيديها — نقول اعتبر هذا التأكيد مضحكا ولذا صمم في الحال على أن تعيب النمسا لتكون التعبئة من ناحية اجراء دفاعياً تقتضيه سلامة النمسا حيال القوى الروسية المتفوقة ، ومن ناحية أخرى خدعة تقابل خدعة روسيا ظن كونراد فيما يبدو انها تخيف روسيا فكان ظنه هذا بعيداً عن المنطق . وقد أثبت السفير الألماني في فينا في طليعة يوم ٣٠ يوليه : « أنهم هنا مصممون على التعبئة بمجرد موافقة ألمانيا ، مصممون تصميماً ثابتاً على ألا يسمحوا لروسيا بالتعبئة أكثر من ذلك . واقترحهم : أن تقولوا لسان بطرسبورغ ثم لباريس أنه اذا استمرت التعبئة ستبدأ التعبئة العامة في النمسا وألمانيا » .

ومعنى هذا ان بروشتولد وكونراد ارتأيا ان يلوحا بالسيف الألماني بجعل بيتمان يهدد روسيا وفرنسا بأن دولتي الوسط ستلجآن الى التعبئة العامة إلا اذا كفت روسيا عن اجراءات التعبئة .

يبدو أنه لما حاول السفير النمساوي في برلين أن يقنع ألمانيا باتخاذ مثل هذا الاجراء رفضت ألمانيا . . ونصحت للنمسا بأن تقدم اعتراضاتها إلى

سان بطرسبورغ بنفسها. لكن كونراد لم ينتظر وصول هذا الجواب المشبط، ولم يكن لا هو ولا برشتولد يكثران إكترائاً جدياً لالحاح يتمان المتواصل ونصحه على الدوام بقبول اقتراح غراي للمحافظة على السلام، وهو اقتراح يقول تشيرشكي انه قدمه في ٣٠ يولييه بعد الغداء « بصورة بالغة التأثير، وقد أصغى اليه برشتولد « تمتع اللون صامتاً، لكنه لم يقل سوى انه سيرفع الأمر إلى الامبراطور في الحال ...

على أن برشتولد وكونراد برغم نصيحة يتمان التي كان تشيرشكي قد حث عليها ولما يكداً أقنعا الامبراطور الشيخ أثناء مقابلهما لفرنسوا جوزيف بعد الظهر بأن يصادق على القرارات الآتية، وهي: متابعة الحرب ضد النمسا؛ الرد على اقتراح غراي في أدب كثير دون قبوله في جوهره؛ أن يصدر الأمر بالتعبئة العامة في النمسا في أول أغسطس على أن يكون الرابع من شهر أغسطس هو اليوم الأول للتعبئة وهذه مسألة يبحث فيها في اليوم التالي ... لم تكن التعبئة النمسية العامة عاملاً حاسماً في السلسلة الأخيرة للحوادث التي سببت الحرب فان الأمر بها لم يصدر إلا بعد أن صدر أمر التعبئة الروسية العامة بثماني عشرة ساعة فضلاً عن انها لم تساعد على الاجراءات التي اتخذتها ألمانيا رداً على التعبئة الروسية.

وقد خدع برشتولد أوربا إذ ذاك بعد أن حصل على مراقبة فرنسوا جوزيف النهائية على التعبئة النمسية العامة — نقول خدعها برشتولد بتظاهره بالوقوف موقفاً أكثر انطواءً على المسألة تناقضه نياته الحقيقية التي كشفت عنها تفاصيل المجلس الوزاري السري الذي عقد عند الظهر. فقد تحدث إلى السفير الروسي في فيينا حديثاً غاية في الود، وزعم للدول جميعاً أن النمسا مستعدة لأن تقترب من اقتراح غراي. وجعل السفير البريطاني يعتقد، كما كتب إلى غراي بعد ذلك، ان النمسا في الواقع قد لانت أخيراً ...

والذي يكشف الآن مع ذلك عن مبلغ ابتعاد برشتولد عن أقل نية في

الرضوخ رضوخاً حقيقياً شريفاً للتوسط والرضا بوقف الزحف النمساوى فى صربيا هو المحضر الذى يثبت ما دار فى الاجتماع الوزارى . فان برشتولد بعد أن تلا اقتراح غراى الأخير وأبان أن يتمان يحض على قبوله حضاً قوياً ، أشار إلى أن التجربة قد دلت على أن الدول المتوسطة تحاول دائماً الوصول إلى التوفيق بارغام فريق واحد من الدول على النزول عن شىء من شروطه :

والراجع انهم سيحاولون هذا الآن حيث تمثل فرنسا وانجلترا وايطاليا أيضاً وجهة النظر الروسية فى الطرف الراهن . أما نحن (النمسا) فتأيد السفير الألمانى فى لندن لنا فى الوقت الحاضر مشكوك فيه جداً . فكل شىء ينتظر من البرنس ليشنوفسكى إلا أن يدافع عن مصالحنا بهمة . وإذا كانت حركتنا ستنتهى الآن بازدياد مكاتتنا فقط فعبثاً فى رأى كل ماشرعنا فيه . فان مجرد احتلال بلغراد لن نجنى منه شيئاً مطلقاً حتى ولو وافقت روسيا عليه . إذ هذا كله سيكون مجرد زخرف باطل فالروسيا ستظهر فى مظهر المنقذ لصربيا وخاصة الجيش الصربى الذى يظل سليماً وبعد سنتين أو ثلاث تتوقع اعتداء صربيا حيث تكون الظروف أسوء مما هى الآن بكثير .

لذلك قابل فرنسوا جوزيف فصرح جلالته فى الحال بأنه لا سبيل إلى اعتياق العمليات العسكرية لكنه قبل الخطة القاضية « بأن نعى بتجنب قبول الاقتراح الانجليزى فى جوهره لكنا فى صيغة جوابنا يجب أن تتظاهر بالاستعداد لقبوله . . . »

وقد وافقه زملاؤه ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك فلم يعارض تيزا الذى غير موقفه الآن كل النغير . وأبدى ستيرج « ان مجرد فكرة عقد مؤتمر للتوسط بغضنة الى درجة انه يؤثر أن يتحاشى حتى التظاهر بقبولها . » وكان ييلنسكى معادياً أيضاً لفكرة المؤتمر لأن « مجرى مؤتمر لندن لا تزال ذكره مرعبة الى درجة أن رأى العام كله سوف يرفض تكرار منظر كمنظره . »

من هذا يتضح انه لا صحة لما كان ذائعاً بين دول الوفاق من أن النمسا كانت أخيراً مستعدة لأن تلين لولا أن تدخلت ألمانيا ببلاغها النهائي واصلت الحرب ففجئت بالحرب الأوروبية العامة . فان ألمانيا لم تتدخل الا بسبب التعبئة الروسية العامة .

«الخطر المهدد بالحرب» في ألمانيا في ٣١ يوليه

كان الامبراطور يتوقع تسوية الأمور تسوية سلمية فأعد بخط يده في صباح ٣١ يوليه بياناً مستفيضاً لهيئة أركان حرب الأمير اليه أجمل فيه البرقيات التي تبودلت مع القصر وضمنه البرقية التي بعث بها جورج الخامس الى البرنس هنري قائلاً : « ان مقترحاته تشبه مقترحاتي التي أبديتها لوزارة فينا فتركتنا ستة أيام بلا رد... لقد بدأت المباحثات الدبلوماسية أخيراً بين فينا وبيترهوف ورجت يترهوف أيضاً لندن أن تتدخل . » وبينما الامبراطور في هذا تلقى من برلين رسالة تليفونية تعلن بما لا يترك مجالاً لظلم من الشك ، ان التعبئة العامة قائمة في روسيا . فأبرق الى الملك جورج دون أن ينتظر حتى يستشير وزارة خارجيته يقول :

أشكر لك كثيراً برقيتك الرقيقة . ان مقترحاتك تتفق وافكارى وتطابق البيانات التي تلقيتها الليلة من فينا وبعثت بها الى لندن . وقد تلقيت الساعة نبأ من المستشار بأنه تلقى إشعاراً رسمياً يفيد أن نيكي أمر الليلة بتعبئة جيشه وأسطوله بأكملهما . فهو حتى لم ينتظر نتائج ما أقوم به من التوسط وتركني دون نبأ ما . وأنا قائم الى برلين لأتخذ من الاجراءات ما يضمن سلامة حدودى الشرقية حيث ترابط الجنود الروسية فعلاً .

لم يبلغ برلين نبأ التعبئة الروسية العامة التي صدر الأمر بها في الساعة السادسة من مساء ٣٠ يوليه إلا متأخراً . وهذا يدعو الى الدهشة فإنه

لا بورتاليس ولا الملحق العسكرى الألمانى ايجلنج كانا فى سان بطرسبورغ يعلنان شيئاً عن نبأ التعبئة النهائى حتى صباح ٣١ يولييه بعد أن كان النبأ قد طبع فى الصحف والصقت به الأعلانات فى الشوارع بساعات . فما أن علم ايجلنج به حتى هرول الى بورتاليس فأبرق به هذا فى الساعة ١٠ والدقيقة ٢٠ صباحاً يقول :

صدر الأمر بتعبئة الجيش والأسطول تعبئة عامة . واليوم الأول للتعبئة هو ٣١ يولييه .

وأبلغ يتيان الخبر الى بوتسدام فاستقل الأهـراطور سيارة الى برلين فى الحال وعقد اجتماعاً حضره يتيان ومولتكه وموظفون آخرون . وفى الساعة الواحدـه بعد الظهر تقرر اعلان حالة « الخطر المهدد بالحرب » ، وقد ترتب على هذا الاعلان اتخاذ طائفة من الاحتياطات تمهيداً للتعبئة الفعلية وكانت هذه الاحتياطات من قبيل « الفترة المعدة للحرب » التى اصطاحت عليها روسيا ولم يكن من الضرورى أو المحتم أن يستلزم هذا التعبئة ، لكن معناه أن الحكومة الألمانية كانت تتوقع أن تتلوه التعبئة فى خلال ثمان وأربعين ساعة على الأقل ، والتعبئة معناها الحرب .

لقد قيل كثيراً أنه لو كانت الحكومة الألمانية أرادت السلم حقيقة حتى بعد أن علت بالتعبئة الروسية لكانت قنعت باعلان التعبئة الألمانية ثم وقفت موقف الدفاع ولكان سازونوف وفى بما وعد به من أن الجيش الروسى لن يهاجم بل سيقف وسلاحه يده ، ثم لكان هذا أتاح للسياسيين فرصة جديدة لايجاد حل سلمى . وعلى الجملة قيل إن الرد الملائم على التعبئة هو هو التعبئة لا الحرب . ويفغل أصحاب هذا القول بجدهم هذا حقيقة واقعة هى أن سان بطرسبورغ وباريس وكذلك برلين كانت قد أخذ رجالها العسكريون من أمد طويل بالمبدأ القائل بأن التعبئة معناها الحرب . وهذا

راى شاطرالعسكريين فيهأسمى السلطات السياسية(كالقيصر اسكندر الثالث)
كذلك أغفل هذا الجدل حقيقة أخرى هى أن التعبئة فى تدابير هيئات
أركان الحرب العامة فى كافة نواحي القارة مرتبطة كل الارتباط و بالخطه
الحرية ، التى لا تنص على الزحف الى الحدود فحسب بل تنص فى أغلب
الحالات أيضاً على اجتيازالحدود لا كتساب مزية الهجوم وادارة رحى
الحرب فى بلاد العدو . وفضلا عن ذلك فأن أصحاب هذا القول يتجاهلون
أنه متى وقعتالتعبئة تأخذ « الضرورة العسكرية » فى الرجحان على الاعتبارات
المدنية والسياسية . وهذا صحيح فى ألمانيا بنوع خاص فإنه كان مسلما كل
التسليم فى سان بطرسبورغ وباريس كما كان مسلما فى برلين أنه لما كان على
ألمانيا أن تحارب فى ميدانين وكانت مهددة بما يمكن أن تسوقه عليها روسيا
وفرنسا من جيوش تفوق جيوشها فى العدد ، كان من الحتم أن توجه
ضربتها الكبرى الى هذا الخصم أولا ثم الى الآخر بعده . فهى لم يكن يسعها
أن تجزىء قواها الأساسية وتواجه كلا الميدانين فى الحال ولكى تستفيد من
الحقيقة الواقعة فى أنها تستطيع أن تعبىء بأسرع مما تستطيع روسيا كان عليها
ان تبدأ بالهجوم على فرنسا فى الغرب بينما تكون القوى الروسية لا تزال
تحتشد فى الشرق ببطء . وكان يجب أن تستعير من تأخرها فى العدد بتفوق
أداتها العسكرية فى السرعة . ولو كانت ألمانيا قابلت التعبئة بتعبئة مثاها
ووقفت موقف الدفاع أثناء مفاوضات دبلوماسيه (مرجح فشلها) لكان
معنى هذا أن تضع كل تفوق لها فى السرعة والكان الوقت أوسع لأن تعبأ
الجيوش الروسية وتحتشد تدريجاً على حدود بروسيا الشرقية فى جموع هائلة
فتضطر ألمانيا بذلك إما الى تقسيم قواها ومواجهة قوى تفوقها فى العدد فى
الشرق والغرب معاً ، وإما الى تعريض أراضيها الشرقية لغزو روسيا وتوجيه
مجهودها الأكبر ضد فرنسا فى الغرب . وإذن فلم تكن كراهية ألمانيا للسلام
بل « الخطه الحرية » التى تستلزمها القلة فى العدد وحدودها المزدوجة هى

التي أرغمتها عقب إعلان حالة الخطر المهدد بالحرب ، ومجىء التعبئة على أثر هذا الاعلان على الزحف في الحال الى ما وراء حدودها .

وكان مما ترسمه خطة ألمانيا الحرية أيضاً اختراق الأرض البلجيكية المنبسطة نسبياً والتي كانت أقل من غيرها مناعة من حيث تحصينها متحدية بذلك القانون الدولي وما تعهدت به من ضمان حياد البلجيكيك . . . ذلك أن الوصول الى الجيوش الفرنسية بالضرب رأساً نحو الغرب ودون مساس بأراضي لوكسمبرج وبلجيكا المفروض حيادها يستغرق شهراً نظراً للأرض الجبلية والمرتفعات الشاهقة وخطوط الدفاع القوية التي قامت عليها حصون جعلت فرنسا تنشئها منذ سنة ١٨٧٠

وقد أرادت ليتمان تريته الحقوقية ونصيحة أحد الاخصائيين القانونيين بوزارة الخارجية أن يلتزم مقتضيات اتفاقية لاهاى لسنة ١٩٠٧ وكانت تنص على أن لا تبدأ الأعمال العدائية دون انذار سابق إما في صورة إعلان حرب مسبب أو بلاغ نهائى يكون إعلان الحرب من شروطه . فلما اضطر الى قبول خطة ألمانيا الحرية التي كانت تنص على إرسال بلاغ نهائى الى بلجيكا بطلب المرور في أراضيها رغب في تسوية هذا البلاغ باعلان سابق لحالة الحرب بين ألمانيا والروسيا إذا لم تدعن روسيا لبلاغ نهائى تطالب فيه بتسريح جيوشها في الحال . وقد عارض فالكنهاين وخاصة تربتس في إعلان الحرب على روسيا بهذه الكيفية واعتبرا مثل هذا الاعلان غلطة في الفن الدبلوماسيكي لا داعى لها فضلاً عن أنها ثقيلة بادية الخرق ، تخلف في الرأي العام وقعاً غير ميمون وتصم ألمانيا أمام العالم بوصمة المعتدى . وكان بورتاليس أيضاً من هذا الرأي ، وقد دل مجرى الحوادث على أنه كان محقاً . لكن بيتمان وياجوكان يلوح في تلك اللحظة أنهما يعتقدان أن خرق حياد بلجيكا قبل أن تصبح ألمانيا رسمياً في حرب مع روسيا يمكن أن يؤثر في الرأي العام العالمى أسوأ من التأثير الذي يتركه مبادءة ألمانيا باعلان الحرب

وبذا قرر يتمان في الحال أن يرسل الى روسيا بلاغاً نهائياً ويبحث الى حليفها ببلاغ نهائى آخر .

وهكذا أبلغ بورتاليس ان تعبئة روسيا لجيشها واسطولها بأكملها بينا المفاوضات لا تزال قائمة وبيننا ألمانيا لم تتخذ أى اجراء فى سبيل التعبئة قد أضطر ألمانيا الى اعلان حالة «الخطر المهدد بالحرب» ، ولا بد أن تتلو التعبئة ذلك اذا لم تقف روسيا كل اجراء حرى ضد النمسا والمجر وضدنا فى خلال اثنتى عشرة ساعة وتعان الينا بهذا المعنى تصريحاً واضحاً . فترجوكم ابلاغ سازونوف ذلك وأحاطتنا تلغرافياً بساعة تبليغكم ،

تلقى بورتاليس هذه الرسالة عقب الساعة الحادية عشرة بقليل ففك رموزها وسلمها الى سازونوف فى منتصف الليل . وقد أجابه سازونوف كما فعل القيصر بأن من المحال وقف اجراءات التعبئة .

ولما كانت المهمة المحددة لجواب روسيا النهائى لا تنتهى قبل ظهر أول أغسطس فقد بذل بورتاليس مسعى فى جهة أخرى . إذ أراد أن يستفيد من صداقته الشخصية بالكونت فريدريكس وزير خاصة القيصر فبعث اليه بكتاب يناشده أن يستخدم نفوذه مع القيصر ليحول دون وقوع كارثة الحرب قبل فوات الآوان . فقابل الكونت القيصر لكن نيقولا الثانى لم يستطع أن يفعل سوى أن يؤكد له كما أكد للإمبراطور أن التعبئة الروسية ليس معناها الحرب وأنه يأمل أن لا يكون معنى التعبئة الألمانية الحرب كذلك .

وفى البلاغ النهائى المرسل الى باريس كلف البارون شون أن يحيط فرنسا علماً بالمطالب الموجهة الى سان بطرسبورغ وأن يقول إن التعبئة الألمانية لا بد أن يكون معناها الحرب . ثم طلب اليه أن يسأل الحكومة الفرنسية «أناوية هى أن تلتزم الحياد فى حرب روسية ألمانية؟ ويجب أن يكون الرد فى خلال ثمانى عشرة ساعة .» فاذا أعلنت فرنسا على غير المنتظر أنها عازمة على البقاء على الحياد طلب اليها السفير تسليم قلعتى تول وفردان ليكونا رهينة

لبقاءها على الحياد على أن تردا إليها بعد إنهاء الحرب مع روسيا .
فلما ذهب البارون شون في الساعة السابعة مساء الى كي درسي لينفذ تعليماته كانت الحكومة الفرنسية قد اتصل بها من سفير فرنسا في برلين أن ألمانيا قد أعلنت « حالة الخطر المهدد بالحرب » عقب التعبئة الروسية العامة وأن شون على وشك أن يستفسر فرنسا عن موقفها . وبذا كان لدى فيفياني متسع من الوقت لأن يتشاور مع بوانكاريه في كيفية تجنب الرد المباشر . فلما سأله شون أجابه ببساطة : « دعني آمل أن يكون في الامكان تجنب القرارات المتطرفة واسمح لي بالوقت للتفكير » ثم وعد بأن يرد عند انتهاء الثماني عشرة الساعة أى في الساعة الواحدة بعد ظهر يوم السبت أول أغسطس .

فلما جاء شون في اليوم التالي قبل انتهاء الثماني عشرة الساعة ليعيد سؤاله عما اذا كانت فرنسا ستلتزم الحياد أجابه فيفياني بقوله : « إن فرنسا ستعمل ما يتفق ومصالحها . » وإذ كان بذلك لا يعد بالوقوف على الحياد لم يقل شون بطبيعة الحال شيئاً عن تعليماته السرية الخاصة بالمطالبة بقلعتي تول وفردان . ولم يعلم الفرنسيون بنية الألمان هذه إلا بعد أن نجحوا أثناء الحرب في فك رموز البرقيات الألمانية التي تبودلت في يولييه ١٩١٤ . . .

التعبئة في فرنسا وألمانيا في أول أغسطس

بعد أن قدم شون تبليغه الأول عن التعبئة الروسية والاجراءات التي اضطرت ألمانيا الى اتخاذها من جراء ذلك — نقول بعد أن قدم شون هذا التبليغ بقليل تلقت الحكومة الفرنسية برقية باليلوج المتأخرة التي تعلن ذلك نهائياً وكان وصولها في منتصف التاسعة من مساء ٣١ يولييه فلم يترك هذا شكاً في أن نبأ التعبئة الروسية الذي جاء من مصادر ألمانية بواسطة جول كامبون وشون كما أذاعته إحدى الشركات التلغرافية كان نبأ صحيحاً . وكان من شأن

هذا النبأ مع ما أبلغ الوزارة الفرنسية كامبون إياه من نبأ اعلان ألمانيا حالة « الخطر المهدد بالحرب » أن قضى على كل شك خامرها في أن الحرب واقعة لا محالة . فطلب الجنرال جوفر تعبئة الجيش الشرقى بأكملة ولذا قررت الوزارة في الساعة الخامسة مساء قبل أن يأتى شون ليسأل فيفيانى عن حياد فرنسا أن تأمر بأن « التغطية » التى كان قد صدر الأمر بها من قبل مع شىء من التحديد في ٣٠ يولييه فيما يتعلق « بانسحاب عشرة الكيلومترات » يجب الآن أن تنفذ بأكملها .

بعد ذلك أبلغ الملحق العسكرى الروسى فى باريس سان بطرسبورغ فى الساعة الواحدة صباحاً ما يلى :

لقد صرح لى وزير حرية فرنسا فى لهجة تدل على الحماسة القلبية بعزم الحكومة الثابت على الحرب ، ورجانى أن أثبت ما يحدو هيئة أركان الحرب الفرنسية العامة من الأمل فى أن نوجه كافة جهودنا ضد ألمانيا وأن نعامل النمسا كهممل .

وفى المساء وقع ذلك الحادث المحزن الا وهو اغتيال جان جوريه الزعيم الاشتراكى المحنك الذى طالما ناهض سياسة بوانكاريه وكان يخشى أن تؤدى ميلاده يوماً إلى الحرب . وفى نفس المساء جاء من رومه تأكيد سرى بأن الحكومة الايطالية تعتبر نفسها فى حل من ارتباطات المحالفة الثلاثية بسبب المسلك الذى سلكته النمسا . لكن السير ادوارد غراى كان لا يزال ماضياً فى خطته ، واقفاً موقف من لا يريد التورط ، فكان بموقفه يكرب بول كامبون فى لندن والوزارة الفرنسية فى باريس أشد الكرب .

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى السبت أول أغسطس أعلن الجنرال جوفر انه لا يسعه بعد الآن أن ينهض بقبعة القيادة ما لم تأمر فرنسا بالتعبئة العامة . ذلك أنه كان يتوهم أن ألمانيا ماضية فى التعبئة العامة تحت ستار حالة « الخطر المهدد بالحرب » وعندئذ فوضت الوزارة إلى وزير الحرية

ان يأمر بالتعبئة العامة قبل الساعة الرابعة بعد الظهر . وقد كان يلوح مؤكناً بالنظر الى تبليغ شون ورد فيفانى عليه وبالنظر الى برقية واردة من باليلوج بأن ألمانيا أرسلت إلى روسيا بلاغا نهائياً أن ألمانيا ستعبي قريباً ان لم تكن قد أخذت في التعبئة كما توهم جوفر .

وقد تلقت برلين في منتصف الساعة الواحدة من صباح يوم أول أغسطس برقية بورتاليس التي ينبيء فيها بأن سازونوف أجاب بأن وقف التعبئة الروسية مستحيل لأسباب فنية . وكانت المهلة المحددة لأي جواب آخر تنتهى عند الظهر . وبرقية شون التي تحتوى رد فيفانى النهائى وهو : ان فرنسا ستعمل وفقاً لمصالحها ، لم تصل برلين الا فى الساعة السادسة والدقيقة ١٠ مساءً لكن برقياته التي بعث بها قبل ذلك جعلت من المؤكد تقريباً ، كما كانت ألمانيا تتوقع ، ان فرنسا لن تلزم الحياد ولن تسلم بالتأكد تول وفردان ليحتلها الألمان ولذا أمرت ألمانيا بالتعبئة فى الساعة الخامسة من مساء أول أغسطس أى بعد ساعة من صدور الأمر بها فى فرنسا فألمانيا كانت آخر دولة من الدول العظمى اتخذت هذا الاجراء العسكرى النهائى .

ولما كان يتهمان يتوقع أن يصير سازونوف على رأيه فى عدم استطاعة روسيا وقف التعبئة وأن لا يذعن للبلاغ النهائى فقد بعث الى بورتاليس باعلان الحرب وتلقاه السفير فى الساعة السادسة مساءً وذهب به فى الحال الى سازونوف وقد سأله ثلاث مرات وإمارات التأثير بادية عليه لقيامه بهذا الواجب الأليم — ثلاث مرات يسأل وزير الخارجية الروسية ألا يستطيع أن يجيبه جواباً صالحاً عن طلبه الذى تقدم اليه به فى اليوم السابق فيجيبه سازونوف ثلاث مرات بالنفى . عندئذ أخرج بورتاليس من جيبه ورقة مطبقة وهو يقول « سيدى . أما والحال هكذا فأنى مكلف أن أسلبك هذه المذكرة » وناولها اعلان الحرب . ولم يستطع السفير ضبط عواطفه فخطا الى النافذة باكياً يقول « لم أكن أعتقد أبداً أنى أغادر سان بطرسبورغ فى مثل هذه

الأحوال ، ثم عاتق سازونوف وانصرف وهو يرجو أن يبلغ في السفارة ما يتعلق بجوازاته والتدابير الخاصة بسفـره لأنه عاجز في تلك اللحظة عن الكلام في شيء ما .

أما اعلان ألمانيا الحرب على فرنسا فلم يقع إلا في الساعة السادسة والدقيقة ١٥ من مساء ٣ أغسطس . وكان هذا الاعلان ينسب الى فرنسا عدة أعمال عدائية : « أن الجنود الفرنسية اجتازت الحدود عند الفوج » . « أن طياراً فرنسياً لابد أن يكون طار عبر الأرض البلجيكية قتل أمس رمياً بالرصاص وهو يحاول تخريب السكك الحديدية في فيزل . . . وأمس رمى بعض الطيارين الفرنسيين القنابل على السكك الحديدية على مقربة من كارلسروه ونورمبرج . وبدا أرغمتنا فرنسا على الحرب » . من ثم كلف شون أن يبلغ الحكومة الفرنسية ماسلف ذكره وأن يطلب جوازات سفره ويعهد الى السفير الأمريكي بالسفارة الألمانية .

وقد كانت هذه الأعمال العدائية المزعومة قائمة على معلومات كاذبة لم تعن الحكومة الألمانية في عجلتها بالتثبت منها .

انجلترا وبلجيكا

كان وزير الخارجية البريطانية لايزال ممتنعاً عن أن يتعهد بشيء لفرنسا على الرغم من مناشدة بول كامبون لغراي في ٣٠ يوليـه وتذكيره إياه بالمذكرات التي تبودلت في سنة ١٩١٢ وعلى الرغم من توسل المـسيو بوانكاريه شخصياً الى الملك جورج برسالة حملها اليه رسول خاص بعد ظهر يوم ٣١ يوليـه . فقد قال غراي فيما بعث به الى السفير البريطاني في باريس :

لقد مضيت أقول للمسيو كامبون إننا لا يسعنا أن نربط البرلمان سلفاً وأن كنا سنعرض سياستنا عليه . والى اللحظة الراهنة لم نشعر ولم يشعر الرأي العام بأن أية معاهدات أو ارتباطات لهذه البلاد داخلة

في الموضوع وقد تغير تطورات أخرى هذه الحالة وتحمل الحكومة والبرلمان على أن يريا أن ثمت ما يبرر التدخل . وقد تكون المحافظة على حياد بلجيكا عاملا مهما ولا أقول حاسما في تقرير موقفنا
وقد أعرب المسيو كامبون عن خيبة أمله بردى خيبة عظيمة وكرر السؤال عما اذا كنا سنساعد فرنسا إذا اعتدت عليها ألمانيا . فقلت إني لا يسعني إلا أن ألتزم جوابي وهو أن مدى الحوادث في الوقت الحاضر لا يجعلنا نرتبط بشيء . وآخر الأنباء هو أن روسيا أمرت بالتعبئة التامة لأسطولها وجيشها . وهذا فيما يبدو لي سيعجل بأزمة ويظهر أن التعبئة الألمانية سيتها روسيا .

لقد كان السير ادوارد غراي يعلم أن الوزارة كانت لا تزال منقسمة على مسألة اشتراك بريطانيا في حرب أوربية ولذا كان معنياً بأن يحاذر كل المحاذرة في تجنب ما من شأنه أن يورطه مع فرنسا الى أن تميل الوزارة والبرلمان الى جانب فرنسا بصورة حاسمة وبجاذت جديد كبلاغ نهائي ترسله ألمانيا الى فرنسا أو أن ترفض ألمانيا احترام حياد البلجيك . وهذا الاحتمال الأخير قد بدا له من طلب بيتمان وقوف بريطانيا على الحياد فكان « كنور كشاف » دل على مظهر جديد في الحالة .

ففى يوم الجمعة ٣١ يوليه وهو اليوم السالى لتلقيه « طلب » بيتمان قرر غراي أن يحلو المسألة البلجيكية بمطالبة الحكومتين الفرنسية والألمانية بأن تؤكدوا احترام حياد بلجيكا ما دامت لا تنتهك دولة أخرى . كذلك أبلغ حكومة بروكسل هذ المسعى ، وزاد على ذلك قوله : « انى أقرض أن بلجيكا ستحافظ على حيادها بقدر استطاعتها وأنها ترغب وتنتظر من الدول الأخرى أن تراعيه وتصونه . »

فأما فرنسا فأعطت في الحال تأكيذاً بالإيجاب ، وأما ياجو فأبلغ السفير الانجليزي في برلين أنه لا يسعه الرد قبل أن يشاور بيتمان والأمبراطور . « وكان أميل الى الشك في امكانهم الرد على الاطلاق لأن أى رد يعطونه

يمكن في حالة الحرب أن يكون له أثر لا يرغب فيه وهو اذاعة جزء من خطتهم الحربية الى حد ما . .

على أن السير ادوارد غراي كان في يوم الجمعة نفسه وقبل أن يسمع رد ألمانيا فيما يتعلق ببلجيكا — ذلك الرد المريب ، قد صمم في نفسه واتفق مع نيكولسن وكرو على أن واجب الشرف نحو فرنسا ومصالح انجلترا المادية تحتم عليها التدخل لمصلحة فرنسا والروسيا . فكان في الصباح قد أخبر السفير الألماني أنه اذا أمكن ألمانيا أن تقدم اقتراحا معقولا يظهر أن ألمانيا والنمسا تسعيان للحفاظ على السلام الاوربي فإنه يؤيده ويذهب الى حد القول بأنه اذا لم تقبله فرنسا والروسيا لن يكون له شأن بالعواقب . . لكنه مع ذلك ، أندر ليشنوفسكي « بأنه اذا دخلت فرنسا في النزاع فسينجر اليه ، وقد أخبر كامبون بهذا البيان بصفة سرية لكنه غنى بأن يوضح له أن هذا التصريح « ليس في مرتبة الارتباط مع فرنسا بتيء ، وأنه لا يستطيع أن يربط البرلمان مقدماً . ولـكامبون أن يبلغ باريس فقط أن غراي « الذي هو من أنصار التدخل عاجلاً ، سيبحث الموضوع مع الوزارة في صباح اليوم التالي .

وفي أول أغسطس جدد كامبون رجاءه ومناشدته لغراي وكان يعلم بيلاعات ألمانيا النهائية وبعزم فرنسا على إصدار الأمر بالتعبئة فأبان بقوة أن واجب بريطانيا يقضى بمساعدة فرنسا بسبب انسحاب الاسطول الفرنسي الى البحر الأبيض المتوسط تاركاً الشاطئ بلا دفاع إلا ما يمكن أن تقدمه بريطانيا من المساعدة لمصلحة بريطانيا أيضاً . قال كامبون « فاذا كان الانجليز لا يساعدون فرنسا ضاع الوفاق » ، وسواء كان النصر لألمانيا أو لفرنسا والروسيا فسوف يكون مركز الانجليز في النهاية متعباً جداً . « يد أن غراي أجاب بأنه ليس ثمة ارتباط ، وأنه اذا أرغمت فرنسا على الدخول في حرب ضد ارادتها فيكون ذلك لتحالفها مع روسيا . وانجلترا قصدت أن تتبعد عن المحالفات حتى لا تنورط بهذه الطريقة . « وليس معنى هذا أننا لن نساعد فرنسا كائنة

ما كانت الظروف ولكن معناه أن فرنسا تتخذ القرار الذى تراه دون أن تعتمد على مساعدة ليس فى استطاعتنا الآن الوعد بها . فأجاب كامبون قانطاً : لا يستطيع أن ينقل هذا الرد الى حكومته وطلب أن يخول الاجابة بأن الوزارة البريطانية لم تتخذ قراراً بعد . فقال غراى عندئذ ليخفف من يأس كامبون إن ظهور أسطول ألماني فى بحر المانش واعتدائه على الشواطىء الفرنسية أو خرق حياد بلجيكا يمكن أن يغير الرأى العام فى انجلترا وإنه سيعرض هذه المسائل على الوزارة فى صباح اليوم التالى . وفى تلك الاثناء لكامبون أن يبلغ حكومته أنه لم يتخذ قرار .

وكان ٢ أغسطس «أحد التصميم» لاجلته؛ فقد لبثت الوزارة منعقدة طيلة النهار تقريباً فكانت فى الصباح لاتزال من عدم الوثوق بالرأى العام البريطانى ومن الانقسام على نفسها بحيث لا يسعها اتخاذ قرار . وقد ظلت الى وقت الغداء والخطر من استقالة أقلية كبيرة من الوزارة مما يفضى الى إضعاف مركز الحكومة فى هذه الآونة العصيبة إضعافاً شديداً ، يحمل الأغلبية على التردد برغم ما اتصل بالوزارة من أن الجنود الألمانية قد دخلت لو كسمبورج وقد قال غراى لكامبون بعد الظهر أن حياد بلجيكا أهم بكثير من حياد لو كسمبورج ولذا لم يكن خرق حياد الأخيرة فى ذاته سبباً لتغيير حاسم فى موقف الوزارة ؛ فالواقعة الحاسمة هى أن كتاباً وصل عند الظهر من المستر بونارلو زعيم حزب المحافظين يضمن للوزارة تأييد أنصاره فى البرلمان وكان الكتاب كما بلى .

«عزيزى المستر أسكويث — أشعر ومعى اللورد لانسدون أن من واجبنا ابلاغكم أنه من رأينا ورأى جميع الزملاء الذين أمكننا مشاورتهم أنه ليكون من أضر الأشياء بشرفنا وأمن المملكة المتحدة أن تردد فى تأييد فرنسا والروسيا فى الظرف الراهن . ونحن نقدم بلا تردد تأييدنا للحكومة فى كل ما يمكن أن تراه ضرورياً من الاجراءات لهذا الغرض»

محريراً فى ٢ أغسطس ١٩١٤

فعلى أثر تلقى هذا الوعد بالتأييد صمم غراى وصممت معه الوزارة على إعطاء كامبون التأكيد الذى طلبه فى اليوم السابق خاصا بشاطئ فرنسا الشمالى . وهكذا أبلغ غراى السفير الفرنسى فى الساعة الثالثة بعد الظهر انه اذا قدم الأسطول الألمانى الى بحر المانش أو اخترق بحر الشمال ليقوم بعمليات عدائية ضد شواطئ فرنسا أو سفنها فان الأسطول البريطانى سيقدم كل ما يسعه من الحماية . « وقد أضاف غراى الى هذا التأكيد قوله إنه لا بد من تصديق البرلمان عليه وانه ليس معناه أن ترسل انجلترا جنودا الى فرنسا . وقد كان هذا مجرد وعد بمحاربة ألمانيا يتوقف على قيام الأسطول الألمانى بعمل يفترض وقوعه . لكنه مع ذلك كان يلوح بمثابة الحرب ولذا أفضى الى استقالة اللورد مورلى والمستر جون بيرز من الوزارة . ولقد روح أيضاً عن الفرنسيين كثيراً وان لم يكن كل ما أملوه . وكان إعطاء هذا التأكيد قبل أن تقدم ألمانيا بلاغها النهائى الى بلجيكا - وهو البلاغ الذى لم يصل خبره الى لندن الا فى صباح ٣ أغسطس .

فأنه فى الساعة السابعة من مساء ٢ أغسطس قدم وزير ألمانيا المفوض فى بروكسل الى المسيو دافنيون وزير خارجية بلجيكا طالب ألمانيا التى وضعها مولتكه فى ٢٦ يوليه وأرسلت من برلين فى ٢٩ يوليه داخل غلاف محتوم فى طى غلاف محتوم . وقد جاء فيها « أن لدى ألمانيا معلومات موثوقاً بها تتعلق بما يرتأى من زحف بعض القوى الفرنسية المسلحة على امتداد الموز ، خط جيفه - نامور . فهم لا يداخلهم شك فى عزم فرنسا على الزحف على ألمانيا من الاراض البلجيكية . « ولما كان يخشى أن لا تستطيع بلجيكا مقاومة زحف الفرنسيين دون مساعدة « فأن المحافظة على الذات تحتم على ألمانيا توقع الاعتداء » وإن ألمانيا لتأسف لانها ستضطر الى الدخول الى أرض بلجيكية دون أن تحدها أى فكرة فى القيام بأعمال عدائية ضد بلجيكا . فاذا اتخذت المملكة « نحو ألمانيا موقف الحياد المشرب بالعطف ، فأن الحكومة الألمانية

تعد بأن تضمن عند عقد الصلح حقوق سيادة بلجيكا واستقلالها وأن تجلو عن أراضيها وتشتري بالنقد كل الحاجيات التي تتطلبها جيوشها وأن تصلح ما يمكن أن يحدثه جنودها من الضرر . لكنه اذا عارضت بلجيكا الجنود الألمان أو أتلفت السكك الحديدية والاتفاق « فستضطر ألمانيا مع الأسف الى اعتبار المملكة عدوة لها » . وقد طلب الرد النهائي في خلال اثنتي عشرة ساعة .

وقد أبلغ المسيو دافينيون الملك البرت هذا الانذار في الحال ودعيت الوزارة الى الانعقاد وظل مجلسها منعقداً الى ما بعد منتصف الليل . وقد أجمعت على أن شرف بلجيكا ومصالحها تتطلب رفض المطالب الألمانية ... لانه ما من « مصلحة ستراتيجيكية » ألمانية يمكن أن تبرر « خرق القانون الدولي » . وأن الحكومة البلجيكية لو قبلت المقترحات المعروضة عليها لضحت في سبيل ذلك بشرف الأمة ولخانت في الوقت نفسه واجبها نحو أوروبا . فهي لذلك « مصممة كل التصميم على أن ترد بكل قواها كل اعتداء على حقوقها » . هذا هو الجواب الجري الذي اعطته المملكة الصغيرة الى وزير ألمانيا المفوض في الساعة السابعة من صباح ٣ أغسطس .

وفي صباح يوم ٣ أغسطس أحاط المسيو دافينيون الدول في الحال ببلاغ ألمانيا ورفضه . لكنه لم يطنب الى الدول الضامنة لحياذ بلجيكا مساعدتها على الاثر . فإنه لم يكن باديء الرأي مقتنعاً . كما روى وزير انجلترا المفوض - بأن هنالك خطراً حقيقياً من ناحية ألمانيا وكان يرغب في حالة وقوع اعتداء ان يظهر ان البلجيكيين قادرين على الدفاع عن انفسهم . وعلى ذلك لم يفعل الملك البرت في ٣ أغسطس سوى ان ناشد الملك جورج « التدخل الديبلوماسيكي » لصيانة حياذ البلجيكي .

وقد اتصل بالسيرادوارد غراي نبأ البلاغ النهائي الألمانى لبلجيكا ورفضه البات حوالى ظهر يوم الاثنين ٣ أغسطس وقبل أن يلقي في البرلمان خطبته

التي كان مقررأ أن يعلن فيها ما اعتزمته بريطانيا من أن تقاوم بالقوة كل اعتداء من جانب ألمانيا على شاطئ فرنسا الشمالي ، فمكته هذا النبأ من طرح مسألة حياد بلجيكا بصورة فعالة ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له ... بوضع خطبة رسمية . لكن ما قاله في مجلس العموم بعد ظهر يوم ٣ أغسطس بليغ في بساطته وفي خطورة موضوعه خطورة محزنة ... قال « فلو فقدت بلجيكا استقلالها لفقدت هولندا ودانماركا استقلالهما ، ولو هزمت فرنسا وأضاعت مركزها كدولة عظمى لوقفت انجلترا أمام « توسع ألمانيا الذي لا يحد وجهاً لوجه ... » ثم تناول ما يمكن أن يدلى به من أنه يسع انجلترا أن تقف بعيدة وتدخر قوتها ثم تتدخل في النهاية لحماية مصالحها فقال « اني لا أعتقد لحظة واحدة أننا في نهاية الحرب ، حتى لو وقفنا بعيداً ، وبقينا بعيداً ، نكون في مركز ، مركز مادي ، يمكننا من استخدام قوتنا بشكل حاسم في نقض ما يكون قد حدث في خلال الحرب وفي منع غرب أوروبا بأكملة وهو يقابلنا ... من الوقوع تحت حكم دولة واحدة ، وإني واثق كل الثقة بأن مركزنا الأدبي سيكون حيثئذ قد أفقدنا كل احترام . »

وقد قوبلت خطبته بهتاف لم يدع مجالاً للشك في أن البرلمان سيؤيده . وأسر غراي بعد القاء خطبته واجتماع الوزارة في المساء - نقول أسر الى كامبون أن الوزارة قررت في صباح اليوم التالي أن ترسل التعليمات الى السفير البريطاني في برلين بمطالبة ألمانيا بسحب انذارها النهائي الموجه الى بلجيكا قال غراي « فأذا رفضوا فالحرب » .

وقوى مركز الوزارة في اليوم التالي الموافق ٤ أغسطس بما جاء من أن الألمان اعتدوا على الأرض البلجيكية فعلاً . فأرسل السير ادوارد غراي الانذار النهائي في الساعة الثانية بعد الظهر الى برلين وذكر بلاغ ألمانيا النهائي الموجه الى بلجيكا والخبر القائل بأن « الأرض البلجيكية قد اعتدى اليها عند جيمينيش ، فأعاد « ازاء هذه الظروف وبالنظر الى أن ألمانيا رفضت أن تعطى فيما يتعلق

بلجيكا نفس التأكيد الذي اعطته فرنسا في الأسبوع الماضي ردا على طلبنا ،
ما طلبه واقتضى أن يتلقى عليه في لندن والى منتصف الليل ردا مرضيا وإلا
طلب السير ادوارد جوشن جوازات سفره وعهد الى السفير الأمريكي
بالسفارة البريطانية .

وذهب السير ادوارد جوشن بالبلاغ النهائي الى وزارة الخارجية الألمانية
في الساعة مساء فأخبره ياجو بأنه ليس بالاستطاعة اعطاء تأكيد كالتأكيد
المطلوب وأنه سبق أن أوضح له في نفس اليوم أن ألمانيا اضطرت لضرورة
خطية أن تخترق بلجيكا لتبلغ فرنسا من أسرع طريق وأسهله . وأن المسألة
لألمانيا مسألة حياة أو موت . عندئذ قال جوشن إنه يجب أن يذهب لمقابلة
المستشار فقد تكون هذه آخر فرصة له . واليك ما يقول جوشن .

لقد وجدت المستشار متهيجا جداً — فما أن رأي سعادته حتى
وجه الى خطابا استغرق ٢٠ دقيقة . قال : إن هذه الخطوة التي خطتها
حكومة جلالة الملك مخيفة الى درجة ما . أمن أجل كلمة « حياد » طالما
أهملت في زمن الحرب ، أمن أجل قصاصة ورق تريد بريطانيا العظمى أن
تعلن الحرب على أمة قريبة لم ترغب في شيء مرغبتها في أن تكون صديقة لها .
إن مساعيه في هذا الباب قد ذهبت كلها سدى بفضل هذا العمل المرعب
الآخر . والسياسة التي كرس نفسه لها منذ تولى منصبه قد انهارت كما
ينهار البيت من الورق ... قلت إنه بنفس الطريقة التي يريد هو
والهرفون ياجو أن يفهماني بها أن مسألة الزحف في أراضي بلجيكا
وخرق حيادها هي لأسباب استراتيجية مسألة حياة أو موت ، أحب أنا
أيضاً أن يفهم أنها مسألة « حياة أو موت » بالنسبة لشرف بريطانيا
العظمى أن توفى بعهدا الخطير الذي قطعه بأن تفرغ قصاراهما في الدفاع
عن حياد بلجيكا إذا اعتدى عليه . فهذا الميثاق الخطير يجب ان يلتزم وإلا
فأية ثقة يمكن أن تكون بأي تعهد تقطعه بريطانيا العظمى في
المستقبل ؟ فقال المستشار « ولكن بأي تمن سيحفظ هذا الميثاق .
أفكرت الحكومة البريطانية في ذلك ؟ » فلمحت لسعادته بأصرح ما

استطعت الى أن الخوف من العواقب يكاد ان لا يكون مبرراً للنكث بالعهود . لكن سعادته كان متيجاً يستحوذ عليه نبأ ما اقدمنا عليه استحوذاً ظاهراً ، كان قليل الميل الى الاصغاء الى صوت العقل بحيث أمسكت عن ان ازيد النار لهيباً بالمضى في محاورته . فلما هممت بالانصراف قال لي ان الضربة التي وجهتها بريطانيا العظمى بأنضمامها الى اعداء المانيا يزيد وقعها سوءاً انه وحكومته لبثا الى آخر لحظة تقريباً يعملان معنا ويؤيدان جهودنا في سبيل المحافظة على السلام بين النمسا والروسيا . فسلمت بأن هذا هو الواقع وقلت ان هذا جزء من المأساة التي شهدت الامتين تنقسمان في نفس اللحظة التي باتت فيها علاقتهما اكثر وداداً واخلاصاً مما كانت عليه عدة سنين .

فلما انتصف الليل ولم تقدم المانيا الى جوشن جواباً مرضياً اصبحت المانيا وانجلترة في حرب . وهكذا أشعلت شرارة سيرا جيفو النار فاندلعت الستها تحرق اوربا ، وزجت صربيا والدول العظمى في عراق هو الحياة أو الموت ،

الفصل الثاني عشر

الختم

ليس في الدول واحدة أرادت حرباً أوربية . فسادتها الحاكون ووزراؤها ما خلا بضعة قليلة جداً تنبأوا جميعهم بأنها لتكونن حرباً مرعبة لا تعرف نتائجها السياسية على التحقيق وإن كانت الخسارة في الأرواح ، والآلام ، والعواقب الاقتصادية سوف تكون مفرعة . وهذا حق عن باشتش وبرشتولد وبيتمان وسازونوف وبوانكاريه وسان جوليانو والسير ادوارد غراي وإن تفاوتت درجة الحقيقة فيه بالنسبة لهم . لكن أحداً منهم حتى السير ادوارد غراي ما كان يستطيع بأن يتنبأ أن النتائج السياسية ستكون بهذه الجسامة وأن العواقب الأخرى ستكون بهذا الشكل المرعب .

لا ريب أن الكثير من الدول كان يرى في الحرب الأوربية احتمال تحقيق بعض المنافع المختلفة التي كان يرغب في تحقيقها . فلصربيا تحقيق الوحدة القومية لكافة الصرب ، وللنمسا انعاش مكاتنها المتداعية كدولة عظمى وكبح النزعات القومية التي كانت تهدد كيانه ذاته ، وللروسيا تأدية رسالتها التاريخية في السيطرة على الآستانة والمضائق ، ولألمانيا منافع اقتصادية جديدة ورد التوازن الدولي الى ما كان عليه بعد إذ اضطرب بضعف المحالفة الثلاثية وتوثق الوفاق الثلاثي ، ولفرنسا استرداد الألزاس واللورين والخلاص من الخطر الألماني ، ولانجلترا القضاء على الخطر البحري الألماني والعسكرية البروسية . كل هذه المنافع وكثير غيرها! كان يسعى اليه في حرارة المحموم وتدس الدسائس من أجله من كل جانب في اللحظة التي نشبت فيها الحرب بالفعل لكن هذا لا ينهض دليلاً مقنعاً على أن أحداً من الساسة الذين أسلفنا

ذكرهم قد رمى عمداً إلى أحداث الحرب لتحقيق هذه المنافع . ولا يمكن الحكم على البواعث التي حدثت رجالاً قبل الحرب بما فعله هؤلاء الرجال في حالة جديدة بالمرّة نشأت بمجرد ما دهمتهم حرب سعى في درئها . وفي الواقع انه فيما يتعلق بالدولتين اللتين نشأ بينهما النزاع العاجل كان تأجيل الحرب الأوربية أو تجنبها خليقاً أن يسهل تحقيق المنافع النهائية التي رمتا اليها . فقد كان باشتش يعلم أن هنالك فرصاً أكثر لتحقيق الوحدة الصربية القومية عندما يثبت لصربيا ما جتته من حروب البلقان وتم تسليحات روسيا الحربية والبحرية في سنة ١٩١٧ ، وبرشتولد أيضاً كان يعلم أن لديه فرصاً أكثر للقضاء على خطر صربيا الكبرى وتقوية النمسا لو استطاع أن يدفع تدخل روسيا ويديره الحرب الأوربية العامة .

كذلك حق أن اللحظة التي أعلنت فيها الحرب قوبلت بمظاهر مختلفة من الحماسة من جانب الشعوب في كل الدول فكانت هذه الحماسة قوية في صربيا والنمسا والروسيا وألمانيا وكانت أخف في فرنسا ؛ أما في إنجلترا فكانت ألا تكون هناك مظاهر حماسية . لكن هذا لا يعني أن الشعوب أرادت الحرب أو كان لها تأثير حاسم في إحداثها . وانها لظاهرة نفسية غريبة أن تتنشأ أو تخلق بين الجماهير سورة من الانفعال الوطني لم تكن من دلائل أمانها قبل الحرب وذلك بمجرد ما تشتبك دولة فيها . وفي البلاد التي كانت فيها مظاهر الحماسة على أشدها كان نفوذ الشعب على الحكومة أقل .

ومهما يكن من أمر فقد نشبت حرب أوربية . فلماذا ؟ لأن الزعماء السياسيين والعسكريين في كل بلد فعلوا أشياء بعينها أفضت إلى تعبثات وإعلانات حرب ، أو قصرُوا في أداء أشياء بعينها كان يمكن أن تحول دون هذه التعبثات وإعلانات الحرب . بهذا المعنى كانت كل البلدان الأوربية مسئولة عظمت هذه المسئولية أو ضوئت . وبذا وجب أن نعدل عن الحكم الذي أصدرته معاهدة فرساي بأن ألمانيا وحلفاءها هم وحدهم المسئولون عن الحرب

فقد كان حكماً انتزعه الغالب من المغلوب تحت تأثير العمى والجهل والبغضاء ودعاية الحرب القائمة على سوء الفهم وقلة الإدراك . كان هذا الحكم قائماً على أدلة ناقصة لم تكن شافية دواماً . وقد أدرك صفوة المؤرخين في كافة البلدان على وجه عام أن هذا الحكم ليس بما يقف على قدميه بعد الآن أو يمكن الدفاع عنه ، واتفقوا على أن تبعة الحرب موزعة . لكنهم لا يزالون على اختلاف كثير فيما يتعلق بنصيب كل بلد من هذه المسؤولية ونسبة ما يقع منها على كل فرد من الزعماء السياسيين والقادة العسكريين .

وإن بعض الكتاب ليحبون أن يحددوا المسؤولية عن الحرب بالضبط تحديداً إيجابياً فيلجأون إلى عملية حساية دقيقة . وهذا ما فعله على أحد الوجوه واضعو المادة ٢٣١ من معاهدة فرساي . وغيرهم فعل ذلك على أوجه أخرى فوزعوا المسؤولية توزيعاً نسبياً فاختصوا على سبيل المثال النمسا بالنصيب الأكبر ثم تليها روسيا وفرنسا وألمانيا فإنجلترا . بيد أن كاتب هذه السطور يعيد مثل مجهوداته أن يكون الغرض منها تقييد هذه المسألة المعقدة جداً بصيغة دقيقة ؛ إذ كانت بعد كل شيء أدنى إلى أن تكون مسألة تظليل دقيق منها إلى شيء يتبين فيه الأسود من الأبيض بشكل حاسم . والمبالغة في تبسيط الأشياء أمر يناهى الدقة كما قال نابليون مرة عند وضعه قانونه . هذا إلى أنه إذا فرضنا أن في الامكان الوصول إلى رأي متفق عليه على وجه عام فيما يتعلق بالمسؤولية النسبية لأي بلد أو رجل عن الأسباب المباشرة لازمة يولييه ١٩١٤ فليس من المحتم بحال من الأحوال أن نفس هذه المسؤولية النسبية تكون صحيحة بالنسبة للأسباب غير المباشرة التي ظلت سنين تعمل على إحداث حالة خطيرة .

مع ذلك يصح أن نلخص في إيجاز كثير أهم الوقائع البارزة فيما يتعلق بكل دولة . كانت صربيا تحس دافعاً طبيعياً جائزاً إلى أن تفعل ما فعلته بلدان كثيرة في القرن التاسع عشر وهو أن تلم شمل الشعب الصربي

المتدسر تحت إشراف حكومة قومية . وقد حررت أولئك الذين كانوا تحت حكم الاتراك فكانت الخطوة التالية أن تحرر من هم تحت حكم هابسبورغ . وقد كانت تتطلع إلى روسيا لمساعدتها وكانت تشجع على انتظار هذه المساعدة . فلما وقع حادث الاغتيال لم يتخذ المسيو باشتش اجراء ما للاستدلال في بلغراد على الصريين المشتركين في المؤامرة وتقديمهم إلى المحاكمة . بل لقد أعين أحدهم وهو سيجانوفتش على الاختفاء . وقد انتظر المسيو باشتش ليرى ما يمكن أن تأتى به السلطات النمساوية من أدلة ، فلما طلبت النمسا أن يقوم بعض الموظفين النمساويين بمعاونة السلطات الصربية على اكتشاف الصريين الضالعين في المؤامرة لا محال كتمهم ردت عليها الحكومة الصربية بالرفض وإن كان بلهجة مسالمة جداً . وكانت هذه الحكومة تتوقع أن لا يقبل ردها فأمرت ، حتى قبل أن تعطى ردها ، بتعبئة الجيش الصربى . لم تكن صربياً تريد الحرب لكنها كانت تعتقد أنها سترغم عليها . ومن الحقائق الواقعة التي كانت النمسا تجهلها في يولييه ١٩١٤ أن المسيو باشتش كان يعلم بالمؤامرة قبل تنفيذها بثلاثة أسابيع وأنه لم يتخذ إجراءات فعالة لمنع القتلة من اجتياز الحدود الصربية إلى البوسنة ، ولم يحذر النمسا أو يبلغها شيئاً ما كان يمكن أن يحول دون وقوع الجريمة المشؤومة . وهذه الحقائق مما لا يبرر بحال من الأحوال مسلك النمسا لكنها تكون جانباً من مسئولية صربيا ؛ وجانباً خطيراً جداً .

والنمسا أكثر من أية دولة أخرى مسئولية عن السبب المباشر للحرب . ومع ذلك فقد فعلت ما فعلت دفاعاً كما تقول عن النفس ، لا من اعتداء عسكري مباشر وإنما من حملة تهيج لمصلحة صربيا الكبرى ويوجوسلافيا كانت تنخر جسمها ويعتقد قادتها انها تهدد كيانها . ولا يمكن أن ينتظر من دولة أن تقف مكتوفة اليدين تترقب تقسيمها على أيدي جيرانها . وقد كان يعتقد أن روسيا تدس للملكة الثنائية مع صربيا ورومانيا ؛ واغتيال وريث

العرش بمؤامرة دبرت في بلغراد كان يتطلب عقاباً صارماً والا عدت النمسا عاجزة فتقل هيبتها وهي التي ينخر في جسمها السوس على قول الصحف الروسية ويعجل بسقوطها. ولكي يحول برشتولد دون هذا صمم على سحق صربيا في حرب، فتعمد أن يصوغ البلاغ النهائي صيغة أمل معها وتوقع رفض هذا البلاغ، وعجل باعلان الحرب على صربيا ليقطع الطريق على كل مسعى للتوسط. بل لقد أبى حتى أن يرد على توصلات حليفته بوجوب التفاهم مع روسيا على قاعدة احتلال بلغراد عسكرياً والاحتفاظ بها رهينة على انجاز صربيا ما وعدت في ردها على البلاغ النهائي. وكان برشتولد يقامر معتمداً على حصر الحرب مع صربيا وحدها معتقداً أنه يستطيع أن يهدد بسيف ألمانيا، وكان في استمساكه بمحاربة صربيا لا يحفل أن يجر بقية أوروبا إلى الحرب. من المشكوك فيه جداً أن إصرار برشتولد وتصميمه على انتقاص صربيا والقضاء عليها باعتبارها ذات شأن في البلقان — نقول من المشكوك فيه جداً أن هذا كان الطريق الأمثل حتى لو كان وفق إلى جعل الحرب محلية ونجح في تقوية المملكة الثنائية مؤقتاً. فانه لو فرضنا أن روسيا أطلقت في سنة ١٩١٤ تنفيذ مشاريع برشتولد لعدم استعدادها من الوجهة العسكرية أو لحاجتها إلى التأييد فمن المؤكد كل التأكيد أنها كانت تسعى في خلال السنتين أو الثلاث التالية إلى غسل هذه المذلة الثانية التي كانت خليقة أن تنال من هيبتها أكثر مما نالت مذلة سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩. وفي سنتين أو ثلاث لم يكن ليعيها عند ما يكمل نهائياً برنامجها الكبير الخاص بالاصلاح العسكرى أن تجد بالتأكد حجة تتذرع بها لتحويل التوازن في البلقان لمصلحتها ثانية. ونتيجة أخرى لسياسة برشتولد فيما لو كانت نجحت هي أن يزداد الوفاق الثلاثي تماسكاً مع احتمال انضمام إيطاليا اليه. وأخيراً فان صربيا التي تكون قد اقتطع منها بعض أراضيها تصبح اعظم مما كانت مصدراً للقلق والخطر على سلام أوروبا، وتسمى القومية الصربية كالقومية البولونية أشد وأقوى مما

كانت بما يكون قد نالها من التقسيم . اما قوة النمسا وهيبتها فلم يكن لينتظر ان تزيدا زيادة تمكنها من مواجهة هذين الخطرين . نقطة برشتولد كانت على ذلك مجرد تحسين مؤقت لا تسوية نهائية لخصومة النمسا وصرىيا . وقد كان فرانتس فرديناند وكثيرون غيره يدركون هذا فلم يتخذ في حياته إجراء مافى هذه السبيل المشثومة . والمحزن فى مصير النمسا أن الرجل الوحيد الذى كان يمكن أن تكون لديه السلطة والقدرة على تنشئة النمسا على أساس سليم هو الذى ذهب ضحية بريئة للجريمة التى سببت الحرب العظمى وأفضت بذلك إلى تمزيق النمسا تمزيقا نهائياً .

ولم تدبر ألمانيا الحرب الأوربية ولم تردها بل هى قد بذلت جهوداً أكيدة وإن كانت متأخرة لدفعها . وقد ذهبت ضحية تحالفها مع النمسا وجهالتها . وكانت النمسا حليفها الوحيدة التى تعتمد عليها بعد أن أصبحت إيطاليا ورومانيا حليفتين بالاسم فقط فلم يكن يسعها أن تتركها وشأنها لأنها إذ ذاك تصبح فى عزلة بين الروسيا حيث الجامعة السلافية والتسلح يقويان على الدوام عاما فعاما ، وفرنسا حيث الالزاس واللورين وسقوط دلوكاسيه وأغادير لم يبرح كله من الأذهان . ومن ثم أحس يتيهان أنه ملزم بأن يجيب برشتولد إلى ما سألته من تأييد فأطلق له حرية العمل فى مناقشة صرىيا الحساب . وكان يأمل ويتوقع أيضاً أن يبقى النزاع محصوراً بين النمسا وصرىيا . ثم جعلت ألمانيا دول الوفاق تستريب فى خلوص نياتها السلمية بما نفته من سابق العلم بالبلاغ النهائى وتأييدها له وتبريرها إياه بعد أن نشر ، وبرفضها اقتراح السير ادوارد غراى المتعلق بالمؤتمر . ومع ذلك فإن ألمانيا لم يكن لها على النمسا هذا النفوذ الذى تصورته دول الوفاق وزعمه كثير من الكتاب . صحيح ان برشتولد كان يصعب أن يقدم على سياسة المقامرة التى أقدم عليها لو لم يكن متأكداً من أن ألمانيا ستقوم بالواجبات التى تفرضها عليها المحالفة ، وإلى هذا المدى يجب أن تشاطر ألمانيا النمسا مسئوليتها العظيمة .

يبد أنه لما تحقق يتيمان أن من المنتظر أن تتدخل روسيا ، وأن انجلترا قد لا تلتزم الحياد ، وأن تمت خطراً من نشوب حرب أوربية تظهر فيها ألمانيا والنمسا بمظهر المحرضتين عليها اجتهد في وقف النمسا ولكن بعد فوات الأوان ، فكان يلح على فينا باقتراحات التوسط فلا يعبأ برشتولد بهذا الألاح ولا يلين للضغط ؛ فضلاً عن أن دول الوفاق لم تكن تؤمن بأن ألمانيا مخلصه في هذا الضغط خاصة وهو لم يثمر ولم يسفر عن نتيجة .

وقد كان من شأن مركز ألمانيا الجغرافي ووقوعها بين فرنسا وروسيا وكون جيشها دون جيوشهما عدداً أن جعل خطة سحق الجيش الفرنسي أولاً وبسرعة ثم التحول بعد ذلك ضد روسيا أمراً ضرورياً . وقد كان هذا في رأى واضعى خططها العسكرية ممكناً فقط باختراق بلجيكا كما كان العسكريون يتوقعون على وجه عام أن تفعله ألمانيا في حالة نشوب حرب أوربية وفي الواقع أن يتيمان كان آخر من قطع الرجاء في السلم من الساسة وآخر من وافق على تعبئة الجيش في بلاده . وقد جرت التعبئة العامة لجيوش القارة على الترتيب الآتى : صربيا ، فالروسيا ، فالنمسا ، ففرنسا ، فالألمانيا . والتعبئة العامة متى قامت بها دولة عظمى كان معناها أن البلاد على وشك أن تحارب وأن الأداة العسكرية أخذت تتحرك ، ومتى تحركت فلن تقف . هذا ما كان يراه الرجال العسكريون في كل بلد على وجه عام وإن كان السير ادوارد غراي والقيصر وبعض الموظفين المدنيين ربما لم يكونوا على هذا الرأى . ومن هنا أرسلت ألمانيا بلاغها النهائيين الى سان بطرسبورغ وباريس . . . لما علنت بالتعبئة الروسية العامة ، فلما لم تلق جواباً مرضياً عبات وأعلنت الحرب . وقد كانت تلك التعبئة الروسية المنساعة التي ووفق عليها في ٢٩ يولييه وأمر بها في ٣٠ يولييه بينما ألمانيا لاتزال تجتهد في حمل النمسا على قبول اقتراحات التوسط هي التي جعلت الحرب الأوربية أمراً لا مناص منه

وتهض روسيا بجانب من المسئولية عن النزاع النمساوى الصربى لتشجيعها

المتواصل بلغراد وتمنيها إياها بأن الوحدة القومية الصربية ستحقق في النهاية بمساعدة روسيا وعلى حساب النمسا . وهذا ما حدا بالوزارة الصربية الى الأمل في معونة روسيا في حالة وقوع حرب مع النمسا . ولم يكن هذا الأمل في غير موضعه كما ثبت في يولييه ١٩١٤ . وقبل هذا التاريخ كانت روسيا أثناء أزمة البوسنه وخلال حروب البلقان تكبح حركة صربيا لأنها — أى روسيا — لم تكن ، وهى المنهوكه القوى من تأثير الحرب الروسية اليابانية ، قد استعدت بعد لصراع أوروبى مع الدولتين التوتونيتين . لكنها فى سنة ١٩١٤ كانت قد تقدمت فى تسليحها — مع أنه لم يكن قد تم بعد — الى درجة أن رجالها العسكريين كانوا واثقين بالنجاح اذا ساعدتهم فرنسا وبريطانيا . وقد نشر سوخوملينوف وزير الحرية فى ربيع سنة ١٩١٤ مقالا فى إحدى الصحف الروسية لم يوقعه باسمه جاء فيه « أن روسيا مستعدة فيجب أن تكون فرنسا مستعدة كذلك ، ، وكانت النمسا مقتنعة بأن روسيا ستساعد صربيا فى النهاية إذا لم يعالج الخطر الصربى بهمة عقب مقتل الغراندوق . كانت تعلم أن روسيا تزداد قوة سنة عن سنة لكنها كانت تشك فى أن تكون تسليحات القيصر قد بلغت النقطة التى تجرأ عندها روسيا على التدخل . ولذا فقد كانت ترى أنها اذا تذرعت بمقتل الغراندوق لأضعاف صربيا تصبح أقل تعرضاً لخطر تدخل روسيا والحرب الأوربية بما لو أجلت العمل الى المستقبل .

والروسيا مسئولة أيضاً بما كانت تتخذ من الاجراءات العسكرية التهديدية سرأ فى الوقت الذى كانت تقوم فيه بمفاوضات دبلوماسية فأن هذه الاستعدادات أزعجت ألمانيا والنمسا وان كانت التعبئة الروسية العامة التى جرت بينا ألمانيا تحاول حمل النمسا على الوصول الى تسوية هى أول ما عجل بالكارثة الختامية إذ حملت ألمانيا على التعبئة وإعلان الحرب .

أما الدور الذى قامت به فرنسا فأقل جلاء من أدوار بقية الدول العظمى نظرا لأنها لم تنشر وثائقها كلها بعد . ومن المؤكد أن المسير بوانكاريه أورد

في الجزء الرابع من مذكراته للتدليل على « برامة فرنسا » حجة متقنة تنطوي على المهارة لكنها ليست مقنعة . فأن من الجلي كل الجلاء أنه أثناء زيارته للروسيا أكد لحكومة القيصر أن فرنسا ستعصدها كحليفة في منع النمسا من إذلال صربيا أو سحقها . وقد جدد باليلوج هذه التأكيدات في صورة تشجيع روسيا على الثبات فلم يحاول صد روسيا عن اتخاذ الاجراءات العسكرية التي كان يعلم أنها ستدفع ألمانيا الى مقابلتها بالمثل وتحدث الحرب . ولم يبلغ حكومته في الحال ما كان يتخذ في سان بطرسبورغ من الاجراءات العسكرية ولم يحطها بها احاطة تامة . وقد بذل الرئيس بوانكاريه عقب عودته الى فرنسا جهودا في سبيل السلام لكن أهم ما كان يشغله هو التخفيض من شأن الاستعدادات الفرنسية والروسية وتوكيد استعدادات ألمانيا ليستوثق من تأييد بريطانيا في عراك كان يعتبر إذ ذاك ألا مفر منه .

وكان السير ادوارد غراي مخلصاً فيما قدمه من اقتراحات كثيرة للحفاظ على السلام . وقد فشلت كلها وكان بعض فشلها لا كله يرجع الى موقف ألمانيا . وقد كان في وسع السير ادوارد في الراجح أن يدرء الحرب لو أنه فعل شيئاً من اثنين : لو أنه والازمة في بدايتها رضح لالحاح فرنسا والروسيا فأندر ألمانيا إنذاراً شديداً بأنه اذا وقعت حرب أوربية فستنحاز انجلترا الى جانب المحالفة الفرنسية الروسية ، لكان من الراجح أن يؤدي هذا بئمان الى التبرير بالضغط على النمسا ضغطاً أكثر تأثيراً . ولكان هذا ربما حال دون إعلان النمسا الحرب على صربيا وأدى بالمحادثات المباشرة بين فينا وسان بطرسبورغ الى نتيجة موفقة . أو لو أن السير ادوارد غراي أصغى الى حض ألمانيا وأندر فرنسا والروسيا في بداية الازمة بأنهما إذا دخلا حرباً التزمت انجلترا الحياد لكان من المرجح أن تتردد روسيا في النعثة ولكان مرجحاً أيضاً أن تؤثر فرنسا في سان بطرسبورغ تأثيراً يصدها عما كانت ماضية فيه . لكن السير ادوارد غراي لم يكن يستطيع أن يقول إن انجلترا ستتحاز الى صف فرنسا

والروسيا لأن وزارته كانت منقسمة تقريباً الى فريقين متساويين ولم يكن واثقاً في بداية الأزمة من أن الرأي العام في إنجلترا يؤازره في حرب ضد ألمانيا . . . لذلك أبى برغم توسلات الفرنسيين أن يعطيهم تأكيدات باته حتى بدا من جانب ألمانيا تصميمها الراجح على اختراق بلجيكا فظهر له أن الوزارة والبرلمان والرأي العام البريطاني سوف يظهرونه في حرب ضد ألمانيا . ومن جهة أخرى فقد كان يكره أن يصغى الى توسلات ألمانيا بأن يضغط على باريس وسان بطرسبورغ لأنه لم يكن يرغب في أن يعرض الوفاق الانجليزي الروسي للخطر ويزلزل الوفاق الثلاثي . ذلك بأنه كان يحس أن عليه واجباً أدبياً نحو فرنسا ناشئاً من المحادثات الحرية البحرية التي دارت في السنوات الماضية بين إنجلترا وفرنسا ، ولأنه كان يشبه في أن ألمانيا توازر النمسا على مسلك ليس ما يبرره وأن العسكريين البروسيين اتزعوا من أيدي الهرفون بيتمان هولفيج والسلطات المدنية إدارة الشئون في برلين .

وايطاليا لم يكن لها تأثير يذكر في الأزمة سواء في هذه الناحية أو تلك . وبايجيكا لم تفعل شيئاً من شأنه أن يبرر ما طلبته ألمانيا منها . وقد كانت الضحية البريئة للضرورة العسكرية الألمانية . ومع أن استباحة ألمانيا للبلجيكا كانت ذات تأثير هائل في تكون رأي عام فيما يتعلق بتبعة الحرب بعد أن بدأ القتال ، فإن هذه الاستباحة لم تكن سبباً من أسباب الحرب اللهم إلا كونها قد سهلت على السير ادوارد غراي إدخال إنجلترا فيها .

في خلال الأربعين السنة التي تلت الحرب الفرنسية البروسية تطور ، كما رأينا ، نظام للمحالفات شطر اوربا فريقين متعادين اشتدت عداوتهما بازدياد التسليح والتنافس الاقتصادي وتفاقت بالمطامع والخصومات القومية وتحريض الصحف . لكنه من المشكوك فيه جداً ان تكون كل هذه النزعات الخطرة مؤدية الى الحرب لو ان فرانتس فرديناند لم يقتل فأن اغتياله

كان العامل الذى شد بين عوامل العداوة واطلق سلسلة الحوادث السريعة المعقدة التى ختمت بالحرب العالمية . والمسئولة عن هذا العامل أولا هى الحركة الوطنية المصرية .

يبد أن حكم معاهدة فرساي بأن ألمانيا وحلفاءها هم المسئولون عن الحرب حكم فاسد من الوجهة التاريخية ولما هو ميسور الآن من الأدلة . ومن ثم وجب تعديله . على أنه من المشكوك فيه أن يكون عمليا تعديل هذا الحكم الآن تعديلا رسميا قانونيا وذلك بالنظر الى الشعور الشعبى الشائع فى بعض بلدان «الوفاق» . فيجب أولا ان يقوم المؤرخون بهذا التعديل ليتعدل به الرأى العام .

اتتهى

1607

1614

